

ذوات
THE.WHAT?

عدد خاص

اللاجئون العرب

أية قيم لإنسانية العصر الجديد؟!

مجلة ثقافية إلكترونية
العدد ٣٠-٢٠١٦



مجلة ثقافية إلكترونية شهرية

تصدر عن مؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث»

العدد ٣٠ - ٢٠١٦

المشرف العام

د. أحمد فايز

رئيسة التحرير

سعيدة شريف

تدقيق لغوي

د. عبد السلام شرماط

تصميم وتنفيذ

رنا علاونة

المراسلات:

تقاطع زنقة واد بهت وشارع فال ولد عمير، عمارة (ب) الطابق الرابع / أكدال – الرباط

ص.ب: ١٠٥٦٩

تلفون: ٠٠٢١٢٥٣٧٧٧٩٩٥٤

فاكس: ٠٠٢١٢٥٣٧٧٧٨٨٢٧

رئيسة تحرير مجلة "ذوات" الإلكترونية:

mag@thewhatnews.net

www.mominoun.com



افتتاحية

تعرف قضية اللجوء في السنوات الأخيرة جدلاً سياسياً واجتماعياً وقانونياً كبيراً، وذلك نظراً لتجاوز عدد اللاجئين في العالم الـ ٦٥ مليون إنسان، وأن معظمهم يعيشون في دول ضعيفة اقتصادياً حسب تقرير الأمم المتحدة. وبينما كانت الدول الغنية تستضيف أكثر من ٣٠٪ من اللاجئين؛ فإنها لا تستضيف حاليا أكثر من ١٣٪ منهم.

وتكشف هذه الأرقام عن أن مسألة اللجوء باتت كارثة إنسانية عالمية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ناهيك عن مشكلة النازحين الذين آل وضع التخفيف عن معاناتهم إلى التصفيق الدولي لبضع ساعات من إيقاف القتال من أجل إدخال المساعدات.

ما بين ثنائية الموت والهروب ثمة خيارات قليلة ومؤلمة، ومستقبل قسري تتقلص فيه مساحات الحرية الإنسانية وتُنتهك، ويتلمس مسلوبو الإرادة تجديد حياتهم بالحد الأدنى لتعريف الوجود والذات، وتتيه القضية الإنسانية في متاهات السياسة والاقتصاد والخوف من الآخر. هنا نحدد تعريف اللاجئ كما هو في الواقع كإنسان هارب من أوضاع مأساوية ويطمح لإعادة بناء حياته، ويقايض ما تبقى من كرامته مقابل الحصول على حياة جديدة، ويقايض روابطه الاجتماعية مقابل الحصول على هوية جديدة.

رحلة اللجوء ليست خيارا، وإنما سلسلة من الإكراهات والصدمات، بداية من مآسي الحرب نحو النزوح، ثم اللجوء من خلال طرق محفوفة بالأخطار والاستغلال، وغالباً ما يُمنع من الدخول للبلدان الأخرى، أو يُرفض طلب لجوئه ناهيك عن الإجراءات التي تتطلب وقتاً طويلاً والظروف السيئة التي يعيشون فيها، لاسيما في بلدان اللجوء الضعيفة اقتصادياً. وإن تحصل على بعض الحقوق والعمل، فإنه يعاني من مشكلة الاندماج والتأقلم مع البيئة الجديدة في ظل أجواء الرفض أو التميز، وإن استعاد شيئاً من حياته المادية، فإن كرامته تبقى منقوصة وهويته مفقودة.

من الناحية القانونية والأخلاقية، نحن إزاء مشكل حقيقي يتعلق بقضية اللاجئين وكيفية التعاطي معها، يطرح أسئلة صعبة على المنظومة الأخلاقية التي بنيت عليها صروح الحضارة الحديثة، وعلى نجاعة القانون الدولي ودور المؤسسات والمنظمات العالمية المعنية بهذا الموضوع. وعلى الرغم من وجود معاهدات ومواثيق دولية؛ كاتفاقية جنيف للعام (١٩٤٩) ومعاهدة الأمم المتحدة (١٩٥١)، والبرتوكولين الملحقين بها الصادرين في العام (١٩٦٧) و(١٩٧٧)، فإن الواقع الفعلي لا ينسجم إطلاقاً مع مضمون هذه المعاهدات والوثائق الدولية، وعلى رأسها وثيقة حقوق الإنسان.

لقد قام الغرب ببناء منظومة أخلاقية وضبطها بتشريعات وقوانين ومواثيق دولية وأهمها فيما يتعلق بقضيتنا ميثاق حقوق الإنسان، وما تمخض عنه من معاهدات ومواثيق تتعلق باللاجئين، ولكنها لم تثبت نجاعتها ومصداقيتها في الواقع ولا توفر آليات ضمان وحماية لحقوق الإنسان عادلة وموضوعية، وإنما تكون هذه الآليات - كمجلس الأمن ومجلس حقوق الإنسان والأمم المتحدة والمفوضية العليا للاجئين - فاعلة في إطار مصالح الدول الكبرى، وفلسفتها القائمة على مركزية الإنسان الأوروبي.

ومما لا يحتاج إلى براهين وتوضيحات، أن النظام العالمي السياسي والقانوني والاقتصادي يتسبب في مآسٍ وصراعات أكثر مما يقدمه من أمن وسلام عالميين، فهو مرتهن لمصالح فئة قليلة ودول معدودة.

وبالنظر إلى الصورة الشاملة لقضية اللاجئين بعيداً عن التفاصيل الدقيقة والإشكالات القانونية والاقتصادية، نجد أنها قضية من ضمن القضايا السياسية التي يتم التعاطي معها بناء على المصالح والمساومات والاستراتيجيات السياسية، ولا نجد للبعد الإنساني وجوداً يُذكر كهدف أعلى إلا على أوراق الاتفاقيات والمعاهدات.

ومن الملاحظ بشكل واضح، أن المسألة برمتها ابتداء من نشوب النزاعات والصراعات التي يدفع ثمنها الإنسان هروباً أو موتاً، وانتهاء بحل هذه النزاعات والإشكالات المتعلقة بها من جرائم حرب ونزوح ولجوء واعتقال؛ يتم التعاطي معها بحسابات واعتبارات سياسية، ولا تفلح المنظمات والمؤسسات الدولية المعنية بالوضع الإنساني باتخاذ إجراءات حقيقية للحد من هذه المآسي، إلا عندما يكون هناك توافق سياسي بين الدول الكبرى والدول المنخرطة في الأزمة. ويكفي هنا أن نعرف أن خمس دول فقط - الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن- من أصل ٢٣٠ دولة في العالم بيدها تقرير مصير أية أزمة حتى في الجوانب الإنسانية، سواء بالتوافق مع باقي الدول الخمس أو منفردة بتحالفات خارجية.

ومن زاوية أخرى، نجد أن أكبر اقتصاديات العالم، تلك البلدان التي تعلن أنها المدافعة والمؤسسة لحقوق الإنسان وقيم الحرية والعدالة والديمقراطية؛ لم تستقبل من اللاجئين السوريين (مثلاً) ما استقبلته واحدة من أصغر الدول العربية (الأردن أو لبنان). ويمكن أن ننظر إلى هذه المفارقة من عدة زوايا، وقد يُبرر دائماً أن دول الجوار في مناطق الصراعات والنزاع عادة ما تتحمل تدفق الأعداد الكبيرة من اللاجئين أكثر من غيرها، ولكن كيف نبرر المساومة السياسية اللاأخلاقية في ملف اللاجئين مع تركيا للحد أو إعادة اللاجئين مقابل حصولها على بعض الامتيازات التي تؤهلها للدخول في الاتحاد الأوروبي؟ أو التبرير الاقتصادي في ألمانيا لقبول اللاجئين من فئات عمرية معينة؟ أو الإجراءات الصارمة في الحد أو عدم تسهيل عبور اللاجئين واحتجازهم في مخيمات مزرية على الحدود أو في مجمعات اللجوء بانتظار الدخول؟

هذا على المستوى السياسي والحكومي والقانوني. أما على المستوى الشعبي، فحالة التوتر والقلق والرفض في ازدياد مستمر، والتغذية الإعلامية لهذا الموقف لا تهدأ. ونلاحظ في الآونة الأخيرة ونتيجة هذا الضغط؛ صعود نجم الأحزاب اليمينية المتشددة في عدد من بلدان أوروبا، مثل فرنسا وهولندا وسويسرا والنمسا وبلدان شرق أوروبا، كما أن بعض الأحزاب اليسارية اضطرت لوضع سلسلة من القوانين التي تحد من تدفق اللاجئين خوفاً من خسارتها في انتخابات مقبلة، أو إذعاناً للضغوطات الشعبية، والذي يعكس قلقاً وتوتراً رسمياً وشعبياً. قد يكون الخوف من وصول المتطرفين والقيام بأعمال عنيفة مبرراً لهذا القلق والتوتر، ولكن هذا لا يحررهم من المسؤولية الأخلاقية، فقد حدثت مثل هذه الأعمال العنيفة في الأردن ولبنان وتركيا. وهذا يكشف عن تناقض كبير بين ما يدعيه الغرب من قيم مناصرة لكرامة اللاجئ وحقوقه الطبيعية وحريته، وبين السلوك الحقيقي الرسمي والشعبي المشبع بسيكولوجيا الخوف والاعتبارات النفعية السياسية والاقتصادية.

العالم بالنسبة إلى اللاجئ ظالم مظلم صعب الاحتمال، ولا توجد حلول عملية وقانونية وإنسانية حقيقية بعدُ لمشكلتهم، والتعامل معها أشبه بالتعامل مع الأمراض



السارية التي ينبغي احتواؤها وعزلها و"التخفيف" من معاناة أصحابها. وهذا تعامل مريع وبشع، ويضع ألف إشارة استفهام وتعجب أمام المنظومة الأخلاقية والقانونية العالمية في تعاملها مع قضية تمس جوهر حقوق الإنسان.

أما حصيلة ذلك كله على المستوى الوجداني والعقلي للإنسان العربي، فنجد أن كل الممارسات الغربية مع العالم العربي على المستوى السياسي والإنساني والعسكري التي ترتكز على المنفعة البحتة، والمصالح غير المشتركة، والتمييز، واللامبالاة العمياء، لا تشجع على الإطلاق التجاوب مع النموذج الغربي الذي تدعو إليه العولمة، فما الذي يدفع الإنسان العربي لقبول هذا النموذج بديمقراطيته وحريته "الخاصة"، وهو الذي عمق معاناته، إن لم يتسبب بها في كثير من الأحيان؟

ويمكننا أن نفهم بكل بساطة سبب تنامي ظواهر التطرف والتشدد والتقوقع الأيديولوجي، والتي يقدم لها الفشل الأخلاقي والسياسي الغربي في التعامل مع المشكلات الإنسانية والحقوق الطبيعية للإنسان العربي فيما إذا رُكب على فشل السياسات ونماذج الحكم ومسارات التنمية في معظم الدول العربية؛ حجج قوية للجماعات المتطرفة وجاذبة للشباب، مما يؤدي إلى انفجارهم وتفجير أنفسهم في مجتمعاتهم وفي مجتمعات الآخرين.

هناك تحليلات كثيرة لأسباب التطرف في العالم العربي والإسلامي، ولكن في معظمها لا تنظر إلى أسباب تشكل البيئات الحاضنة لها؛ فتعلّقه إما على الدين أو الاقتصاد أو الإكراهات السلطوية. ولكن الأمر أبعد من ذلك بكثير، فهناك حالة من الغضب والسخط على التهميش والاستغلال العالمي والممارسات القهرية أو اللامبالية التي يتعرض لها الضعفاء، حالة تنتفخ يوماً بعد يوم وتغذيها السياسة والإعلام والاقتصاد. ومجتمعاتنا وخاصة الشباب في حالة صدمة ثقافية وأخلاقية ساخطة معاكسة تماماً للصدمة الانبهارية التي تعرضنا لها نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أمام النموذج الغربي.

من البديهي أن الصراعات والحروب تتسبب في الكراهية والعنف، ولكن من العجيب أن تصبح طريقة التعاطي مع القضايا التي تتسبب فيها الصراعات كمشكلة اللجوء مثلاً؛ عاملاً رئيساً لخلق الكراهية والإحباط واليأس والسخط ومشاعر الانتقام، وبالتالي تدوير عجلة العنف والصراع بأدوات وهيئات جديدة منفلتة يصعب السيطرة عليها.

أيا يكن الثمن الذي ستدفعه الدول مقابل حل إنساني وعادل يحفظ كرامة اللاجئ، هو أقل بكثير جدّاً، ولا يقارن بالثمن الذي تدفعه الآن وستدفعه لاحقاً بسبب التعاطي السياسي النفعي الأخرق مع ما يقارب الواحد بالمئة من عدد سكان العالم، ناهيك عمن يتعاطف أو يشعر بهم أو يعيش احتمال أن يكون منهم.



الأستاذ محمد العاني

المدير العام لمؤسسة "مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث"

كلمة
هذا العدد

يشكل اللجوء قضية إنسانية تستوجب الاهتمام من طرف كل الفاعلين في العالم، لأنها دليل على خلل كبير في المجتمعات، وناقوس خطر للأوضاع الإنسانية الكارثية، الناتجة عن الحروب والاضطهادات، والتي تدفع بالإنسان إلى هجرة وطنه والبحث عن ملجأ آخر آمن له في هذه الأرض.

اللجوء ليس وليد اليوم، بل عرف منذ بداية التاريخ، وتفاقم مع الحربين العالميتين الأولى والثانية، وازداد فظاعة مع الأوضاع التي تشهدها منطقة الشرق الأوسط، والتي دفعت بملايين من السوريين إلى الفرار من جحيم الأوضاع في بلدهم بسبب الحرب والتنظيمات الإسلامية المتشددة، وعلى رأسها «داعش»، وركوب البحر بحثا عن ملجأ آمن بأوروبا يحفظ إنسانيتهم، ويقيهم شر الحروب والمآسي، لكن إقدام العديد من الدول على إغلاق حدودها أمام اللاجئين فاقم الأزمة وزاد من حدتها، ما دفع بالعديد من الجهات الحقوقية وغيرها إلى المطالبة بسن سياسة متناسقة وفعالة لحل مشكل اللاجئين، خاصة أن المفوضية العليا لشؤون اللاجئين لم تتمكن من معالجة هذه المعضلة المستفحلة، كما أن البلدان العربية التي أصبحت تحتل الصدارة اليوم في عدد اللاجئين، لا يتوفر أغلبها على مؤسسات خاصة تعنى باللاجئين، بل منها من لا يعترف بهم، ويغلق حدوده في وجههم، لاعتبارات سياسية، ما يتنافى مع أبسط المعايير المعتمدة دولياً.

لقد أضحت قضية اللجوء مأساة القرن الحالي، وهي مأساة عابرة للقارات، وآثارها لم تعد محصورة على الدول مصدر النزوح الجماعي؛ مثل سوريا، ولا حتى الدول المجاورة لها؛ مثل تركيا، بل تجاوزتها إلى دول أوروبية بعيدة عن الحروب؛ مثل ألمانيا، حيث فاق عدد اللاجئين رقم (٦٠) مليون لاجئ، حسب تقارير لعام ٢٠١٥، وكانت الحرب هي السبب الرئيس لنزوحهم خارج بلدانهم، وعبّر ما يقارب المليون شخص عباب البحر الأبيض المتوسط في اتجاه أوروبا، وشكلت حالاتهم مادة إعلامية دسمة، اختلط فيها الإنساني بالسياسي، وورقة ضغط لبعض البلدان (تركيا) من أجل الاستفادة من امتيازات كانت بعيدة المنال.

ولأن مؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث»، لم يكن لها أن تسكت عن هذا الوضع، فقد ألغت مؤتمرها السنوي الرابع، تضامنا مع اللاجئين السوريين، ورصدت مخصصاته المالية لدعمهم، وبما أنها مؤسسة بحثية، فقد كان من الواجب الاهتمام بهذا الموضوع في أحد مطبوعاتها، ولهذه الغاية بادرت مجلة «ذوات» الثقافية الإلكترونية العربية الشهرية، الصادرة عن المؤسسة، إلى تخصيص عدد خاص لموضوع اللاجئين وإشكالية اللجوء عبر العالم، متسائلة عن مصير «نظام الحماية الدولي»، الذي صاغه المجتمع الدولي خلال العقود الأربعة الأخيرة من القرن العشرين، وما مدى مواءمته مع اللجوء العربي المستفحل في السنوات الأخيرة.

ويسعى العدد (٣٠)، وهو عدد خاص، إلى تسليط الضوء على اللجوء من زوايا معرفية مختلفة، يتقاطع فيها الاجتماعي، مع الفكري، والثقافي، والسياسي، والإعلامي،

والتربـوي، والأدبي، محـاولا الإجابـة عـن عـدة تسـاؤلات مركزيـة، تتعلـق بقضيـة اللجـوء بشـكل عـام، واللجـوء العـربي بشـكل خـاص.

ويضـم ملـف العـدد الخـاص، الـذي يحمـل عنـوان «اللاجئـون العـرب.. أيـة قيم لإنسـانية العـصر الجديـد؟!»، والـذي أعـده الباحـث والإعلامـي اليمـني المقيـم بتركيـا، محمـد اللطيفـي، مقـالا تقديميـا لـه بعنـوان «اللجـوء .. أزمـة سـوداء في عالـمٍ متقـدم!»، وسـبع مقاربـات للموضـوع أنجزهـا باحثـون عـرب يقيمـون خـارج ديارهـم، وهـي: المقاربـة الإعلاميـة للباحـث والإعلامـي التونـسي الألمـاني منصـف السـليمي، بعنـوان «أزمـة اللاجئـين في مـرآة الإعـلام الأوروبي: الإعـلام الألمـاني أنموذجـا»، والمقاربـة الاجتماعيـة للباحثـة المغربيـة المقيمـة بألمانيـا،ناديـا يقـين، بعنـوان «اللاجئـون؛ بـين آثـار الحـرب ومشـكلات الاندمـاج!»، والمقاربـة التاريخيـة للباحـث والكاتـب الليـبي نـزار كريكـش، بعنـوان «جغرافيـا الهجـرة وتاريـخ اللجـوء»، والمقاربـة النفسـية للكاتـب والباحـث السـوري سـامر عسـاف، بعنـوان «الآثـار النفسـية للهجـرة واللجـوء.. درب شـائك مـليء بالصدمـات!»، والمقاربـة الفكريـة للباحثـة السـورية يـسرى السـعيد، بعنـوان «الأبعـاد الفكريـة لظاهـرة اللجـوء الإنسـاني»، والمقاربـة المقارنـة للباحـث السـوري عـزت السـيد أحمـد، المعنونـة بــ «بـين حاجـة الغـرب ومخاوفـه؛ أزمـة اللجـوء قبـل الربيـع العـربي وبعـده»، ثـم المقاربـة الإحصائيـة للباحثـة السـورية بمركـز سـبر للدراسـات الإحصائيـة والسياسـات العامـة، ميـس صـاري، الـتي تقـدم فيهـا أحـدث الأرقـام المتعلقـة باللجـوء. أمـا حـوار هـذا الملـف، فهـو مـع الباحـث السـوري المتخصـص في شـؤون الهجـرة، مـازن شـيخاني.

وبالإضافـة إلى الملـف، يتضمـن هـذا العـدد الخـاص مـن مجلـة «ذوات»، والمتعلـق بقضيـة اللجـوء، أبوابـا أخـرى يسـلط مـن خلالهـا مجموعـة مـن الباحثـين العـرب الضـوء عـلى جوانـب مهمـة مـن قضيـة اللجـوء في الأدب، والفـن التشـكيلي، والسـينما، والتربيـة والتعليـم. وجـاء بـاب «رأي ذوات» غنيـا بـآراء الباحثـين: السـوري طـارق عزيـزة المقيـم بألمانيـا، الـذي كتـب «عـن «الدياسـبورا» السـورية»، والشـاعر والكاتـب مـن الأردن، عمـر شـبانة، بمقالـه عـن «اللجـوء والهجـرات إلى الأردن عـبر ١٥٠ عامـا»، والشـاعرة السـورية، فـرات إسـبر، المقيمـة بنيوزيلانـدا، بمقالـه «السـوريّ اللّاجئُ طائرٌ الفنيـق»، والكاتبـة الفلسـطينية ثـورة حوامـدة، بمقالهـا «اللجـوء مـن فلسـطين إليهـا.. عـذابٌ عـلى مقربـة مـن ذات الأرض»، ثـم الكاتـب السـوري جمال الشـوفي، بمقالـه «عمـران أنـا... فلتغرقـوا في صمـتي الأبـدي».

ويضـم بـاب «ثقافـة وفنـون» مجموعـة مـن المقـالات هـي: «أثـر الأزمـة السـورية في الأدب..الروايـة بـين التخييـل والتوثيـقّ للكاتبـة والشـاعرة السـورية أنجيـل الشـاعر، و»بعـض تجليـات الهجـرة واللجـوء في الفـن التشـكيلي السـوري الراهـن» للفنـان التشـكيلي والناقـد المغـربي بنيونـس عمـيروش، و»اللجـوء- التبشـير - تيمـة كتابيـة في الروايـة السـورية.. قـراءة في روايـة «نـزوح مريـم» لمحمـود حسـن الجاسـم» للكاتـب والـروائي السـوري جـاد الله الجباعـي، و»السـينما واللجوء..الجماليـات المتلاشـية» للكاتـب والناقـد الفـني المغـربي محمـد اشـويكة، و» مـن صـور المـوت: في قصائـد «المـوت كمـا لـو كان خـردة» لـوداد نـبي» للشـاعر والكاتـب المغـربي عبـد الله المتقـي.

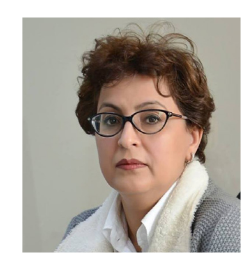
وحـتى نغـني موضـوع هـذا العـدد الخـاص، ضمنـا حواريـن في بـاب «حـوار ذوات»: الأول مـع الباحـث الليـبي وأسـتاذ الإعـلام بجامعـة الزاويـة، مسـعود حسـين التائـب، أجـراه الدكتـور المغـربي عبـد السـلام شرمـاط، والثـاني مـع الأسـتاذ الجامعـي الألمـاني ذي الأصـول اللبنانيـة، والخبـير الاستشـاري في قضايـا الإسـلام والاندمـاج ومكافحـة الإرهـاب والتطـرف في ألمانيـا، مـروان أبـو طعـم. أجـرى الحـوار الإعلامـي المغـربي المقيـم بألمانيـا هشـام الدريـوش.

وحتى لا تظل الصورة قاتمة عن اللاجئ العربي بشكل عام، والسوري بشكل خاص، نقدم في هذا العدد الخاص بورتريهين لشخصيتين سوريتين ساهمتا في تصحيح صورة الغرب للإنسان العربي، والسوري بالتحديد، وهما الفنان الفوتوغرافي والناشط السوري، اللاجئ في ألمانيا مؤنس بخاري، صاحب مشروع البيت السوري بألمانيا، والشاعر والناقد السوري اللاجئ في ألمانيا محمد المطرود، الذي يسعى إلى تغيير الوضع عبر الكتابة والفن. البورتريهين من إنجاز الإعلامي المغربي هشام الدريوش، المقيم بألمانيا.

وفي باب «سؤال ذوات»، يسائل الإعلاميان: منى شكري من الأردن، وعيسى جابلي من تونس، مجموعة من الباحثين العرب حول قضية اللجوء من خلال سؤالين: يُواجه اللاجئون والمُهجَّرون ما يُمكن تسميته بـ «أزمة هُوية»، ما أبرز المخاطر المتوارية خلف هذه الإشكالية؟»؛ وماذا قدم المجتمع الدولي والعربي والمنظمات الإنسانية لحل مشكلة اللاجئين والحد من معاناتهم؟، وفي باب «تربية وتعليم»، تقدم الكاتبة والباحثة السورية والمدربة في قضايا المرأة والطفل، علياء أحمد، مقالا بعنوان «الأطفال السوريون في دول الجوار وأثر اللجوء على حقهم في التعليم».

أما «باب كتب»، فيضم قراءتين في كتابين حديثين يتناولان موضوع اللجوء؛ الأول للصحفي الألماني فولفجانج باور، «هاربون من الموت السوريون والطريق إلى أوروبا»، الصادر ترجمته العربية ضمن منشورات العربي (القاهرة، ٢٠١٦). القراءة من إنجاز الكاتب المغربي المتخصص في الرحلة والسرد العربي، بوشعيب الساوري. والثاني كتاب «اللاجئون الفلسطينيون في المشرق العربي: الهوية والفضاء والمكان» الذي حرره آري كنودسن وساري حنفي، أستاذ علم الاجتماع والأنثربولوجيا في جامعة بيروت، وترجمته دينا الشريف، وصدر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، عام ٢٠١٥. أنجزت قراءته الكاتبة والأكاديمية المصرية هويدا صالح. كما يتضمن الباب مجموعة من الإصدارات الحديثة في الموضوع نفسه.

وفي ختام هذه الكلمة، لا يسعني إلا أن أشكر كل المساهمين معنا في هذا العدد الخاص، الذين لم يترددوا في الاستجابة لنا ولشروط عملنا، وأتمنى أن تكون المؤسسة، قد ألقت الكثير من الضوء عبر هذا العدد الخاص، على هذا الموضوع الشائك، وأغنت الخزانة المعرفية العربية، لأن أغلب الكتابات والدراسات المتخصصة في الموضوع مكتوبة بلغات أجنبية (الإنجليزية- الفرنسية- الإسبانية- الألمانية)، والقليل منها مترجم إلى اللغة العربية.



دامت لكم متعة القراءة . . .

سعيدة شريف



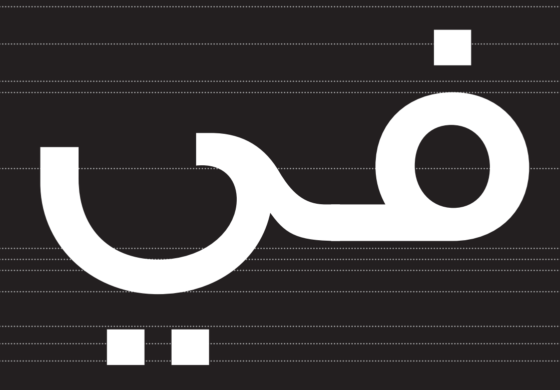
للراغبين في الحصول على منشورات المؤسسة

في معرض الشارقة الدولي للكتاب بالإمارات العربية المتحدة،

لدى رواق مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، القاعة (1)

الجناح (W9) من 02 إلى 12 نوفمبر 2016


مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث
THE.WHAT?
ذوات
عدد خاص
اللاجئون العرب
أية قيم لإنسانية العصر الجديد؟!
مجلة ثقافية الكترونية
العدد ٣٠، ٢٠١٦


في

الداخل



ملف ا
اللاجئون
أية قيم
العصر ال
* اللجوء .. أزمة سوداء في عالمٍ متقدم!
* جغرافيا الهجرة وتاريخ اللجوء
* الأبعاد الفكرية لظاهرة اللجوء الإنساني
* اللاجئون: بين آثار الحرب ومشكلات الاندماج!
* الآثار النفسية للهجرة واللجوء... درب شائك مليء بالصدمات!
* أزمة اللاجئين في مرآة الإعلام الأوروبي: الإعلام الألماني أنموذجا
* بين حاجة الغرب ومخاوفه: أزمة اللجوء قبل الربيع العربي وبعده
* ليس مجرد رقم إعلامي أو أداة ضغط سياسي، اللاجئ .. ثلاث قصص ومأساة واحدة!
* حوار الملف: مع الباحث السوري د. مازن شيخاني



لعدد:
العرب ...
لإنسانية
لجديد؟!

اللجوء ...
أزمة سوداء في عالمٍ متقدم!



إعداد:
محمد اللطيفي
صحفي وباحث يمني
مقيم بتركيا



أقامت هجرة الإنسان التاريخية، العديد من الحضارات، لكنها نتجت وأنتجت العديد من الحروب التي شردت الكثير من البشر

لم تكن الهجرة كظاهرة، حديثة النشأة، بل ظلت عبر تاريخ وجودها مرتبطة بثلاثية التاريخ والجغرافيا والإنسان، وكان التاريخ بصفته متحركا في أرض الجغرافيا الثابتة، يعمل على جعل الإنسان؛ الناشط الرئيس في الجغرافيا، يتحرك وفقا لخارطة الصراعات السياسية والاقتصادية التي أنتجها الإنسان، وتبدو الهجرة هنا، كناتج طبيعي للصراع بين الثابت (الجغرافيا) والمتحرك (التاريخ)، وقد أقامت هجرة الإنسان التاريخية، العديد من الحضارات، لكنها نتجت (وأنتجت العديد) من الحروب التي شردت الكثير من البشر، ومع قدرة الإنسان في العصر الحديث على إنتاج «الدولة القومية»؛ كمفهوم يحُد من الصراع بين التاريخ والجغرافيا، إلا أن الدولة التي نجحت في أماكن كثيرة من العالم المتقدم، فشلت في تحقيق الاستقرار في العالم النامي، كما أن «الدول المتقدمة» فشلت في إنقاذ «الدول الفاشلة» من مشاكلها المزمنة، وهو ما أنتج اللجوء كأزمة حديثة مهاجرة باتجاه العالم المتقدم، أو من دول الجنوب إلى دول الشمال؛ كما هي التسمية المعهودة.

وقد أضحت قضية اللجوء بحق، مأساة القرن الحالي، وهي مأساة عابرة للقارات، وآثارها لم تعد محصورة على الدول مصدر النزوح الجماعي؛ مثل سوريا، ولا حتى الدول المجاورة لها؛ مثل تركيا، بل تتجاوزها إلى دول أوربية بعيدة عن الحروب؛ مثل ألمانيا، حيث تشكِل الحروب، المصدر الأساسي لنشوء حالات النزوح الكبيرة للاجئين، والتي بحسب تقارير متعددة لعام (٢٠١٥)، تجاوز اللاجئون فيه رقم (٦٠) مليون لاجئ، عبَر فيها ما يقارب المليون شخص عباب البحر المتوسط.[١]

لقد تفرقت مأساة اللاجئين بين جميع الدول إذاً، العظمى منها والنامية، ولم يعد حل إشكالياتها قراراً خاصاً بدولة دون أخرى؛ فالحروب تشتعل في دول الشرق الأوسط، ثم تتحول إلى تجارة نفوذ سياسي بين الدول الكبرى، وما تلبث أن تضيع قضية اللجوء؛ كمشكلة إنسانية، في خضم تعقيدات المشاكل السياسية والصراعات الاقتصادية، ليصبح اللجوء مجرد قضية هامشية في ملف دولي.

كانت الحربان العالميتان؛ واللتان أنتجتا ملايين اللاجئين، قد ألهمتا عقلاء العالم، الإيمان بأهمية التعامل مع اللجوء كـ«ظاهرة واقعية»، سوف تتكرر طالما تجددت الحروب في أي مكان من الأرض، ولذا اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة؛ اللجوء، كمادة أساسية في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان

---

١ مركز الشرق العربي للدراسات الحضارية والاستراتيجية - لندن. http:// asharqalarabi.org.uk

(١٠ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٨)، حيث نصّت الفقرة (١) من المادة (١٤):

«لكل فرد الحق في أن يلجأ إلى بلاد أخرى أو يحاول الالتجاء إليها هرباً من الاضطهاد»[٢].

و في ٢٥ يوليو/ تموز ١٩٥١ كُتبت أول اتفاقية خاصة باللاجئين، وتمّ إنشاء مفوضية سامية لشؤون اللاجئين تتبع الأمم المتحدة ١) يناير/ كانون الثاني من نفس العام)؛ وفي البداية فإن هذه الاتفاقية ظلّت مقصورة على اللاجئين في أوروبا، لكنها تطورت فيما بعد، لتصبح مظلّة قانونية لكل لاجئ العالم، وأتى هذا التطور نتيجة للتعديل الذي احتواه بروتوكول ١٩٦٧، وتعرّف الاتفاقية اللاجئ بأنه:

«شخص يوجد خارج بلد جنسيته أو بلد إقامته المعتادة، بسبب خوف له ما يبرره من التعرض للاضطهاد بسبب العنصر، أو الدين، أو القومية، أو الانتماء إلى طائفة اجتماعية معينة، أو إلى رأي سياسي، ولا يستطيع بسبب ذلك الخوف أو لا يريد أن يستظل / تستظل بحماية ذلك البلد أو العودة إليه خشية التعرض للاضطهاد»[٣].

وتكمن أهمية هذه الاتفاقية، ليس فقط لأنها بيّنت نوع الحماية القانونية التي تضمن تنفيذ الحقوق الأساسية المتعلقة باللاجئ، بل في كونها أيضا قدمت تفريقاً واضحاً بين الهجرة واللجوء أو بين المهاجر واللاجئ، وهو ما يزيل حالة اللبس المعرفي الحاصل في الجدل السياسي حول الهجرة واللجوء، حيث أكدت الاتفاقية بوضوح، على التصدي لـ: «مشكلتين منفصلتين بطريقتين مختلفتين، معالجة قضايا اللاجئين من خلال الإجراءات الخاصة بمنح اللجوء، والمشكلات المتعلقة بالهجرة، بصورة منفصلة تماماً»[٤].

ويذهب الكثير من الباحثين إلى التركيز على التفريق بين المهاجر واللاجئ، عند الحديث عن اللجوء المعاصر، باعتبار الهجرة طريقا اختياريا، يخرج فيه الإنسان من بلده الأصلي إلى بلد آخر، بهدف تحسين وضعه الاقتصادي أو التعليمي، وربما يكتسب المهاجر بناء على اشتراطات معينة على جنسية الدولة المهاجر

٢- موقع الأمم المتحدة.
http://www.un.org/ar/documents/udhr/index.shtml#a١٤

٣- موقع حقوق الانسان بالأمم المتحدة، مكتب المفوض السامي،
http://www.ohchr.org/AR/ProfessionalInterest/Pages/StatusOfRefugees.aspx

٤- موقع المفوضية السامية لشؤون اللاجئين.
html.٤beVcc٢٧٢٠١/http://www.unhcr.org/ar

إليها، وعكسا للهجرة فإن اللجوء طريق إجباري يهرب فيه الإنسان من موطنه الأصلي، بحثا عن موطن بديل، يضمن فيه حماية نفسه ومعتقده، وبعض المهتمين بشؤون الهجرة، يضعون معنى اللجوء في سياق تعريف الهجرة القسرية كمقابل موضوعي للهجرة الطوعية، حيث تشير الهجرة القسرية إلى:

«تنقلات اللاجئين والأشخاص النازحين داخليا جراء الصراع والمرحلين جراء الكوارث الطبيعية».[٥]

وبغض النظر عن هذا الاختلاف اللفظي، فإن اللجوء كتسمية معاصرة للهجرة القسرية، أضحى القصة الأساسية لتناولات الإعلام، وأهم القضايا في جدول أعمال السياسة الدولية، ونقطة البحث المركزية في مراكز البحوث المتخصصة، ورغم ذلك فإن اللجوء مازال يفرز نتائج كارثية على المستوى الإنساني، والمشكلة أن هذه النتائج تكاد تنحصر تداعياتها السلبية على الوطن العربي، أو على كل عربي نزح داخل وطنه أو لجأ خارجه، حتى حدا الأمر ببعض المواقع الإعلامية، وصف الوطن العربي بالقول: «يكاد يصبح بقعة لجوء».

في هذه البقعة العربية يعيش ملايين النازحين بسبب الحروب الداخلية، كما تهاجر منها ملايين أخرى بحثا عن «موطن آمن»، لهذا وُجد هذا الملف الخاص عن اللجوء - ضمن عدد كامل تخصصه مجلة «ذوات» عن اللاجئين - بهدف تسليط الضوء على اللجوء من زاوية بحثية معرفية، ويحاول هذا الملف الإجابة عن عدة تساؤلات مركزية، تتعلق بالأسباب الاقتصادية والسياسية التي أدت لظهور الهجرة بشكل عام، واللجوء بشكل خاص، واللجوء العربي بشكل أخص، بالإضافة إلى التساؤلات المرتبطة بالتداعيات النفسية والاجتماعية داخل مجتمعات اللجوء، كما يحاول هذا الملف فهم التأثيرات المنعكسة على اللاجئين من الارتدادات الجانبية لمشاكل دولية؛ مثل الإرهاب والاندماج.

يعمل هذا الملف على قراءة السياق التاريخي لجغرافيا الهجرة وتاريخ اللجوء، وفي مقاربته التاريخية، يؤكد الـ د. نزار كريكش، أن اكتشافات الـ DNA أثبتت أن البشر كلهم مهاجرون، كما أن النبوءات دعمت روحيا فكرة الهجرات، وتحرّر هذه المقاربة مصطلحي الهجرة واللجوء، موضحة فوارق معنى الهجرة في السياق اللغوي للغتين العربية والإنجليزية، وتوضح المقاربة أن الهجرة واللجوء ظاهرتان تاريخيتان «تتعلقان بالتوزيع

٥- نشرة الهجرة القسرية
http://www.fmreview.org/ar/front-page.html

السكاني على المدى الجغرافي للكرة الأرضية»، ويذهب كريكش في مقاربته، إلى التأكيد أن العرب ليسوا استثناءً في قصة اللجوء، فالهجرات - في تقديره - كانت من العوامل المُشكِلة لجغرافيا القارة الأمريكية، ولا ينسى أن يشير إلى المغزى الذي يجعل البعض لا يحبذون استخدام تسمية اللاجئين العرب، من خلال فهم نموذج صموئيل، الذي درس علاقة الهجرة بصدام الحضارات.

ولقد وضع اللجوء، الإنسان العربي وجها لوجه أمام حياة جديدة، وهذا ما أرادت الدكتورة يسرى السعيد، مناقشته، في مقاربتها الفكرية، وعكسا لما يذهب إليه البعض، فإن هذه المقاربة ترى في الربيع العربي، فرصة لتجدُد الإنسان العربي «لكن ليس بإرادته؛ وإنما قسرياً هذه المرة»، تتعامل المقاربة مع الأدب المهجرى، كتجربة فكرية أولى للجوء، ومع اللغة الجديدة التي يتعلمها اللاجئ، بمثابة هوية ثقافية جديدة، «فاللغة أداة لتشكيل الآراء وليست فقط للتعبير عنها»، وتهتم هذه المقاربة بدراسة مدى التأثير والتأثر الذي تفعله الهجرة ثقافيا، كما أنها تحاول الإجابة على سؤال: إلى أية درجة سيكون اللاجئ العربي قادراً على إثبات ذاته، التي سلبتها الحرب؟

وتكمن مشكلة إثبات ذات اللاجئ في صعوبة قدرته على الاندماج في المجتمع الجديد، ويُصعّب مسألة الاندماج ما أسمته، الباحثة ناديا يقين، بالـ«الصدمة الثقافية»، حيث تقف هذه الصدمة، عائقا أمام تعايش اللاجئين في المجتمع الغربي، وتُبرز، يقين، في مقاربتها، العديد من المشاكل الاجتماعية المرتبطة بالصراع بين ثقافة اللاجئ وثقافة الموطن الجديد، حيث تقوم الأولى على تبعية الفرد بينما تؤكد الثانية على استقلاليته، وترصد هذه المقاربة قصصا اجتماعية مؤلمة، ناتجة عن اختلاف في طبيعة العلاقات الأسرية في المهجر عن الموطن الأصلي؛ فتعدد الزوجات كمثال، يُشكل مشكلة قانونية ونفسية لدى الجهات الرسمية والمجتمعية في

> اللجوء طريق إجباري يهرب فيه الإنسان من موطنه الأصلي، بحثا عن موطن بديل، يضمن فيه حماية نفسه ومعتقده





ألمانيـا، كمـا أن زواج القـاصرات، يتـم النظـر لـه بمثابـة «اغتصـاب لأطفـال».

وليسـت «الصدمـة الثقافيـة» وحدهـا مـن تصيـب اللاجـئ، وتسـبب لـه المشـاكل الاجتماعيـة، الناتجـة عـن التناقـض بـين ثقافـتي اللاجـئ والمهجـر، فهنـاك أيضـا «الصدمـة النفسـية»، والـتي لا تحـصر تأثيراتهـا - في مقاربـة الباحـث سـامر عسـاف - عـلى الاكتئـاب والقلـق، بـل تتجاوزهـا إلى التأثـير عـلى الهويـة الذاتيـة والهويـة الاجتماعيـة، ولـذا فـإن هـذه المقاربـة النفسـية تؤكـد أن أسـوأ مـا تخلقـه الحـروب هـي هويتهـا الخاصـة بهـا؛ «هويـة الحـرب»، وتذهـب المقاربـة إلى أن الأطفـال والنسـاء هـم الخـاسر الأكـبر؛ «حيـث يصبـح العنـف هـو دليـل لسـلوك الطفـل، وتصبـح النسـاء سـلعة رائجـة، تزدهـر كتجـارة رقيـق أبيـض».

ويلعـب الإعـلام؛ الأوروبي تحديـدا، دوراً خطـيراً في تعميـق «هويـة الحـرب»، وبمـا أن الإعـلام - كمـا هـي رؤيـة الأمـم المتحـدة في إحـدى تقاريرهـا - فشـل في الخـروج مـن ضغـط السياسـة، فـإن محنـة هـذا الإعـلام - في نظـر الإعلامي

> الاستبداد هو السبب الجوهري لنشوء مأساة اللجوء، بالإضافة إلى فشل الدول القومية في حماية مواطنيها

منصف السليمي - تكمن في عجزه عن إحداث تغطية متوازنة لقضية اللجوء، ويشير السليمي في مقاربته، إلى أن الإعلام الأوربي تحول بحد ذاته إلى أزمة موازية لأزمة اللجوء، وتدرس هذه المقاربة الإعلامية، الإعلام الألماني كنموذج، لكيفية تناول الإعلام الأوربي لقضية اللجوء، وتذهب المقاربة



إلى وجود توجه إعلامي أوروبي يعتمد سياسة الربط بين الجريمة والهجرة واللاجئين، بالإضافة إلى تركيز وسائل الإعلام على «الخلفيات الاجتماعية والثقافية، باعتبارها عائقا في وجه اندماج المهاجرين الوافدين من بلدان مسلمة».

و تُعبّر عقدة اللاجئ العربي، في الذهنية الأوروبية - في نظر د. عزت السيد - عن حيرة أوروبية كبيرة تسكن علاقة أوروبا باللاجئين، فهي عالقة بين الحاجة والمخاوف، ففي سياق مقاربته المقارِنة عن اللجوء قبل الربيع العربي وبعده، يؤكد السيّد، حاجة الغرب للاجئين قبل الربيع، لترميم هرمه السكاني المُختل، لكن المخاوف برزت بعد الربيع، من «طغيان الجاليات على السكان الأصليين»، وتتهم هذه المقاربة السياسات الغربية، بدعم الأنظمة التي ثار عليها الربيع العربي، وهو الدعم الذي ساهم في تصعيد الحروب الداخلية التي أدت إلى الهجرات، وأنتجت معها الكثير من القصص الإنسانية المؤلمة.

يرصد هذا الملف، عبر دراسة إحصائية؛ أعدتها الباحثة ميس صاري عن (مركز سبر للدراسات الإحصائية)، ثلاثة قصص لمأساة واحدة، قصة النزوح داخل الدولة ذاتها بسبب الصراعات، وقصة اللجوء إلى خارج الدولة، ثم قصة اللجوء السوري؛ باعتباره كارثة إنسانية بحد ذاتها، تحاول هذه الدراسة بالأرقام فهم أسباب كل قصة على حدة، كما توضح عبر رسومات بيانية خارطة «تغير أعداد النازحين واللاجئين بسبب الحرب»، مع توضيح الدول التي تنال الحصة الأكبر من عبء الاستضافة، ومع أن الإعلام يُعرّف اللاجئين «بأنهم رقم يتم عرضه كخبر ثانوي»، إلا أن هذه المقاربة تؤكد أن كل رقم جديد، يعني مشكلة جديدة تضاف إلى عالم اللجوء.

وفي القلب من هذا الملف، يأتي الحوار مع الدكتور مازن شيخاني، ليناقش بشكل شامل، أغلب الأفكار التي ترتبط باللجوء والهجرة، ويجيب الحوار عن كثير من الأسئلة التي تتعلق بإشكاليات الهجرة واللجوء، كما يناقش التداعيات السلبية للجوء، والسيناريوهات المستقبلية لوضع اللاجئين العرب، يعتقد د. شيخاني، أن الاستبداد هو السبب الجوهري لنشوء مأساة اللجوء، بالإضافة إلى فشل الدول القومية في حماية مواطنيها، ويرى أن اللجوء العربي؛ بهذه الكثافة، له تأثيرات خطيرة، منها هجرة العقول العلمية، وانقسام المجتمع العربي على نفسه طائفيا وفئويا.



جغرافيا وتاريــخ

بقلم:
نزار كريكش
كاتب وباحث ليبي في علم المستقبليات

عــرف التاريــخ منـذ وقـت ليـس بالقصيـر ظاهـرة الهجـرة واللجـوء، وهما ظاهرتـان متلازمتـان تتعلقـان بالتوزيـع السـكاني عـلى المـدى الجغـرافي للكرة الأرضية؛ فمحركات التاريـخ كثـيرة، منها ما يمكـن التحكم بـه وتوقـع مآلاتـه، ومنهـا مـا يصعـب التعامـل معـه أو التحكـم بـه، ومنهـا مـا هـو قابـل للسـيطرة لكـن نتائجـه لا يمكـن توقعهـا. وفي التاريـخ ظلـت سُـنة التوالـد والهجـرة ظاهرتـين ثابتتـين لـم يسـتطع النـاس التحكـم الكامـل بهمـا، بـل إن النمـو السـكاني ظـل يتصاعـد بمتواليـة جعلـت العالـم يفيـض بسـكانه.

و لأن التاريخ متحـرك، كانـت كل النشـاطات البشريـة تؤثـر في نهايـة الأمـر بعـدد السـكان، وربمـا كانـت الحـروب والمجاعـات دافعـا مـن دوافـع التنقـل والحركـة، لـذا عندمـا قـرر تشـارلز داروان أن يسـافر ليـدرس السـكان والبيولوجيـا، انتبـه لهـذا التنـوع والتداخـل بـين الأعـراق والأجنـاس، ومـن هنـا كان التداخـل بـين ظاهـرة الهجـرة والوراثـة وعلـم الأنسـنة أو الأنثروبولوجيـا.[١]

١- Khaled Koser, International Migration, Oxford, ٢٠٠٧ (Khaled)

الهجرة اللجوء

في هذه الورقة، سنحاول أن نضع إطاراً عاماً يضع ظاهرة اللجوء والهجرة التي برزت بعد الربيع العربي، الذي تحول بفعل ديناميات السلطة والهيمنة لنوع من الحروب، أفرزت ظاهرة اللجوء بأعداد مهولة صارت مؤثراً في النمو السكاني والتغير الثقافي والتحول الجيواستراتيجي، ربما كانت مؤلمة وفيها قصص غاية في القسوة لكن دراستها في هذه الورقة حول آثارها، وكيف انتهت هذه الظاهرة عبر التاريخ لتحولات كبرى شكلت مرحلة تاريخية جديدة بقوى عظمى جديدة وبنظم اقتصادية وسياسية، فكأنما ولد العالم من جديد.

سنبدأ بعرض بعض النظريات (والتعريفات الأساسية) للتمظهرات التاريخية للظاهرة كالهجرة واللجوء والنزوح الداخلي، والنماذج التفسيرية التي قد تساعد لفهم مآلات هذه الظاهرة. بعد ذلك، نعرض عرضاً تاريخيا لمسار هذه الظاهرة، خاصة في القرون الأخيرة لننتهي بالربيع العربي، وظاهرة اللجوء التي هي الهدف الأساسي من عرض هذا الموضوع، حتى نضع هذه الظاهرة في سياق تاريخي قد يساعدنا على تفسير الظاهرة، ومن ثم العمل على توجيهها والتعامل معها في إطار معرفي بعيدا عن السياقات السياسية، التي قد تختزل ظاهرة من الظواهر التاريخية في ولاءات سياسية سرعان ما يسبقها التاريخ بحركته.

منطلقات معرفية

تعرف الأمم المتحدة الهجرة الدولية Migration Internationale

على أنها الشخص الذي يبقى خارج البلد الذي اعتاد الإقامة فيه لمدة أقلها سنة (٤,khaled). ونظراً لتعقد ظاهرة الهجرة، فإن التعريفات لمظاهرها المختلفة تعقدت هي الأخرى، لذا نجد أن اللغة الإنجليزية هي الأغنى في هذا المجال، مما يعبر عن رغبة الإنسان المعاصر في فهم الظاهرة؛ فالهجرة في اللغة العربية هي الترك، لكن على غير العادة، سنجد أن اشتقاقات الكلمة متنوعة وليس لها علاقة بمصدر الكلمة (هـ. ج. ر) فنقول لاجئ ونازح ومهاجر... إلخ. أما في اللغة الإنجليزية، فإن كل المصطلحات تشتق من الهجرة Migration، وهذه هي الاشتقاقات:

١. اللفظ الأول «immigration» التي تعني الهجرة الوافدة؛ فالشخص الذي يدخل إلى إقليم الدولة أو الوافد هو «immigrant».



عرف التاريخ منذ وقت ليس بالقصير ظاهرة الهجرة واللجوء، وهما ظاهرتان متلازمتان تتعلقان بالتوزيع السكاني على المدى الجغرافي للكرة الأرضية

٢. اللفظ الثاني «émigration» التي تعني الهجرة النازحة، فالشخص النازح «émigrant» هو الذي يترك الدولة للاستقرار في دولة أخرى.

٣. اللفظ الثالث هو «migration» الذي يعني الهجرة الداخلية والمهاجر داخليا هو «migrant».[٢]

والتصنيفات الدولية للمهاجرين بين طوعي وقسري، تفيد في تصور تعقيد مسألة الهجرة؛ فالهجرة الطوعية هي تلك التي كانت لأسباب اقتصادية أو اجتماعية، التي يحاول فيها الناس تحسين مستواهم الاجتماعي والاقتصادي، وهذه قد تكون بطريقة منظمة أو غير منظمة، كما أنها قد تكون لعمالة تملك إمكانيات وذات كفاءة، فتسمى عمالة ذكية أو من أصحاب مهن وحرف أو غير متعلمة، فتسمى عمالة غير ذكية؛ لذا فهي تندرج في ظاهرة التنمية غير المتوازنة في العالم. أما الهجرة القسرية، فهي تلك التي تأتي في ظروف الحرب أو الظروف السياسية، وهؤلاء يطلق عليهم لاجئون.

تعرض مصطلح لاجئ لجدل كبير، ويجدر بنا أن نذكر طرفاً منه، ففهم الفارق بين اللجوء القسري والهجرة الطوعية يمكن أن تفهم في إطار وظيفة أساسية من وظائف الدولة وهي حماية مواطنيها، وضمان الحقوق الأساسية للإنسان، لذا عندما تعجز الدولة عن ذلك - فضلاً أن تكون مصدراً لهذا التهديد - عندها يهاجر الناس ويلجؤون لدول أخرى يمكنها حماية إنسانيتهم وصون كرامتهم.

بعد الحرب العالمية الثانية، أنشأت الجمعية العامة للأمم المتحدة المفوضية العليا لشؤون اللاجئين ((UNHCR، واتخذت من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان (١٩٤٨) اتفاق جنيف لحقوق الإنسان إطاراً قانونياً لها(١٩٤٩) بالإضافة للاتفاقيات والعقود الدولية. عام (١٩٥١) كان الاتفاق المتعلق بشؤون اللاجئين، ومنه نشأ القانون المنظم لشؤونهم، ومن خلال تحديد تعريف للاجئ وفق مجموعة مؤشرات، ولأن هذا الاتفاق نشأ بعد الحرب العالمية الثانية، جاء متأثراً بالحرب فحدد اللاجئ بأنه ذلك الإنسان الذي ترك موطنه نتيجة الأحداث في أوروبا، (أي أنه هرب من موطنه الأصلي في أوروبا) قبل الأول من يناير/ كانون الثاني عام ١٩٥١، لكن أزمة أخرى نشبت عام ١٩٦٠، وسعت من إطار القانون

جغرافيا وزمانيا،[٣] وقد ظهر بعد ذلك أن الحروب الداخلية قد ازدادت نسبتها في تلك الفترة، وتكاثرت ظواهر الهجرة في ستينيات القرن الماضي، وبعد فترات الاستعمار التي شهدتها إفريقيا، كانت هناك موجة من المهاجرين في السبعينيات من آسيا، إثر نشأة بنغلاديش كدولة عام (١٩٧٠) والصراع الذي نشب في شرق باكستان.

واستمر الأمر بعد حرب فيتنام عام (١٩٧١) ثم انتقلت الموجة إلى أمريكا الوسطى، وفي التسعينيات بعد سقوط الاتحاد السوفياتي انتشر الأمر في البوسنة والهرسك وكوسوفو، كل ذلك طور من خبرة المنظمة الدولية؛ فالمنظمة التي أنشئت لمهمة محدودة (ثلاث سنوات)، ولها لجنة ذات مهام محددة وبدون تمويل تقريباً. أما إلى العام (٢٠٠٥) فتمويلها يصل لخمسة مليارات دولار وفيها ستة آلاف عامل. ((khalid ٧٣ (الأمر قد تغير الآن فهي تعاني من العديد من المشكلات). هذه الفكرة المبسطة عن تقسيمات وتطور قانون اللاجئين، تؤكد التداخل في الظواهر، فكل سكان العالم هم مهاجرون، كما دلت دراسات الأحماض النووية الحديثة.

أهم الدراسات التاريخية الاجتماعية التي درست هذه الظاهرة، هي دراسة تشارلز تيلي، فقد أرجع تيلي أسباب الهجرة إلى ثلاثة عوامل هي:

- **التغير الجغرافي لتوزيع فرص العمل.**
- **التغيرات الطبيعية في المناطق المختلفة؛**
- **السياسات وتعامل الحكومات المختلفة.**[٤]

كل هذه العوامل لها تاريخ طويل؛ فالحروب والتغيرات المناخية والكوارث الطبيعية والاكتشافات والنمو السكاني وتحسن الأوضاع في منطقة على حساب أخرى، كل ذلك يدفع الناس إلى الرحيل والبحث عن فرص عيش مختلفة.

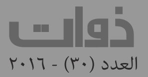
لقد شهد التاريخ ظاهرة (الاستخلاف) بالتعبير القرآني الحضاري، أو وجود نظام عالمي وقوى عظمى في كل مرحلة من مراحل التاريخ، وقيام وسقوط القوى العظمى، ومعنى هذا أن تخلف أمةٌ أخرى، مما يحدث تغيراً في الظروف الاقتصادية والتنمية التي تشهدها حضارة أو دولة في فترة ما، هذا يشجع الهجرة لتلك الدولة ويساعد في توفير فرص لنهضتها وحضاراتها.[٥]

٢ جواكلين آرنجو. »تفسير الهجرة: المداخل المفاهيمية والنظرية«، (ترجمة الكرار درية(، ا لمجلة الدولية للعلوم الاجتماعية، القاهرة: مركز مطبوعات اليونسكو، العدد ١٦٥، (سبتمبر ٢٠٠٢، ص ٥١). انظر كذلك التعاون الأورو- مغاربي في مكافحة الهجرة غير القانونية، رسالة ماجيستير، عايش عبد المالك، جامعة باجي مختار، ٢٠٠٦-٠٧.

٣- http://www.unhcr.org/publications/legal/٣d٤aba٥٦٤/refugee-protection-guide-international-refugee-law-handbook-parliamentarians.html

٤- Charlis tilly, Road from past to Future,Rowman little field,١٩٩٧,Ibook Edition, p١٠٠٩

٥ بول كيندي، نشوء وسقوط القوى العظمى، الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٨



هـذا الإطار يجعلنا أقدر على فهم الظاهرة والتميز بين الهجرة الطوعية وتلك القسرية، التي صار السبب الأكبر فيها هو الاحتراب الداخلي (الحروب الأهلية كما كانت تسمى)، وقد تعددت الدراسات التي أرجعت كل ذلك لفشل الدولة ومؤسساتها، لذا كان اللجوء والنزوح هو مؤشر من مؤشرات فشل الدولة، فأرجعت هذه الظاهرة بتعقيداتها سواء الهجرة لأسباب اقتصادية، أو للقمع والاستبداد السياسي أو الاحتراب الداخلي، هو فشل المؤسسات وفشل الدولة.[٦]

ذكر القرآن كذلك، بعض الأمم التي تعرضت لأزمات، فهاجرت كما في سورة البقرة (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) البقرة[٢: ٢٤٣]، وذكر القرآن كذلك خروج بني اسرائيل وهجرتهم، الأمر الذي نجده في كتب العهد القديم، بل إن أكثر ما كتب مما يسمى بالعهد القديم كانت في زمن اللجوء ذلك، فبعد خروجهم من مصر كانت لهم (الجلوة الكبرى)





> الهجرة القسرية هي تلك التي تأتي في ظروف الحرب أو الظروف السياسية، وهؤلاء يطلق عليهم لاجئون

سياق التاريخ

ورد ذكر الهجرة ومشتقاتها في القرآن الكريم إحدى وثلاثين مرة، لكن المهم في سياق القرآن هو أن الهجرة وردت كنوع من المقاومة للأوضاع السياسية، وما سماه القرآن (الاستضعاف) وهو تعبير مهم في هذا السياق، فإن إمكانيات الإنسان وقدراته قد تقف عاجزة أمام واقع سياسي واقتصادي لا يملك حياله شيئا، حينها يهاجر ليقاوم هذا الوضع، لذا فهي فريضة وليست حقاً فقط؛ كما هو ظاهر من سياق القرآن.

من القدس، وفي خروجهم من بابل على يد «بختنصر»، حينها كانت النبوءات تؤكد للمهاجرين إمكانية وجود واقع جديد أفضل، أي أنها نوع من النبوءات التي انتشرت في تلك الفترة خاصة في فترة النبي دانيال.٧

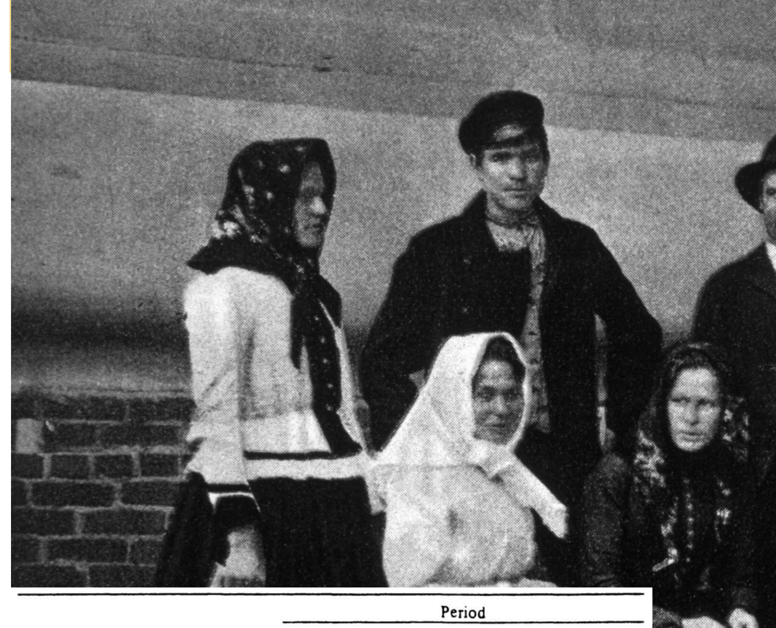
و الناظر لتاريخ الأديان والأمم، يجد أن الهجرات هي التي شكلت النوع الإنساني، وهذا ما ذكره ابن خلدون في تأريخه بعد أن ذكر أصل شعوب الأرض من بعد الطوفان الذي حل بقوم سيدنا نوح القصة

٦- http://library.fundforpeace.org/fsi تقرير الدولة الهشة.

٧-Martha hemmelfarb, The apocalypse,Wiley Blackwell,٢٠١٠ , p (١٠-١٥)

الثابتة في التوراة والإنجيل والقرآن، نجد حسب المؤرخين أن أبناءه توزعوا في الأرض، لذا سنجد أن المرحلة التي تسمى الزمن الصخري الجديد هو الزمن الذي انتشرت فيه الزراعة، وصارت الهجرات سواء لأسباب سياسية دينية كما حدث مع اليهود، أو للهروب من شظف العيش، قال ابن خلدون:

(اعلم أن العرب من الأمم الراحلة الناجعة)، ولعل هذا ما جعل اللقاء بين سيدنا إسماعيل والقبائل



Countries	Period 1846–90	1891–1920	1921–39	1946–63
British Isles	47.9	17.7	29.0	27.7
Germany	20.2	3.4	9.8	15.7
Sweden, Denmark, Norway	6.9	3.8	3.8	2.1
France, Switzerland, Netherlands	4.2	1.5	2.5	14.9
Italy	8.2	27.0	18.6	19.0
Austria, Hungary, Czechoslovakia	3.7	15.9	4.1	?
Russia, Poland, Lithuania, Estonia, Finland	2.1	13.0	12.0	?
Spain, Portugal	6.9	15.3	15.0	12.1
Total emigrants from Europe per year (× 1,000)	376	910	366	585

The figures describe gross migration, not net loss through migration. Boundaries as of the 1960s apply to all periods.

العربية ينتهي لبداية القبائل العربية في الحجاز، وبعد أن تشكلت الحضارة الإسلامية نجد في القرن الخامس هجرة بني سليم وهلال، وهي التي اختلطت فيها الأنساب بين العرب والبربر قال: (فعمروا اليمن والحجاز وما وراء ذلك مما دخلوا إليه في المائة الخامسة كما ذكروه في مصر وصحارى برقه).[٨]

هذه الهجرات ليست حكراً على قوم دون آخرين؛ فقد شهدت الثورة الزراعية كذلك الكثير من الهجرات،

٨- عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، دار الفكر، ج٢ ، ص (٢٠-٣٠)

كما كانت الحروب والصراع حول الأرض سببا في تلك الهجرات؛ فقد توسع اليونان والرومان عبر هذه الهجرات، كما قبائل شرق آسيا والأزتيك والأنديز والصين (zhu) عرفوا هذه الهجرات كذلك.

و لاشك أن هذه الهجرات شهدت حروباً قاسية، خاصة في الصدام بين الحضارة الإسلامية والمسيحية، وتبدل خارطة العالم، كان ذلك بخروج الرومان من شمال إفريقيا وخروج العرب من الأندلس في القرن الخامس عشر، وما تبعه من خروج كبير للموريسكيين، وهي القبائل العربية التي سكنت الأندلس لعدة قرون، وخروج الفايكنج من أوروبا. شهدت سنة (١٤٩٢) الكثير من التحولات والهجرات، سواء من الأندلس أو إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وأرسل حينها السلطان بايزيد الثاني سفناً لتعود باللاجئين إلى الدولة العثمانية.[٩]

هذه الإطلالة السريعة تظهر ترابط الهجرة واللجوء مع التحولات الحضارية والحروب التي خاضها البشر، وكانت سبيلاً لتغيرات أكبر مما يجعلنا نميز الهجرة واللجوء كظاهرة لها موجات مختلفة ترتبط بحجم الصراع والحروب والتناقض الفكري والأيديولوجي في مسار التاريخ الفكري. هذا التناقض ازداد في القرون الثلاثة الأخيرة خاصة في أوروبا وهذا ما سنذكر طرفاً منه الآن.

الحروب الكونية والهجرة

كانت هجرة الألمان في القرون التي امتدت للقرن الخامس عشر ميلادي، هي الموجة الكبرى من الهجرات في أوروبا، ومع توسع دولة بروسيا والتغيرات الجيواستراتيجية التي أحدثها ذلك التوسع، كانت القارة الأوروبية تشهد العديد من الثورات والحروب، وقد بلغ إجمالي المهاجرين (يصعب التمييز بين المصطلحات في سياق التاريخ، لذا سنذكر مصطلح المهاجرين وهو أقرب للجوء، لأن الأسباب في العادة سياسية ناتجه عن صراعات وحروب) من العام ١٨٠٠ إلى الحرب العالمية الأولى، خمسين مليون مهاجر. (Tilly)، نصف هؤلاء هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وقد تصدرت إيرلندا وألمانيا والدنمارك قائمة هؤلاء المهاجرين (انظر الجدول أعلاه الذي يبين نسبة المهاجرين من الدول الأوروبية من القرن التاسع عشر إلى الحرب العالمية الثانية).

٩- تاريخ فتح أمريكا، تزفينان تيودوروف، ت. بشير السباعي، دار الثقافة الجديدة، ٢٠٠٣



تشير بعض الدراسات إلى إحصاءات الهجرات التي حدثت في الحرب العالمية الأولى (Kulischer" ١٩٤٨: ٢٤٨-٢٤٩"):

- من تركيا إلى اليونان (١,٢ مليون) (١٩٢٢-١٩٢٣)
- من روسيا إلى أوروبا (١,٥ مليون) (١٩١٨-١٩٢٢)
- من روسيا أعيدوا قسراً لبولندا (١,١ مليون) (١٩١٨-١٩٢٥)

ولا يمكن في هذا السياق، أن ننسى الهجرات العربية لأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، وكانت بداياتها في القرن التاسع عشر، تحديد عام (١٨٧٠) إلى البرازيل، وإلى الأرجنتين عام (١٨٨٢) وازدادت أعداد المهاجرين بعد توقيع معاهدة الهجرة بين الحكومتين العثمانية والبرازيلية.

هناك أعداد أخرى، تذكرها الإحصاءات عن الهجرات من إيطاليا إلى فرنسا ومن بولندا إلى ألمانيا، ولكن هذه الأرقام متواضعة أمام الهجرات التي صحبت الحرب العالمية الثانية:

- من بولندا إلى ألمانيا (من الرايخ) (٦ مليون) (١٩٤٤-١٩٤٧)
- من ألمانيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية (يهود) (٥ مليون) (١٩٤٤-١٩٤٧)
- من الاتحاد السوفياتي إلى ألمانيا (٤ مليون) (١٩٤٥-١٩٤٦)

كما شهدت نزوحاً ولجوءاً بالجملة من بولندا وتشيكوسلوفاكيا، ولقد ساهم هذا النزوح والتغيرات الكبرى التي شهدتها أوروبا لتكوين الدولة القومية والاندماج بين السكان، ومع الثورة الصناعية احتاجت أوروبا لكثير من العمال (العمالة غير الذكية) وللمواد الخام، لذا نجد أن هناك تهجيراً قسرياً لكثير من سكان أفريقيا، خاصة للولايات المتحدة الأمريكية قدر عددهم بـ ١٢ مليون ((٢,khaled، وبعد انتهاء الرق كانت العمالة تجلب من شرق آسيا من الصين والهند واليابان، لقد كانت تلك الهجرات لإنعاش الاقتصاد الأوروبي الذي عانى من الكساد الكبير عام ١٩٣٠، لذا فإن الحديث عن الهجرة واللجوء يجب أن يوضع في سياق صحيح، بأن رفض الهجرة واللجوء من بعد الاستعمار، يثير أسئلة أخلاقية كبيرة على الضمير الأوروبي.

استمرت الهجرات بعد ذلك في الستينيات من القرن العشرين وكان السبب الأساسي فيها هو الحروب الأهلية؛ فمع انقسام الهند كانت هناك حركة لملايين من المسلمين والهندوس بين البلدين، ولعل المثال الأظهر في تلك المنطقة هي بنغلاديش، فقد أقصي البنغال من الهند، ومع وجود جدار عزل بين الهند وبنغلاديش، شهدت العديد من النزوح الداخلي نتيجة لكوارث طبيعية بلغ ذلك النزوح أربعة ملايين، ثم ازدادت أعداد المهاجرين بعد الغزو الأمريكي لأفغانستان.

اللجوء والهجرة يشكلان ضغطاً اقتصادياً هائلاً على قدرات الدولة المضيفة، وتثير الكثير من الأسئلة حول الهوية ومسألة الآخر، وأخذت المسألة بعداً آخر بعد ظهور مفهوم العولمة وعلاقة الشمال بالجنوب، واحتياج الغرب للعمالة الذكية وعدم حاجته للعمال غير الذكية، مما أثار الكثير من الأسئلة حول التغيرات الديمغرافية على مستقبل العالم، وظهر للعيان خطورة مسألة الهجرة وتأثيرها الجيواستراتيجي؛ كما بين صموئيل هنتجتون في كتابه «صدام الحضارات»، فهناك تغيرات حضارية وسكانية قد تشكل ضغطاً حضارياً، فالنموذج الذي طرحه صموئيل يفترض وجود صراعات من الأقليات العربية في أوروبا تنتصر لها الدولة الإسلامية، ومن هنا ينشأ صدام الحضارات، هذا التصور هو الذي يجعل البعض ينفر من استخدام اللاجئين العرب فيما يسمى رهاب الآخر Xenophopia.[١٠]

٤٤ مليون إنسان هو مجموع اللاجئين الذين أخرجوا قسراً من أوطانهم، أو نزحوا من بلادهم قبل أن تظهر الأزمة الحالية، وكان أغلبهم قد جاءوا من حروب داخلية في الصومال والكونغو وميانمار وكولومبيا والسودان وأخيرا أفغانستان والعراق، وقد لاحظ المراقبون أن أكثر هذه الهجرات هو بين الدول النامية؛ أي أن اللجوء هو من الجنوب إلى الجنوب وليس إلى الشمال.[١١](انظر الجدول)

السنة	١٩٧٠	١٩٨٠	١٩٠	٢٠٠٠	٢٠٠٥
العالم	٨١	٩٩	١٥٤	١٧٤	٢٠٠
الدول النامية	٣٨	٤٧	٨٩	١١٠	
الدول المتقدمة	٤٣	٥٢	٦٤	٦٤	

جدول يبين عدد اللاجئين[١٢] في الفترة من ١٩٧٠-٢٠٠٥ (بالملايين)[١٢]

١٠- صموئيل هنتجتون، صدام الحضارات، دار الجماهيرية، ١٩٩٦

11-Algore, The Future, Random House, ٢٠١٣ (ALGORE), p ٨٣-٨٠٣

12- Source: UNDESA, World Economic and Social Survey: International Migration (New York: UN, ٢٠٠٤)



ثلاثة ملايين هاجروا من أفغانستان بعد الغزو الأمريكي معظمهم لجأ إلى باكستان أو إيران(ALGORE)، ووفقا لتقديرات تقرير التنمية البشرية تبين أن أغلب اللاجئين لدول مجاورة (٢ مليون في دول جنوب شرق آسيا) وفي إفريقيا (٢،٢ مليون منهم ٤،٣٠٠٠ في كينيا وحدها)، وفي الشرق الأوسط وشمال إفريقيا (١،٩مليون).

إن السياق التاريخي لهذه الظاهرة، خاصة في القرن العشرين، يبين أن التخوف الأوروبي من اللجوء إليها، يأتي في سياق أوسع من فهم معمق لهذه الظاهرة، كما أن التحكم في الظاهرة يبدو مستحيلاً، ولهذا فالتخطيط التنموي، والتماسك المجتمعي، وظاهرة الإرهاب، والضغط الديمغرافي ووحدة السياسات في الاتحاد الأوروبي وظاهرة التفاوت في التنمية بين دول العالم والاندماج الحضاري، كلها قضايا شكلت نقاشا ساخناً بعد الربيع.

الربيع العربي: نظرية التحول العظيم

شهد العالم موجات عدة من التغيرات والثورات، في أوروبا القرن الثامن عشر وفي أمريكا اللاتينية وفي شرق أوروبا، وكلها موجات شكلت ضغطاً ديمغرافيا لأنواع وأشكال متعددة من الهجرة، ورغم أن الإحصاءات للاحتراب الداخلي قد تناقص من بعد التسعينيات في القرن العشرين، إلا أن موجة جديدة من التغيرات نشأت هذه المرة في العالم العربي.

الربيع العربي سياق من هذه المتغيرات التي شهدتها كل المناطق في العالم، في كل تلك التغيرات كان هناك عنف وهجرة واحتراب داخلي، هناك عدة برامج معلوماتية ضخمة تحاول أن تضع كل المعلومات عن الحروب بطريقة يمكن استخلاص المعلومات المقارنة ومن ثم المعرفة (COW, UPDS ...)، فهناك إحصائيات عن الحروب داخل الدولة الواحدة، فبعد الحرب الكونية الثانية، وتحديداً العام ١٩٦٤ إلى العام ٢٠١١ هناك مئة واثنان دولة عانت من الحروب الأهلية. (٤٠) من هذه الحروب في إفريقيا، (٢٠) في أمريكا اللاتينية (١٨) في آسيا، (١٣) في أوروبا، (١١) في الشرق الأوسط (١٠،٩). هناك إجماع تقريباً حول تناقص عدد وزمن هذه الحروب من بعد

الزيادة الملحوظة في العام ١٩٩٢ بعد نهاية الإمبراطورية السوفياتية.

في الصراعات التي شهدت تدخلا دولياً، كان هناك تناقص في عدد الضحايا من ثلاثة ملايين بدون تدخل إلى مليون ونصف المليون بوجود تدخل أجنبي. كما أن الحرب بالوكالة حصدت (٧٠٠ألف) كل هذه الأرقام في الفترة من ١٩٦٤- ٢٠٠٨،[١٣] العرب ليسوا استثناءاً وسوريا ليس بدعاً من التاريخ، إلا أن سوريا تصدرت أعداد اللاجئين، وقسوة الحرب أجبرت الكثيرين على ترك الشام، وشهدت شواطئ أوروبا أفواجاً كبيرة من هؤلاء المهاجرين، تقدر الأمم المتحدة أن من بين كل (١١٣) إنسان هناك طالب لجوء أغلبهم من سوريا وأفغانستان والصومال حسب الأمم المتحدة[١٤].

تزايد الأعداد هذا هو الذي يعطي للمعطى التاريخي قيمته، فإن هذا اللجوء والتدفق الذي تجاوز لأول مرة حاجز الستين مليون حسب آخر المعطيات، يظهر أن هذه الموجات البشرية لها قيمة تاريخية في الجيواستراتيجيا كما كانت التحولات التي صحبت الهجرات العربية من الأندلس أو تلك التي صحبت تدفق المهاجرين من الفايكنج أو تلك التي توجهت للولايات المتحدة الأمريكية.

حسب المفوضية العليا للاجئين في كل دقيقة ينزح أو يهاجر فيها ٢٤ إنساناً، وتصدرت سوريا أعداد اللاجئين والنازحين في هؤلاء اللاجئين حيث بلغوا ٤،٩ مليون من طالبي اللجوء، وبلغ عدد النازحين ٦،٦ مليون نازح[١٥] لكن دون أن نسهب في ذكر الإحصاءات، فإننا سنذكرها في سياقها التاريخي حتى لا نخرج عن الإطار الذي ذكرناه عن تاريخ الظاهرة، لذا سنلجأ لنموذج تفسيري عبر ما يعرف بنظرية التحول العظيم، والتي أعطت للتغير السكاني دوره في التحولات الكبرى التي شهدها التاريخ.

لكن هذا التغير سيأتي في سياق آخر يندرج ضمنه، هو تأثيره الجيو استراتيجي والتنموي، لذا سنذكر الآن المسار الممكن (وفق الدراسات المتوفرة) لهذه الظاهرة في مستويين، مستوى حضاري تنموي (ندمجهما للاختصار) وآخر جيو استراتيجي.

١٣- Edward Newman, Understanding Civil war, Rutledge, ٢٠١٤ , p ٦٦٦٤ -٦٦٣
١٤- https://www.stratfor.com/situation-report/un-refugee-numbers-reach-record-high
١٥- http://www.unhcr.org/news/latest/٥٧٦٣/٦/٢٠١٦b٦٥a٤/global-forced-displacement-hits-record-high.html

جيو استراتيجيا اللجوء

يخلق اللجوء والنزوح الداخلي جغرافيا جديدة، وسيناريوهات مختلفة تؤثر في بناء النظام السياسي للدولة، والخبرة التاريخية في ذلك كثيرة، سواء في حرب الكوريتين إبان الحرب الباردة أو في الصراع بين ألمانيا الشرقية والغربية، والذي انتهى بجدار برلين، كما أن جمهورية إيطاليا عانت في القرن الثامن عشر من الانقسام والصراع بين الشمال والجنوب، نيجيريا وليبيا وغيرهما من الدول التي فيها هذا التناقض الذي يعزز الصراع، والذي يؤدي للنزوح لتنشأ جغرافيا جديدة.

يمكن أن نأخذ عينة واحدة من هذه الأمثلة، وهو ما حدث في باكستان عام(١٩٧١) بين حزب الشعب اليميني الجناح السياسي للمؤسسة العسكرية، والحزب الذي يمثل شرق باكستان، ولما كانت النتائج كفيلة بإخراج حزب الشعب نشبت الحرب وبدأ النزوح في شرق باكستان، ورغم محاولات الهند أن تتحصل على دعم دولي، إلا أنها لم تتحصل إلا على الوعود، واستمر ذلك النزوح والمخيمات ستة أشهر بلغت عشر مليون نازح، وكلفت خزينة الحكومة الهندية حسب مسؤولين أكثر من نصف مليار دولار، وانتهى الأمر بجدار يفصل الهند عن بنغلاديش حالياً.[١٦]

سيؤثر النزوح والتغيرات الديمغرافية في الخارطة السياسية لسوريا بلا شك، هذا التعدد والنزوح سيجعل الناس تكون «كانتونات» خاصة كل يقترب من طائفته أو ديانته أو عرقه، ومن ثم يصبح من السهل الحديث عن سيناريو التقسيم، هذا ما دلت عليه الخبرة التاريخية في كثير من الأمثلة، وبالطبع كانت الحرب بالوكالة جزء من المشهد كما في مثال الكوريتين، إذ كانت كوريا الشمالية تابعة للاتحاد السوفياتي، بينما كوريا الجنوبية دعمت من الولايات المتحدة الأمريكية، ومع النزوح والدخول في مفاوضات تتكرس الخارطة السياسية الجديدة.

الجيوسياسي في سوريا قريب من ذلك، فإن سوريا لها ساحل قصير على المتوسط نجد مجموعة جبال ومرتفعات يسكن فيها العلويون ومسيحيون ودروز في الغرب، بعد ذلك تنحدر الجبال إلى سهول ممتدة ونهرَ العاصي ووادي البقاع، ما إن ينتهي ذلك حتى نجد جبال الدروز ومرتفعات حوران وجبال لبنان الشرقية، مما يعزز وجود جماعات بشرية منعزلة عن بعضها (من الناحية الجغرافية)، بعد ذلك يغذي نهر برده واحة صحراوية

١٦- Ganguly, Sumit, and Brandon Miliate. “When Refugees Were Welcome.” Foreign Affairs. ٣١ July ٢٠١٦. Web. ٣١ July ٢٠١٦

> يخلق اللجوء والنزوح الداخلي جغرافيا جديدة، وسيناريوهات مختلفة تؤثر في بناء النظام السياسي للدولة

تسمى دمشق، لذا فإن دمشق تحتاج لتصل للساحل عبر لبنان أو من الشمال عن طريق حمص حماه إلى حلب.

هذا التنوع الذي خلقته الجغرافيا، تعزز عبر الانقسامات العرقية والطائفية، ورغم العيش المشترك الذي عاشته المنطقة، لكن هذه الحفريات تعززت بفعل سرديات انتشرت مع الثورة؛ فالحروب الأهلية لا تنشأ لأسباب طائفية كما يظن البعض، بل إن أغلب الدراسات تتجه نحو المطامع والأسباب السياسية، وما الانقسامات العرقية إلا سرديات تستخدم لتعزيز الصراع، ويبدو أن وجود هذا التنوع مع هذه الحرب قد عزز نوعاً من النزوح الذي يوحي بحالة من التقسيم. (انظر الخرائط التي تبين الجيوسياسي والتوزيع الطائفي للسكان في الروابط أدناه).[١٧]

هذه الجغرافيا جعلت سوريا عبر تاريخها محاطة بقوى عظمى، مما أفقدها القدرة على تكوين كيان قوي يواجه هذه المنعطفات الاستراتيجية التي تحيط بها، لذا سرعان ما تحولت الحرب في سوريا إلى حرب بالوكالة،

وفشلت الدولة في الحفاظ على وحدة البلد، وتعززت فكرة التقسيم وساعد النزوح على ذلك، وهذا ظاهر في الأكراد والعلويين والشيعة، مما دفع الأغلبية من السنة إلى أن تعيد هذه السردية المذهبية وتحرك التاريخ، كما هو دائما في التجارب التي شهدت انقسامات للدولة الواحدة بسردية الفيدرالية ثم الانقسام السياسي، كما في نيجيريا وكوريا والهند والسودان. على المستوى الجيواستراتيجي كذلك، نجد أن أكثر اللجوء كان إلى الدول المجاورة، ونظراً لأن الطوائف والأعراق في هذه المنطقة متداخلة، شكل هذا اللجوء خطراً على الدول المجاورة، ويحتاج الأمر لسياسات حكيمة للتعامل معه. تصدرت تركيا أكبر الدول التي استقبلت المهاجرين، وهذا يمكن أن يفهم في سياق تاريخي كذلك. (انظر توزيع الدول في استقبال اللاجئين). ودولة كالأردن أو لبنان كانت في الواجهة كذلك، بينما لم تستقبل دول الخليج أيا من اللاجئين بشكل رسمي، وتلكأت أوروبا في استقبال اللاجئين، وشكل ذلك ضغطاً كبيراً على الاتحاد، وجعله (مع عوامل أخرى يعاني) من أزمة حقيقة. وقد ظهر التأثير الجيواستراتيجي في الطرق التي يستخدمها اللاجئون نحو أوروبا، مما دفع الأخيرة للبحث عن وصول للصفقة مع تركيا للحد من هذه الهجرة.

١٧- "https://www.stratfor.com/weekly/geopolitics-syrian-civil-war", The Geopolitics of the Syrian Civil War is republished with permission of Stratfor."





أثبت التاريخ أن الهجرة ظاهرة يصعب التحكم فيها، وأثبتت اكتشافات الـ DNA أن البشر مهما علت أصواتهم نحو انتماءاتهم الوطنية، إلا أنهم كلهم بلا استثناء مهاجرون!!

تركيا لها خبرة طويلة في التعامل مع اللاجئين والمهاجرين، بل قيل إنها بلد المهاجرين، ففيها تنوع جغرافي وتاريخي منذ الحرب العالمية الأولى واستقبلت عديد المهاجرين من المسلمين من اليونان والبلقان وغيرها[١٨]، وقد شكل قدرتها على التعامل مع هذه الأزمة بشكل يمكنها من احتواء هذا العدد الهائل من المهاجرين، فضلاً عن الخطر الذي يتهددها من خلال الأكراد وتسلل الجماعات المتطرفة، ضغطاً سياسيا على تركيا، مما جعلها في نطاق واحد من الصراع الذي نشب في الشرق الأوسط؛ كما حدث في الانقلاب الأخير.

كيف سيؤثر هذا الوجود لهذه الكتل البشرية على الجغرافيا المتنوعة لتركيا، يبدو أنه سيؤثر في أوراق الضغط التي يتعامل بها صانع السياسة التركي لأن الخبرة التاريخية أظهرت قدرة هائلة على الاندماج في هذه المنطقة، لكن لن يخلو الأمر من ظاهرة «الدينمو» الحرب الأهلية التي تعانيها المنطقة، لذا سيشكل هذا التغير الديمغرافي للبحث عن نظام إقليمي ينظم الحياة السياسية في المنطقة بما يحقق مصالح الجميع، وهذا جوهر المسار السياسي في الأزمات التي تعانيها المنطقة.

تعرضت أوروبا كذلك لأزمة حقيقية بعد هذه الموجه من اللجوء، تاريخياً كانت الهجرات واللجوء جزءاً لا يتجزأ من العوامل التي شكلت جغرافيا القارة؛ فالهجرات واللجوء لم تنته، سواء من القارة إلى الولايات المتحدة الأمريكية أو أمريكا الجنوبية أو اللجوء إليها، كما فعل الروس بعد الثورة البلشفية أم الهجرة بداخلها كما بين ألمانيا الشرقية والغربية، واللجوء الذي صحب الحرب العالمية بين دول شرق أوروبا وألمانيا وفرنسا كذلك بعد استعمارها للمغرب العربي، وهجرة إيطالية إسبانية لأمريكا الجنوبية، لذا لابد أن تكون هذه الخبرة التاريخية ضمن العوامل المحددة لسياسات الاتحاد الأوروبي تجاه اللاجئين السوريين، لكن الاتحاد الأوروبي فيه نوع من الاضطراب في القدرات الاقتصادية للدول المشكلة، مما جعل العبء يقع على دول بعينها، وما أن جاءت أزمة اللاجئين، سواء من الحروب أو المهاجرين غير النظامين من السواحل الليبية بحثاً عن حياة أفضل، حتى دبت الخلافات في دول الاتحاد الأوروبي، ولم تجد محاولتهم لإجراء إصلاحات عن طريق كوتا تفرض على دول الاتحاد. وهكذا صار الاتحاد الأوروبي، خاصة بعد خروج بريطانيا منه، مهدداً بالانهيار، وهذا ما يجعل للجوء بعداً جيواستراتيجيا لا يخفى على مراقب.

المسار الحضاري والتنموي

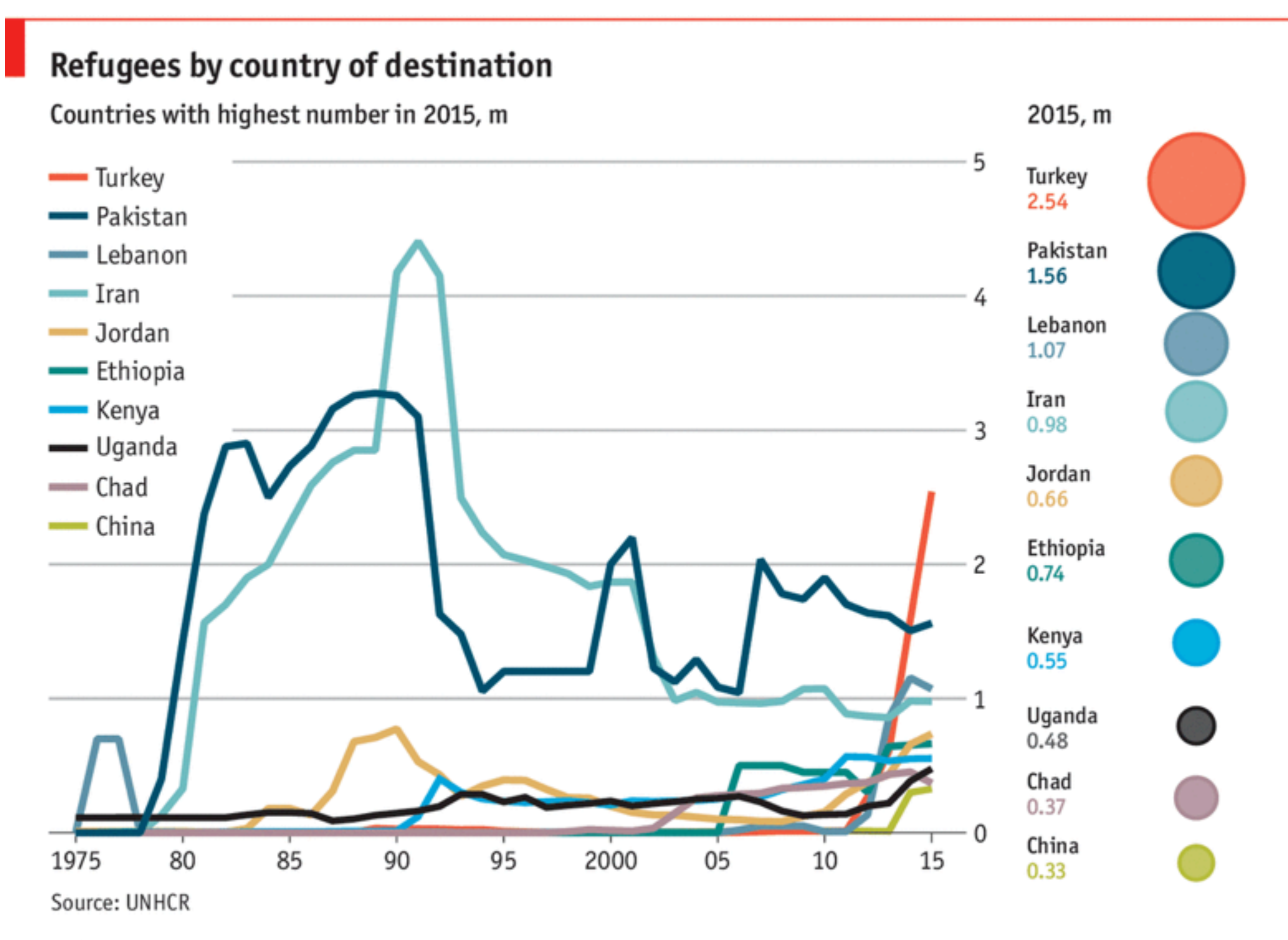
المسار الآخر الذي دلت عليه الخبرة التاريخية يتعلق بالتأثير طويل المدى لظاهرة اللجوء الجماعي؛ فالجدل الذي يكتب عنه المتخصصون حول تأثير هذه الأمواج البشرية على التنمية والتماسك المجتمعي لدول أوروبا، وكذلك البعد الديمغرافي لتوزيع الأديان والثقافات، وهل هذا جزء من التغيرات العظيمة التي تشهدها البشرية، حين تتكامل الحضارات؛ فالجزء الجنوبي من الأرض يعاني من كثير من الإشكالات التنموية، ومن ثم يصبح اللجوء جزء من عملية حضارية متكاملة كما هو مطروح في نظرية التحول العظيم (Great Transition).

للاختصار هناك نظريتان، الأولى ترى أن لا أحد من هؤلاء اللاجئين لم يتأثر بثقافة العنف في المنطقة، ومن ثم سيكونون عبئاً ومصدراً للاضطرابات في أوروبا، وهذا جاء من خبرة تفتت دولة بروسيا بين النمسا وألمانيا وعلاقة المكون السلافي، وكيف جر ذلك على أوروبا الكثير من النزاعات، لكن تبدو هذه المقاربة بعيدة شيئاً ما، إذا أخذنا أن حوالي ثمانية عشر مليون مهاجر ولاجئ (١٨ مليون)، لكن هناك حالات مشابهة شهدت دراسات نفسيه حول الميل والعنف أجريت عام (٢٠٠٨) بينت أن من يعاني هذه الحروب يصبح أقل ميلاً للعنف من غيره[١٩]، وكما أثبت التاريخ أن الهجرة ظاهرة يصعب التحكم فيها، وأثبتت اكتشافات الـ DNA أن البشر مهما علت أصواتهم نحو انتماءاتهم الوطنية، إلا أنهم كلهم بلا استثناء مهاجرون!!

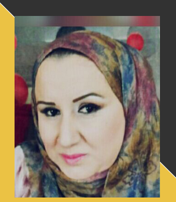
١٨- https://www.foreignaffairs.com/articles/turkey/٢٠١٦-٠٥-٢٤/can-turkey-assimilate-its-refugees

كما ذكرنا في هذه الورقة الأعداد التي هاجرت من اليونان إلى تركيا.

١٩ Bollfrass, Alex, Andrew Shaver, and Yang-Yang Zhou. "Don't Fear Refugees." Foreign Affairs ٢ .Aug ٢٠١٦ .Web ٢ .Aug ٢٠١٦


Refugees by country of destination
Countries with highest number in 2015, m
Turkey
Pakistan
Lebanon
Iran
Jordan
Ethiopia
Kenya
Uganda
Chad
China
5
4
3
2
1
0
1975
80
85
90
95
2000
05
10
15
2015, m
Turkey 2.54
Pakistan 1.56
Lebanon 1.07
Iran 0.98
Jordan 0.66
Ethiopia 0.74
Kenya 0.55
Uganda 0.48
Chad 0.37
China 0.33
Source: UNHCR
Economist.com

الأبعاد الفكرية لظاهرة اللجوء الإنساني



بقلم:
د. يسرى وجيه السعيد
كاتبة وباحثة سورية
متخصصة في فلسفة العلم



لا يختار الإنسان اللجوء رغبةً في تحسين مستوى معيشته، أو حباً وعشقاً للسفر؛ وإنما هروباً من مكان لم يعد يضمن فيه البقاء، ولا الأمان، ولا أي سبيل للعيش السليم

كتب ابن منظور: «الوطن هو المنزل الذي تقيم فيه، وهو موطن الإنسان ومحله، ووطن بالمكان وأوطن أقام، وأوطنه اتخذه وطناً، والموطن يسمى به المشهد من مشاهد الحرب وجمعه مواطن، وفي التنزيل العزيز، لقد نصركم الله في مواطن كثيرة، وأوطنت الأرض ووطنتها واستوطنتها أي اتخذتها وطناً»[1].

وربما كانت كلمة الوطن من أوسع الكلمات التي يستطيع الإنسان التعبير عنها؛ فهو حين يتحدث عن الوطن يكون قاصداً بذلك كل ما يتعلق بكينونته، ووجوده مُذ خلق، ويكون قاصداً بذلك كل المشاعر والعلاقات التي ربطته بذلك المكان الذي احتواه، وضمّ في ثناياه كل ما يتعلق بحياته!

ولم يكن الاغتراب عن الوطن سهلاً، ولا أمراً عابراً، أو بسيطاً، فتزخر- كما نعلم- كتب الأدب بأروع القصائد والقصص والروايات، التي كُتِبت لتصف معاناة الإنسان حين يغادر ذلك الوطن الأم.

في بحثنا هذا، سنسلط الضوء على ظاهرة الاغتراب عن الوطن؛ لكن بمفهومها القسري، ونقصد بذلك مفهوم اللجوء، الذي لا يختاره الإنسان رغبةً في تحسين مستوى معيشته، أو حباً وعشقاً للسفر؛ وإنما هروباً من مكان لم يعد يضمن فيه البقاء، ولا الأمان، ولا أي سبيل للعيش السليم.

وقد حظي موضوع اللجوء باهتمام كبير، ومتزايد لاسيما في السنوات الأخيرة. والأسباب التي أدت لذلك هو تزايد هذه الظاهرة، وتفاقمها، وانتشارها في قارات مختلفة من العالم، وذلك بسبب انتهاك حقوق الإنسان في العديد من دول العالم مما يضطر العديد من الأفراد

١- ابن منظور، "لسان العرب"، دار صادر بيروت، ١٩٦٨، المجلد ١٣، ص ٤٥١



ولكـن السـؤال الـذي يطـرح نفسـه:

هـل قـدم الإعـلان العالمـي لحقـوق الإنسـان مـا يكفـل بقـاء إنسـانية هـذا اللاجـئ؟ وبمعـنى أكـثر صراحـة: هـل ضمـن لـه وسـائل الحصـول عـلى اللجـوء الـتي تحفـظ لـه كرامتـه؟ أم أن الإنسـان وجـد نفسـه في صراع مريـر للحصـول عـلى اللجـوء؟! صراعـاً كلفـه كرامتـه، وإنسـانيته، وفي أكـثر الأحيـان حياتـه ذاتهـا !.

أولاً: الهويـة الجديـدة بـين مـا كانـت عليـه، ومـا آلـت إليـه

يعـرِّف وليـم جيمـس الـذات أو «الأنـا التجريبيـة» emepricalme بأنهـا «المجمـوع الـكلي لـكل مـا يسـتطيع الإنسـان أن يدعـي أنـه لـه: جسـده وسـماته وقدراتـه وممتلكاتـه الماديـة وأسرتـه وأصدقـاؤه وأعـداؤه ومهنتـه وهواياتـه»، وقـد حـاول جيمـس الابتعـاد عـن مفهـوم الأنـا الخالصـة، ووجـد أنـه، في علـم النفـس الطبيعـي، يمكـن تعريـف الأنـا بأنهـا «ذلـك التيـار مـن التفكـير الـذي يكـوّن إحسـاس المـرء بهويتـه الشـخصية»[٢].

وانطلاقـاً مـن هـذا التعريـف، تغـدو الأنـا كلا متكامـلا يشـمل الـروح والجسـد والرغبـات والعواطـف، والأفعـال الـتي تخـص الإنسـان، وتشـكل بصمتـه الخاصـة الـتي تميـزه عـن غـيره مـن بـني جنسـه.

٢ بكري علاء الدين، الأنا، الموسوعة العربية، المجلد الثالث، ص ٧٠٠

إلى الهـروب، ناشـدين اللجـوء لـدول أخـرى طلبـا للحمايـة أو اتقـاء للاضطهـاد أو التعسـف.

ومـع تزايـد تلـك الظاهـرة، بـرز مصطلـح اللاجـئ كرديـف لهـا، ليشـير إلى الشـخص الـذي ابتعـد عـن وطنـه الـذي ينتمـي إليـه خشـيةً، أو هربـاً مـن الاضطهـاد لأسـباب تتعلـق بالعِـرق، أو الديـن، أو الجنسـية، أو الـرأي السـياسي، أو الانتمـاء إلى فئـة اجتماعيـة خاصـة، ولا يريـد أن يضـع نفسـه تحـت حمايـة بلـده الأصـلي، وهـذا مـا نصـت عليـه المـادة ١٤ مـن» الإعـلان العالمـي لحقـوق الإنسـان»؛ فمـن حـق كل فـرد أن يلجـأ إلى بـلاد أخـرى، أو يحـاول الالتجـاء إليهـا هربـاً مـن الاضطهـاد.

وإذا كانت العقود الخمسة الأخيرة التي مرت على الإنسان المعاصر- والتي تضمنها القرن العشرين والواحد والعشرين- قد شهدت اهتماماً بتطور العلوم الطبيعية، ومن ثم التركيز على علم الحياة، فإننا لاحظنا تعاظم الاهتمام أكثر بدراسة الفرد، وتغيير مفهوم الإنسان المعاصر.

ولعلّ الحروب التي شهدتها بعض الدول العربية كنتاج لما سمي بحراك الربيع العربي، قد غيرت ملامح الذات ولنقل بدلتها تماماً.

وقد شكلت محنة اللجوء التي فُرضت على الإنسان العربي في سوريا والعراق وليبيا واليمن وتونس مرحلة جديدة، ومهمة في حياته، وبرزت معها العديد من التغييرات التي طالت وجوده، وتواجده، ولابد أنها طالت شخصيته بمجملها!

وتبدو تجليات ذلك التغيير واضحة بحق العديد من المفاهيم؛ ويأتي على رأسها مفهوم الهوية، ولما كانت الهوية تشير بداية لما يكون به الشيء نفسه، وتدل على الميزة الثابتة في الذات، فإننا هنا، ومع ما مر به الإنسان العربي خلال تجربة اللجوء، نجد أنفسنا كمفكرين أمام طرح مفهوم «الهوية الثقافية» التي نشير من خلالها إلى منظومة القيم والعادات والتقاليد واللغة والمعتقدات والتاريخ المشترك والتطلع الموحد للمستقبل لمجموعة بشرية، ونقصد بتلك المجموعة «مجموعة المهاجرين الجدد» إلى أوروبا وباقي دول العالم.

والهوية الثقافية تمثل الإطار والمرجع الذي يوجه سلوك الفرد، ويحدد اختياراته وعقائده بما يكسب وجوده دلالة ومعنى؛ هذا الوجود الذي سيأخذ دوراً فاعلاً ومنفعلاً بآن، وذلك حسب مواقفه واختياراته، وتفهمه للوضع الذي آل إليه.

ولعلنا سنواجه اتجاهات كثيرة يحاول كل منها أن يفهم الوضع الجديد، وأن يهيئ ذاته لتقبله، أو رفضه، ولا نخفي هنا أن التيارات الوجودية قد بشرت بالنفس البشرية المضطربة، والتي تتأرجح مكنوناتها بين وجود خلاق تصنعه بإرادتها متجاوزة كل العقبات التي قد تواجهها في بيئتها الجديدة من جهة، وبين وجود عدمي كل المطلوب منه أن ينكر فقط، وليس ملزماً بتقديم أي شيء أو بناء يحل محل ما هدمه. ويرى أصحاب هذا الرأي أنه «في الوقت الحاضر، يبدو أن الوسيلة النافعة أكثر من غيرها هي الإنكار، ومن ثم فإن علينا أن ننكر»[٣].

وربما أهم ما يحتاجه اللاجئ- المهاجر- هو معرفة ذاته أولاً، وما تكتنزه هذه الذات من معارف وقيم، ومفاهيم بإمكانها مساعدته على تجاوز محنة اللجوء التي فُرضت عليه، وقد «ربط ابن سينا بين الأنا والوعي، واعتقد أن الأنا يمكن أن تنقطع عن كل شيء إلا عن أنيتها، ومن ثم يستبعد أن تكون الشخصية مرتبطة بالمظاهر الجسمانية والحسية»[٤].

فلأن جوانب عديدة بإمكانها أن تطور ذاتها، وتحافظ على استقلالها بآن معاً؛ فالتعايش مع حضارة جديدة لا يعني الانصهار الكامل معها، وهنا تبرز إرادة الفرد، ومشيئته الخلاقة، ولاشك أن تلك الإرادة يشوبها الكثير من العوائق، ويتخللها الكثير من المحبطات، فنحن أمام شخص جديد يريد بناء شخصيته، بالإضافة لها حيناً، أو تناسي بعض مكوناتها حيناً آخر.

> إن الحروب التي شهدتها بعض الدول العربية كنتاج لما سمي بحراك الربيع العربي، غيرت ملامح الذات ولنقل بدلتها تماماً

---

٣ جون ماكوري، الوجودية، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، العدد ٥٨، أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٨٢، ص ٣٦

٤ خضر عباس، الأنا والآخر بين الفلسفة والسيكولوجيا، مدونة الدكتور خضر عباس.



يمكن أن تعد الهوية ضمن هذه المفاهيم التي ليس لها تاريخ؛ فهي تعتبر بمثابة كلمة مجردة، يرجع استعمالها إلى الأصول الأولى للفكر

حقاً فإن «إرادة تمجيد الإرادة، إرادة الإنجاز والانتصار، إرادة أن نقول للحياة نعم، وآمين، مقرونة بعقيدة العود الأبدي الجامدة، وبألوان الفشل والعذاب الكثيرة، وفي استطاعتنا أن نقول إن هذه الآلام هي بمعنى ما آلام العصر وقلقه»[٥]. نحن جميعاً في عصر القابض فيه على ذاته، ومكوناتها، كالقابض على جمرة، وحتى قبل الحرب شكل الصراع الفكري بين الحضارات غزواً هيمن على مفاصل حياتنا في كل بلداننا العربية.

وأما الآن وقد وضعتنا الحرب في صلب التغيير، وصهرتنا ببوتقته، فلم يعد بالإمكان الهروب، أو التغاضي عن متطلبات الحياة المعاصرة، واتخاذ موقف جاد من كل التغييرات التي رافقت رحلة اللجوء والتهجير.

وليست تلك بالمهمة الصعبة، ولاهي بالأمر المستحيل فقد اعتاد الإنسان دائماً أن يشق طريقه مساهماً في بناء الإنسانية وازدهارها، «إذ يأتي الإنسان إلى هذه الكرة الأرضية بدون قوة جسدية، وبدون أفكار تولد معه، وغير قادر بذاته على متابعة قوانين طبيعته الأساسية التي ترفعه إلى قمة المملكة الحيوانية، ولا يستطيع الوصول إلى المركز المرموق الذي اختصته به الطبيعة إلا إذا كان في وسط مجتمع. وبدون حضارة

٥ الوجودية، جون ماكوري، مرجع سابق، ص ٦٣





يكون الإنسان واحداً من أضعف الحيوانات وأقلها ذكاءً»[٦].

ولعل اللجوء المرّ قد وضع الإنسان العربي وجهاً لوجه أمام حياة جديدة، يترتب عليه فيها مواجهة الكثير من التحديات، والمصاعب التي ستكرس دوره في هذه الحياة المعاصرة؛ فإما أن يثبت وينهض، أو يلغي كينونته ووجوده بأن يكون مجرد كائن متلقٍ لا يستطيع أن ينفعل أو يتفاعل مع البيئة الجديدة.

ويدرك القارئ أن الأسباب القاهرة، والظروف القاسية التي أنتجت تجربة الهجرة ستترك أثرا حادا وموجعاً في النفس الإنسانية التي تعرضت لتلك التجربة، والتي خاضتها بأشد صورها.

ولن يكون سهلاً على تلك النفس أن تبدأ رحلة البحث عن ذاتها بدون أن تتعرض للكثير من المطبات الروحية، وبدون أن تواجه الكثير من المشاكل.

فاللغة مثلاً، وهي إحدى أوائل العقبات التي ستواجه الإنسان العربي المهاجر، سترسم له خطاً فكرياً يتأرجح بين ما هو ماضٍ وحميم، وبين ما اكتسبه من لغة جديدة لا تربطه بها إلا روابط قانونية؛ فالاندماج يوجب تعلم اللغة، وهذا بدوره يدفعك لاختزال الكثير مما تود قوله ريثما تتعلم وتتقن اللغة الجديدة.

الهوية الجديدة التي تكتسبها كلاجئ، أو مهاجر- بتعبير آخر- ستكون إشارة لشخص طوى لغته الأم، ووضع بديلاً عنها لغة، وأساليب تعلمها، ومن ثم تفرز لك منطقاً يكاد يكون مشوهاً ريثما تتقن لغة جديدة تقيدك بقواعدها، لغة تختصر فيها الكثير من المشاعر والطلبات، وربما تلجأ إلى الإشارة فيها كأداة مساعدة أكثر من الحرف الذي كنت تتباهى بانتقائه، وربما تتفنن باختياره أيضاً؛ فاللغة ليست مجرد أداة للتعبير عن الآراء، وإنما أداة لتشكيل تلك الآراء، إننا نحلل ونشرح الطبيعة بحسب الخطوط التي وضعتها لغتنا الأصلية»[٧].

ولسنا هنا في صدد ذكر كل العقبات التي ستعرقل تكيف اللاجئ على أرضٍ جديدة؛ ولكننا نؤكد أن ذلك التكيف يتطلب منه الكثير من المواجهات، والذكاء في تجاوز تلك العقبات، بمعنى آخر ليس أمراً سهلاً، ولا هو بالأمر المستحيل، لأن مفهوم الهوية ذاته عبر العصور لم يكن يشير إلى الثبات، بل كان الفلاسفة والمفكرون حريصين على توضيح ضرورة تطوير تلك الهوية بما يناسب عمر الإنسان حيناً وبيئته حيناً آخر، إنه سؤال غريب، كما قد يخطر على البال؛ إذ يبدو أن الهوية يمكن أن تعد ضمن هذه المفاهيم التي ليس لها تاريخ؛ فهي تعتبر بمثابة كلمة مجردة، يرجع استعمالها إلى الأصول الأولى للفكر.

إن الفلاسفة ما قبل سقراط، مثل بارميندس أو هراقليطس، كانوا دائماً محتارين حول مسألة هو ذاته والآخر، وكيف يمكن التوفيق بين التغير والهوية؟ كذلك طرح السؤال. وبالنسبة إلى بارميندس، وإلى إيليين تبعاً له، من الصعب أن نفكر في التحول، لأنه إذا لم يكن «أ» على ما كان عليه، فهل «أ» يبقى هو «أ»؟ وعلى خلاف ذلك بالنسبة إلى هراقليطس: كل شيء في حركة دائمة، إذن لمفهوم الهوية - كما نرى- دلالة واسعة وجدّ عامة تتجاوز بكثير قضية الهوية الإنسانية. يدل على ذلك لغز سفينة تيزوس التي عوضت أجهزتها ومواد بنائها شيئاً فشيئاً طوال مدة رحلاتها بين بيراس وديلوس: فسوفسطائيو أثينا تساءلوا هل فعلاً يتعلق الأمر في النهاية بالسفينة

٦ بيتر فارب، بنو الإنسان، ترجمة زهير الكرمي، عالم المعرفة، العدد ٦٧، يوليو ١٩٨٣، ص ١١

٧ بنو الإنسان، المرجع السابق، ص ٢٠٢

> قلب الربيع العربي المصطلحات رأساً على عقب؛ ووضع الإنسان العربي أمام حالة من فقدان الذات واستلابها لكل مفاهيمها، ومبادئها، وأفكارها

نفسـها؟ المشـكلة إذن تكمـن في هـذه السـفينة الـتي تـم تجديدهـا كليًّـاً، أو في ذاك الشـخص المسـمى سـقراط بالنظـر إلى جميـع مراحـل حياتـه، هـل يمكـن أن نقـول: إنهمـا همـا أنفسـهما بالرغـم مـن التحـولات الـتي طـرأت عليهمـا؟

لكـن لا شـك أن الإشـكالية المعـاصرة لمفهـوم الهويـة لا تعـود في أصلهـا إلى الـتراث الميتافيزيقـي، إذ بعـد أكـثر مـن عشريـن قرنـاً، تحـددت المسـألة، حيـث بـدأت تقـترب بمـا يشـغل العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة حاليـاً، وذلـك بفضـل الطريقـة الـتي طـرح بهـا الفلاسـفة الأمبريقيـون[٨] - وعـلى رأسـهم دافيـد هيـوم وجـون لـوك- مشـكلة الهويـة الشـخصية: كيـف يمكـن التفكـير في وحـدة الأنا في الزمـان؟ هـل أنـا الشـخص نفسـه الـذي كنتـه قبـل عشريـن سـنة؟ لقـد اقـترح جـون لـوك حـل إشـكال الهويـة الشـخصية بفكـرة الذاكـرة: إذا كنـت الشـخص ذاتـه الـذي كان قبـل عشريـن سـنة، فلأنـي أذكـر مختلـف المراحـل الـتي مـر بهـا وعـيي أو شـعوري»[٩].

وبهـذا فـإن الهويـة متجـددة، وعليـه فـإن المهاجـر العـربي لـن يكـون قـد قصـم ظهـر الحقيقـة، إن هـو تأقلـم، وطـور شـخصيته بمـا يتـلاءم مـع البيئـة الجديـدة الـتي فرضتهـا الظـروف، والـتي اختارهـا هـو بـآن.

وهـو الآن عـلى مفـترق طـرق مـن التطـور الحضـاري؛ فإمـا أن يسـاهم ويبـدع في بنـاء تلـك الحضـارة المعـاصرة، وإمـا أن ينصهـر ضمـن مكوناتهـا، فيكـون مجـرد كائـن اسـتهلاكي مشـبعاً بحاجاتـه البيولوجيـة فقـط.

> إن الهوية متجددة، وعليه فإن المهاجر العربي لن يكون قد قصم ظهر الحقيقة، إن هو تأقلم، وطور شخصيته بما يتلاءم مع البيئة الجديدة التي فرضتها الظروف

---

٨ الأمبريقية: تترجم -التجريبية، وهي وجه فلسفي يؤمن أن كامل المعرفة الإنسانية تأتي بشكل رئيس عن طريق الحواس والخبرة. تنكر التجريبية وجود أية أفكار فطرية عند الإنسان أو أية معرفة سابقة للخبرة العملية.

٩ إلياس بلكا، مفهوم الهوية: تاريخه وإشكالاته، مجلة الكلمة، العدد٤٦، ٢٠٠٥



ثانيا: دور الوافدين الجدد في بناء الحضارة الإنسانية

دعـا الشـاعر أبـو تمـام منـذ قـرون للسـفر، وللبحـث عـن مـكان آخـر يمنحـك فرصـة التجـدد[١٠]:

وطولُ مقامِ المرءِ في الحي مخلقٌ
لديباجتيهِ فاغترِبْ تتجدَّدِ

فإني رأيْتُ الشَّمسَ زيدتْ مَحَبَّة
إلى النَّاس أن ليْسَتْ عليهمْ بِسرْمَدِ

ولعـل الربيـع العـربي؛ كمـا أُطلـق عليـه، منـح الإنسـان العـربي فرصـة التجـدد، لكـن ليـس بإرادتـه؛ وإنمـا قسريـاً هـذه المـرة.

١٠- أَبو تَمّام: (١٨٨ - ٢٣١ هـ / ٨٠٣ - ٨٤٥ م)، حبيب بن أوس بن الحارث الطائي.
أحد أمراء البيان، ولد بجاسم (من قرى حوران بسورية)، ورحل إلى مصر واستقدمه المعتصم إلى بغداد فأجازه وقدمه على شعراء وقته فأقام في العراق ثم ولي بريد الموصل فلم يتم سنتين حتى توفي بها.
كان أسمر، طويلاً، فصيحاً، حلو الكلام، فيه تمتمة يسيرة، يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة من أراجيز العرب غير القصائد والمقاطيع.
في شعره قوة وجزالة، واختلف في التفضيل بينه وبين المتنبي والبحتري، له تصانيف، منها فحول الشعراء، وديوان الحماسة، ومختار أشعار القبائل، ونقائض جرير والأخطل، نُسِبَ إليه ولعله للأصمعي كما يرى الميمني.
وذهب مرجليوث في دائرة المعارف إلى أن والد أبي تمام كان نصرانياً يسمى ثادوس، أو ثيودوس، واستبدل الابن هذا الاسم، فجعله أوساً بعد اعتناقه الإسلام ووصل نسبه بقبيلة طيء وكان أبوه خماراً في دمشق وعمل هو حائكاً فيها ثمَّ انتقل إلى حمص وبدأ بها حياته الشعرية. وفي أخبار أبي تمام للصولي: أنه كان أجش الصوت يصطحب راوية له حسن الصوت فينشد شعره بين يدي الخلفاء والأمراء.

تسم ظاهرة الاغتراب القرن الحادي والعشرين، ويشكل الاغتراب بعداً نفسياً آخر طبع الشخصية العربية لكن تحت مسمى جديد هو اللجوء، فمن اغتراب داخلي تجلى برفض كل الأحداث المهولة التي زامنت الثورات العربية، والذي تبدو أول صوره بالهرب من مكان ينتفي فيه شرط العيش الآمن إلى مكان آخر ينشد من خلاله الحياة السالمة- ونقصد هنا النزوح الداخلي كمسمى لما جرى مع السوريين مثلاً، بنزوحهم أكثر من مرة من مدينة مشتعلة لمدينة أخرى أكثر أمناً- وتتسع الدائرة لتتساوى الأماكن والمدن داخل الوطن بكل مظاهر الخوف والرعب، لتبدأ رحلة نحو اغتراب خارجي عابر للقارات هذه المرة، ومختلف جذرياً عن كل ما مارسته الروح الإنسانية من اغتراب!!

وإذا كان الفلاسفة وعلماء الاجتماع قد حاولوا طرح معانٍ قدموا من خلالها تعريفاً لمصطلح الاغتراب، وذلك من خلال دراسة البعد الفكري والنفسي والاجتماعي لتلك الحالة؛ حيث اعتبر الاغتراب هو: «انتقال الصراع بين الذات والموضوع (الآخر) من المسرح الخارجي إلى النفس الإنسانية، وتتجلى صورة هذا الاضطراب في توتر العلاقة التي تهدف إلى التوفيق بين مطالب الفرد وحاجاته ورغباته من ناحية، وبين الواقع وأبعاده من ناحية أخرى».

ويظهر هنا نوع الخبرة التي يجد فيها المرء نفسه كغريب- فاللاجئ شخص فقد اتصاله بنفسه وبالآخرين-، وهي خبرة تنشأ نتيجة المواقف التي يعيشها الفرد مع نفسه ومع الآخرين، ولا تتصف بالتواصل والرضى، ومن ثم يصاحبها الكثير من الأعراض التي تتمثل في العزلة أو الانعزال والتمرد والرفض والانسحاب والخضوع، وبكلمات أخرى: الاغتراب عن الذات هو شعور الفرد بأن ذاته ليست واقعية، أي: تحويل طاقات الفرد وشعوره بعيداً عن ذاته الواقعية.

يعد اللجوء تجربة جديدة تضع الإنسان العربي، وهو محور حديثنا أمام خيارات لن نجازف ونقول إن أحلاها مرّ؛ لكن سنتفاءل لنقل إنها ستحتاج منه أفقاً واسعاً وجديداً بكل معنى الكلمة حيث يضع نصب عينيه أن كل شيء تغير، وأن كل ما يجب عليه هو الكشف السحري عن طرق التأقلم مع هذا الجديد، أو على أقل تقدير عدم هروبه من ذلك الواقع، والانكفاء على ذات ضيعت الحرب منها الكثير من ملامحها.

> إننا أمام تحدٍ كبير يواجه المواطن العربي الذي تعرض لتجربة اللجوء، وهذا التحدي سيتطلب منه إعادة البناء لكل المفاهيم التي تخص التواصل والتكيف والاندماج

نعـم، لقـد قلـب الربيـع العـربي المصطلحـات رأسـاً عـلى عقـب؛ ووضـع الإنسـان العـربي أمـام حالـة مـن فقدان الـذات واسـتلابها لـكل مفاهيمهـا، ومبادئهـا، وأفكارهـا، فهـو الآن أمـام حالـة جديـدة تحمـل في طياتهـا بـذور التحـدي والإرادة، وربمـا يضطـر أن يقبـل أن يكـون تحـت سـلطة قانـون سـيجرده مـن كل حقوقـه تجـاه أولاده وعائلتـه، ليجـد نفسـه كائنـاً آخـر لـم يبـق لـه مـن ثقافتـه أو عاداتـه أو تقاليـده إلا مـا يدخـل في رحـاب النوسـتالجيا، والذكريـات الـتي تفـرض عليـه حياتـه الجديـدة تجاوزهـا والاندمـاج مـع عالـم قـد لا يقبـل مـن ماضيـه الا مـا ينـدرج تحـت دائـرة القصـص والحكايـا؛ ولسـنا بصـدد تقديـم رؤى سـلبية تعـدم دور الإنسـان العـربي، وتحولـه لمجـرد متلقـي لـكل منتـج ثقـافي أو حضـاري أو مـادي، فمـن يـدري فمـع اقـتراب نهايـة العقـد الثـاني مـن القـرن العشريـن قـد تلـوح في الأفـق معالـم ثـورة ثقافيـة كونيـة؛ لا يخفـى عـلى أحـد أن الحـرب الدائـرة في بعـض الـدول العربيـة أحـد أهـم محركاتهـا؛ فالهجـرة الكبـيرة الـتي فرضتهـا تلـك الحـرب الجائـرة عـلى الملايـين غـيرت التـوزع الجغـرافي للعـرب وللبـلاد الـتي هاجـروا إليهـا أيضـاً، وبالتـالي مـا يطـرح نفسـه عـلى الدائـرة الفكريـة هـو: إلى أي حـد أثـرت وسـتؤثر تلـك الهجـرة في تبـدل الآراء والمواقـف وحـتى الثقافـة العامـة لـدى الجميـع؟! وإلى أيـة درجـة سـيكون اللاجـئ العـربي قـادراً عـلى إثبـات ذاتـه الـتي سـلبتها الحـرب كل مخزوناتهـا الثقافيـة والاقتصاديـة والفكريـة، والاجتماعيـة أيضـاً؟

هـي فرصـة جديـدة للنهـوض مـن ركام الحـرب، والبـدء بحيـاة جديـدة تُرسـم ملامحهـا عـلى قـدر اندماجـك، وتفهمـك، وطموحـك لأخـذ دورٍ بنـاء في هـذه البيئـة الـتي سـتعيش فيهـا لفـترة قـد تطـول وقـد تقـصر، وقـد تسـتمر للأبـد، وهـذا يجـب ألا يمثـل عائقـاً، أو حجـة بعـدم التفاعـل؛ «لأن المكـون الحاسـم الرئيـس للتغـير في العـصر الراهـن يتمثـل في العقليـة قصـيرة الأمـد، الـتي جـاءت لتحـل محـل العقليـة طويلـة الأمـد، فالزيجـات القائمـة عـلى مقولـة - تعاهدنـا ألا يفرقنـا إلا المـوت-، صـارت موضـة قديمـة تمامـاً، وصـارت عملـة نـادرة، وتشـير أحـدث الإحصائيـات إلى أن الشـاب الأمريـكي الـذي يحظـى بمسـتوى معتـدل مـن التعليـم يتوقـع أن يغـير وظيفتـه عـلى الأقـل إحـدى عـشرة مـرة في حياتـه المهنيـة، فالمرونـة هـي شـعار اليـوم»[١١].

ولسـنا هنـا بصـدد تزيـين الصـور، أو تلميعهـا؛ فلاشـك فيـه أن الحيـاة الجديـدة الـتي وجـد اللاجـئ العـربي نفسـه فيهـا تحمـل في طياتهـا، الكثـير مـن المفاجـآت، والـتي يمكـن ألا تكـون بمجملهـا سـعيدة، أو عـلى الأقـل كمـا يجـب أن تكـون.

١١- زيجمونت باومان، الحداثة السائلة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بروت، ط١، ٢٠١٦

«إن العيـش بـين وفـرة متنوعـة مـن القيـم والأعـراف وأسـاليب الحيـاة المتنافسـة دون ضمـان موثـوق بـأن المـرء عـلى الطريـق الصحيـح، إنمـا هـو عيـش محفـوف بالمخاطـر، ويتطلـب ثمنـاً سـيكولوجياً غاليـاً»[١٢].

هـي تجربـة جديـدة سـتفتح الآفـاق أمـام الإنسـان العـربي وفي اتجاهـين: اتجـاه نحـو بنـاء ذاتـه الـتي هشـمتها الحـرب، واتجـاه للمسـاهمة في بنـاء حضـارة جديـدة اختـار أن تكـون بديـلاً لوطنـه.

وليـس المطلـوب تهميـش كل مـا ورثنـاه عـن آبائنـا مـن قيـم وأخلاقيـات مـن جهـة، ولا تبـني أخلاقيـات الحضـارة الجديـدة بشـكل أعمـى وأحمـق وأهـوج؛ وإنمـا مـا نأملـه حقـاً هـو أن يحمـل الإنسـان العـربي لذلـك المجتمـع قيمـه وأخلاقـه الجميلـة الـتي اكتسـبها، وأن يـترك بصماتـه الإيجابيـة في ذلـك المجتمـع الـذي عـرف تمامـاً أبنـاؤه كيـف يطـوروه.

هـي فرصـة ذهبيـة للإنسـان العـربي وضعتـه- وعـلى الرغـم مـن كل الظـروف الـتي كانـت سـبباً في هجرتـه أمـام تحديـات الكينونـة الجديـدة، وبنـاء الشـخصية الحضاريـة الـتي تجمـع بـين القيـم والمعـاصرة الرائعـة الـتي تمكـن ذلـك الإنسـان مـن تجـاوز كل المطبـات الـتي مـرت بهـا روحـه، وتسـاعده في بنـاء شـخصية جديـدة لكنهـا أصيلـة وفاعلـة وتسـتحق التقديـر، وتبعـد عنـه في ذات الوقـت كل الصـور المسـبقة الموجـودة في ذهـن المجتمعـات الأخـرى.

الاندمـاج مـع الحضـارات الأخـرى حـق ضروري، بـل وواجـب، وهـو لا يلغـي شـخصيتك، ولا يلبسـك ثوبـاً فضفاضـاً؛ وإنمـا يمنحـك رحلـة طريفـة وجديـدة لذاتـك عـبر قـارات سـتمنحك الكثـير مـن العطـاءات الـتي إن عرفـت كيـف تقيمهـا، سـتكون إضافـةً جميلـة لـكل مـا حلمـت بـه ذاتـك أو طمحـت إليـه[١٣].

لقـد وصـل اللاجـئ لتلـك الأرض مجـرداً مـن كل ممتلكاتـه، ومخزوناتـه الماديـة، وهـو في حالـة مـن بنـاء الـذات مـن جديـد، يحـاول مـن خلالهـا أن يكتسـب مـا يغـني شـخصيته مـن جهـة، ويثبـت فيهـا تلـك الـذات مـن جهـة ثانيـة، وبمـا أن الإنسـان عـدو مـا يجهـل، فربمـا يكتنـف الخـوف كل خطواتـه، بـل ويؤطرهـا، لكـن تلـك المسـألة يجـب ألا تثنيـه عـن المحاولـة وتجددهـا دائمـاً،

١٢ الحداثة السائلة، مرجع سابق، ص ٢٩٢

١٣ يسرى السعيد، كيف نفهم الاندماج؟، العربي الجديد، ٣ آب ٢٠١٦



> **الفكر الإنساني لا يتوقف عند عرق أو دين أو قومية معينة، ويستطيع الإنسان إن هو شاء أن يلقن البشرية دروساً في التعامل الروحي الوجداني الذي يفرض ذاته وكينونته في النهاية**

فحتى في واقعه العربي وقبل الربيع العربي، كان أمام حالة من الصراع مع التطور المتلاحق للثورة التكنولوجية من جهة، وللعولمة وآفاقها من جهة أخرى.

وقد تكون تلك الظروف القاسية التي دفعت المواطن العربي للهجرة حافزاً قوياً لاسترداد حقه في الحياة، والذي استلب منه في وطنه، ونقرأ عبر الأخبار أسماء عربية سورية عراقية وغيرها تميزت وتفوقت، على الرغم من تجربة اللجوء المر، ونحن لانزال في بداية الطريق الذي سيتيح للاجئ كل الخيارات، فإما أن يكمل طموح حياته بأن يكون مساهماً في بناء هذه الحضارة المعاصرة، وإما أن يتحول لمجرد رقم ضمن مليارات الأرقام البشرية.

الخاتمة:

من خلال ما سبق، وبناء على المجريات الجديدة، والأحداث التي غيرت مجرى حياة الكثيرين من العرب، نستطيع أن نقول إننا أمام تحدٍ كبير يواجه المواطن العربي الذي تعرض لتجربة اللجوء، وهذا التحدي سيتطلب منه إعادة البناء لكل المفاهيم التي تخص التواصل والتكيف والاندماج.

ولعل الأدب المهجري[١٤] الذي قرأناه في كتب الأدب العربي كان التجربة الأولى للجوء والمخاض الأول لانعكاساته عبر الكتابة، فقد صور لنا الأدباء المهجريون عبر حروفهم كل ما مر بهم، وعبروا بأجمل الحروف عن قصص الشوق والحنين للوطن الأم، لكنهم تعايشوا وسجلوا أسماءهم اللامعة في تاريخ الحضارة العام الذي يذخر بألمع الشخصيات التي لازلنا نردد ونقرأ حروفهم حتى اليوم، وعلى رأسهم جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة، وإيليا أبو ماضي ...إلخ.

١٤- يقول الكثير من المؤرخين إن الولادة الحقيقية لشعر المهجر تعود إلى أواخر القرن التاسع عشر، حيث تعتبر الأندلس "إسبانيا حالياً" الحاضنة الحقيقية للجماعات القادمة من البلاد العربية كلبنان وسوريا، بعضها هرباً من ظلم الأتراك، وبعضها الآخر بحثاً عن الرزق. وبين الجماعات المهاجرة كانت هناك طائفة من الشبان ترفرف بين جوانحهم قلوب تملؤها الحرية وفي رؤوسهم آفاق رحاب من الفكر النير والخيال الخصب أولئك كانوا من الرعيل المثقف الواعي الذي عز عليه أن يعيش أسيراً للظلم والعوز فانطلقوا باحثين عن الحرية والاكتفاء. ينقسم معشر شعراء المهجر الى فئتين، الأولى في المهجر الشمالي؛ أي "الولايات المتحدة الأميركية" أمريكا الشمالية. أما الفئة الثانية فكانت في أمريكا الجنوبية، والمعروف أن الشمال أغنى من الجنوب الفقير الذي يدخل في صلبه شعراؤنا المتواجدون في البرازيل وبلدان أمريكا الجنوبية فلكل من هاتين الفئتين خصائص ومميزات منها الأصيل ومنها المكتسب والتي تتفق تارة مع الخصائص الأخرى ومميزاتها وقد تختلف أحياناً أخرى؛ فقد ظهرت الفئتان في وقت واحد وفترة متقاربة جداً تبدأ منذ أوائل القرن العشرين تحديداً مع بداية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م- ١٩١٨م حيث أسهمت كلتا "الفئتين" في تكوين ما عرف بالمدرسة المهجرية الأدبية التي تركت كل منها أثرها على الأخرى.

وما نود قوله هنا، إن ما يحتاجه الإنسان العربي المعاصر الذي خاض تجربة اللجوء هو التصالح أولاً مع ذاته، حيث ينهض بها من جديد لإعادة ترميم ما هدمته الحرب من جوانب نفسية كثيرة ومادية طبعاً، كما يحتاج اللاجئ اليوم أو لنقل المغترب، لأن يتصالح مع المجتمع الجديد، ويرسم لنفسه منهجاً جديداً يحقق من خلاله أعلى درجات التكيف، والتأقلم والمساهمة في بناء الحضارة التي انتقل إليها.

وقد قيل «بضدها تتميز الأشياء»، وهذه المقولة تعكس جمالية التفاعل والتكامل بين البشر، وتوضح ضرورة الاختلاف، والتنوع، فهذا يغني وجه الحضارة ويزينها أكثر.

وإذا كان بلزاك قد قال مقولته المؤثرة: «الإنسان لا يصل مرتين»، فإننا وبكل ثقة بإمكانيات وقدرات الإنسان العربي نقول: يستطيع الإنسان الوصول دائماً طالما أنه رسم طريقه، وأدرك دوره، وناضل؛ بل وكافح من أجل ما يريد، ولعل إثبات الذات والنهوض بها هما أكثر ما يريده الإنسان العربي الذي لجأ إلى بلاد أخرى لتعوضه الفقدان الذي لحق بشخصيته بجميع أشكاله.

وقد سجل التاريخ العربي إبداعات أبنائه حين عاشوا في مناخ قمع الحريات والفقر وصعوبة الظروف جميعها، فعسى هذا الإنسان أن يبدع وقد توفرت له الحرية متجاوزاً باقي الصعوبات التي لا نقلل من قيمتها، ولكننا نعتبرها مؤقتة وليست مستحيلة التجاوز.

المبدعون العرب موجودون في كل مكان، وعلى الرغم من كل أوجه المعاناة والقهر، ونحن بأمس الحاجة لدورهم الفعال في طرح الأفكار وتطبيقها في بلاد اللجوء ومساعدة أقرانهم العرب بتجاوز محنة اللجوء، وتحويلها لتجربة فريدة تساهم في بناء الحضارة الإنسانية وإغنائها.

الفكر الإنساني لا يتوقف عند عرق أو دين أو قومية معينة، ويستطيع الإنسان إن هو شاء أن يلقن البشرية دروساً في التعامل الروحي الوجداني الذي يفرض ذاته وكينونته في النهاية، ومن أروع ما كتب في هذا المجال للأديب المهجري نسيب عريضة:

وإذا شئت أن تسير وحيداً إذا ما اعترتك مني ملالة
فامض، لكنْ ستسمع صوتي صارخاً «يا أخي» يؤدي الرسالة
وسيأتيك أين كنت صدى حبي فتدري جماله وجلاله

فهنا دعوة صريحة لتجاوز كل الشرور والأفكار الخاطئة بحق الآخر، والدعوة إلى المحبة، والتساند الاجتماعي، والأخوة الإنسانية، والإيثار، والعطاء، وللجميع دون الوقوف عند أية عقبة عنصرية.

ليست أفكاراً طوباوية، ولاهي دعوة خرافية، لكنها ضرورة إنسانية ملحة في ظل التغيرات الديموغرافية التي حصلت في كل بلدان العالم في الفترة الأخيرة، والتي فرضت على جميع الأطراف طرح منظومات جديدة للتعايش والتكيف، وكل الأطراف اليوم معنية بخلق مناخ يناسب الجميع، ويغني ويثمر في ظل كل ما أضيف لتلك المجتمعات، وبالتالي لم يعد الآخر هو الجحيم كما بشرنا سارتر[15] بذلك، بل أصبح الآخر هو شريكاً في المجتمع، وهذا الشريك عليه يتوقف شكل العلاقات التي سيطرحها المجتمع الذي لجأ إليه، وهو ما ستخبرنا به الأيام والسنوات المقبلة، لأن دور المواطن العربي لن يتضح بين يوم وليلة، ولكنه سيبدو جلياً بمرور السنوات، وبمدى الإنجازات التي سيستطيع من خلالها الإنسان العربي أن يبرز في تلك المجتمعات، ونحن هنا لا نحدد مجالاً واحداً للإبداع، بمعنى آخر لسنا بصدد تكرار أدب مهجري جديد فقط؛ بل نتمناه تميزاً في كل مجالات الحياة المهنية، والاقتصادية، والاجتماعية والثقافية على حد سواء، ونتمناه نمطاً عربياً يفتخر به، مع خوفنا وبكل صراحة من التشبث بالعادات والتقاليد والأفكار الخاطئة العربية التي عفا عنها الزمن.

---

١٥ جان- بول شارل ايمارد سارتر (٢١ يونيو ١٩٠٥ باريس - ١٥ أبريل ١٩٨٠ باريس) هو فيلسوف وروائي وكاتب مسرحي كاتب سيناريو وناقد أدبي وناشط سياسي فرنسي. بدأ حياته العملية استاذاً. درس الفلسفة في ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية. حين احتلت ألمانيا النازية فرنسا، انخرط سارتر في صفوف المقاومة الفرنسية السرية. عرف سارتر واشتهر لكونه كاتبا غزير الإنتاج ولأعماله الأدبية وفلسفته المسماة بالوجودية.

مراجع البحث:

- ابـن منظـور، لسـان العـرب، دار صـادر بـيروت، ١٩٦٨، المجلـد١٣
- إليـاس بلـكا، مفهـوم الهويـة: تاريخـه وإشـكالاته،مجلـةالكلمـة،العـدد٤٦،٢٠٠٥
- بكـري عـلاء الديـن، الأنـا، الموسـوعة العربيـة، المجلـد الثالـث.
- بيـتر فـارب، بنـو الإنسـان، ترجمـة زهـير الكرمـي، عالـم المعرفـة، العـدد ٦٧، يوليـو ١٩٨٣
- جـون ماكـوري، الوجوديـة، ترجمـة إمـام عبـد الفتـاح إمـام، عالـم المعرفـة، العـدد ٥٨، اكتوبـر ١٩٨٢
- خـضر عبـاس، الأنـا والآخـر بـين الفلسـفة والسـيكولوجيا، مدونـة الدكتـور خـضر عبـاس.
- زيجمونـت باومـان، الحداثـة السـائلة، الشـبكة العربيـة للأبحـاث والنـشر، بـيروت، ط١، ٢٠١٦.
- يـسرى السـعيد، كيـف نفهـم الاندمـاج؟، العـربي الجديـد، ٣ آب ٢٠١٦




صدر حديثا

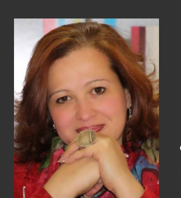

سلسلة الأبحاث (6)
مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث
خطاب المرأة
تساؤلات راهنة وإضاءات فكرية
حسن عبود
محمد التهامي الحراق
فاطمة قشوري
صابر سويسي
محمذن أحمد المحبوبي
خلود سعيد عامر
يسري بن الهذيلي
العربي إدناصر
مونيس بخضرة
بشرى زكاغ
مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث

اللاجئون؛ بين آثار الحرب



يشهد العالم تحولا جذريا في مفهوم الهجرة، بسبب موجة اللاجئين إلى أوروبا خصوصا ألمانيا، التي استقبلت خلال الخمسة عشر أشهر الماضية أكثر من مليون لاجئ معظمهم من السوريين، هذه الموجة من اللاجئين أفرزت مجموعة كبيرة من الظواهر الاجتماعية والإنسانية، سواء من خلال علاقة اللاجئين ببعضهم البعض، أو من خلال علاقتهم بالمجتمع الجديد الذي له ثقافته الخاصة والمختلفة.

وتبقى المشاكل والظواهر المرتبطة باللاجئين مختلفة، كما أنها متشابكة وأيضا معقدة، لكنها تلتقي في مشترك المعاناة بسبب الهوة بين الثقافتين.



بقلم:
نادیا يقين
باحثة مغربية، رئيسة
الجمعية المغربية الألمانية
للثقافة والاندماج في ألمانيا

ومشكلات الاندماج!

الصدمة الثقافة والنفسية

كل إنسان يحمل حمولة ثقافية معينة تختلف عن الحمولة الثقافية للآخر، الذي قد ينتمي إلى بلد مختلف أو إلى منطقة أخرى داخل البلد نفسه، بالنسبة إلى اللاجئين السوريين، فهم أمام إشكالية تقبل ثقافة الغرب؛ أو لنقل إنهم يعيشون صدمة ثقافية تشكل عائقا أمام تعايشهم مع المجتمع الغربي، وتصعّب مسألة اندماجهم فيه؛ فمن جهة هم في صراع ومقارنة بين ما تعودوا عليه في بلدهم الأصلي؛ الذي هو في الأصل مجتمع عربي له خصوصيته وبنيته الثقافية والدينية، وبين البنية الثقافية للبلد المضيف المختلفة جذريا من جهة أخرى، خصوصا فيما يتعلق بالحريات الشخصية أو العلاقات الاجتماعية كالرابط الأسري مثلا.

الصدمة الثقافية والنفسية تبدأ عند اللاجئين السوريين منذ بداية رحلة الهروب من سوريا إلى ألمانيا مرورا بدول أوروبية متعددة: منها اليونان، صربيا، سويسرا مثلا. يقول عالم الاجتماع الألماني «روبرت شيلاه»: «كل اللاجئين القادمين من الدول العربية يحملون التصور نفسه عن الدول الأوربية، فهي بلاد الحريات، الكرامة الإنسانية والمساواة، إلا أن ما عاشوه خلال رحلة الهروب، زلزل تصوراتهم، حيث عانوا بشكل كبير جدا في مجموعة من الدول، دون أن ننسى أن الكثير منهم قد تعرض للضرب، السجن، النهب وأيضا للاغتصاب، ولم يكن بمقدورهم الحديث عن ذلك، أو تقديم شكوى أو حتى الإبلاغ عنه. فالصدمة بدأت إذن مبكرة لتنضاف إليها صدمات أخرى ثقافية واجتماعية في ألمانيا، منها على الخصوص الفروق بين الثقافتين العربية والألمانية».

إن كان عالم الاجتماع «روبرت شيلاه» يرى أن الصدمة تبدأ انطلاقا من بداية رحلة الهروب من الحرب مرورا بمجموعة دول، فإن الكثير من اللاجئين يرون أن الصدمة الأكثر قسوة، هي التي يعيشونها في ألمانيا، حيث يبدون تذمرهم سواء من مسألة العلاقة بين الوالدين وأبنائهم أو علاقة الزوج بزوجته مثلا؛ فعلاقة الوالدين بأبنائهم تنتهي بشكل مباشر عند سن الرشد، لتصبح علاقة مناسباتية ترتبط بمواعيد وأعياد دينية كالاحتفال بأعياد المسيح مثلا، في حين أن الدين الإسلامي منح الوالدين مرتبة عظيمة تقوم على البر بهما والارتباط بهما بشكل قوي، لدرجة أنه يمكن للشخص أن يمنح والديه حق البت في مستقبله واتخاذ قرارات مهمة، تقول «روزا»؛ وهي لاجئة سورية من مدينة «القامشلي»: «تفاجأت بمستوى البرودة التي تطبع العلاقات الإنسانية في دولة يقال إنها عظيمة، صعب أن أتخيل أن ابني سيغادر البيت في سن الثامنة عشر مثلا، أو حتى أن يتزوج دون أن يأخذ رأيي في اختياره، نحن نلد ونسهر على أبنائنا ليهتموا بنا في كبرنا، لا ليرمونا إلى دور العجزة»، وتضيف: حين كنت أرى الأوربيين في التلفزة يهتمون بأبنائهم الصغار، يلعبون معهم، كنت أندهش من هذه العلاقة التي تربط بين الوالدين وأبنائهم، لكن حين أتيت إلى ألمانيا، عرفت أن تلك العلاقة محدودة ومرتبطة بزمن معين. وتخرج «روزا» بنتيجة: «لا أفضل أن يتعلم ابني هذه الثقافة التي قد تفرقنا، أنا أحس بخوف أكبر من خوفي من الحرب».

تعد علاقة الزوج بزوجته أيضا من الأمور التي تدفع الكثير من اللاجئين إلى طرح تساؤلات متشابكة، فتلك العلاقة حسب الكثيرين لا تقوم على الاحترام،

وتسيئ بشكل مباشر إلى المرأة تحت شعار «تساوي الجنسين»؛ فالمرأة مجبرة على العمل مثلها مثل الرجل، مجبرة أيضا على أن تساهم في مصاريف البيت والأولاد، بل يمكنها أن تشتغل في مهن يدوية تقتصر حسب رأيهم على الرجال فقط مثل الصباغة أو البناء. في حين أن المرأة في الدول العربية لها قيمتها ومرتبتها، لأنها غير مجبرة على العمل ولا على تقاسم مصاريف البيت، لأن الإسلام أعزها ومنحها مرتبة عالية.

> إن سوء فهم الآخر وتأويل مفاهيم ترتبط بثقافته بشكل خاطئ مثلا، قد تخلق مشاكل كثيرة تجعل مسألة التعايش مستحيلة

في المقابل، يرى المجتمع الغربي أن الوافدين الجدد خصوصا من سوريا، يحملون ثقافة غربية تقوم على مبدأ التبعية والخضوع؛ ففي الوقت الذي تتم فيه تربية الطفل الغربي أو الألماني مثلا على مبدأ الاستقلالية والاعتماد على النفس، تتم تربية الطفل العربي المسلم على مبدأ الخضوع والاستسلام، وتربى البنت على أنها في المستقبل زوجة لا غير.

تقول «إيرينا مولار» وهي أستاذة ألمانية تقوم برعاية ومرافقة اللاجئين بشكل تطوعي خلال أوقات فراغها: «علاقة الأبناء بالوالدين في الثقافة العربية تختلف عن علاقتنا بأبنائنا»، وتستغرب قائلة: «هذه علاقة تواكل»، وتؤكد مولار أنها حريصة على تأدية رسالة: «نعلمهم الاستقرار منذ الصغر من خلال الاعتماد على النفس». أما فيما يخص علاقة الزوج بزوجته عند معظم الذين تعرفت عليهم «مولار»، فهي تعتقد أن هذه العلاقات لا تقوم على مبدأ المشورة، فالمرأة، كما تقول، «لا استقلالية لها سواء من الجانب الشخصي أو المادي، نحن نشتغل لنؤسس مستقبلا متوازنا في العائلة، ليس هناك ضعيف أو قوي، أما الثقافة العربية فتقوم على مبدأ الضعيف والقوي...».

من المهم جدا انفتاح الطرفين معا على بعضهما، لأن سوء فهم الآخر وتأويل مفاهيم ترتبط بثقافته بشكل خاطئ مثلا، قد تخلق مشاكل كثيرة تجعل مسألة التعايش مستحيلة؛ فالاندماج لا يمكن أن يتحقق بمعزل عن الآخر، أو داخل دائرة واحدة مثلا، فمن البديهي أن يتم خلق مساحة للحوار والتعارف، من المهم جدا العمل على تغيير الصورة التي يحملها كل طرف، ومن المهم جدا أن يكون المهاجر أو اللاجئ هو المبادر بالانفتاح.

تعدد الزوجات مشكلة نفسية وقانونية

تعدد الزوجات؛ عند اللاجئين السوريين بالخصوص، من الظواهر التي تشكل مادة دسمة للإعلام الغربي / الألماني؛ ففي الوقت الذي يرى فيه اللاجئون متعددي الزوجات المسألة عادية شرعها الدين وأقرتها الأعراف والتقاليد، يرى المجتمع الغربي الموضوع على أنه ظاهرة خطيرة تتنافى مع حقوق الإنسان والمساواة بين المرأة والرجل التي هي من شعارات ألمانيا من جهة، كما أنها تستنزف خزينة الدولة، وتقوي مواقف المتطرفين الرافضين للأجانب واللاجئين في ألمانيا من جهة أخرى.

المؤسسات الألمانية المكلفة بشؤون الهجرة واللاجئين دخلت نفقا مظلما، يدفعها للتفكير في طريقة سلسلة قد تسهل عليها التعامل مع هذه الظاهرة، حيث تتناقل وسائل الإعلام الألمانية حالات متعددة للاجئين سوريين لديهم أكثر من زوجة، وتفتح أبواب الأسئلة، وأيضا التعبير عن عدم الارتياح سواء لدى المسؤولين الألمان أو غير المسؤولين. ففي تصريح لوزير العدل الألماني «هايكوماس» نشرته جريدة «بيلد» الألمانية، قال إنه: «لا يحق لأحد من الوافدين إلى هنا أن يضع جذوره الثقافية أو إيمانه فوق قوانيننا، لذا لن يكون هناك اعتراف بتعدد الزوجات في ألمانيا».

مع ذلك، فحالات تعدد الزوجات منتشرة بشكل ملفت، مثلا في إحدى المدن الألمانية، تقدم لاجئ



سوري بطلب اللجوء رفقة زوجاته الأربعة بالإضافة إلى أبنائه السبعة عشر، وبما أن القانون الألماني لا يعترف إلا بزوجة واحدة، خصص لها خانة في استمارة طلب الإقامة، فقد تمت إضافة أسماء الزوجات الثلاث كملحقات في خانة باقي أفراد الأسرة، دون أن يتم الاعتراف بهن كزوجات، قصة نشرتها جريدة «الراين تسايتونغ» في عددها ليوم [١](٢٠١٦\٠٨\٣١) عن حكاية لاجئ سوري وصل

١- Rhein-Zeitung \ ٢٠١٦\٠٨\٣١, http://www.rhein-zeitung.de/region/lokales/westerwald_artikel,-syrischer-geschaeftsmann-reist-mit-vier-ehefrauen-und--٢٣kindern-ein-_arid,١٥٣٩٨٢١.html

> تعدد الزوجات؛ عند اللاجئين السوريين بالخصوص، من الظواهر التي تشكل مادة دسمة للإعلام الغربي / الألماني

ألمانيا رفقة زوجاته الأربعة و٢٣ من أبنائه، خلقت هذه القصة حالة من التوتر والاستغراب، حيث تم التحاق زوجتين بالزوج مع أبنائهم في بيت واحد، في حين تم إلحاق الزوجتين الأخرتين بمدينة أخرى، مما تسبب في الكثير من القلق لهذه الأسرة.

تعدد الزوجات من المشاكل العويصة التي تشكل قلقا دائما للمؤسسات الخاصة باللجوء، خصوصا إن كان الزوج يرتبط بزوجة أخرى لا تحمل الجنسية السورية مثلا، حيث إن هناك بعض الزيجات التي تمت في تركيا من أجنبيات، وفي حالة قدوم الزوج رفقة زوجته الثانية لا يمكنه أن يقدم طلب التجمع العائلي لتلتحق الزوجة الأولى به، والتي في الغالب لا تزال تستقر في سوريا أو لبنان ولا علم لها بزواج زوجها من ثانية، هنا تضيع حقوق الزوجة الأولى، لتنضاف لجروحها جروحا أخرى، ليتم تأكيد مبدأ أن المرأة والرجل لا يتساويان في الحقوق في الثقافة العربية، حيث إن نسبة ٨٨ في المئة من الألمان يرون أن المرأة والرجل غير متساويين، وأن المرأة خاضعة لقوة الرجل وسلطته.

القاصرات؛ زواج أم اغتصاب!

ليست مشكلة تعدد الزوجات فقط هي التي تشغل الرأي العام الغربي/ الألماني، بل هناك ظاهرة أخرى تجندت لها مؤسسات تدافع عن حقوق الطفل وتمنع زواج القاصرات، خصوصا أن الظاهرة بدأت مع موجة اللاجئين خلال الخمسة عشر شهرا الأخيرة، حيث إن هناك زوجات لا يتعدى عمرهن التاسعة تزوجن في تركيا أو إيران.

القانون الألماني واضح في مثل هذه الزيجات، حيث يعتبرها بمثابة اغتصاب لهؤلاء الفتيات. وفي هذا الصدد، عبر وزير العدل الألماني بكل صرامة في تصريح نقلته جريدة «بيلد»: «لا يمكن التساهل تجاهه مطلقا»، يقصد زواج القاصرات، مضيفا أن «زواج الأطفال غير مقبول في ألمانيا ولن يعترف به».

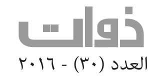
ففي حالة الزواج من قاصرة تتدخل المؤسسات المكلفة بالطفولة والشباب كطرف يحميها، حيث يتم التأكد من ظروف زواجها، مثلا ما إن كان زواجها عن رضى أم بالإجبار، وفي حالة أبدت الزوجة القاصر رغبتها في عدم الالتحاق بالزوج، تتدخل المؤسسة لحمايتها ورعايتها إلى أن تبلغ سن الرشد.

نسبة اللاجئين السورين المتزوجين من قاصرات غير محددة، وفق جريدة «بيلد»[٢] تم تسجيل (١٦١) زوجة يقل عمرها عن (١٦) عاما في ولاية بافاريا، (٥٥٠) تتراوح أعمارهن ما بين (١٦) و(١٨) سنة، في حين أن هناك (١١٧) زواجا مماثلا في ولاية بادن فورتمبرغ، و(١١٨) في شمال الراين وستفاليا. هذه النسب تهم اللاجئين السوريين والأفغان.

اللاجئة المتزوجة: خيار العنف أو الطلاق

حالات العنف والطلاق بين اللاجئين في السنتين الأخيرتين من الأمور التي يحذر منها المهتمون بشؤون الهجرة، حيث تم تسجيل حالات عنف ارتكبها لاجئون

٢- Bild, ٢٠١٦\٠٨\١٣, http://www.bild.de/politik/inland/heiko-maas/will-gegen-kinder-und-mehrfach-ehen-vorgehen٤٦٢٨١٧٣٢-.bild.html.



سوريون ضد زوجاتهم، يمكننا الحديث هنا عن أشكال مختلفة من العنف، فهناك العنف اللفظي الذي يلجأ إليه الزوج في حالات الغضب، دون أن يتطور إلى عنف جسدي، كالإشارة إلى عيوبها الخلقية مثلا، أو التنقيص منها في إطار مقارنتها بالمرأة الغربية، الأمر الذي يؤدي إلى عنف نفسي يرافق المرأة ويمنحها الإحساس بالضعف والنقص من جهة، ووضعها كلاجئة في مجتمع مختلف وأكثر إباحية من جهة أخرى. كل هذه النقاط تساهم في تعميق حجم المعاناة والإحساس بالدونية، لتكون مجبرة على الدخول في علاقة مقارنة بينها وبين المرأة الأخرى التي تنتمي إلى ثقافة وبيئة اجتماعية مختلفة تماما، ومن



كل اللاجئات المعنفات لا يقمن بالإبلاغ عن هذا العنف ويفضلن المعاناة في صمت بسبب فهمهن الخاطئ للدين والتقاليد

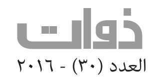
ثمة تتعرف على حقوقها كامرأة ذات كيان مستقل يمنحه لها القانون الأوروبي ويجرده منها الزوج العربي. المشكلة تزداد حدة في حالات العنف الجسدي، حيث تم تسجيل حالات عنف ضد زوجات سوريات ومغربيات متزوجات من سوريين، أغلب تلك الحالات أبلغ عنها الجيران أو المشرفين على اللاجئين داخل مراكز الإيواء.

المرأة العربية عموما واللاجئة السورية على الخصوص، لم تصل إلى مستوى الاقتناع بأنها امرأة ذات كيان مستقل، يقول عالم الاجتماع «روبرت شيلاه»: «كل اللاجئات المعنفات لا يقمن بالإبلاغ عن هذا العنف ويفضلن المعاناة في صمت بسبب فهمهن الخاطئ للدين والتقاليد، لا أظن شخصيا أن الدين الإسلامي قد جرد المرأة المسلمة من حقها في الحياة والتعبير عن الذات، لأن الحق في الحياة لا يعني أن تكون المرأة تحت سلطة الرجل، سمعت يوما مثلا عربيا عن المرأة من أحد المهاجرين العرب وأصبت بالكثير من الدهشة، حيث قال: «إن للمرأة خرجتين في العمر، خرجة إلى بيت زوجها وخرجة إلى القبر». إنه أسوأ ما يمكن أن يعبر به عن مكانة المرأة في الثقافة العربية، فمثل هذه الأفكار تضع المرأة في مرتبة أقل من الحيوان. الإسلام أعز المرأة وقدّرها، وعلى اللاجئين المسلمين أن يثبتوا ذلك من خلال تعاملهم مع زوجاتهم خصوصا الآن، كما أنه على المرأة المسلمة أن تؤمن، أنها امرأة خلاقة يمكنها تغيير الأحداث، وتسيير مؤسسات كبرى، كيف لا وهي من يسير أسرة ويبني مستقبل أبنائها». تبقى نسبة قليلة من اللاجئات هن اللواتي يبادرن بالإبلاغ عن العنف الذي تعرضن إليه، سواء خلال رحلة الهروب من سوريا أو في ألمانيا؛ فبعض اللاجئات السوريات مثلا اتهمن أزواجهن بالاغتصاب والضرب، وحصلن على امتيازات في المرافقة والمتابعة النفسية أيضا، كما تأسست منظمات وجمعيات كثيرة تدافع عن حقوق اللاجئات المعنفات، كما وضعت وزارة الأسرة، للمرأة والشباب خطا هاتفيا مفتوحا لتلقي شكايات النساء المعنفات، حيث تتم الاستشارة والمرافقة باللغة العربية، كما يتم نشر معلومات بلغات مختلفة منها العربية، خاصة بحقوق المرأة في ألمانيا.

في مقابل العنف، ازدادت نسبة الطلاق أيضا بين اللاجئين السوريين، حيث إن هناك أزواجا فضلوا الارتباط بألمانيات كن في الأصل من المشرفات عليهم، ومن جهة أخرى، طالبت لاجئات سوريات بالطلاق، سواء بعد الوصول إلى ألمانيا أو بعد فترة، وتختلف أسباب طلب الطلاق بين اللاجئين، وترتفع النسبة بين الأزواج الحديثي الارتباط، بعض اللاجئات السوريات يرون أن ألمانيا تمنحهن حق الحياة وتقرير المصير، وبما أن زواجهن لم يكن اختياريا، فإنهن فضلن الانفصال، فبسبب التراكمات النفسية تفضل الكثير من اللاجئات الطلاق وبناء الذات، وربما الارتباط بزوج آخر يضمن لها الاحترام.

منطقة خضراء في قلب الحرب

رائحة الموت، الهروب، العنف، والمعاناة، ليست هي فقط ما يميز حياة اللاجئين، بل هناك مساحات شاسعة للحب والفرح في حياتهم، توجد حكايات حب جميلة ابتدأت خلال رحلة الهروب من سوريا، وتوجت بالزواج إما في تركيا أو في ألمانيا، كما أن هناك علاقات





رائحة الموت، الهروب، العنف، والمعاناة، ليست هي فقط ما يميز حياة اللاجئين، بل هناك مساحات شاسعة للحب والفرح في حياتهم

إنسانية حميمة نشأت ما بين أسر عربية وأخرى كردية لم تتمكنا يوما من التقارب في سوريا، ما يعني أن الدمار لا يمكنه أن يلحق بالمنطقة الخضراء في القلب.

تقول «ميرفت»، وهي لاجئة سورية من الشام وأم لطفل في التاسعة من عمره «رائحة المدافع لم تغير عمق الإحساس بأن هناك أشياء جميلة تستحق أن نفرح ونحتفل بها»، وتواصل كلامها: «تعرفت على زوجي في الزورق المطاطي الذي عبرنا فيه من تركيا إلى اليونان، وأثارني اهتمامه كثيرا بابني اليتيم، وشاء القدر أن نلتحق معا بنفس مركز الإيواء الألماني، لنقرر بعد فترة ورغم المعاناة الارتباط ببعض»، وتضيف «ميرفت» «الحرب لم نخترها كما لم نختر الهروب من سوريا، لهذا لن نترك قلوبنا تموت، عليها أن تحيا بالحب».

وفي ذات السياق، تنتصر قصة «عبده» و«حليمة» للحب والأمل، رغم ظروف اللجوء في ألمانيا، وما يرتبط بها من معاناة في التعرف على المجتمع الجديد والاستقرار فيه، حيث تزوجا في شهر سبتمبر/ أيلول من هذه السنة، مؤكدين أن الحب يعيد ترتيب الحياة التي دمرتها الحرب، وأن الحب سلاح كل السوريين، إلى أن يعانقوا سماء سوريا من جديد.

الآثار النفسية للهجرة واللجوء.. درب شائك مليء بالصدمات!



بقلم:
سامر عساف
كاتب وباحث سوري متخصص في الإرشاد الأسري والتربوي



عندما نقوم بنقل نبتة ما من تربة إلى تربة جديدة، وبغض النظر عن نوعية التربة الجديدة، ستتعرض هذه النبتة إلى انتكاسة في نموها، في المرحلة الانتقالية على الأقل. هذا ينطبق بشكل مباشر على جميع الكائنات الحية، التي تضّطر إلى تغيير موطنها، بإرادتها أو قسراً؛ فقد تشعّبت جذورها وتمدّدت إلى مصادر الطّاقة، وأما نقلها، فهو بالضرورة تقطيع لبعض هذه الجذور.

هذه الصورة يمكن سحبها بشكل مباشر على شخص تشرّدت أسرته وغادر أهله وموطنه. فالتركيبة الاجتماعية والدوائر التي بناها الفرد حتى هذه اللحظة ستتفكك وستبرز الحاجة إلى بناء بدائل، هذا البناء ليس فقط من خلال التعرف على الأصدقاء وبناء علاقات اجتماعية، بل يتطلب تغيير الـ «أنا»، حسب التعريف الفرويدي، ووضع جملة تجربته في مخبر جديد له مقاييس ومعايير مختلفة، فيما يتعلق بالأفكار المسبقة، التوقعات، طريقة التعبير عن المشاعر، تعريف الأدوار الاجتماعية، كدور الأب ودور المرأة، وجوانب أخرى لا يمكن حصرها ببساطة.

في نهاية العام ٢٠١٤ وصل عدد اللاجئين في العالم، حسب إحصائيات (UNHCR)(١) إلى (٦٠) مليون شخص، منهم حوالي (١١) مليون سوري، (٤) ملايين سوداني، (٢) مليون صومالي، وحوالي (٤) ملايين عراقي، ونقصد باللاجئين هنا من نزح في داخل البلاد أو هاجر إلى خارجها مضّطراً.

لا تنتهي معاناة اللاجئين والهاربين من الحروب بمجرد مغادرتهم مكان الحرب؛ فبالإضافة إلى الندبات والكدمات الجسدية والنفسية التي تركتها الحرب، نتيجة التعرض للعنف مباشرة، مشاهدته أو سماعه، تعترض سبيل هؤلاء مصاعب جمّة، سواء على طريق اللجوء أو في الملجأ ذاته. هذه المصاعب تضاف إلى الخبرة السلبية، التي جلبها معه الشخص «مكسور الخاطر» إلى ملجئه الجديد.

لذلك يمكن تقسيم جملة المصاعب والمشكلات النفسية التي تعترض اللاجئين إلى ثلاثة أقسام والجدول التالي يوضح أهمها:

مشاكل النزوح واللجوء		
قبل الهجرة	**أثناء الهجرة**	**في الموطن الجديد**
١. مصائب طبيعية (زلازل...) ٢. الحروب والصراعات المسلحة ٣. المجازر ٤. السجن والتعذيب ٥. الاعتداءات الجنسية ٦. فقدان الأقارب أو الخوف من فقدانهم ٧. مشاهدة مناظر القتل والموت ٨. الفقر والحرمان	١. الفقر والجوع والتشرد ٢. التعذيب والسّجن ٣. نقص المعلومات عن الأهل وصعوبة التواصل معهم ٤. الترحيل أو الخوف من الترحيل ٥. الجهل بالمستقبل وعدم الإحساس بالسيطرة على الظروف والقدر الغامض ٦. العيش اللاشرعي أو العيش في مخيمات لجوء تفتقر مقومات العيش البشري ٧. تعرّض الحياة للخطر	١. فقدان الدوائر الاجتماعية ٢. صعوبات ثقافيه ولغوية ٣. الغربة بمعناها العريض ٤. مخاطر الترحيل ٥. التمييز العنصري ٦. متطلبات التأقلم والاندماج ......
النزوح واللجوء يحتوي في طياته على مصاعب تراكمية		

آثار الحرب والمصاعب ما قبل اللجوء

قبل الحديث عن الآثار النفسية للحروب والهجرة، يجب علينا توضيح مفهوم الصحة النفسية بصورته العامة أولاً؛ إذ يعرّف «انتونفسكي» الصحة النفسية بـ «سيال بين جملة المدخرات وجملة الوظائف أو المتطلّبات»؛ فالمدخرات هي جملة من العناصر البيولوجية، السيسولوجية والخبرات المكتسبة، هذه التي تحدد المصطلح. هذا المصطلح هو مجرّد، وهو يعني الإحساس الشعوري واللاشعوري بالتجانس والتماسك بما يخص الفرد كوحدة في نظام بيئي أعلى وأعقد تنظيماً (Antonovsky١٩٩٧).(٢)

يمكن تقسيم المتطلبات والوظائف النفسية زمنياً؛ أي متطلبات من الماضي ومتطلبات راهنة، الأولى هي خبرة سلبية مازال فعلها قائماً وهذا يعني، أنّ الشخص عليه التعامل معها في حاضره بينما تنبع هي من الماضي، كخبرات الحرب والفقر أو الحرمان ...إلخ، ومتطلبات راهنة تقسم إلى متطلبات تطورية حسب نظرية إريكسون لتطور الشخصية (Erikson١٩٥٩)(٣)، ومتطلّبات مرتبطة بالوظائف اليومية، كالأدوار والعلاقات الاجتماعية؛ ولا ننسى هنا أيضاً متطلبات فيزيائية أساسيّة وجوديّة.

إذن تصبح محصلة هاتين القوتين المتعاكستين بالاتجاه، مؤشّر الصحّة النفسية للفرد، وعليه يعاني الشخص نفسياً، إذا مال هذا الميزان لصالح المتطلبات والوظائف. وهنا لابد من توضيح، أنّ جملة الضغوطات النفسية، التي يمكن تجاوزها، هي عامل في صقل المناعة النفسية. أما الخبرات القاسية كالحروب مثلاً، وهذه التي تتجاوز قدرة الفرد على التعامل معها، فهي تترك ندبات، سنسميها «عثّاً» فهي تفترس الطاقة النفسية شيئاً فشيئاً وباستمرار.

أثبتت الدراسات والأبحاث النفسية، أن الحرب والتهجير، بالإضافة لما يعنياه من تهديد لحياة الفرد بشكل مباشر يؤديان إلى اضطرابات نفسية متنوعة، مثل: الاكتئاب، الوسواس القهري، القلق، اضطراب كرب ما بعد الصدمة، اضطرابات شعورية وسلوكية، والمشاكل الجسدية ذات المنبع النفسي كوجع الرأس، البطن والظهر، كما تتوسّع مروحة الاضطرابات النفسية لتبلغ مشاكل في الهويّة الذاتية والهوية الاجتماعية (قارن: Ermann ٢٠٠٤)(٤أ).

> لا تنتهي معاناة اللاجئين والهاربين من الحروب بمجرد مغادرتهم مكان الحرب؛ فبالإضافة إلى الندبات والكدمات الجسدية والنفسية التي تركتها الحرب، تعترض سبيل هؤلاء مصاعب جمّة



في دراسـة أجراهـا الباحـث نـادر السـيوفي بعـد حـرب الكويـت، أظهـر أن ٧٠٪ مـن الأطفـال المشـاركين في الدراسـة لديهـم أعـراض اضطـراب كـرب مـا بعـد الصدمـة (Nader، al-Ajeel، Fairbanks، Pynoos، وal-Asfour، ١٩٩٣).(٥). بينمـا أظهـر٩٤٪ مـن الأطفـال الذيـن هجّـروا في حـرب البوسـنة هـذه الأعـراض (Goldstein، Wampler، وWise، ١٩٩٧).(٦).

تعـد الصدمـة النفسـية أهـم مـا يعـترض نفسـية البشر في حـالات الحـروب؛ فظواهـر الحـرب الحسّـية كالقصـف والمـوت، أو حـتى سـماع أخبـار الحـرب هـي حـوادث صادمـة نفسـيا. الصدمـة النفسـية حسـب (فيـشر وريـدزر) هـي «تناقـض (حيـوي) بـين العوامـل الظرفيـة، التـي تحتـوي خطـر المـوت ومحدوديـة إمكانيـات الفـرد في التعامـل مـع هـذه الظـروف، هـذا التناقـض يحمـل في طيّاتـه الإحسـاس بالعجـز و(اللاحمايـة أو اللاأمـان)، كمـا يقـود إلى اهـتزاز التركيبـة النفسـية بمـا يخـصّ الإدراك الـذاتي وإدراك العالـم المحيـط» ((Gottfried Fischer ٢٠٠٩.(٧)

تُظهـر الدراسـات، أن حـوالي نصـف مـن يتعرّضـون لهـذه الحـوادث يطـوّرون اضطـراب كـرب مـا بعـد الصدمـة. في دراسـة مشـابهة أجريتُهـا العـام المـاضي (ستنشر قريبـاً) في مخيمـات اللجـوء في لبنـان وسـوريا، لمحاولـة مقاربـة الآثـار النفسـية عـلى الأطفـال، حيـث إنّ المجموعـة المسـتهدفة في الدراسـة هـي الأطفـال مـن سـن ٦ سـنوات إلى ١٨ سـنة، أظهـر ٧٦٪ مـن الأطفـال المشـاركين في الدراسـة مـن اللاجئـين في لبنـان اضطـراب كـرب مـا بعـد الصدمـة، وحـوالي ٨٠٪ منهـم أعـراض الاكتئـاب، و٩٢٪ أعـراض القلـق والخـوف.

كمـا قارنـت الدراسـة بـين اللاجئـين في الداخـل واللاجئـين في لبنـان، وبينـت الدراسـة، أنّ شـدّة الإصابـة بهـذه الاضطرابـات وانتشـارها بـين الأطفـال، هـي أكبر بـين اللاجئـين في لبنـان قياسـاً بالداخـل السـوري.

إذن تنتـج الحـرب بنيـة نفسـية مهـزوزة، مضطربـة، هـذه الاضطرابـات بحـدّ ذاتهـا تعتبر (عثّـاً) ـكما سميناهاـ يسـتهلك الطاقـة النفسـية ويحـدّ مـن قـدرة الفـرد عـلى مواجهـة متطلبـات الحيـاة اليوميـة.

اسـتطاع بروفسـور التحليـل النفـسي الألمـاني إيرمـان، الـذي ولـد أثنـاء الحـرب العالميـة الثانيـة، أن يؤصّـل لمصطلـح «هويـة الحـرب». ويقصـد بهـا، الهويـة النفسـية للبـشر، الذيـن عـاصروا الحـروب. فالحـرب تؤسـس لواقـع جديـد وتصبـح ثقافـة تمتـد إلى أجيـال. يقـول واصفـاً هـذه الهويـة: «هـذه تعبر عـن نفسـها مـن خـلال النقـص في فهـم الـذات، الابتعـاد عـن فهـم المشـاعر الذاتيـة، تظهـر مـن خـلال إهمـال محـدّد للـذات، مـن خـلال غلاظـة بـارزة في طريقـة العيـش، وعـدم بـروز وظائـف التأقلـم الاجتماعـي، هـي تقـوم عـلى غربـة ذاتيـة، هـذه التـي تـؤدي إلى إحسـاس الشـخص، حاملهـا، بالغربـة تجـاه الآخريـن والبقـاء غريبـاً بالنسـبة لهـم» (Ermann ٢٠٠٤).(٤.ب)



إذن هي هوية مغرّبة في ذاتها ومغرّبة عن الآخرين، تفترض السيئ بما يتعلق بالمستقبل، وبما يقصده الآخرون، حالة شعور بالذنب وعدم الثقة بالنفس، خبرت جوانب الحياة السيئة، ولا يسعها إلا رؤية هذا الجانب المظلم. يمكن ملاحظة هذه الهوية عند الأطفال من خلال ممارستهم الرياضات الخطرة، الميل إلى إيذاء النفس، وغيرها من السلوكيات الهدامة.

تكمن الخطورة في إطلاق مصطلح «هوية الحرب» بشكل أساسي في بعده الزمني؛ فالاضطراب النفسي أو السلوكي هنا، أو حتى شذوذه، بشدات مختلفة، يصبح صفة شخصية وأحد عناصر هوية الفرد التي سترافقه مدى الحياة، بل يمكن القول، إنّ مفعول هذا (الشذوذ) سيمتد إلى جيل لاحق على الأقل. هناك دراسات عديدة تثبت، أنّ الخبرات السلبية للحروب والعنف وما يرتبط بها من عناصر نفسية كالصورة الذاتية، الأحلام، التخيّلات، أو محددات السلوك اللاواعية، قد تمّ توريثها إلى الأطفال والأحفاد بطرق لاشعورية. (قارن: ١٩٧٩ Grubrich,Simitis)(٨).

الأطفال والنساء، الخاسر الأكبر

يعد الأطفال الخاسر الأول على الصعيد النفسي؛ فهؤلاء لم يكملوا بعد مسيرة بناء الشخصية والتركيبة النفسية مازالت غضّةً ويمكن طبعها بكل جديد. يُعتبر «التعلم الاجتماعي» من أهم الوسائل التي تلعب دوراً مهما في بناء شخصية الطفل (قارن: ١٩٧٧Bandura)(٩). فالطفل يقلّد الأقران والقدوة الاجتماعية كالوالدين والإخوة الأكبر، وهكذا يصبح العنف والسلوكيات (اللااجتماعية)، التي تزدهر في مثل هذه الظروف، هي محددات ودليل السلوك للطفل في مراحل عمرية لاحقة.

كما تكمن الخسارة في فقدان الأشخاص المقربين؛ الأصدقاء، والمدارس، والذين يعتبرون مصادر الطاقة النفسية للطفل. في الدراسة التي ذكرتُها أعلاه في مخيمات اللجوء في لبنان وسورية، أظهر الأطفال المشاركون في الدراسة، أنّ هناك ارتباطاً بين فقدان المنزل وأماكن اللعب وغيرها من الماديّات (المعنوية)، بالنسبة إلى الطفل بأعراض الاضطرابات النفسية، أقوى من ارتباط الأعراض النفسية نفسها بفقدان شخص قريب.

لا تنتهي سلسلة الأضرار هنا، بل تتشعّب وتزداد من خلال المسؤوليات الجديدة التي تقع على الأطفال، فعلى الأولاد في أحايين كثيرة مرافقة الأب أو أخذ دوره في

> تعد الصدمة النفسية أهم ما يعترض نفسية البشر في حالات الحروب؛ فظواهر الحرب الحسّية كالقصف والموت، أو حتى سماع أخبار الحرب هي حوادث صادمة نفسيا

تلبية الاحتياجات المادية للأسرة، كما سيقع على البنات، منهم، مسؤوليات منزلية ومهمة رعاية الأخوة الأصغر. تعرف هذه الحالة في الأوساط الاجتماعية العامة بـ (النضوج المبكر)، ولكي نوضّح هذه الحالة نعود إلى مثال النبتة الذي سقناه في بداية المقال؛ فالنبتة التي تتعرّض إلى ظروف بيئية تهدّد حياتها ستتوقف عن النمو، وستحاول إنجاز ثمار بأسرع وقت ممكن، وذلك كردّ على خطر انقراضها، هذا الإنتاج المبكّر سيكون على حساب جودة ثمارها.

تعد النساء كما الأطفال حلقة ضعيفة في الحروب وتزدهر تجارة الرقيق الأبيض، كما حدث مثلاً في أوروبا الشرقية وجمهوريات الاتحاد السوفيتي بعد انهياره، حيث أصبحت النساء سلعة رائجة، ويعود ذلك ليس فقط للثقافة الذكورية، التي ترى في المرأة سلعة وعنصراً للمتعة، بل أيضاً بسبب الظروف الاقتصادية السيئة، التي تعترض البشر في هذه الحالات، وبسبب الانحلال الأخلاقي والتربوي الذي يرافق حالات الحروب والظروف السياسية الملائمة لذلك. وقد خرجت مثلاً الكثير من التقارير الإعلامية إلى الضوء، التي كشفت عن تجارة الجنس بين اللاجئين في لبنان وغيرها من بلدان استقبال اللاجئين (BBC ٢٠١٦)(١٠)

توضح الدراسات النفسية، أنّ الإناث أكثر عرضةً لاضطراب كرب ما بعد الصدمة قياساً بالذكور، بل أيضاً من حيث مدة الإصابة، فالنساء تستمر معاناتهن أكثر من الذكور.(Anthony ٢٠٠٧)(١١)

يختلف الوضع بالنسبة إلى الحروب الأهلية أو في الحروب التي يتم فيها تجنيد الأطفال كما حصل في أوغندا، وفي جنوب السودان، أو في سورية، ففي هذه الحروب ترجح كفة الإصابة بالأمراض النفسية لصالح الأولاد على حساب البنات.

تجد النساء أنفسهن في أوقات الحروب في أدوار متعددةٍ؛ فبالإضافة الى أدوارهن المعتادة، تنشأ من المعطيات الجديدة متطلبات ووظائف إضافية، كما يحدث مثلاً عندما تفقد الأسرة معيلها، أو عند إعاقة أو إصابة أحد أفرادها. يعتبر تعدد الأدوار هذا، عاملاً نفسياً ضاغطاً، ويؤدي إلى اضطرابات نفسية متعددة كآلام الظهر، الاكتئاب والمشاكل الجنسية.

آثار الحرب والمصاعب في الطريق وفي بلد اللجوء

بأثقال الحرب هذه، وربما أيضاً بأثقال ما تبقى من عائلة وما تحويه صرّته، التي جمع أشياءها على عجل محاولاً جمع ماضيه وشتاته، يطرق الهارب درباً لم يألفه، لا يعلم ما قد يصادفه وما يخبئ له القدر، فتبدأ رحلة شقاء أخرى، في أحايين كثيرة.

تبدأ الرحلة بمصاعب تتعلّق بطريقة اجتياز الحدود، وهذه الأخيرة مستهدفة بشكل خاص ودائماً من الأطراف المتصارعة. ويضمر اجتياز الحدود الموت في ذاته، ليس فقط باستهدافه، بل رأينا أيضاً كيف قذف البحر جثث كثير ممن ركبوه هرباً.

يقع الهاربون فريسة المتاجرين بالبشر، وفريسة التشرد والجوع وقد أخبرني أحد الواصلين إلى ألمانيا، أنّه اضّطر للمبيت في غابات هنغاريا ثلاث ليالٍ، بينما كانت سماكة الثلج تبلغ نصف المتر. فتاة أخرى لا تقرب الماء بعد أن قطعت المتوسط من ليبيا إلى أوروبا أربع ليال، من خوف الموت خلخلت بناءها النفسي وأصابتها باضطراب كرب ما بعد الصدمة.

في مالطا يحشر اللاجئون في أماكن ضيقة، لا يحصلون إلّا على الفتات أو ما يبقيهم على قيد الحياة، كذلك يتعرض المهاجرون إلى الضرب والإهانة كما تفعل السلطات الصربية والهنغارية مثلاً مع اللاجئين القاصدين غرب أوروبا.

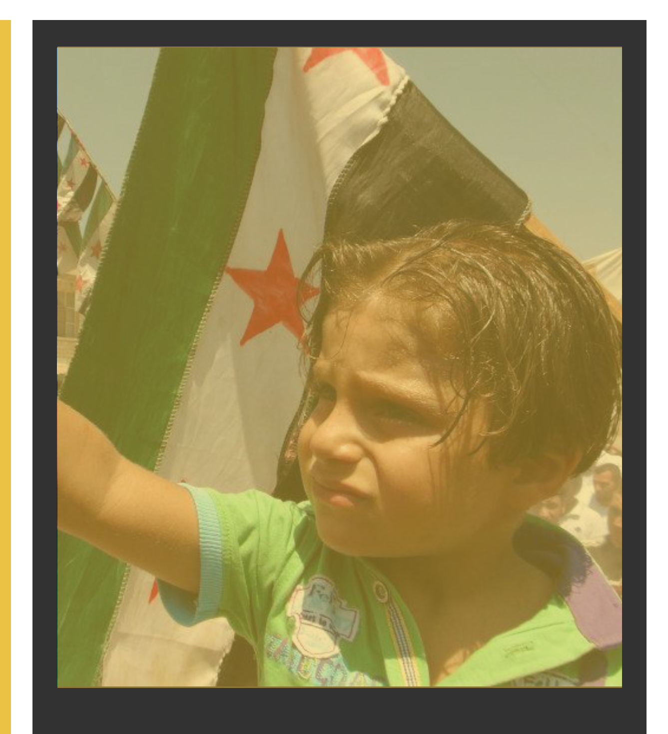
بعد عبور حدود منطقة أو بلد الصراع، تصبح احتمالات الموت أضعف ولكن تبدأ رحلة أخرى في المجهول؛ ففي الموطئ الجديد تعترض اللاجئ صعوبات لغوية، مجتمعية واقتصادية متعددة.

تختلف معاناة المهاجرين باختلاف الحالة الاقتصادية والثقافية للبلد الجديد؛ فبينما يعاني اللاجئ في الأردن مثلاً من صعوبات اقتصادية، يعاني اللاجئ إلى الغرب من صعوبات ثقافية ولغوية.

تثبت الدراسات، أنّ المعاناة من الاضطرابات النفسية للهاربين من الحروب تختلف باختلاف الحالة السياسية والثقافية للبلد المضيف، فبينما تكون الحالة الاقتصادية والثقافية المتطوّرة للبلد المضيف ذات أثر إيجابي في التقليل من آثار الحرب، يعاني اللاجئون في البلدان الفقيرة من مشاكل إضافية. قارن (Paardekooper، ١٩٩٩)(١٢)

كما ترتبط الحالة النفسية للمهاجرين بعوامل أخرى للهجرة. وقد أثبتت الدراسات أنّ الأطفال، الذين يهاجرون مع آبائهم لا يعانون كأقرانهم الذين يطرقون هذا الدرب بدونهم. (Drury، ٢٠١٢)(١٣)

يفرض الموطئ الجديد متطلبات ووظائف نفسية، لا تقل أهميةً أو صعوبة عما حصّله اللاجئ حتى هذه اللحظة، فعليه بناء دوائر اجتماعية جديدة، هذه لا تتطلب فقط تعلم لغة البلد المضيف، بل تتعدّى الصعوبات هذا المستوى، إلى مستويات تتعلق بالهوية، وكل البنية الفكرية والشعورية. ففي الثقافات الجديدة تتغير الأدوار الاجتماعية، كدور المرأة أو دور الأم والأب،



> تعد النساء كما الأطفال حلقة ضعيفة في الحروب وتزدهر تجارة الرقيق الأبيض، كما حدث مثلاً في أوروبا الشرقية وجمهوريات الاتحاد السوفيتي بعد انهياره

فهذه الأدوار هي محصّلة ثقافية واقتصادية ومجتمعية بالنتيجة.

إذن يعيش المهاجر حالة تناقض، أو (لا تجانس)، بين الخبرات المكتسبة في الماضي، بما تعنيه على الصعيد الشعوري؛ الفكري والسلوكي، وبين المعطيات الجديدة. ويقع على عاتقه التوفيق بين هذه المتناقضات، فما يتوقّعه الصديق من صديق له مثلاً، يختلف باختلاف الثقافة المجتمعية.

هذا ما يفسّر مثلاً نزوع بعض الفئات المهاجرة إلى التجمع في مناطق محددة وبناء (جزر ثقافية) في المجتمع الجديد. طبعاً هذا ليس حلاً ويؤدي إلى مزيد من الغربة، بل ينتقل إلى مستوى العائلة، فبينما يعيش الجيل الأول في هذه الجزر هارباً مما تفرضه الثقافة الجديدة، يعيش الجيل الثاني حالة اغتراب أخرى تتمثل في الفارق الثقافي بين الجيلين؛ فالأطفال سيذهبون إلى المدرسة وسينشؤون علاقات اجتماعية، فضلاً عن سرعتهم ومرونتهم في تعلم لغة البلد الجديد واكتساب ثقافته. وهكذا ينشأ شرخ بين جيلي الأسرة ويعيش الجيل الثاني أزمة هوية، فتتوزّعه ثقافة بيتية وأخرى مجتمعية.

يعتبر الاندماج (Integration) بمفهومه الواسع من أهم الوظائف النفسية التي تعترض المهاجرين، ولكن هذا المصطلح فضفاض، وهو مجحف في حق المهاجرين، فهو يستبطن في أذهان (المضيفين) التخلّي عن جملة ضخمة من العناصر السلوكية وخلفياتها النفسية من أجل التجانس مع الوسط الجديد. يعتبر هذا المصطلح في أحايين كثيرة الغطاء الشرعي لعنصريه مباشرة أو مستبطنة، لتميز فردي أو مؤسساتي، فهو يفرض إحداثيات اجتماعية معطاة مسبقاً، على المهاجر تبنيّها والقبول بها بغض النظر عن فرديته أو خلفيته الثقافية. يطرح علم النفس الاجتماعي الحديث مفهوماً بديلاً يطلق عليه (Acculturation) (Johannes Kopp، ٢٠١٠).(١٤)

هذا المفهوم يعتبر الاندماج محصلّة لتفاعل معطيات ثقافية متعددة، وتكمن خصوصيته في اعتباره، أنّ على الوسط الاجتماعي مهمّة ملاقاة عملية الاندماج، التي تقوم بها الأقليات الثقافية المنضمّة إليه، بتغيير ذاته بشكل فاعل وخلق إحداثيات مجتمعية جديدة تناسب التنوع الجديد ولا يؤمن بأن عملية الاندماج هي مهمة الوافدين الجدد فحسب.

من المهم التوضيح هنا أنّ جملة المصاعب والمشاكل النفسية التي تعترض المهاجر هي عملية تراكمية تبدأ في الموطن الأصلي الذي تحلّ به الكارثة، ولا تنتهي بالوصول إلى الموطن الجديد. هذه الخبرة هي سلاح ذو حدين فبينما ستغني صاحبها ثقافياً ومعرفياً في حالات، تخلخل التركيبة النفسية في أحيان كثيرة. وتبقى الإضاءة النظرية هي الخطوة الأولى للبحث عن الحلول والتخفيف من آثار الحروب والهجرة.



> تثبت الدراسات، أنّ المعاناة من الاضطرابات النفسية للهاربين من الحروب تختلف باختلاف الحالة السياسية والثقافية للبلد المضيف

هوامش:

١. https://www.uno-fluechtlingshilfe.de/fluechtlinge/zahlen-fakten.html

.٢ Antonovsky, A. (١٩٩٧). zur Entmystifizierung der Gesundheit. Tübingen: Dgvt.

.٣Erikson, E. H. (١٩٥٩). Identity and the Life Cycle. New York: International. Universities Press.

٤. Ermann, M. (٢٠٠٤). Wir Kriegskinder. Lindauer Psychotherapiewochen, S. ١٩

.٥Nader, K. O., Pynoos, R. S., Fairbanks, L. A., al-Ajeel, M., & al-Asfour, A. (١٩٩٣). A preliminary study of PTSD and grief among the children of Kuwait following the Gulf crisis. The British journal of clinical psychology / the British Psychological Society٣٢ Pt ٤, S. ٤١٦–٤٠٧

.٦Goldstein, R. D., Wampler, N. S., & Wise, P. H. (١٩٩٧). War experiences and distress symptoms of Bosnian children. Pediatrics ٥) ١٠٠), S. ٨٧٨–٨٧٣

.٧Gottfried Fischer, P. R. (٢٠٠٩). Lehrbuch der Psychotraumatologie. München: Ernst Reinhardt, GmbH & Co KG.

.٨ Grubrich-Simitis, I. (Grubrich-Simitis, Ilse (١٩٧٩): Extremtraumatisierung als kumulatives Trauma. Psyche – Zeitschrift für Psychoanalyse ١٠٢٣–٩٩١ ,٣٣ ١٩٧٩). Extremtraumatisierung als kumulatives Trauma. Zeitschrift für Psychoanalyse ٣٣, S. ١٠٢٣–٩٩١

٩. Bandura, A. (١٩٧٧). Social Learning Theory. General Learning Press.

١٠BBC. (٢٠١٦). القبض على أكبر شبكة دعارة في لبنان وتحرير٧٥ امرأة.

.١١ Anthony, N. B. (١٩٩٧). Gender Differences in the Sensitivity to Posttraumatic Stress Disorder: An Epidemiological Study of Urban Young Adults.





Michigan State University. Anthony, N. B. (١١٦, No. ٢٠٠٧ ٣).

.١٢ Paardekooper, B. J. (١٩٩٩). The psychological impact of war and the refugee situation on South Sudanese children in refugee camps in Northern Uganda: an exploratory study. Journal of child psychology and psychiatry, and allied disciplines, S. ٥٣٦–٥٢٩

.١٣ Drury, J. &. (٢٠١٢ ٢٥ .٠٤). Children and young people who are refugees, internally displaced persons or survivors or perpetrators of war, mass violence and terrorism. Current opinion in psychiatry., S. ٢٨٤–٢٧٧

.١٤ Johannes Kopp, B. S. (٢٠١٠). Grundbegriffe der Soziologie. Wiesbaden: VS Verlag für Sozialwissenschaften.

مصادر أخرى:

Neugebauer, R., Fisher, P.W., Turner, J.B., Yamabe, S., Sarsfield, J.A. &Stehling-Ariza, T. (٢٠٠٩). Post-traumatic stress reactions among Rwandan children and adolescents in the early aftermath of genocide. International journal of epidemiology, .–١٠٣٣ ,(٤) ٣٨ ١٠٤٥

Maercker, A. & Horn, A.B. (٢٠١٣). A socio-interpersonal perspective on PTSD: the case for environments and interpersonal processes. Clinical psychology&psychotherapy, ٤٨١–٤٦٥ ,(٦) ٢٠

Maercker, A. (٢٠١٣). Posttraumatische Belastungsstörungen. Berlin: Springer.



بقلم:
منصف السليمي
إعلامي وباحث، رئيس المؤسسة المغاربية الألمانية للثقافة والإعلام MagDe بألمانيا

أزمة اللاجئين في مرآة الإعلام الأوروبي

الإعلام الألماني أنموذجا ...

يظهر تناول الإعلام الأوروبي لأزمة اللاجئين، إلى أي مدى شكّل هذا الملف بؤرة جدل وصراعات مجتمعية داخل أوروبا، في علاقتها بجوارها المتوسطي والشرق أوسطي، كما يكشف تحليل المادة الإعلامية، كميا ومضمونيا، حول موضوع اللاجئين، التأثير الذي يلعبه الإعلام في تشكيل الرأي العام، ونظرة المجتمعات الأوروبية لهذه القضية الإنسانية الشائكة.

فقد كان استقبال أوروبا لأكبر موجات لجوء منذ الحرب العالمية الثانية، اختبارا للدول الأوروبية واتحادها في واحدة من أعقد المعضلات التي واجهت المجتمع الدولي في العقود الأخيرة، ويشكل رصد وتحليل أداء الإعلام الأوروبي والألماني بشكل خاص إزاء هذا الملف، حقل اختبار ومؤشرا أساسيا لإدراك وفهم أداء الإعلام وتوجهات المجتمع في ألمانيا/البلد الأوروبي الذي استقبل أكبر عدد من اللاجئين، وتصدرت مستشارته أنغيلا ميركل المشهد الأوروبي والدولي في مواجهة تحدي أزمة اللاجئين، التي شكلت أزمة عابرة للحدود والقارات بامتياز.

١: استقبال اللاجئين في ميزان الإعلام؛ خطوة إنسانية أم نفعية؟

شكل عاما ٢٠١٥ و٢٠١٦ لحظة تاريخية، واختبارا غير مسبوق لمستوى تعامل أوروبا مع قضية اللجوء، فإزاء تدفق ملايين اللاجئين على القارة الأوروبية بدا الاتحاد الأوروبي في محنة تاريخية، ليس فقط بسبب الامتناع أو استقبال أعداد ضخمة غير مسبوقة منذ الحرب العالمية الثانية، بل بسبب ظهور انقسام كبير داخله في التعامل مع هذه القضية الإنسانية الشائكة، ولم يكن أداء الإعلام الأوروبي أفضل حالا من السياسة.

يرسم تقرير للأمم المتحدة / اليونسكو (الذي أعده الخبير الدولي في الإعلام، ايدان وايت، المشرف على شبكة صحافة الأخلاقيات، وسلسلة «قصص مؤثرة» وهي في شكل تحقيق شامل حول أحوال اللاجئين في العالم)[١]، مشهدا مرتبكا للإعلام الأوروبي إزاء قضية اللاجئين. فقد هزت أزمة اللاجئين شجرة الاتحاد الأوروبي ومؤسساته، وبدأت محنة الإعلام في هذه القضية بإضاعته فرصة المبادرة بدق ناقوس الخطر لموجات تدفق اللاجئين، عندما اندلعت الحرب الأهلية في سوريا والحرب على داعش في العراق والأزمة المستعصية في ليبيا، لكن المحنة الأكبر ستظهر مع معاناة الإعلام من صعوبة استقلاليته عن الساسة بنزعاتهم المتناقضة، والبحث عن تغطية متوازنة، لقضية تتداخل فيها المصالح الاقتصادية والنزعات الأيديولوجية والسياسية المتضاربة والحسابات الاستراتيجية.

ويرى تقرير الأمم المتحدة أن الإعلام في بلدان جنوب شرق أوروبا الحديثة؛ العضوية بالديمقراطية والعضوية في الاتحاد الأوروبي، فشل في الخروج عن ضغوط الساسة، مشيرا إلى حالة بلغاريا، البلد الذي يشكل معبرا رئيسا للاجئين في طريق البلقان، حيث غابت التغطية المسؤولة وهيمنت أساليب الإثارة والاستقطاب. وفي إيطاليا أحد المعابر الرئيسة وعنوانا أساسيا لمآسي الهجرة عبر مياه البحر الأبيض المتوسط نحو أوروبا، في هذا البلد الأساسي بالاتحاد الأوروبي، أظهر أداء الإعلام أن خطاب الكراهية ما يزال موجودا، على الرغم من مساعي وسائل إعلام عديدة لتفعيل مواثيق أخلاقية مهنية ضد التميز.

وفي بريطانيا البلد الديمقراطي العريق، كشفت التغطيات الإعلامية أن قصص المهاجرين واللاجئين، كانت في كثير من الأحيان تحت وطأة تأثيرات سياسية على حساب التوازن والشعور بحجم المأساة، والمثال الواضح محنة المهاجرين غير الشرعيين في مخيمات كاليه.

وفي فرنسا، التي جاء ترتيبها ٤٥ عالميا في سجل حرية الصحافة لعام ٢٠١٥، متراجعة بسبع نقاط، في الترتيب الذي تصدره سنويا منظمة مراسلون بلا حدود (مقرها باريس)[٢]، يحمل دلالة على خضوع الأداء الإعلامي لضغوط سياسية واقتصادية وأجندات انتخابية متواترة، تجعله يجنح في كثير من الحالات عن التزام النزاهة والتوازن، في تغطية قضايا شائكة مثل الهجرة واللجوء، جراء هيمنة لوبيات مالية واقتصادية على المؤسسات الإعلامية، ما يجعل مدراء هذه المؤسسات حذرين جدا وحساسين جدا لعدد من القضايا ذات الأولوية في أجندة جماعات النفوذ، كما يؤكد ذلك أمين عام منظمة مراسلون بلا حدود، ماريا كريستوف دولوار، في تقديمه للتقرير السنوي للمنظمة لعام ٢٠١٥ [٣]

ولكن تظل الحالة الألمانية، الاختبار الأكبر في المشهد الإعلامي الأوروبي، بحكم حجم إشكالية اللجوء في هذا البلد الذي يشكل اقتصاده قاطرة للاتحاد الأوروبي، وكانت سياسته في قضية اللاجئين فارقة على الصعيد الأوروبي.

١- The role of the media in the unfolding migrant crisis الذي نشر بتاريخ ٢٤ مارس ٢٠١٦ على موقع Ethical Journalism Network.

٢- التقرير منشور على موقع المنظمة rsf.org.

٣- صحيفة Paris Match تاريخ النشر ٢٠ أبريل/ نيسان ٢٠١٦



١-١- أوروبا الإنسانية - ألمانيا ميركل والترحيب باللاجئين:

حسب دراسة[٤] أعدها معهد الإعلام بهامبورغ der Hamburg Media School HMS، فإن أكثر من ٣٤ ألف تقرير إعلامي بثته وسائل إعلام ألمانية خلال الفترة ما بين ٢٠٠٩ و٢٠١٥، حول سياسة اللجوء والصورة التي تعكسها وسائل الإعلام حول ثقافة الترحيب باللاجئين. وتكشف الدراسة أن وسائل الإعلام الألمانية كانت تتداول منذ سنة ٢٠٠٩ مفهوم «ثقافة الترحيب» بشكل اجتراري، ومنذ سنة ٢٠١٥ مع قدوم مئات آلاف اللاجئين إلى ألمانيا، بدأت هذه الفكرة تطرح في سياق مقارنات مع دول أوروبية أخرى مثل إيطاليا أو اليونان، التي تعيش أزمة مالية تؤثر على تعاملها مع اللاجئين، ومن ثم فإن سياسة «استقبال اللاجئين» من قبل ألمانيا تُعرض من قبل وسائل الإعلام الألمانية وكأنها نموذج إنساني للاقتداء أوروبيا.

وسجلت الدراسة حدوث طفرة كمية في تناول وسائل الإعلام الألمانية لموضوع اللاجئين، فخلال سنة ٢٠١٥ وحدها، بُثت حوالي ١٩ ألف مادة إعلامية؛ أي بزيادة ٤٠٠٠عن مجموع ما أنتج خلال السنوات الست الماضية. وخلال فترة شهر يوليو/ تموز إلى سبتمبر/ أيلول ٢٠١٥، أي فترة ذروة استقبال اللاجئين بألمانيا، وصل معدل نشر الصحف الألمانية في اليوم الواحد سبع مواضيع (الصحيفة الواحدة) تتعلق باللاجئين.

وحسب المؤشرات التي توصل إليها الخبراء في هذه الدراسة التي شاركت فيها معاهد إعلامية متخصصة أخرى من لايبتزغ ومؤسسة أوطو برانير Otto Brenner Stiftung، فإن ٨٢ في المئة من المواضيع التي نشرتها الصحف الألمانية خلال هذه الفترة كانت إيجابية إزاء قضايا اللاجئين، و٦ في المائة فقط وضعت سياسة اللجوء كقضية إشكالية. وأحدثت العبارة الشهيرة التي أطلقتها المستشارة أنغيلا ميركل: «نستطيع إنجاز ذلك»، وصور السيلفي التي التقطها معها لاجئون سوريون في محطة قطار ميونيخ، أكبر صدى في الإعلام.

وطيلة الفترة الأولى من بدء تدفق اللاجئين، كانت التغطية الإعلامية على الأصعدة المحلية في الولايات وعلى الصعيد الاتحادي، تميل إلى التركيز على الاستعدادات الكبيرة التي يبديها الألمان، مؤسسات وهيئات غير حكومية ومواطنين لاستقبال اللاجئين، وكانت نسبة ضئيلة من التقارير الإعلامية تثير مسألة الضغط والصعوبات والتحديات التي تواجه السلطات. وسجلت الدراسة أن حوالي ثلثي التقارير المتداولة في وسائل الإعلام الألمانية «تجاهلت» مشاكل تسجيل أعداد كبيرة من اللاجئين، وبأن سياسة فتح الحدود لها تداعيات سلبية على المجتمع. مقابل ثلث فقط من التقارير سلطت الضوء على المشاكل التي تترتب عن سياسة استقبال اللاجئين.

وفحصت الدراسة بعض النماذج من وسائل الإعلام الأكثر تأثيرا في ألمانيا، ونبرتها في تقديم مواضيع اللاجئين، على غرار برنامج تاغس شاو الإخباري المسائي اليومي Tagesschau في القناة التلفزيونية الأولى (ARD، مؤسسة عمومية) الذي يقدر عدد مشاهديه يوميا حوالي ١٠ ملايين شخص، ولاحظت أن ٢٠ في المئة من تقاريره كانت تتضمن أحكام قيمة ضمنية، و٤٠ في المئة بشبيغل أونلاين Spiegel Online (النشرة الإلكترونية لمجلة دير شبيغل التي تعد من أكبر المواقع الصحفية عالميا)، ويشكل الشباب والكهول قاعدة أساسية من قرائها، مقابل ١٥ في المئة في صحيفة دي فيلت Die Welt المعروفة بتوجهها المحافظ وغالبية قرائها من الفئات العمرية المتقدمة.

وفي ذروة انتشار مصطلح ثقافة الترحيب باللاجئين، ستظهر هجمات كراهية ضد الأجانب واللاجئين، في شكل اعتداءات على مراكز استقبال لاجئين وأعمال حرق بعدد من ولايات ألمانيا، وخصوصا الشرقية منها. ولم يكن تناول وسائل الإعلام لتلك الحوادث بنفس الوتيرة والنبرة قياسا في مرحلتي ذروة استقبال اللاجئين، ومراحل أخرى بدأت تظهر فيها مؤشرات تذمر من سياسة استقبال اللاجئين.

ويستنتج الخبراء في الدراسة بأن أداء عدد من وسائل الإعلام الألمانية كان ينطلق من تموقعها واتخاذ مواقف إزاء قضية اللاجئين، كما يلاحظ ذلك كبير الباحثين في الفريق الذي أنجز الدراسة البروفيسور ميشائيل هالر في مقال له بصحيفة فرانكفورته ألغماينه FAZ.

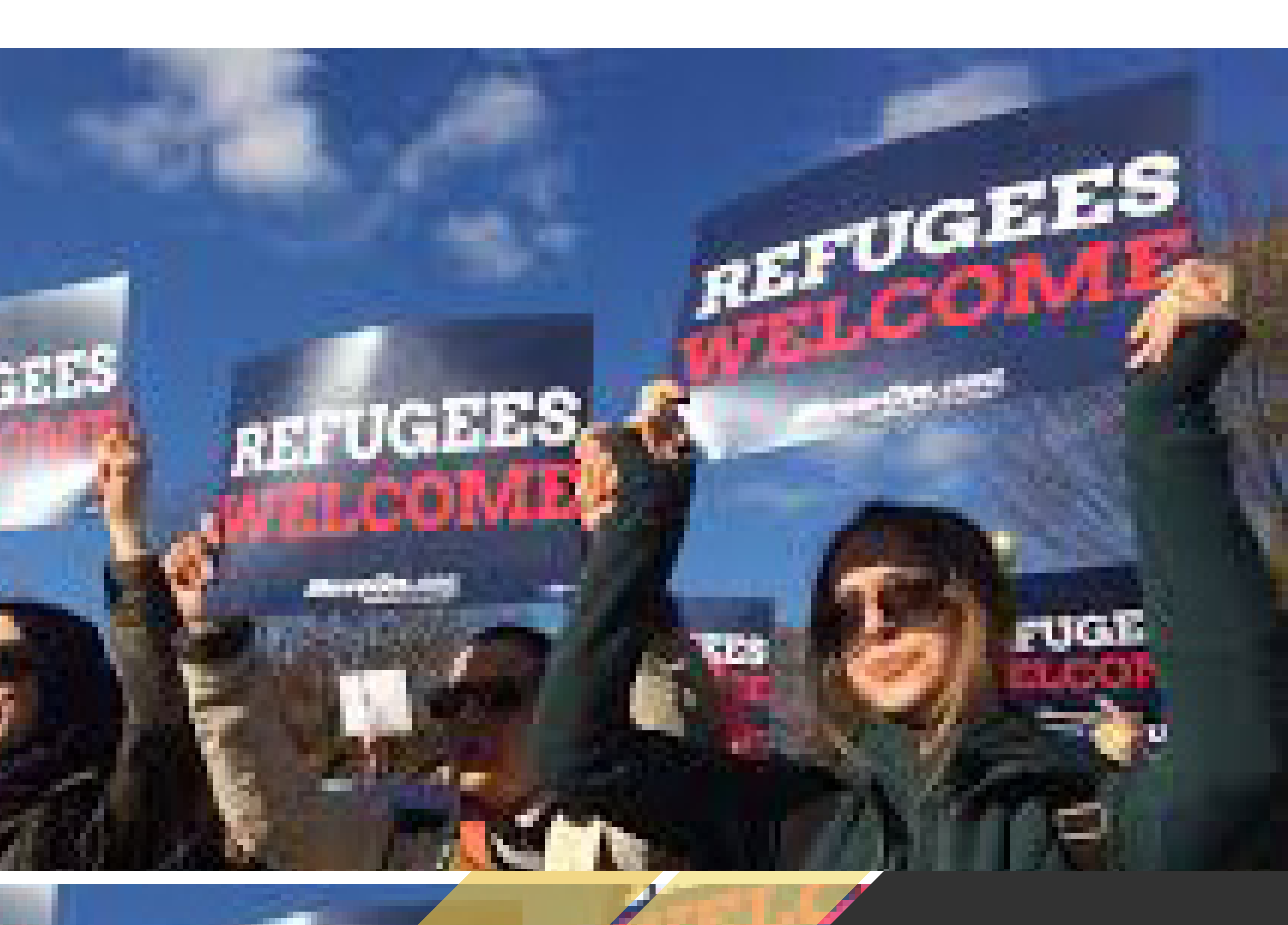
ناشر ورئيس تحرير صحيفة «دي تزايت» Die Zeit، المرموقة، غيوفاني دي لورنزو، قام في مقابلة تلفزيونية بنقد ذاتي لصحيفته التي سايرت موجة الترحيب باللاجئين التي انتهجتها حكومة المستشارة أنغيلا ميركل، دون اتخاذ مسافة مهنية، وقال: «لقد ارتكبنا خطأ، عندما وضعنا عنوانا عريضا على الصفحة الأولى[٥]: مرحبا (باللاجئين)»،

٤- صحيفة FAZ الألمانية بتاريخ ١٠ أغسطس/ آب ٢٠١٦

٥- العدد ٢٠١٥/٣٧ الذي نشر بتاريخ ١٠ سبتمبر/ أيلول ٢٠١٥



"أظهرت أحداث كثيرة في أوروبا، وخصوصا ما يتصل بالقصص الإخبارية حول اللاجئين وأحداث الإرهاب، إلى أي مدى تنتشر القصص عبر مواقع التواصل الاجتماعي، ومن ثم إلى وسائل الإعلام التقليدية



> يظهر تناول الإعلام الأوروبي لأزمة اللاجئين، إلى أي مدى شكّل هذا الملف بؤرة جدل وصراعات مجتمعية داخل أوروبا، في علاقتها بجوارها المتوسطي والشرق أوسطي

مستنتجا بأن ذلك يضر بمصداقية الإعلام وثقة القراء فيه، لأنه يخلط وظيفة الإعلام بعمل السياسيين الذين يمارسون تضامنهم مع اللاجئين وينتهجون سياسة الترحيب باللاجئين.

وشكلت حملة «الترحيب باللاجئين» التي قامت بها صحيفة «بيلد» الواسعة الانتشار المعروفة بنهجها المحافظ في قضايا الهجرة، مفاجأة لكثير من المراقبين لأداء الإعلام الألماني، وعن ذلك يقول غيوفاني دي لورنزو: «لم أكن أحلم في يوم ما بأن تقدم هكذا صحيفة كبيرة (بيلد) بألمانيا على تبني مقولة مرحبا باللاجئين». وصحيفة «بيلد» ذات توجهات محافظة، ورغم ما يتعرض له أسلوبها المثير من نقد المختصين، إلا أن ما تنشره غالبا ما يشكل مواضيع اهتمام لدى وسائل الإعلام الأخرى مثل الصحف ووكالات الأنباء والقنوات التلفزيونية، وهي الأوسع انتشارا في ألمانيا ويصل عدد قراء الصحيفة الورقية يوميا ٢,٧٥ مليون شخص، ويشكل الشباب ما بين ٢٠ - ٣٩ عاما حوالي ٣٠٪، وما بين ٤٠ - ٤٩ عاما، حوالي ٢٢ ٪ من قرائها[٦].

٢-I- اللاجئون بين النظرة «النفعية» ومصدر «الخطر» على المجتمعات الأوروبية:

اهتمت وسائل الإعلام الألمانية والأوروبية عن كثب بالخصائص السوسيولوجية والديمغرافية للاجئين الذين يتدفقون على أوروبا؛ وذلك بتسليط الضوء على معطيات إحصائية حول الفئات العمرية، ومستويات التعليم والتكوين، وإتقان اللغات، والخبرات المهنية.

وسجل تباين في اتجاهات تناول المادة الإعلامية حول هذه المواضيع، والتي اعتمدت على ما تنشره معاهد متخصصة في الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والمؤسسات الحكومية وغير الحكومية، من بيانات وإحصاءات حول اللاجئين، أو بالاعتماد على القصص الصحافية التي تساهم وسائل الإعلام في صنعها من خلال تحقيقاتها الميدانية ومتابعاتها لأوضاع اللاجئين.

ويحمل الاهتمام الإعلامي بهذه المعطيات والبيانات محاولة للإجابة عن سؤال «براغماتي» للرأي العام المحلي، ماذا يجنيه الاقتصاد والمجتمع من توافد مئات آلاف اللاجئين. ويمكن رصد تباين ملحوظ في اتجاهات التحليل والرأي بالإعلام الألماني، حول «الفوائد» التي يمكن أن يجلبها اللاجئون على الاقتصاد والمجتمع، وكذلك حول الانعكاسات الديمغرافية والثقافية لوفود أعداد كبيرة من اللاجئين على بنيات المجتمعات الأوروبية.

وينطلق المتخوفون من دخول أعداد كبيرة من اللاجئين، من أن نسبة المسلمين التي تبلغ حاليا في أوروبا ٦ في المئة، يتوقع أن تصل في حدود سنة ٢٠٥٠ إلى ١٠ في المئة[٧]، وهو ما يمكن أن يؤدي إلى تغيير في التوازنات الديمغرافية والسوسيو ثقافية للمجتمعات الأوروبية التي ترتفع فيها نسبة الأجانب والمهاجرين.. تضاف إليها المخاوف من احتمال انضمام تركيا للاتحاد الأوروبي، ما قد يغير الخصائص الديمغرافية والسوسيوثقافية للاتحاد الأوروبي برمته.

كما تثار في هذا الاتجاه، مخاوف من ارتفاع تعداد المسلمين ونسبهم في المجتمعات الأوروبية، ما قد يهدد بعد عقود من الزمن، الهوية المسيحية لتلك المجتمعات، كما ورد في عدد كبير من التقارير الإعلامية.

ومن الناحية الاقتصادية، تباين المادة الإعلامية المتداولة حول اللاجئين، بين اتجاه يبرز نتائج دراسات الخبراء حول حاجة الاقتصاد الأوروبي لليد العاملة المهاجرة، والتأكيد على الدور الإيجابي الذي يلعبه المهاجرون في بناء اقتصاديات أوروبا، وبأن الاستثمار في إدماجهم في سوق العمل والدورة الاقتصادية من شأنه أن يثمر نتائج إيجابية على الاقتصاد. فقد نشرت صحف ألمانية نتائج دراسات لمؤسسات دولية وأوروبية، منها دراسة لصندوق النقد الدولي تؤكد أن توافد اللاجئين إلى ألمانيا والنمسا والسويد، يمكن أن يفيد اقتصادياتها بنمو يتراوح ما بين ٠,٥ إلى ١,١ في المئة، وبمعدل ٠,٢٥ بالنسبة لاقتصاد الاتحاد الأوروبي في أفق سنة ٢٠٢٠ [٨].

وبموازاة التجاذبات السياسية حول برامج إدماج اللاجئين والموازنات الاستثنائية المخصصة لها، تصدرت وسائل الإعلام الألمانية على امتداد أشهر سجالات حول كلفة اللاجئين المالية وعائدات إدماجهم على الاقتصاد.

في المقابل برز اتجاه إعلامي معاكس يعتمد على دراسات تشكك في الجدوى من الاعتماد على اللاجئين كقوة اقتصادية «نافعة»، إذ تركز وسائل إعلام عديدة على الخلفيات الاجتماعية والثقافية، باعتبارها عائقا في وجه اندماج المهاجرين الوافدين من بلدان مسلمة.

٦- دراسة تحليلية حول الجمهور النموذجي MEEDIA يناير/ كانون الثاني ٢٠١٣

٧-مجلة Focus الألمانية بتاريخ ٠٣ أبريل/ نيسان ٢٠١٥

٨- صحيفة دي تزايت الألمانية ٢٠ يناير/ كانون الثاني ٢٠١٦



ومن أكثر الدراسات التي وقع تداولها من قبل وسائل الإعلام الألمانية، رأي الخبير الألماني تيلو سارازين الذي يقول في كتاب له صدر سنة ٢٠١٣ [٩]، بأن خصائص جينية وفيزيولوجية تجعل المهاجرين الأتراك والعرب «عبئا» على الاقتصاد الألماني وليس عاملا مساعدا على الإنتاج.

وفي هذا السياق، تتصدر بعض وسائل الإعلام دعوات ومخاوف مصدرها نزعات وتيارات معادية للهجرة ولتدفق اللاجئين، وتتوخى بعض التيارات رفع شعارات محملة بالعداء للإسلام والمسلمين، في شكل حملات ضد ما تسميه «أسلمة أوروبا» على غرار حركة بيغيدا في ألمانيا، وهي اختصار لـ «أوربيون وطنيون ضد أسلمة الغرب»، أو حزب الحرية الذي يتزعمه خيرت فيلدرز في هولندا، ويصف تدفق اللاجئين من بلدان مسلمة بأنه «غزو إسلامي» لأوروبا، وتعمد إلى الخلط بين أنماط حياة وثقافة الجاليات المسلمة بأوروبا ونشاط وأفكار بعض الجماعات الإسلامية المتطرفة.

ولا تقتصر هذه التيارات على حضورها كنزعات شعبوية في الشارع ووسائل الإعلام، بل إن هنالك أحزابا حاكمة في دول أوروبية تتناغم معها، ففي مقال نشرته صحيفة فرانكفورتر الغماينه تسايتونغ الألمانية، يوم ٠٣ سبتمبر/ أيلول ٢٠١٥، حول تدفق اللاجئين إلى أوروبا، كتب رئيس وزراء المجر فيكتور أوربان: أن «غالبيتهم ليسوا مسيحيين بل مسلمون. هذه قضية مهمة، لأن أوروبا والهوية الأوروبية لهما جذور مسيحية». كما قال رئيس الوزراء المجري في بروكسيل على هامش قمة أوروبية مخصصة لأزمة اللاجئين: «أليس من المقلق أن الثقافة المسيحية في ذاتها في أوروبا لم تعد قادرة على إبقاء أوروبا في نظام القيم المسيحية أصلا؟»، مشيرا إلى أنه «إذا تناسينا ذلك فقد يجد الفكر الأوروبي نفسه أقلية في قارتنا».

ويرى الكاتب الصحفي الألماني شتيفن بوخن، أن أوربان يحاول أن يعيد لأذهان الأوروبيين مآسي من تاريخ القرون الوسطى في الحروب بين أوروبا المسيحية وتركيا الإسلامية، عبر اللعب بورقة مأساة هزيمة معركة «موهاتش» في عام ١٥٢٦، في المثلث الواقع بين البلدان الثلاثة المجر وصربيا وكرواتيا، وهو للمفارقة نفس المسار الذي يسلكه اللاجئون اليوم فيما يعرف بـ«طريق البلقان». و«يتجرأ أوربان بشكل مدهش على الاستخدام الخطابي لزمن «الحروب التركية»، كما يقول بوخن.[١٠]

ولا يجد خطاب التخويف الذي يعتمده أوربان فقط التجاوب من قبل قطاع من وسائل الإعلام، بل إنها طريقة يحالفها النجاح، حيث قوبلت سياسته باستحسان صريح من ولاية بافاريا الألمانية، عبر حكومتها المحلية، التي يقودها الحزب المسيحي الاجتماعي، الذي يشكل شوكة في حلق الائتلاف الحاكم في برلين عبر معارضته وكبحه لسياسة استقبال اللاجئين التي تقودها ميركل.

كما يجد خطاب أوربان والشحن القومي الصادر من المجر ضد اللاجئين، التجاوب من حزب «الأحرار» اليميني الشعبوي في النمسا وكذلك الموافقة السرية من عواصم أوروبية عديدة، وحتى الموافقة العلنية من أمثال الرئيس التشيكي ميلوس زيمان المعروف بتصريحاته المناهضة للإسلام والمهاجرين، والذي وصف موجة اللاجئين إلى أوروبا بـ «غزو منظم وليس حركة لاجئين عفوية»، ودعا الشباب القادمين من سوريا والعراق إلى «حمل السلاح» ضد تنظيم «الدولة الإسلامية» (داعش) بدلا من الهجرة إلى أوروبا. وذهب الرئيس التشيكي إلى التصريح بأن اللاجئين القادمين من بلدان إسلامية غير مرحب بهم في بلاده.

وعبر تداول واسع لهذه الخطابات القومية المناهضة للاجئين والمحذرة من خطر «أسلمة أوروبا»، يرتفع منسوب الخوف في أوساط الرأي العام بعدد من الدول الأوروبية إلى أرقام غير مسبوقة، ففي تشيكيا سجلت استطلاعات للرأي نشرت مؤشراتها وسائل الإعلام المحلية أن ٧٠ في المئة من الشعب التشيكي يعارضون وصول اللاجئين والمهاجرين إلى بلدهم.

ودبت المخاوف أيضا في ألمانيا، بعد شهرين فقط من إطلاق المستشارة أنغيلا ميركل سياسة استقبال اللاجئين، حيث كشف استطلاع رأي نشرت نتائجه قناة (أي ار دي)ARD الألمانية في بداية شهر أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠١٥، عن مخاوف تنتاب أغلب الألمان إزاء وصول مئات الآلاف من طالبي اللجوء، وأظهرت نتائج الاستطلاع أن ٥١٪ من الألمان أعربوا عن الخوف من اللاجئين، نقلا عن بيانات معهد انفراتست.

فقد تغيرت أمور كثيرة في ألمانيا بعد أشهر قليلة من مشهد صور آلاف الألمان المتطوعين، وهم يستقبلون لاجئين في محطات القطارات ومخيمات اللجوء رافعين لافتات كتب عليها بالإنجليزية «مرحبا باللاجئين»، وأضحت البلاد وخصوصا في شرقها تشهد وبشكل متصاعد مظاهرات تسيرها حركة بيغيدا المعادية للمهاجرين، وحوادث اعتداءات وحرق لمراكز لاجئين، وسط مؤشرات

٩- يحمل الكتاب عنوان: ألمانيا تدمر نفسها. Deutschland schafft sich ab: Wie wir unser Land aufs Spiel setzen.

١٠- (موقع قنطرة ١٢ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠١٥).





سجلت دراسة حدوث طفرة كمية في تناول وسائل الإعلام الألمانية لموضوع اللاجئين، فخلال سنة ٢٠١٥ وحدها، بُثت حوالي ١٩ ألف مادة إعلامية؛ أي بزيادة ٤٠٠٠عن مجموع ما أنتج خلال السنوات الست الماضية



> شكلت حملة "الترحيب باللاجئين" التي قامت بها صحيفة "بيلد" الواسعة الانتشار المعروفة بنهجها المحافظ في قضايا الهجرة، مفاجأة لكثير من المراقبين لأداء الإعلام الألماني

عن ارتفاع نسبة الذين يعربون عن الخوف إلى ١٣ بالمائة مقارنة مع استطلاع أجري بعد شهر واحد من تدشين سياسة استقبال اللاجئين. وبالنسبة إلى الألمان الذين يعيشون في شرق البلاد، فإن ٥٩٪ ممن شملهم الاستطلاع أكدوا الخوف من اللاجئين، فيما عبر ٤٨٪ فقط عن مخاوفهم، بغرب البلاد.

II: اللاجئ وإشكالية الاندماج:

تصنف معظم التقارير والتغطيات الإعلامية حول أوضاع اللاجئين، مسألة الاندماج، باعتبارها الاختبار الأهم في مسيرة اللاجئ بالبلد المضيف؛ فبعد استقبال ألمانيا لأكثر من مليون لاجئ، ٥٠ في المئة منهم سوريون، جرى التركيز على عنصر الخلفية الثقافية للاجئين كمعيار أساسي في اختبار الاندماج.

١-II- اللاجئ والمعيار الثقافي:

شكل اللاجئون مادة أساسية تغذي النقاش المجتمعي الدائر في ألمانيا حول قضية الاندماج، بدءًا بقضايا تعلم اللغة الألمانية، ومرورا بولوج سوق العمل وسبل الحصول على السكن والخدمات الاجتماعية والصحية، وصولا إلى الاندماج في ثقافة المجتمع المستضيف.

فعلى امتداد عقود من الزمن صنفت ألمانيا، المهاجرين كعمال ضيوف، ولكن قدوم مئات آلاف اللاجئين، عزز التحول في نظرة ألمانيا الرسمية والمجتمعية للهجرة، إلى مفهوم «ألمانيا بلد الهجرة»، فرغم أن مفهوم «ثقافة الترحيب» ارتبط بسياق ظرفي لاستقبال اللاجئين، إلا أنه في العمق يشكل تمظهرا جديدا للتحول في نظرة المجتمع الألماني لمكانة المهاجرين فيه.

ويرصد المتبعون للمشهد الإعلامي الألماني تحول فعاليات عديدة من اللاجئين إلى فاعل إعلامي مؤثر، وذلك من خلال مستويين:

مستوى أول، يتمثل في فتح وسائل إعلام ألمانية عديدة أبوابها وقنواتها لبرامج الواقع والحوارات المباشرة مع اللاجئين، باللغة الألمانية والعربية أيضا، وأحيانا تكليف إدارة تلك البرامج لوجوه إعلامية من أصول مهاجرة.

فرغم تأكيد الخطاب السياسي الألماني على أولوية اللغة الألمانية في برامج الاندماج، شهدت الساحة الإعلامية الألمانية طفرة في إصدار الصحف لطبعات عربية والقنوات التلفزية لبرامج باللغة العربية، إذ قامت صحيفة «بيلد» الشعبية بإصدار ملحق باللغة العربية من ٤٠ ألف نسخة من الصحيفة، وخصصت قنوات مثل «في دي ار» WDR (مؤسسة عمومية) برامج مزدوجة عربية وألمانية مخصصة للاجئين، بينما خصصت قناة «إن تي فاو» NTV الخاصة برنامجا تلفزيونيا باللغة العربية بثته على موقعها الإلكتروني عنوانه «مرحبا بكم في ألمانيا»، كما خصصت مؤسسة دويتشه فيله DW برامج خاصة للاجئين وصفحة معلومات موجهة لقضايا اللاجئين الجدد، تحاول الإجابة على أسئلتهم الملحة حول العمل والسكن وتعلم اللغة الألمانية والتعريف بالأنظمة والقوانين وأنماط الحياة والثقافة في المجتمع الألماني.[11]

وتشترك هذه الصفحات والبرامج في تقديم مواضيع تعريفية للاجئين عن نمط الحياة المجتمعية والثقافية بألمانيا، ومعلومات عن الدستور والنظام السياسي والقوانين، وسبل التعامل في القضايا الملحة للاجئين كالخدمات الاجتماعية وإجراءات تقديم طلبات اللجوء.

ومستوى ثاني، من خلال بروز مبادرات إعلامية يقوم بها نشطاء من اللاجئين أو الإعلاميين المهاجرين بألمانيا، بدأت أحيانا بحملات على مواقع التواصل الاجتماعي تحت شعار «شكرا ألمانيا»؛ على غرار الحملة التي انطلقت في العاشر من أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠١٥، وكان وراءها نشطاء لاجئون ضمنهم المدون والفنان التشكيلي السوري مؤنس بخاري مؤسس مجموعة «البيت السوري».

وعلى الرغم من الأصداء الواسعة التي خلفتها هذه الحملة الفنية والإعلامية على مواقع التواصل الاجتماعي، حيث بلغ متابعوها مئات الآلاف داخل ألمانيا وخارجها، فقد طرح حضور اللاجئين بأعداد كبيرة في ألمانيا تحديات تتعلق بمسألة اندماج اللاجئين في المجتمع الألماني، ما مهد إلى ظهور مبادرات إعلامية تضع في صلب اهتماماتها هذه المسألة. ومن تلك المبادرات صحيفة «أبواب»، ناطقة بالعربية وجزئيا بالألمانية، وتهتم بتغطية أخبار البلدان التي قدم منها اللاجئون ومواضيع أخرى تهم اللاجئين داخل ألمانيا. إضافة إلى مواضيع عملية وخدماتية تخص اللاجئين، كعملية تقديم طلبات اللجوء على سبيل المثال: خدمات قانونية، السكن، البحث

١١- (المصدر: موقع DW عربية، ٢٠١٥،١١،٠٣ "ألمانيا تتكلم عربي".. ازدهار لغة الضاد إثر موجة اللاجئين).



عـن العمـل، والصعوبـات الـتي يواجههـا اللاجـئ في سـبيل اندماجـه.

وتـوزع الصحيفـة مجانـا، وقـد انطلقـت الصحيفـة في الأول مـن ديسـمبر/ كانـون الأول ٢٠١٥ بــ ٤٥ ألـف نسـخة، ووصـل عـدد النسخ الشـهرية منهـا في شـهر يوليـو إلى ٧٠ ألفـا، ويتـم تمويـل الصحيفـة عـن طريـق الإعـلان[١٢]، وحـول ظـروف ولادة فكـرة هـذه الصحيفـة يقـول رئيـس تحريرهـا، رامـي العاشـق، اللاجـئ الفلسـطيني الـذي فـر مـن مخيـم اليرمـوك بسـوريا، أنـه لاحـظ بعـد وصولـه إلى ألمانيـا عـدم وجـود صحيفـة ناطقـة باللغـة العربيـة في فضـاء الإعـلام الألمـاني، «كانـت فكـرتي بنـاء جسـر بـين الجاليـة العربيـة والمجتمـع الألمـاني، بمختلـف جماعاتـه الاجتماعيـة وتحطيـم كل الأفـكار المسـبقة النمطيـة الموجـودة عنـد جميـع الأطـراف».

٢-II - اللاجئـون في دائـرة الضـوء الإعلامـي عـلى قضايـا الجريمـة:

شـكلت أحـداث كولونيـا، أهـم منعـرج في اهتمـام وسـائل الإعلام بألمانيـا باتجـاه الربـط بـين قضيـة اللاجئـين ومشـاكل الجريمـة، وذلـك بعـد تـداول وسـائل الإعـلام الألمانيـة والعالميـة للأحـداث الـتي قدمـت في أعقابهـا أكـثر مـن ألـف امـرأة شـكاوى في قضايـا اعتـداءات جنسـية ليلـة رأس السـنة ٢٠١٥-٢٠١٦ بمدينـتي كولونيـا وهامبـورغ، ومـن بـين المواصفـات الـتي تـم الإدلاء بهـا أن الشـخص ملامحـه عربيـة ويتحـدث بمزيـج بـين اللغتـين العربيـة والفرنسـية، وحسـب بيانـات الشرطـة، فـإن ٤٠ في المئـة مـن عـشرات الأشـخاص الذيـن اتهمـوا في أحـداث كولونيـا مغاربيـون، لكـن هـذه الأرقـام لـم يتـم بعـد تحيينهـا في ضـوء الأحـكام القضائيـة الـتي صـدر منهـا لحـد الآن عـدد قليـل جـدا، وشـملت فقـط مغاربيـين.

٢-II -أ- أداء الإعلام على محك أحداث كولونيا:

يمكـن رصـد مرحلتـين أساسـيتين في طريقـة تنـاول وسـائل الإعـلام الألمانيـة لأحـداث كولونيـا.

مرحلـة أولى، وهـي قصـيرة ولا تتجـاوز بضـع أيـام مبـاشرة إثـر الحـادث، حيـث اتسـم نـشر وبـث المعلومـات حـول الحادثـة مـن قبـل وسـائل الإعـلام الألمانيـة بنـوع مـن التحفـظ. لكـن هـذه المرحلـة لـم تـدم سـوى بضعـة أيـام، حيـث ارتفعـت أصـوات سياسـيين ومحللـين في وسـائل الإعـلام الألمانيـة تتهـم السـلطات بالتكتـم عـلى حقيقـة مـا حـدث. وكان مـن أوائـل تلـك الأصـوات وزيـر الداخليـة السـابق هانـز بيـتر فريدريتـش (مـن الحـزب المسـيحي الاجتماعـي المحافـظ)، الـذي أطلـق اتهامـات قويـة لوسـائل الإعـلام العموميـة وخصوصـا القناتـين العموميتـين WDR وZDF، بأنهمـا «أخلتـا بواجبهمـا المهـني بإخبـار دافعـي الضرائـب (الذيـن يمولـون القناتـين)»، واعتـبر أن «فضيحـة كبـيرة» حدثـت، وأن هنالـك «كارتيـل الصمـت» الـذي سـعى للتكتـم عليهـا بـل «عمـل عـلى حجـب» المعلومـات عـن الـرأي العـام[١٣]، وفي مقابلـة مـع قنـاة ان دي ار NDR، أوضـح فريدريتـش أن «هنالـك مـن يعتقـد أن عـدم بـث المعلومـات حـول وقـوف أجانـب ومهاجريـن وراء تلـك الاعتـداءات مـن شـأنه أن يزعـزع طمأنينـة الشـعب»، وهـو مـا يتعـارض مـع قواعـد مهنـة الصحفـي في أن يخـبر الـرأي العـام بالحقيقـة، كمـا يقـول الوزيـر السـابق فريدريتـش، الـذي انضـم إليـه في وقـت لاحـق أمـين عـام حـزب المستشـارة ميركل، المسـيحي الديمقراطـي، أندريـاس شـويبر، في مقابلـة مـع الإذاعـة الوطنيـة DLF، محـذرا مـن خطـورة اللعـب بالقواعـد المجتمعيـة الأساسـية كحريـة الإعـلام، وأوضـح أن «اللحمـة الاجتماعيـة لا يمكـن أن تكـون إلا بالوضـوح والحقائـق».

وأعقبـت هـذه الاتهامـات تقييمـات واعترافـات مـن مسـؤولي عـدد مـن المؤسسـات الإعلاميـة والهيئـات المهنيـة، بوجـود أخطـاء ومحاذيـر في طريقـة تغطيـة أحـداث ليلـة رأس السـنة. رئيـس تحريـر القنـاة الثانيـة ZDF ايلمـار تيفيزيـن اعـترف بـ«سـوء تقديـر» هيئـة التحريـر لأحـداث ليلـة رأس السـنة بعـدم الإخبـار عمـا حـدث في نـشرة القنـاة اليوميـة Heute الـتي تحظـى بمشـاهدة كبـيرة، حيـث قـررت هيئـة التحريـر في اليـوم الأول تأجيـل تنـاول الموضـوع إلى اليـوم الثـاني لمناقشـته بشـكل موسـع، وأخلـت بمبـدأ إخبـار الـرأي العـام في اليـوم الأول مبـاشرة إثـر الأحـداث، وهـو مـا يعـد «خطـأ فادحـا» يؤكـد تيفيزيـن في بيـان لـه عـلى موقـع التواصـل الاجتماعـي فيسـبوك. وفي اليـوم الثـاني، تـم بـث برنامـج خـاص عـن الأحـداث، وشـاهده قرابـة ٥,١٣ ملايـين شـخص.[١٤]

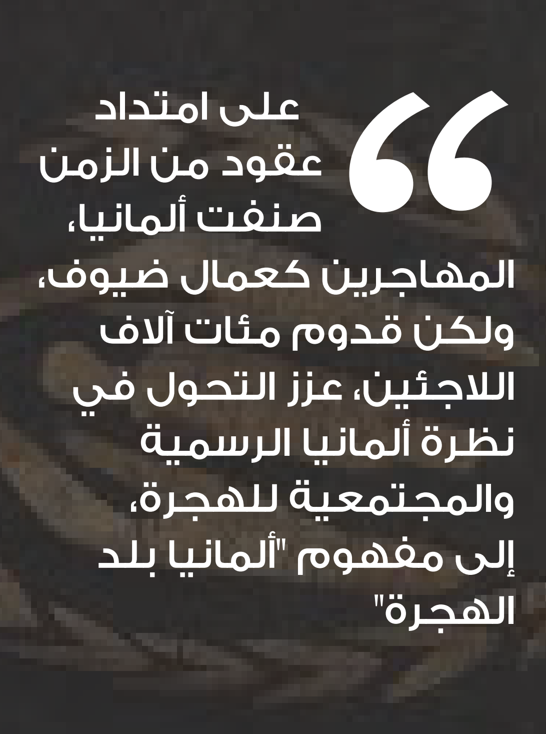
وفي مواجهـة الانتقـادات والاتهامـات لوسـائل الإعـلام بحجـب المعلومـات بشـأن «تـورط مهاجريـن وأجانـب في أحـداث ليلـة رأس السـنة»، أوضـح اتحـاد الصحافيـين الألمـان DJV بـأن مهمـة الصحفيـين «الإخبـار وليـس التخمـين»، مشـيرا إلى واجـب الإخبـار عمـا حـدث، لكـن الاتهامـات بوقـوف لاجئـين مغاربيـين وراء الأحـداث «ليـس مؤكـدا حـتى مـن الشرطـة»، مذكـرا بقواعـد ممارسـة مهنـة

١٢- (المصدر موقع قنطرة ١٨،٠٧،٢٠١٦)

١٣- (Tagesspiegel، ٢٠١٦،٠١،٠٧).

١٤- موقع MMEDIA ٠٦ يناير/ كانون الثاني ٢٠١٦





"على امتداد عقود من الزمن صنفت ألمانيا، المهاجرين كعمال ضيوف، ولكن قدوم مئات آلاف اللاجئين، عزز التحول في نظرة ألمانيا الرسمية والمجتمعية للهجرة، إلى مفهوم "ألمانيا بلد الهجرة"



> شكلت أحداث كولونيا، أهم منعرج في اهتمام وسائل الإعلام بألمانيا باتجاه الربط بين قضية اللاجئين ومشاكل الجريمة

الصحافة المعمول بها في ألمانيا، والتي تقتضي واجب التحفظ المهني في القضايا التي تجري تحقيقات قضائية بشأنها.[١٥]

وتشكل مدونة السلوك أو العمل الصحفي Pressekodex، وتتألف من القواعد والأخلاقيات لمهنة الصحفي، وهي تختلف عن قوانين الصحافة في الولايات، ولا تكتسي إلزامية القاعدة القانونية، بل هي عبارة عن قواعد وأخلاقيات وتوجيهات لممارسي مهنة الصحافة. وهي في الأساس لا يمكن أن تكون متعارضة مع قوانين الصحافة، بل مكملة لها. وتستند حرية الصحافة إلى الفصل الخامس من الدستور الألماني، الذي ينص على «حق كل شخص في حرية التعبير، بالكلمة والكتابة والصورة، وفي حق الوصول إلى المعلومات التي تمكنه من ذلك». وتعني حرية الصحافة، حرية الصحفي في تقديم قصته الإخبارية بدون قيود، عبر وسائل الإعلام المختلفة. ويحظر الرقابة على الصحافة.

واعتبر اتحاد الصحافيين DJV أن إطلاق الاتهامات ضد مهاجرين من قبل وسائل الإعلام قبل التحقيق القضائي، من شأنه أن «يغذي الأحكام المسبقة ضد الأقليات». ومن جهته، دعا مجلس الصحافة الألماني، Der Deutsche Presserat، إلى التحلي «بالمسؤولية في تغطية الأحداث، ولاسيما عندما يتعلق الأمر بالحديث عن الجريمة في أوساط المهاجرين»، واعتبر أن ربط أحداث ليلة رأس السنة بأشخاص «ذوي خلفية مهاجرة» يعتبر «غير مقبول»، لكن المجلس أكد أن حجم تلك الأحداث «غير مسبوق»، بحسب بيان للمجلس نشر بتاريخ ٠٦ يناير/ كانون الثاني ٢٠١٦، وذلك في إشارة ضمنية لتقصير بعض وسائل الإعلام في إعطاء الموضوع أهميته منذ الوهلة الأولى.[١٦]

ويتألف مجلس الصحافة الألماني، Der Deutsche Presserat من الهيئات والاتحادات الممثلة للصحافيين. ويقوم بوظيفة مراقبة الصحافيين لأنفسهم بأنفسهم لأدائهم المهني، ويعتمد المجلس على مدونة قواعد الصحافة كأداة أساسية.Presseekodex

والمجلس لا يتوفر على أية سلطة عمومية، بل سلطة معنوية يمكنه معالجة الإشكاليات المهنية في الشكل والمحتوى الصحفي. ولكن يمكنه أيضا فرض عقوبات منصوص عليها في مدونة السلوك الصحفي، مثل التعزير والعقوبات المعنوية. ولكل مواطن إمكانية اللجوء لمجلس الصحافة للتظلم والشكوى من ضرر يعتقد أنه لحقه من عمل صحفي. ويمكن للمجلس أن يقرر الإلزام بعدم النشر.

وفي مرحلة ثانية، سيُلاحظ بأن أحداث كولونيا تجد صدى كبيرا في الصحف الأوروبية والعالمية؛ ففي سلسلة مقالات صدرت بصحيفتي «نيويورك تايمز» و«وول ستريت جورنال» الأمريكيتين، تم التركيز على أحداث كولونيا، باعتبارها «تحديا لسياسة استقبال اللاجئين التي تنتهجها المستشارة الألمانية أنغيلا ميركل»، وعلى هذا النحو سارت صحف أوروبية عديدة.

وعلى المستوى المحلي في ألمانيا، سيأخذ تناول أحداث كولونيا مسارات مركبة لا يقتصر فيها التركيز على خلفيات الهجرة للمشتبهين في اعتداءات رأس السنة، بل سيسجل تدفق كبير للمعلومات والاتهامات حول ارتباط المهاجرين المغاربيين بالجريمة بشكل عام، فيما ركز عدد كبير من وسائل الإعلام على الخلفيات الثقافية للمشتبهين، واعتبار الأحداث اعتداءً على قيم المجتمع الألماني ومظهرا من مظاهر النظرة المتعارضة مع قيم حرية المرأة وكرامتها، يحملها أشخاص ذوي خلفيات ثقافية عربية وإسلامية.

٢-II -ب- الربط بين الجريمة والهجرة:

ويرصد المتتبعون لأداء الإعلام الألماني، أنه سيتم في مستوى لاحق تركيز كثير من وسائل الإعلام على الربط بين الجريمة والهجرة واللاجئين، فقد نشرت قناة N٢٤ التلفزيونية الخاصة، على موقعها بتاريخ ١٧ يناير/ كانون الثاني ٢٠١٦ عبارة بأنها «نهاية ثقافة الصمت على جرائم الشمال أفريقيين (المغاربيين)»، في إشارة إلى النقاش المفتوح الذي دار داخل قبة برلمان ولاية فستفاليا شمال الراين NRW، حول ظاهرة الجريمة في أوساط الأجانب وخصوصا الشبان المغاربيين. وتحدث المقال عن نهاية حقبة «ثقافة الصمت» في الولاية عن هذه «الظاهرة»، وضرورة توخي نهج أمني قائم على «مفهوم قمعي (زجري)».

وكنموذج لما تداولته وسائل الإعلام الألمانية معلومات مصدرها وزارتا الداخلية والعدل في ولاية فستفاليا شمال الراين، وتفيد بأن سجون الولاية تسجل نسب عالية من المعتقلين أو المحكوم عليهم في قضايا جنائية، وخلال سنتي ٢٠١٤ و٢٠١٥، تشكلت خلية أمنية

١٥- موقع اتحاد الصحافيني DJV ٠٨ يناير/ كانون الثاني ٢٠١٦
١٦- صحيفة Tagesspiegel ٠٧ يناير/ كانون الثاني ٢٠١٦).

في مدينـة دوسـلدورف عاصمـة الولايـة، لمعالجـة ظاهـرة أطلـق عليهـا شـبكة كازا بلانـكا. ونـشرت الشرطـة تقريـرا يؤكـد أن ٢٢٠٠ شـخصا يحملـون الجنسـية المغربيـة متورطـون في جرائـم السرقـة واعتـداءات جسـدية وقضايـا مخـدرات وغيرهـا. ويخلـص التقريـر إلى أن كل ثـلاث سـاعات ونصـف تقـع جريمـة بالمدينـة وراءهـا مغاربـة.

لكـن العديـد مـن الخـبراء أثـاروا بعـض الشـكوك حـول مـا تـشره وسـائل الإعـلام حـول حجـم ظاهـرة الجريمـة في أوسـاط الشـباب المغـاربي، أولا، لأن معـدلات الجريمـة في أوسـاط الشـباب المغـاربي ونوعيـة الجرائـم، ليسـت أكـثر خطـورة مـن جنسـيات أخـرى، إذ يـأتي المغاربيـون مـن حيث النسـب بعـد الـروس وجنسـيات أوروبـا الشرقيـة وبلـدان البلقـان والأتـراك.

وثانيـا: هنالـك دراسـات تشـير إلى أن نسـب الجريمـة والعنـف في أوسـاط الأجانـب / المهاجريـن، ليسـت بالـضرورة أكـثر مـن الألمـان. وقـد نـشرت في بدايـة سـنة ٢٠١٦ شرطـة مدينـة براونشـفايغ بولايـة سكسـونيا السـفلى، دراسـة علميـة، توصلـت فيهـا إلى عـدم صحـة الأحـكام المسـبقة ضـد اللاجئـين بشـأن تفـشي الجريمـة والعنـف في أوسـاطهم. ويؤكـد أولـف كـوش، مؤلـف كتـاب «سـوكو اللجـوء»، الـذي يسـتند إلى هـذه الدراسـة، وهـو رئيـس سـابق لقسـم التحقيقـات الجنائيـة في الولايـة المذكـورة[١٧]، يقـول بـأن «اللاجئـين الذيـن قدمـوا إلى ألمانيـا في السـنوات الأخـيرة، وبالأخـص الذيـن يتواجـدون في مراكـز إيـواء اللاجئـين بمدينـة براونشـفايغ ليسـوا بمجرمـين. يوجـد بينهـم بعـض المجرمـين، لكنـه يقـول «أسـتطيع بشـكل واضـح نفـي الروايـات الـتي تربـط بـين اللاجئـين وارتفـاع معـدلات الجريمـة في ألمانيـا».

وفي تعليقـه عـلى الاتهامـات الـتي وجهـت للشـباب المغـاربي في أحـداث كولونيـا يحـذر أولـف كـوش، مـن نسـب جرائـم معينـة إلى إثنيـات أو جنسـيات بعينهـا، بـل إن الخبـير كـوش يـرى أن نسـب الجرائـم لـدى المهاجريـن ليسـت أعلى منهـا لـدى المواطنـين الألمـان، ويفـسر سـبب تضخمهـا، كـون تلـك الجرائـم تصـدر أحيانـا مـن مجموعـات مكثفـة في منطقـة أو مجـال معـين.[١٨]

وتعـزز التحقيقـات والدراسـات والإحصـاءات الحاليـة للمكتـب الاتحـادي للتحقيقـات الجنائيـة، BKA هـذه الاسـتنتاجات حـتى بشـأن مـا حصـل في كولونيـا، وبأنـه لا يصـح نسـبتها إلى منطقـة أو شـعوب بعينهـا (شـمال أفريقيـا)، حـتى وإن أثبتـت التحقيقـات القضائيـة تـورط عـدد مـن الشـبان المغاربيـين في تلـك الأحـداث.

وثالثـا: أن الضغـوط الـتي واجهـت السـلطات الألمانيـة بسـبب تدفـق اللاجئـين وسـعي الحكومـة الألمانيـة لحـل أزمـة المهاجريـن المغاربيـين مـن خـلال مفاوضـات مـع دول المغـرب الثلاثـة: المغـرب، الجزائـر وتونـس، أظهـر ت أن هـذه القضيـة نسـبية، وأن الحجـم الـذي أعطـي لهـا إعلاميـا أكـبر مـن حقيقتهـا في الواقـع. فأعـداد المهاجريـن غـير الشرعيـين المغاربيـين الذيـن وصلـوا ألمانيـا خـلال عـام ٢٠١٥ ارتفعـت نسـبته بشـكل مثـير لكنـه كعـدد إجمـالي لا يتجـاوز ٣٠ ألـف مـن أصـل ٢٠٠ ألـف تقريبـا تعـتزم ألمانيـا ترحيلهـم. وحـتى إذا رحلـوا جميعـا، بمـا أن معـدل قبـول طلبـات لجوئهـم بحكـم أن حقيقـة هجرتهـم هـي بالأسـاس مـن أجـل العمـل وليـس لأسـباب سياسـية، لا يتجـاوز ٣,٧ في المئـة للمغاربـة و٢,٥ ٪ للجزائريـين و٠,٢ ٪ للتونسـيين، فلـن يـؤدي إلى تغيـير جوهـري في المعطيـات الموضوعيـة الـتي تثـير إشـكالات في قضيـة اللاجئـين الـتي تشـمل مليـون و١٥٠ ألـف شـخص قدمـوا طلبـات خـلال عـام ٢٠١٥.

ويعتقـد الخبـير أولـف كـوش أن أوسـاطا يمينيـة اسـتغلت أحـداث كولونيـا مـن أجـل الإسـاءة للاجئـين، وهـو يقـود إلى الاسـتنتاج بـأن الحجـم الكبـير الـذي تناولـت بـه وسـائل الإعـلام قضيـة الجريمـة في أوسـاط الشـباب المغـاربي، أدى وظيفـة سياسـية باتجـاه التركيـز عـلى مسـألة ترحيـل المهاجريـن المغاربيـين غـير الشرعيـين. وسـتأخذ أحـداث كولونيـا بعـدا أكـثر خطـورة بسـبب توظيفهـا مـن قبـل جماعـات اليمـين الشـعبوي والمتطـرف، كمـا ترصـد ذلـك تقاريـر عديـدة بألمانيـا، سـواء مـن خـلال حمـلات الكراهيـة الـتي اطلقـت عـبر مواقـع التواصـل الاجتماعـي، أو عـبر الشـعارات الـتي ترفـع في المظاهـرات الـتي تنظمهـا جماعـات يمينيـة متطرفـة، عـلى غـرار حركـة «بيغيـدا» أو حـزب «البديـل مـن أجـل ألمانيـا» الشـعبوي، ومجموعـات يمينيـة متطرفـة في ولايـات مختلفـة بألمانيـا، عـلى غـرار مجموعـة «بـرو ان ار في» Pro NRW في ولايـة فسـتفاليا شـمال الرايـن، حيـث تمكنـت إثـر أحـداث كولونيـا، ولأول مـرة، مـن حشـد آلاف الأشـخاص في مظاهـرات معاديـة للاجئـين والهجـرة في الولايـة المعروفـة باسـتقبالها لأكـبر عـدد مـن المهاجريـن بألمانيـا عـلى مـر العقـود. وأجـرت مؤسسـات إعلاميـة ألمانيـة اسـتطلاعات في أوسـاط المهاجريـن واللاجئـين، أظهـرت أن نسـبة مرتفعـة منهـم يخشـون اعتـداءات وردود فعـل انتقاميـة مـن عنـاصر يمينيـة متطرفـة.

١٧- SOKO Asyl: Eine Sonderkommission offenbart überraschende Wahrheiten über. - Ulf Küch, ٢٨. Januar ٢٠١٦. Flüchtlingskriminalität Gebundene Ausgabe

١٨- (صحيفة Die Welt ٢٨ يناير/ كانون الثاني ٢٠١٦).



تتصدر بعض وسائل الإعلام دعوات ومخاوف مصدرها نزعات وتيارات معادية للهجرة ولتدفق اللاجئين، وتتوخى بعض التيارات رفع شعارات محملة بالعداء للإسلام والمسلمين



> ترصد وسائل الإعلام قصصا من النزاعات والعنف والشجار المتبادل بين اللاجئين، في مسعى لتأكيد قراءة سلوك اللاجئين انطلاقا من رؤية ترى بأن خلفياتهم الاجتماعية والثقافية هي مصدر النزعات العنيفة في سلوك هؤلاء الوافدين

II-٢ -ج- اعتداء على قيم المجتمع:

يمكن رصد بعد ثقافي مجتمعي في تحليل خلفيات أحداث كولونيا بالنسبة إلى تيار واسع من وسائل الإعلام الألمانية، التي لوحظ تداولها لصفة المشتبه أو المتهم «الشمال أفريقي» Nordafrikaner/Nefri. وترسم وسائل الإعلام التي تتداول هذه الصفة صورة نموذجية لشباب غير مندمج: لا يحترم القانون، يجنح للعمل الإجرامي (الاعتداء بالعنف، السرقة، المخدرات، التحرش الجنسي)، غير مستوعب للقيم الألمانية ومنها المكانة الخاصة للمرأة وحقوقها، والنظرة للجنس.. فهو شخص «خارج المنظومة القيمية والاجتماعية» كما تصوره وسائل إعلام عديدة.. ومن ثم ترتبط هذه الصورة السلبية بالوضع القانوني، سواء كمهاجر غير شرعي، أو طالب لجوء، أو مقيم لفترة مؤقتة، أو محكوم عليه في قضايا جنائية.

وفي صحيفة تاغس شبيغل Tagesspiegel البرلينية، تصدرها مقال لكاتب العمود فيها، هارالد مارتنشتاين، في عدد الصحيفة الليبرالية يوم ١٠ يناير/ كانون الثاني ٢٠١٦، بعنوان: «الأمر يتعلق بالإسلام وليس باللاجئين»، واعتبر أن النظرة التمييزية ضد المرأة في الثقافة الإسلامية و«التنشئة الإسلامية هي مصدر السلوك العدواني الذي تعرضت له نساء كولونيا ليلة رأس السنة الميلادية». ووجهة النظر هذه تجد صدى لها في مواقع التواصل الاجتماعي وأعمدة صحف عديدة، حيث يتعزز هذا الاتجاه عبر نشر وبث قصص من حياة اللاجئين أنفسهم، تتناول مشاكل الاعتداءات الجنسية والتحرش، التي تتعرض لها اللاجئات في مراكز الإيواء.

كما ترصد وسائل الإعلام قصصا من النزاعات والعنف والشجار المتبادل بين اللاجئين، في مسعى لتأكيد قراءة سلوك اللاجئين انطلاقا من رؤية ترى بأن خلفياتهم الاجتماعية والثقافية هي مصدر النزعات العنيفة في سلوك هؤلاء الوافدين من مجتمعات تعيش صراعات مسلحة، ولا تحتكم إلى قواعد ديمقراطية ولا تسودها قيم وثقافة تسامح، كما تستنتج ذلك تقارير إعلامية عديدة.

لكن ردود الفعل على احداث كولونيا داخل الحقل الثقافي والإعلامي الألماني، كانت متباينة ففي موقف يحمل عنوان «رسالة كولونيا» كتب مشاهير من مواطني مدينة كولونيا، في شكل رسالة مفتوحة، ترفض «إطلاق الأحكام العامة وتعميم الاتهامات على ثقافة أو جنسية معينة»، والدعوة إلى «توخي الصرامة في معاقبة الذين اعتدوا على النساء في المدينة ليلة رأس السنة»، وتشدد الرسالة على «بقاء مدينة كولونيا مفتوحة لكل الثقافات» وعلى «استمرار الترحيب باللاجئين»، ومن بين الموقعين عليها نويد كرماني الفائز بجائزة اتحاد الناشرين الألمان لعام ٢٠١٥، وفيرنر شبينر، فولفغانغ نيدكن، شتيفان باخمان، فاتح شفيق أغلو، وكريستيانه فوبن. وشارك في الحملة أيضا صحف محلية نافذة في كولونيا وولاية فستفاليا شمال الراين، وهي: كولنر شتات انتسايغر، كولنيشه روندشاو، وغنرال أنتسايغر (تصدر في بون) وكذلك صحيفة راينيشه بوست (تصدر في دوسلدورف)[١٩].

بيد أنه في خضم الجدل الإعلامي حول على العلاقة بين الجريمة والخلفيات الثقافية للمهاجرين، حدثت تفاعلات داخل الجاليات المهاجرة نفسها، وظهرت منها ردود فعل عديدة لنشطاء وشخصيات من أصول مهاجرة، يمكن رصدها على مواقع التواصل الاجتماعي، وكذلك في وسائل الإعلام التقليدية السمعية البصرية والمكتوبة.

وكنموذج منها، مبادرات قام بها نشطاء عبر تظاهرات في ساحة محطة القطار الرئيسة بكولونيا؛ المكان الذي شهد أحداث رأس السنة، ومنها مبادرة «ورود لنساء كولونيا» التي قام بها نشطاء مغاربيون في كولونيا في محاولة رمزية لرد الاعتبار لنساء كولونيا وللتنديد باعتداءات رأس السنة، ولقيت هذه المبادرة تجاوبا كبيرا من قبل كبريات وسائل الإعلام الألمانية والأوروبية، وتداولت وسائل الإعلام على نطاق واسع صورة هؤلاء الشبان وهم يوزعون الورود في محطة القطار الرئيسة على النساء.

كما أن صحفا ومجلات ألمانية عديدة تصدرتها صورة جندية ألمانية من أصل مغربي (٣٦ عاما) على الفيسبوك بعنوان «ألمانية ومسلمة»، ناريمان راينكه - الابنة لوالدين مغربيين، والتي تعمل كجندية في الجيش الألماني- التي قررت أن تكتب حول الحادث على فيسبوك، وأحدثت صدى كبيرا وتجاوبا إيجابيا من قبل الرأي العام الألماني. وقالت ناريمان في حوارات صحفية إنها شعرت «بالخجل» عندما سمعت أن هنالك العديد من المغاربة من بين الرجال الذين ضايقوا النساء في كولونيا ليلة رأس السنة. وقالت أيضا «عمل والداي بكد من أجل إثبات وجودهما هنا. أنا أبكي عندما أسمع أن هؤلاء الناس الذين اعتدوا على النساء كانوا من المغرب».[٢٠]

١٩- نص الرسالة Kölner Botschaft واللائحة كاملة للموقعين منشورة على موقع www.mediamagde.com ٢٤ يناير ٢٠١٦.

٢٠- Bild.١٥،٠١،٢٠١٦, Muslima! Soldatin!



وكشفت ناريمان بأنها تعرضت أيضا لحملات عنصرية وإهانات في مواقع التواصل الاجتماعي، وهو ما يظهر إلى أي حد يشكل النجاح في الاندماج تحديا حقيقيا للشخص ولمجموعته التي ينحدر منها وكذلك للمجتمع الألماني، نفسه، وهو ما يعتبر تحديا لثقافة الترحيب بالهجرة التي بدأت تترسخ في المجتمع الألماني بعد أن ساد مفهوم «المهاجر الضيف» Gastarbeiter لعقود طويلة.

وفي مؤشر على شعور السلطات الألمانية بخطر حملات الكراهية للمهاجرين المتداولة على مواقع التواصل الاجتماعي، وبعد تعرض الموقع لانتقادات لعدة أشهر من سياسيين ومشرعين بسبب ممارسات تتعلق بالخصوصية واستجابته البطيئة للتعليقات المعادية للمهاجرين من متعاطفين مع النازيين الجدد، رفعت الحكومة الألمانية شكاوى إلى إدارة فيسبوك، واعترف مؤسس فيسبوك مارك زوكربرغ بنواقص في التعامل عبر موقعه مع خطاب الكراهية ضد اللاجئين في ألمانيا. وقال إنه تأكد له خلال اجتماع مع المستشارة الألمانية ميركل أنه يتعين على فيسبوك فعل المزيد في مواجهة خطاب الكراهية.

III: قضية اللاجئين في مستنقع الإرهاب:

منذ بدايات أزمة اللاجئين وتوافد موجات الهجرة على السواحل الأوروبية، بادرت وسائل إعلام أوروبية عديدة بالتحذير من مخاطر تسرب إرهابيين في صفوف اللاجئين، ورغم أن أصداء هذه التحذيرات لم تكن بالحجم الكبير في الأسابيع الأولى من بدء تدفق اللاجئين على حدود دول البلقان وصولا إلى الحدود النمساوية الألمانية، فان بعض مواقع التواصل الاجتماعي (فيسبوك، تويتر)، ووسائل الإعلام الأوروبية والألمانية كانت تتداول قصصا عن مشتبهين بالإرهاب في صفوف اللاجئين.

وسيتطور تناول الإعلام للخطر الأمني والإرهابي الكامن في موجة الهجرة واللجوء من قصص متناثرة في مواقع التواصل الاجتماعي، إلى تدفق ضخم للمعلومات والتقارير والتحليلات الإعلامية للظاهرة الإرهابية وتداخلاتها مع موجة اللاجئين، وصولا إلى حلقات متقدمة من التأثير على الرأي العام المحلي الأوروبي، وتكييف نظرته إلى قضية اللاجئين برمتها في ضوء تنامي الخطر الإرهابي.

III -١- من قصة إنسانية إلى خطر إرهابي:

تشكل قصة اللاجئ السوري أسامة عبد المحسن الغضب، الذي ركلته مصورة مجرية، في بدايات شهر سبتمبر/ أيلول، قصة نموذجية للتوظيف الإعلامي المتناقض لقضية اللاجئين. فإثر تعرض اللاجئ أسامة للركل وسقوطه وبين ذراعيه ابنه الصغير، انتشرت الحادثة في وسائل الإعلام الأوروبية والعالمية على نطاق واسع، في شكل قصة نموذجية للتعاطف مع لاجئ هارب من ويلات الحرب، يتعرض لسلوك عنصري، في بلد أوروبي تُسلط عليه الأضواء كبلد ينتهك حقوق اللاجئين ويرفع في وجوههم الأسوار.

لكن هذه القصة سرعان ما أخذت منحى آخر، عندما تداولت مواقع التواصل الاجتماعي، وتحديدا على تويتر صورة أسامة ويبدو في شكل عنصر جهادي من فرع تنظيم القاعدة في سوريا، تنظيم جبهة النصرة، الذي تصنفه الدول الأوروبية كتنظيم إرهابي. حدث ذلك في ذروة مشاهد الإرهاب والذبح التي كان تنظيم «الدولة الإسلامية» يبثها عبر الفيديو في شبكة الإنترنت ويروع بها العالم، بالإضافة إلى مشاهد سبي النساء من الأقليات الأيزيدية والمسيحية في سوريا والعراق، وكذلك بتزامن مع مشاهد سلوكيات تنظيم «جبهة النصرة»، وهو يختطف رعايا أوروبيين ومواطنين سوريين من الأقلية المسيحية.

فتتحول قصة أسامة من مجال للتعاطف الإنساني مع لاجئ مضطهد إلى كابوس يحمل معه الفزع من تنظيم إرهابي، قبل أن يتفطن نشطاء ومدونون إلى أن الصورة مفبركة فيتم تفنيد القصة، لكنها لم تكن الوحيدة فقد تواترت القصص عبر مواقع التواصل الاجتماعي، منها ما هو مفبرك، ومنها ما هو حقيقي، قصص تسلط الضوء على نماذج من اللاجئين الذين يحملون معهم مخاطر أمنية على المجتمعات الأوروبية، لتساهم بذلك في تأجيج الجدل عبر وسائل الإعلام حول حقيقة الخطر الإرهابي الكامن في موجات اللجوء والهجرة نحو أوروبا، سواء القادمة من سوريا والعراق وتركيا أو تلك القادمة من ليبيا التي لا تبعد سواحلها على الأراضي الأوروبية سوى بضع مئات من الكيلومترات.

III -٢- الخطر الإرهابي الداهم:

وستشكل المعلومات الأمنية التي تسربها أجهزة الأمن والاستخبارات الأوروبية مادة مهمة يتم توظيفها في سياق هذا الجدل، حيث قدرت تلك الأجهزة عدد الشبان الأوروبيين الذين التحقوا بداعش، حوالي ٦٠٠٠ إلى ١٠ آلاف. ويخشى عودتهم إلى أوروبا وتنفيذ عمليات إرهابية. وفي ألمانيا تداولت وسائل الإعلام المحلية تقارير لجهاز الاستخبارات الداخلية (هيئة حماية الدستور) بأن عدد الجهاديين الذين التحقوا بداعش





"تشكل المعلومات الأمنية التي تسربها أجهزة الأمن والاستخبارات الأوروبية مادة مهمة يتم توظيفها في سياق هذا الجدل، حيث قدرت تلك الأجهزة عدد الشبان الأوروبيين الذين التحقوا بداعش، حوالي ٦٠٠٠ إلى ١٠ آلاف



> في ظل تكرار الاعتداءات الإرهابية في الدول الأوروبية اتسعت دائرة الربط في وسائل الإعلام، بين قضية اللاجئين والخوف من الخطر الإرهابي

تجاوز ٨٠٠ جهادي يشاركون في القتال في صفوف داعش بسوريا والعراق، وبأن ٥ ٪ منهم نساء وقاصرون. ويُظهر بحث قصير على غوغل من خلال كلمة مفتاح باللغة الألمانية Verfassungsschutz Zahl der Dschihadisten

(جهاز حماية الدستور، عدد الجهاديين) خلال ثلاثة أسابيع من شهر مايو ٢٠١٥ مباشرة، إثر نشر جهاز الاستخبارات الألماني تقريره المحدث حول عدد الجهاديين الألمان في مناطق القتال، بأن حوالي ٥٠ ألف تقرير إعلامي تداوله على الشبكة العنكبوتية (باللغة الألمانية).

ويتم في هذا السياق، تداول سيناريوهات عودة هؤلاء الجهاديين إلى أوروبا وتنفيذ عمليات إرهابية، أو استخدام داعش لخلايا نائمة داخل الدول الأوروبية. ولكن هذه السيناريوهات ستتحول من كابوس نفسي، إلى واقع مرعب، عندما بدأت داعش بتنظيم عمليات إرهابية في فرنسا وبلجيكا،

حيث تم استهداف مركز يهودي سنة ٢٠١٥ في بلجيكا، وتعرضت فرنسا لهجمات دموية في بداية سنة ٢٠١٥، على صحيفة شارلي إيبدو، وفي شهر نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠١٥ على ستاد دوفرانس ومحلات مطاعم ومقاهي، أسفرت في مجموعها عن عشرات القتلى.

وكشفت تقارير إعلامية وبيانات للسلطات الأمنية بأن عمليات تعبئة وتجنيد للشباب من أجل الالتحاق بالجماعات الجهادية في سوريا والعراق، تتم من مراكز إسلامية ومساجد بأوروبا وفي أحياء سكنية أشبه ما يكون بالغيتوهات، وسلطت الأضواء في هذا الصدد على حي مولنبيك في بروكسيل، الذي نشأ فيه وانطلق منه العقل المدبر للهجوم على ستاد دوفرانس عبد الحميد أباعود البلجيكي المغربي الأصل، كما رصدت وسائل الإعلام من عدة مدن ألمانية وبلجيكية مظاهر تطرف مرتبطة بجماعات إسلامية متشددة، مثلا دعاة يسعون لتطبيق الشريعة في الدول الأوروبية، بعض الجماعات تطلق على نفسها «شرطة الشريعة» في أحياء بروكسيل، في مدينة فوبرتال الألمانية، إضافة إلى الجدل حول قضية النقاب الذي ارتبطت صورته بنساء سلفيات مرشحات للانضمام إلى داعش.

وستساهم هذه المظاهر ليس فقط في تغذية التقارير والتغطيات الإعلامية، حول الخطر الإرهابي الداهم للمجتمعات الأوروبية عبر أمواج الهجرة واللجوء، بل أيضا في إعطاء مادة دسمة لتغذية خطاب الكراهية والعداء للأجانب الذي تروجه تيارات يمينية شعبوية.

وعلى الرغم من أن ألمانيا، لم تتعرض إلى هجمات إرهابية، إلا أن أصداء تلك المخاوف كانت حاضرة في الإعلام بشكل شبه دائم، وشكلت واحدة من المحاذير التي كانت تلاحق سياسة استقبال اللاجئين، التي واصلت المستشارة الألمانية انتهاجها، رغم المعارضة الشرسة في دول أوروبية أخرى.

هذه المعارضة ستزداد قوتها في الداخل بمرور الأشهر، تحت وطأة ارتفاع منسوب الخوف، وخصوصا عندما بدأت مدن ألمانية تتعرض إلى اعتداءات إرهابية، وتكشف التحقيقات بأن منفذيها أو مشتبهين بالتخطيط لاعتداءات إرهابية، هم لاجئون قدموا حديثا من سوريا.

III -٣- سيكولوجية الخوف من اللاجئين:

في ظل تكرار الاعتداءات الإرهابية في الدول الأوروبية اتسعت دائرة الربط في وسائل الإعلام، بين قضية اللاجئين والخوف من الخطر الإرهابي. وبات الجمهور المتلقي وخصوصا اللاجئون، تحت وطأة رسائل الرعب التي تصله عبر وسائل الإعلام ومواقع التوصل الاجتماعي، إثر كل اعتداء إرهابي أو اعتقال مشتبهين، وحملات اليمين الشعبوي الذي يستغل الفضاءات الإعلامية لبث رسائل الكراهية.

ويرى الفيلسوف الألماني بيتر زلوترديك Peter Sloterdijk بأن الخطاب الإعلامي المتداول في كثير من وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي، يصور اللاجئ كـ«جسم غريب»، وباعتباره دخيلا على البنيات المجتمعية «الهشة» وخطرا على الكيان الجماعي، وهو ما يؤدي برأيه إلى تحريك الخوف في اللاوعي والخيال وأذهان الناس، كي يتم في نهاية المطاف زواج بين الخوف من هذا «الغريب» (اللاجئ) والإرهاب٢١، ورغم أن الاتجاه العام في وسائل الإعلام الألمانية، كان يهيمن فيه اتجاه مهني حذر، ويتفادى إطلاق الأحكام المسبقة؛ فقد كان لاصطفاف كبريات وسائل الإعلام الألمانية منذ البدء مع سياسة استقبال اللاجئين، أثر سلبي على مصداقيته في تناول قضايا اللاجئين، ومنها مسألة المخاطر الأمنية الكامنة.

وبرأي البروفيسور كلاوس زيبنهار أستاذ الثقافة والتدبير الإعلامي ومدير معهد الثقافة والتدبير الإعلامي بجامعة برلين الحرة، فإن تناول قضايا اللاجئين والهجرة والإرهاب كشفت عن وجود «أزمة ثقة في جودة الإعلام»،

٢١- (صحيفة دي تزايت Die Zeit ١١ مارس/ آذار ٢٠١٦).



سواء كان إعلاما عموميا، سمعيا بصريا أو مكتوبا. ويلاحظ الخبير الألماني في مقال له بموقع Huffingtonpost الأمريكي/ النسخة الألمانية (١٩ يناير ٢٠١٦)، بأن حملات اليمينيين الشعبويين ضد وسائل الإعلام واتهامها بـ«الصحافة الكاذبة» أو «النظامية» أو «صحافة بينوكيو»، قد زرعت الشكوك في موضوعية وحقيقة المحتوى الذي تقدمه وسائل الإعلام، وأحدثت «شرخا عميقا» لدى قطاعات كبيرة من المجتمع، مستنتجا بأن الثقة في النسق الإعلامي كفاعل أساسي وكمؤسسة، «اهتزت»، بسبب الشكوك في أنها تعمل وفق رغبات سياسية واقتصادية، مستنتجا بأن ذلك يؤدي إلى «أضرار جانبية على الديمقراطية».

ويرصد فولفغانغ هرليز Wolfgang Herles رئيس تحرير سابق لبرنامج Aspekte الثقافي في القناة الثانية ZDF الذي يعد واحدا من أهم البرامج التلفزيونية تأثيرا في الرأي العام ونسبة مشاهدة، ميلا في السياسة والإعلام بألمانيا نحو ما يطلق عليه «الامتثال» Konformismus، وهذا ينطبق على وسائل الإعلام من قناتي ARD وZDF العموميتين وصولا إلى مجلة «شبيغل» العريقة. كما تسري هذه المقولة، بحسب هرليز، على السياسية بقواها وتحالفاتها الكبرى، دون استثناء أحزاب الخضر والليبراليين واليسار. وهنالك أصوات قليلة ترتفع بقوة وترفض الانقياد داخل هذا النسق، بيد أن نسبتهم في ازدياد. وفي هذا المناخ يرفع أنصار حركة «بيغيدا» شعار «الصحافة الكاذبة» «Lügenpresse» كتعبير عن فقدان الثقة في الإعلام بشكل مواز لما يحدث مع السياسة التي تتراجع تحت وطأة الشعبوية، وهي «علامة خطر» للمجتمع يستنتج الناشر الألماني، ومؤلف كتاب «التألق.. ضد الامتثال في وسائل الإعلام والشعبوية في السياسة» (صدر سنة ٢٠١٥).

III -٤- مواقع التواصل الاجتماعي ساحة معركة:

في ظل الشكوك التي تثار حول دور وسائل الإعلام التقليدية: السمعية البصرية والمكتوبة، يبدو المجال مفتوحا لدور أكبر تلعبه مواقع التواصل الاجتماعي، فيسبوك، تويتر، يوتيوب، إذ إن الاعتقاد لدى فئات من المجتمع بأن الحرية غير متاحة بشكل كامل في وسائل الإعلام التقليدية يجعل مواقع التواصل الاجتماعي تلعب دور إعلام بديل. ناهيك عن أن الطابع التواصل والتفاعلي في مواقع التواصل يمنحها إمكانيات أكبر لاستقطاب الجمهور.

لكن تنامي تأثير مواقع التواصل الاجتماعي، سترافقه ظاهرة جديدة، فبدل المعايير المهنية والأخلاقية أو حتى النزعات التجارية التي تحكم عادة وسائل الإعلام التقليدية، تبرز «ظاهرة البحث عن الانتشار» عبر الشبكة العنكبوتية ومواقع التواصل الاجتماعي، وقدرة مستخدمي الإنترنت على الدعاية الذاتية لما ينشرونه، وهو ما يحدث تحولا دراماتيكيا في العملية الإعلامية، وبدورها تنبهت المؤسسات الحكومية والسلطات لأهمية دور مواقع التواصل الاجتماعي، فباتت تعتمد عليها بشكل متزايد في نشر المعلومات والبيانات، وهو ما سجل بشكل ملحوظ مثلا من قبل شرطة مدينة ميونيخ إبان وقوع حادث إطلاق النار على عدد من الأشخاص في مركز للتسوق بالمدينة الألمانية، الذي تسبب في مقتل ١٠ أشخاص وإصابة ١٦ آخرين. فقد استخدمت شرطة ميونيخ فيسبوك وتويتر لنشر بياناتها حول الحادث، ولعب ذلك دورا حاسما في انتشار الرواية التي قدمتها الشرطة عن الحادث، كما ساهم ذلك في تكريس سبق مواقع التواصل الاجتماعي لوسائل الإعلام التقليدية في تغطية الحدث.

وقد أظهرت أحداث كثيرة في أوروبا، وخصوصا ما يتصل بالقصص الإخبارية حول اللاجئين وأحداث الإرهاب، إلى أي مدى تنتشر القصص عبر مواقع التواصل الاجتماعي، ومن ثم إلى وسائل الإعلام التقليدية، وهو ما يمكن أن يفسح المجال لغزو الإشاعات والأخبار الخاطئة أو الزائفة على حساب التغطية الإعلامية المهنية.

ففي مواجهة سيل من القصص والتخمينات التي انتشرت في مواقع التواصل الاجتماعي عن ملامح افتراضية للمشتبه بارتكاب مذبحة ميونيخ، بأنه «متطرف إسلامي»، «لاجئ»، «أجنبي»، أظهر تدخل سلطات المدينة عبر استخدام هذه الوسيلة التواصلية المتطورة، إلى أي حد يمكن تغيير الموازين في المعادلة الإعلامية. ويؤكد أوليفر تيمبر رئيس قسم التواصل الاجتماعي بشرطة ميونيخ، في حوار لموقع MEEDIA الألماني المتخصص في قضايا الإعلام الحديث، بأن الاعتماد على مواقع التواصل الاجتماعي ساعد الشرطة على «محاصرة واستبعاد الأخبار الزائفة للحدث»، ومن شأن ذلك أن يساعد على تحقيق «الطمأنينة» في أوساط المواطنين، وخصوصا في الظروف الصعبة التي تكون فيها المعطيات غير متكاملة، يضيف تيمبر.

بيد أن تزايد تأثير مواقع التواصل الاجتماعي، لا يقلل من خطورة المزالق التي وقعت فيها البعض من كبريات وسائل الإعلام التقليدية، فمقابل سعي الإرهابيين، إلى استخدام وسائل الإعلام للفت أكبر قدر من الاهتمام حول عملياتهم الإرهابية، تُتهم بعض وسائل الإعلام في أوروبا بنشر «الخوف» على أوسع نطاق من أجل



> هناك دراسات تشير إلى أن نسب الجريمة والعنف في أوساط الأجانب / المهاجرين، ليست بالضرورة أكثر من الألمان

> إن الحجم الكبير الذي تناولت به وسائل الإعلام قضية الجريمة في أوساط الشباب المغاربي، أدى وظيفة سياسية باتجاه التركيز على مسألة ترحيل المهاجرين المغاربيين غير الشرعيين

كسب المزيد من المشاهدين أو القراء. وهو ما يطرح تحديا صعبا في عمل الصحافيين ووسائل الإعلام التي عليها «أن لا تساعد على خلق مناخ من الخوف من شأنه أن يدمر حياة الناس»، كما يقول فرانك إيبرال رئيس اتحاد الصحافيين الألمان DJV، في حوار صحفي لموقع DJT التركي الألماني (٢٥ يوليو/ تموز ٢٠١٦)، في تعليقه على أداء الإعلام الألماني والأوروبي إثر حادثتي نيس وميونيخ، ويشير إلى أخطاء ارتكبت في التغطيات الحية من قبل عدد من القنوات الألمانية والأوروبية للحادثتين، وهي تظهر ضعفا في عمليات التحقق في المعلومات وتغليب في بعض الأحيان للآراء الخاصة والتخمينات على حساب الحقائق والمعطيات المتوازنة.

IV: قضية اللاجئين رهان في الصراعات السياسية والاستراتيجية:

يمكن رصد ثلاثة مستويات في تناول الإعلام الأوروبي لقضية اللاجئين وتجليات ارتهانها للصراعات السياسية والاستراتيجية، وذلك أولا على الأصعدة الداخلية في الدول الأوروبية وفيما بينها داخل كيان الاتحاد الأوروبي، وثانيا في العلاقة مع الجوار الإقليمي، وفي مستوى ثالث على صعيد الصراعات الدولية.

-IV1- صناع القرار تحت وطأة مزاج الرأي العام المحلي المتقلب:

تظهر بعض المؤشرات والأمثلة إلى أي حد شكلت القصص المتداولة في وسائل الإعلام عامل ضغط على صناع القرار في الدول الأوروبية.

وأولها تأثيرات تداول وسائل الإعلام لصورة الطفل آيلان. فبخلاف المؤشرات الدالة على أن انتشار صورة الطفل الكردي آيلان، الذي غرق في مياه البحر الأبيض المتوسط، عندما كانت عائلته تحاول يائسة العبور إلى الأراضي الأوروبية (اليونان)، أدت إلى تغير إيجابي في نظرة الرأي العام الغربي والأوروبي بشكل خاص لقضية اللاجئين، وساهمت في الضغط المعنوي على صانعي القرار، إذ اضطر رئيس الوزراء البريطاني إلى إعلان استقبال بلاده المزيد من اللاجئين، كما أدى نشر صورة آيلان إلى موجات تعاطف إنساني واسعة مع اللاجئين وحملات تبرع وتطوع في بلدان مثل النمسا وألمانيا والسويد.

لكن يبدو أن تداول الإعلام الأوروبي لصورة الطفل آيلان، لم تتجاوز آثاره المجال الأوروبي، إذ أكدت دراسة نشرتها مفوضية الأمم المتحدة للاجئين أن المنظمة الأممية سجلت ارتفاعا ملحوظا في أعداد الأشخاص الذين قضوا غرقا أو فقدوا في رحلات الهجرة غير الشرعية عبر مياه البحر الأبيض المتوسط، وبلغ ٤١٧٦ شخصا بمعدل ١١ رجلا وامرأة وطفلا يموتون كل يوم في فترة الـ ١٢ شهرا الأخيرة، ما يجعل عام ٢٠١٦ الأسوأ من حيث ضحايا الهجرة غير الشرعية[٢٢].

المثال الثاني، يظهر من مؤشرات استطلاعات الرأي والمحطات الانتخابية التي شهدتها الدول الأوروبية، حيث استفاد اليمين الشعبوي من المناخ الإعلامي والنفسي في ظل تفاقم أزمة اللاجئين والخوف من موجات الهجرة وأحداث العنف والإرهاب، التي تطابقت مع تركيز الأحزاب اليمينة في خطابها على تنمية مخاوف الناخبين من الخطر الأمني المحتمل لاستقبال مئات الآلاف من اللاجئين، وما يمثله أيضا من عبء على الاقتصاد وفرص التوظيف والمخاطر الأمنية، وهنا أمثلة لبعض البلدان الأوروبية التي لها مواقف متباينة في أزمة اللاجئين:

في فرنسا، قاد حزب الجبهة القومية اليميني المتطرف، بنجاح حملاته الانتخابية التي لعبت على وتر معاداة المهاجرين، خاصة المسلمين، وما يمكن أن يشكلوه من تهديد لفرص التوظيف المحدودة، قبل أن تلجأ إلى الهاجس الأمني بعد أحداث إرهابية تورط فيها إسلاميون متشددون. وخلال الدورة الأولى من الانتخابات الإقليمية المحلية التي جرت في ٦ ديسمبر/ كانون الأول٢٠١٥، سجل حزب الجبهة الوطنية نتائج وطنية غير مسبوقة بنسبة ٢٨ في المائة من الأصوات وتصدر المرتبة الأولى في ست مناطق من أصل ١٣. وبات الحزب يترأس عشر بلديات في فرنسا لكنه لم يحكم أية منطقة أبدا. وفي الدورة الثانية، خسر الحزب في ثلاث مناطق رئيسة، بعد حملة قادها الحزب الاشتراكي الحاكم للتحذير من فوز اليمني المتطرف والخطر الذي يمثله على وحدة البلاد.

وفي ألمانيا التي استقبلت القسم الأكبر من اللاجئين الذين وفدوا إلى أوروبا، حيث قبلت خلال عام ٢٠١٥ أكثر من مليون لاجئ، أظهرت أحدث استطلاعات للرأي أن حزب البديل من أجل ألمانيا (AFD) اليميني الشعبوي، المناهض لاستقبال المهاجرين، سيتحصل على ١٦ في المئة من الأصوات في حال إجراء انتخابات اتحادية الآن (سبتمبر ٢٠١٦). وحقق الحزب اليميني مكاسب كبيرة

٢٢- (تقرير للمفوضية السامية للأمم المتحدة لغوث اللاجئين: ٠٢ سبتمبر٢٠١٦).

لمرتين في انتخابات جهوية خلال شهر سبتمبر/ أيلول ٢٠١٦، ولديه الآن مقاعد في ١٠ مجالس ولائية من أصل ١٦، مستفيداً من الاستياء السائد ضد سياسة استقبال اللاجئين التي تقودها المستشارة ميركل.

وبالمقابل، فقد تكبد حزب ميركل المسيحي الديمقراطي ثلاث هزائم انتخابية في الأشهر القليلة الأخيرة، ورغم حداثة تأسيس الحزب (في العام ٢٠١٣) فقد قاد حملات سياسية وإعلامية مستغلا مناخ التذمر من سياسة التقشف المالية على الصعيد الأوروبي، وبدأ مشواره ببرنامج معاد لليورو، وتحول منذ ذلك الحين إلى حزب مناهض للهجرة، واستفاد من الاحتجاجات التي نظمتها حركة بيغيدا ضد اللاجئين وضد ما تعتبره «أسلمة أوروبا».

وفي المجر، استفاد حزب الاتحاد المدني المجري من موجة العداء للهجرة، في الحفاظ على موقعه كحزب حاكم برصيد ١١٤ مقعدا في البرلمان، وهو حزب ذو نزعة يمينية قومية معادية للمهاجرين. وانتهجت حكومة القومي المحافظ فيكتور أوربان سياسة مناهضة لاستقبال اللاجئين، حيث وضعت كافة العراقيل الممكنة لمنع تدفق اللاجئين إلى المجر، وأغلقت الحدود أكثر من مرة، كما دعا أوربان إلى طرد أكثر من مليون لاجئ وصلوا إلى الاتحاد الأوروبي خلال عامي ٢٠١٥ و٢٠١٦ إلى «جزيرة كبيرة». رغم أن حصة بلاده لا تتجاوز ألفي لاجئ من أصل ١٦٠ طالب لجوء في الدول ٢٨ الأعضاء في الاتحاد الأوروبي.

لكن رئيس الوزراء المجري فيكتور أوربان المناوئ لسياسة استقبال اللاجئين، فشل في أحدث استفتاء شعبي أجري الأحد ٠٢ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠١٦، والذي صوت فيه الناخبون على سياسة اللجوء الأوروبية ورفع فيها أوربان شعار: «دعونا نتجنب المخاطر، ونكون في الجانب الآمن - صوتوا بلا». ولأن نسبة المشاركين في التصويت كانت أقل من ٥٠ في المائة الضرورية، بات الاستفتاء لاغيا، رغم أن غالبية المشاركين صوتت ضد خطة توزيع عبء اللاجئين في أوروبا.

IV -٢- قضية اللاجئين بين صراعات البيت الأوروبي ومسؤولية الجوار:

في خضم التجاذبات داخل كيان الاتحاد الأوروبي حول حصص استقبال اللاجئين، تبدو التقارير والتغطيات الإعلامية موزعة بين الخطاب «القومي» المحلي ومتطلبات التضامن الأوروبي، ولم يكن المشهد الإعلامي الأوروبي أقل انقساما حول قضية اللاجئين من الانقسامات التي تشق مواقف الدول الأعضاء والقوى السياسية داخل البلد الأوروبي الواحد.

لكن المتتبع للخطاب الإعلامي الأوروبي يرصد مظاهر عديدة للبحث عن مسؤولية في الأزمة خارج حدود الاتحاد الأوروبي، وفي هذا السياق يبرز لاعبون في الجوار الأوروبي، يلقي عليهم الإعلام من حين لآخر المسؤولية في تفاقم الأزمة، ويطالبهم بتحمل الأعباء عن الجانب الأوروبي مقابل تراجع الاهتمام بالبدائل المطروحة على الأوروبيين لمساعدة الدول المصدرة للهجرة أو في الحلول للأزمات التي تعصف ببعضها.

ويعتبر الشريك التركي، أكثر طرف من خارج الاتحاد الأوروبي يتوجه إليه في الإعلام الأوروبي بأصابع المسؤولية، سواء في تدفق أكبر موجة لاجئين في النصف الثاني من عام ٢٠١٥، أو في مرحلة المفاوضات الصعبة بين أنقرة والاتحاد الأوروبي حول الاتفاق المتعلق باللاجئين، وكثيرا ما وصفت تركيا في الإعلام الأوروبي بـ»الشريك غير الموثوق»، أو «الشريك الصعب»، وهي في غالب الأحيان أوصاف تحيل إلى علاقات جوار مركبة وصعبة، ولا تشكل قضية اللاجئين سوى ورقة في رقعة شطرنج العلاقات التركية الأوروبية.

وهنالك طرفان عربيان تتوجه إليهما وسائل الإعلام بأقدار متفاوتة من المسؤولية، وهي دول الخليج العربية التي ترى فيها الدول الأوروبية مسؤولة عن عدم تحمل أعباء اللاجئين، رغم إمكانياتها المالية الضخمة. والطرف العربي الثاني، هو الدول المغاربية، وقد وجه الإعلام الأوروبي والألماني على وجه الخصوص تركيزه على مسؤولية هذه الدول (المغرب، الجزائر، تونس)، إثر أحداث كولونيا التي اتهم فيها مهاجرون من البلدان الثلاثة، وسيتمحور الاهتمام الإعلامي في مرحلة لاحقة بالجدل حول جدوى تصنيف هذه الدول الثلاث من قبل ألمانيا، كـ»دول آمنة»، في المساعدة على تخفيف أعباء اللاجئين، في ضوء اتفاقيات ثنائية مع هذه الدول على استعادة مهاجريها غير الشرعيين مقابل تصنيفها كدول آمنة ومنحها مساعدات تنمية.

بيد أن الجدل في وسائل الإعلام حول هذا الموضوع لم يتوقف، وتفرعت عنه أسئلة حول معايير تصنيف الدول الآمنة، ومنها معيار احترام حقوق الإنسان، وكشفت تقارير إعلامية ألمانية عديدة عن وجود «مفارقة» بين تصنيف هذه الدول «آمنة» وحقيقة أوضاع حقوق الانسان فيها، من ناحية، كما



> تحولت أزمة اللاجئين في أوروبا إلى ورقة إعلامية تستخدم في الصراعات الدولية

توجد مفارقة بين الانتظارات فيما يتعلق بسياسة اللجوء والهجرة من هذه الدول التي لا يشكل مهاجروها سوى نسبا ضئيلة من مجموع اللاجئين الذين يتدفقون على ألمانيا ومعظمهم من مناطق أخرى، سوريا، العراق، أفغانستان...

-١٧٣- حرب إعلامية روسية خفية ضد سياسة استقبال اللاجئين في أوروبا:

من الواضح أن أزمة اللاجئين في أوروبا تحولت إلى ورقة إعلامية تستخدم في الصراعات الدولية أيضا؛ فاللاعب الروسي مثلا وفي صراعه مع الاتحاد الأوروبي، يستخدم أدوات إعلامية لممارسة ضغوط على الأوروبيين، وهنالك مؤشرات عديدة على ذلك فيما يتصل بالسياسات المتبعة في ملف اللاجئين.. فقد كشف كتاب صادر حديثاً بعنوان «حرب بوتين الخفية: كيف تسعى موسكو إلى زعزعة استقرار الغرب»[٢٣]

في الكتاب يسلط الخبير الألماني في الشؤون الروسية، بوريس رايتشوستر، الضوء على حرب إعلامية يخوضها الكرملين مستخدما استراتيجيات وأدوات خفية من أساليب المخابرات السوفيتية سابقا وأخرى حديثة مثل تقنيات الإعلام المتطورة والإنترنت، مستهدفة الدول الغربية عامة وضد ألمانيا خاصة، بهدف زعزعة استقرارها السياسي وتقويض شرعية ديمقراطياتها، كما يوضح راتشوستر (حوار مع الاذاعة الوطنية الألمانية DLF ٢٠١٦،٠٤،٠٥) الذي عمل في الفترة ١٩٩٩ إلى ٢٠١٥، في موسكو كمدير لمكتب مجلة فوكسFocus، الألمانية، ويرصد في كتابه، تأثير شبكات نشر الدعاية الروسية في دول الاتحاد الأوروبي المناهضة لسياسته التوسعية، كما يكشف الستار عن أخطار تغلغل ما أطلق عليه «طابور الكرملين الخامس» في مؤسسات الدولة الألمانية وتداعيات ذلك على الاستقرار السياسي والاجتماعي للبلاد على المدى المتوسط والبعيد[٢٤].

وفي الواقع خرجت مظاهر الحضور الروسي الموجه في ألمانيا في نهاية العام الماضي إلى النور بشكل واضح، خلال النقاش العام حول سياسة المستشارة ميركل تجاه استقبال اللاجئين، التي جنبت أوروبا كارثة إنسانية كبرى. وفي هذا السياق، كشفت مؤسسات أمنية ألمانية عن أن الأجهزة الإعلامية، التي يحركها بوتين، خططت سرًا للإطاحة بميركل عن طريق نشر البلبلة والأكاذيب والقصص المرعبة المختلقة حول «غزو اللاجئين لألمانيا وتهديدهم لأمنها واستقرارها»، وفق تقييم هيئة حماية الدستور الاتحادية. هذه الهيئة، التي تعتبر بمثابة جهاز أمن استخباري داخلي يرصد كل ما يهدد الديمقراطية الألمانية، أكدت في تقاريرها الأمنية أن روسيا كثفت نشاط التجسس في ألمانيا ودول أوروبية أخرى منذ بدء الأزمة الأوكرانية. وناهيك عن دعم الأحزاب اليمينية المتطرفة المناهضة للوحدة الأوروبية وللاجئين، تستخدم استراتيجية الكرملين أدوات جديدة ومتنوعة منها «جيش موسكو الإلكتروني»، الذي يشن في وسائل التواصل الاجتماعي حرباً تشويهية مفتوحة على كل من ينتقد سياسة بوتين»، كما يوثق رايتشوستر في كتابه.

٢٣- Putins verdeckter Krieg: Wie Moskau den Westen destabilisiert

٢٤- (موقع قنطرة ٢٧ سبتمبر/ أيلول ٢٠١٦).



بين حاجة الغرب ومخاوفه

أزمة اللجوء قبل الربيع العربي وبعده

بقلم:
د. عزت السيد أحمد
كاتب وباحث سوري في الدراسات الفلسفية

> توجد تسريبات غير قليلة، تبيَّن أن سفناً أوروبية تعمد إلى إغراق المهاجرين، مثل هذه الجريمة الشَّنعاء يصعب تصديق أنَّها سلوك فردي أو أخطاء شخصية



كثيرون في أرجاء العالم، من مختلف الجنسيات والشُّعوب والملل والنِّحل، يعتقدون اعتقاداً واهماً مفاده، أنَّ الدُّول التي تستقبل اللاجئين أو تقبلهم، إنَّما تفعل ذلك مِنَّةً وتفضُّلاً، ولذلك على اللاجئ أن لا يقصِّرَ في الشُّكر والعرفان والامتنان والطَّاعة، ورُبَّما الخضوع والخنوع للدولة التي تتفضل عليه بمنحه حق اللجوء.

رُبَّما من الطَّبيعيِّ أو المقبول من النَّاس عامَّةً التَّصرف على أساس هذا الاعتقاد، استناداً إلى جهلهم من جهةٍ ضعيفة الحضور، وإلى ضعفهم ومسيس حاجتهم؛ الأمران اللذان يسلبان الناس القدرة على التَّفكير القويم من جهةٍ أولى، والقدرة على المواجهة من جهة ثانية.

المفارقة المضحكة في هذا الإطار، هي أنَّ الدول ذاتها تعتقد هذه العقيدة. وعلى هذا الأساس، تمارس هذه الدُّول الاستفزاز والضَّغط على اللاجئين، كي تفرض عليهم التبيوء والاندماج والتَّخلِّي عن قناعاتهم ورُبَّما عقائدهم، من أجل استمرار البقاء في ظلِّ الحماية التي يفتقرون إليها ويبحثون عنها، بل إنَّ بعض الدول تمارس مثل هذه الضغوط لأغراض خبيثة! وعلى أيِّ حالٍ يظلُّ اللاجئون ضعفاء مسلوبي الإرادة أمام أبسط حقوقهم؛ حقوقهم لا فضائل تخلع عليهم ولا هبات.

وعلى هذا الأساس وعلى أساس هذه النتيجة التي يريدون، اجتاحت موجة جنون وهستريا أروقة السِّياسة الأوروبيَّة وكواليسها في أواسط عام ٢٠١٥م، بسبب تزايد أعداد المهاجرين الذين يدخلون أوروبا، فحسب إحصاءات مؤسسات الأمم المتحدة منذ بداية ٢٠١٥م إلى اليوم دخل أكثر من مئة وأربعين ألف مهاجر إلى أوروبا.

لن ندخل في أية مقارنات، حَتَّى لا نقترب من الفانتازيا، وإن كان الواقع لا يبتعد عنها كثيراً. هذه نتيجة طبيعية للقناعات التي تقوم عليها اعتقادات هذه الدول والشُّعوب في التعامل مع اللاجئين، علماً أنَّ أصل حقِّ اللجوء لا يسمح بذلكَ، وحَتَّى التشريعات الدولية التي وقَّعت عليها هذه الدول لا تسمح بذلكَ. وهما أمران لا بُدَّ منهما لإمكان المقارنة بَيْنَ أزمتي اللجوء قبل الربيع العربي وبعده.

أصول حق اللجوء

أصلُ أصول حقِّ اللجوء أنَّهُ أمر إلهي صريحٌ لا لبس فيه، جاء في القرآن الكريم بأمرٍ صريحٍ تمام الصَّراحة، حَتَّى لغته في إقرار حقِّ اللجوء، بل فرضه تكاد تنطق بلسان حقوق الإنسان المعاصرة، فقد جاء في محكم التنزيل قوله تعالى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ}(١).

هذه الآية القرآنيَّة تتجاوز كلَّ التَّشريعات البشريَّة رأفةً ورحمةً ورفقاً باللاجئين، وتفرض للاجئ حقًّا إلهيًّا لا شكَّ فيه أبداً، بل إنَّ التجاوز في هذا الأمر الإلهي أنَّهُ يفرض على دولة الإسلام أن تجير الكافر أو المشرك إذا استجار بها، وهو عدوٌّ من عدوٍّ، وليس هذا فحسب، بل إنَّ الله تعالى يمنع إعادته إلى من يطلبه ويأمر بإيصاله إلى مكان آمن له {ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ}.

هذا موضوع يطول الكلام فيه، حسبنا منه ما وقفنا عنده. على أنَّ ما تجب الإشارة إليه هنا هو أنَّهُ طالما أن الله تعالى قرر ذلك في القرآن الكريم؛ فقد قرره في الشَّرائع السَّابقة بصيغة أو بأُخْرَى، حَتَّى منها الشرائع أو العقائد أو الأديان الأسطورية التي لم تكن إلا إعادة إنتاج تشريعات إلهية سابقة عليها.

خلاصة القول هنا، والكلام فيه طويلٌ يستحقُّ وقفات موسَّعة منوَّعة، أنَّ حقَّ اللجوء وواجبات الدولة تجاه اللاجئ لأيِّ سبب، فريضة إلهيَّة وليست منَّةً ولا منحةً ولا هدية، سواء أقرَّتها تشريعات البشر أم تقرها، وهي على أيِّ حالٍ موجودة بصيغة أو بأُخْرَى في مختلف الشرائع السماويَّة والعقائد الأسطورية السَّابقة على الأديان السَّماوية الثلاثة. وموجودة في عادات الشعوب وأعرافها وتقاليدها. ومن ثَمَّ فإنَّ اللجوء بسبب خوفٍ ما حقٌّ للإنسان، بل إنَّ الله تعالى كما أوجب الدولة تأمين الخائف وتبليغه مأمنه؛ فقد أوجب على الخائف الهروب واللجوء إلى غير من يخاف منهم بقوله عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوَا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا}(٢).

أن تعمل الدول بذلكَ أو لا تعمل هي مسألة مختلفة فيما يبدو. هناك تشريعات تسمَّى تشريعات دولية، وهناك تشريعات الدول، أي تشريعات كل دولة على حدة.

لن نطيل في هذه التَّشريعات الدولية العامة والخاصة فلها تفاصيلها التي يمكن الرجوع إليها

---

١ ـ القرآن الكريم ـ سورة التوبة ـ الآية ٦

٢ ـ القرآن الكريم ـ سورة النساء ـ الآية ٩٧



للمستزيد. هذه التشريعات الدولية في حق اللجوء وواجبات الدول تجاه اللاجئين لم تأت من فراغ ولا من اجتهادات الفلاسفة ولا من مشاعرهم الإنسانية الفياضة كما يزعمون أو يوحون، وإنما هي من الإرث الإنساني المتوارث منذ آلاف السنين، العائد في أصله إلى الأوامر الإلهية في الشرائع السابقة. وأضيفت إليها، في نظري، دوافع ونوازع سياسية، فشملت الاتفاقية الأولى(٣) ثمَّ الملحق(٤) على هذا الأساس مختلف أنواع التهديد مثل الخوف، الاضطهاد، التَّميز، العرق، الدين، الانتماء، الرأي السياسي، النزاع المسلح مثل عدوان خارجي، احتلال أو سيطرة أجنبية، اضطرابات تضع البلد كله أو بعضه في خطر.

عوامل الجذب والطرد

ثَمَّة مسألة مهمَّةٌ وخطيرةٌ يجب تسليط الضَّوء عليها في إطار النَّظر في أزمة اللجوء قبل الرَّبيع العربي وبعده، وهي جزء أساسيٌّ من أزمة اللجوء في الطورين. إنها عوامل الجذب والطرد؛ عوال الجذب الأوروبيَّة أو دول الشَّمال، وعوامل الطرد في العالم الثالث أو دول الجنوب.

ما لا يمكن تجاهله هو أنَّ أزمة اللاجئين ليست أزمة لجوء سياسي أو إنسانيٍّ فقط، وإنَّما هي أزمة مهاجرين عامَّة ناجمة عن الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتناقضة بَيْنَ دول الجنوب ودول الشَّمال. ففي حين أنَّ هذه الظروف في دول الجنوب تنفِّر المواطنين وتدفعهم إلى التفكير في الهجرة والاغتراب، فإنَّ هذه الظروف في دول الشَّمال تشكِّل عوامل جذب للشباب من دول الجنوب، ومن ثمَّ اللجوء، لأنَّهُ لا يوجد إمكانية لقبولهم في دول الشَّمال إلا تحت شروط اللجوء ومعطياته.

في ظلِّ هذه الظروف في دول الشمال ودول الجنوب، لم يتجه إلى اللجوء الذين فقط يحتاجون إلى اللجوء، وإنَّما جماهير غفيرة من الشَّباب والكفاءات العلميَّة والفنيَّة والعاطلين عن العمل وغيرهم من الباحثين عن فرص حياة أو عمل أفضل، وممن يطمحون إلى حياة أكثر جمالاً وحريَّة وراحة وأريحيَّة وحَتَّى متعةً.

> **مع تدفق موجة اللاجئين في أواسط عام ٢٠١٥، ومع المخاوف المسبقة من المدِّ الإسلامي، ظهرت العنصرية بشكل جلي على المستوى الرَّسمي بدايةً على ألسنة كثير من المسؤولين الأوروبيين**

هذه الجماهير الرَّاغبة في الهجرة تحت مسَمَّى اللجوء ممن لا يحققون شروط اللجوء ولا تهدد حياتهم الملاحقة السياسيَّة أو الأمنية أو الجوع، موجودون قبل الربيع العربي وبعده، وازداد عددهم طرداً مع ازدياد الضغوط على المحتاجين إلى اللجوء، وهذا في حقيقة الأمر ما أدى إلى مشكلاتٍ كثيرةٍ وكبيرةٍ ومتنوِّعةٍ.

ما قبل الربيع العربي: سياسة الانتقاء

لم تكن دول الشَّمال تجهل حقيقة أنَّها دول جاذبة، وأنَّ غالبية المهاجرين يهاجرون إليها رغبة فيها لا رهبة من واقعهم. وعلى الرَّغْمِ من أنَّ قوانين هذه الدول تميز بَيْنَ المهاجرين واللاجئين، وعلى الرَّغْمِ من أنَّها شرَّعت من الكثير القوانين لاستقدام أنماط محددة من المهاجرين تتمثل بمستوى معين من الكفاءات(٥)، فإنَّ المهاجرين لم يجدوا غير سبيل طريقة اللجوء للإقامة في دول الشَّمال، الأمر الذي جعل الأوراق تظلُّ مخلوطةً بل تزداد خلطاً.

هذه المسألة في حقيقة الأمر هي نقطة انطلاق أزمة اللاجئين قبل الربيع العربي، وهي مسألة معقدة وطويلة نقف عند أبرز ملامحها وقفات سريعة:

أولاً: إنَّ ما يبدو من إحسان واستيعاب للاجئين والمهاجرين اللاجئين من قبل دول الشَّمال نابعٌ أساساً

---

٣ ـ اتفاقية جنيف لحقوق اللاجئين التي اعتمدتها الأمم المتحدة عام ١٩٥١م ووقَّعت عليها كثير من الدول.

٤ ـ أضيف برتوكول ملحق إلى هذه الاتفاقية عام ١٩٦٧م تضمن النزعات والحروب الداخلية والاحتلال وما شابه ذلك... لمزيد من التفاصيل في هذه الاتفاقية انظر على سبيل المثال: محمود السيد حسن حسن: حماية اللاجئين إبان النزاعات المسلحة ـ مجلة السياسة الدولية ـ العدد ١٦٢ ـ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٥م.

٥ ـ الأمثلة على هذه التشريعات كثيرة، بدأت بالتدفق في أرجاء دول الشمال في عام ٢٠٠٠م على مدار خمس سنوات تقريباً لتتوقف فجأة، منها على سبيل المثال اليابان التي في فترة الانغلاق أعلنت في ٢٠٠١/١/١٠م أنها تتجه إلى تخفيف قيود الهجرة المفروضة لتسمح بدخول خبراء تكنولوجيا المعلومات الأجانب إلى البلاد. وفي ٢٠٠١/١/٢٢م أعلن رئيس الوزراء الأسترالي جون هوارد أن حكومته ستخفف القيود على هجرة خبراء الكمبيوتر إلى استراليا.



> أصلُ أصول حقِّ اللجوء أنَّهُ أمر إلهي صريحٌ لا لبس فيه، جاء في القرآن الكريم بأمرٍ صريحٍ تمام الصَّراحة





من الحاجة الغربية الماسة إلى ترميم الهرم السكاني وتدعيمه وليس بناء على قوانين اللجوء ولا على أساس القيم الإنسانية والأعراف التاريخية في حماية اللاجئين. أنا أتحدث عن سياسة الدولة لا عن مشاعر المواطنين وعواطفهم وتعاطفهم.

ثانياً: الدول الغربية التي تدرك مدى الحاجة إلى ترميم هرمها السكاني، وتدرك مدى الاندفاع من الشباب في العالم الثالث للهجرة إلى دول الشَّمال لم تفتح الباب للهجرة ولا للجوء، وإنما جعلته تحت الضبط والسيطرة، بل إنها عمدت إلى الانتقائية في خصائص المهاجرين، وإذا تتبعنا القوانين الصادرة في دول الشمال منذ مطالع القرن الحادي والعشرين، وجدنا مدى تركيز هذه القوانين على كفاءات محددة تبعاً لاحتياجات كل دولة.

ثالثاً: عندما نتحدث عن سياسة دولة مؤسساتية، فيجب أن نأخذ بعين الحسبان أنَّها ليست انفعالات ولا أهواء ولا رغبات، ولذلك فإنَّ دول الشمال على الرَّغْمِ من حاجتها الماسة إلى عنصر الشباب، وبأعداد كبيرة لترمم الهرم السكاني وتحول دون انهياره، فإنها لم تعلن عن هذه الحاجة رسميًّا، ولكنها لم تتشدَّد في إغلاق أبواب الهجرة واللجوء؛ لأنها تعلم أن قوافل المهاجرين لن تتوقف، ولذلك ليست مضطرة إلى الظهور بمظهر المستجدي حَتَّى تبقى في موقع القوة لا موقع الضعف، وهي ليست مضطرة إلى ذلك أبداً.

رابعاً: على الرَّغْمِ من أن الأمور تحت السيطرة فيما قبل الربيع العربي، فإنَّ هذا لا يعني أن السياسة الغربية كانت نائمة عن الوجود الإسلامي خاصَّة في أوروبا. عاش، وما زال، المسلمون حريَّةً دينيَّةً إسلاميَّةً في بلاد الغرب لا يحلمون أن يحصلوا على واحد بالمئة منها في بلدانهم الإسلامية، ولٰكنَّ ذلكَ لا يعني أن الرقابة والسَّيطرة التي تمارسها الدولة ومؤسَّسات الضبط الاجتماعي غائبةٌ، وهذه الرقابة والسيطرة هي التي أنتجت فوبيا الإسلام، وتساهم في تصعيد اليمين المتطرف.

خامساً: على الرَّغْمِ من الحضور السياسي والاقتصادي القوي لبعض الجاليات الآسيوية في الغرب، ظل الحضور الإسلامي هو الهاجس الأكبر في السياسة الغربية، ولذلك ما إن بدأ ظهور الحضور الإسلامي في الغرب في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات، حَتَّى قابلها الغرب على الفور بظاهرة فوبيا الإسلام التي راحت تتصاعد مع تصاعد الحضور الإسلامي؛ كلما ازداد الحضور الإسلامي في دولة تصاعدت فوبيا الإسلام في هذه الدولة، وانتقلت العدوى إلى الدول الأُخْرَى.

سادساً: صحيح أن قوانين اللجوء الدولية تقوم أساساً على الحروب والكوارث الكبرى، إلا أنَّنا لا نعرف معايير السياسة الغربية المتبعة مع غير المسلمين في قبول اللاجئين، لأنَّ كثيراً من اللاجئين من دول كثيرة يتوافدون على أوروبا ويتم قبولهم، رُبَّما الرغبة في التنوع العرقي بناء على الحاجة إلى ترميم الهرم السكاني، ولٰكنَّ المسلمين لهم معيار شبه وحيد غالباً، وهو ادعاء الهروب من الجماعات الظَّلاميَّة (الإسلاميَّة). لا يمكن تعميم ذلكَ بالمطلق، ولٰكن هذه قناعة باتت سائدةً لدى أيِّ مهاجر إلى الغرب يتوارثها المهاجرون للإدلاء بها لدى مقابلتهم للحصول على اللجوء.

سابعاً: إذا عدنا أدراجنا إلى فتح أبواب العالم أمام الفلسطينيين من أجل تفريغ فلسطين، وإسكات الاحتجاجات على أزمة المهجرين الفلسطينيين، وجدنا الأمر ذاته ما زال قائماً في فتح الأبواب أمام لاجئي الدول التي يكون الغرب سبباً في كوارثها، كما حدث مع الأفغان والعراقيين إبان الاحتلال الأمريكي، وإغلاقه أمامهم اليوم لأنَّ الحرب داخلية، أهلية.

اللجوء بعد الربيع العربي

سبع حقائق يجب أن نضعهما نصب أعيننا لفهم التغيرات التي طرأت على ظاهرة اللجوء وأزمة اللاجئين عقب الربيع العربي، وهي:

الأولى: أنَّ الحقائق سالفة الذِّكر ذاتها وكلها تقريباً تنسحب على ظاهرة اللجوء وعلى أزمة اللاجئين بعد الربيع العربي، ويمكن تعميمها ذاتها من دون تغيير تقريباً. فإذا كنا نتحدث عن معاناة اللاجئين اليوم بعد الربيع العربي، فإنَّ معاناة اللاجئين سابقة على الربيع العربي، وكل ما كان هو زيادة معاناة اللاجئين نوعاً وكمًّا كما سنوضح لاحقاً. فتقارير الأمم المتحدة لم تفتأ تتحدث منذ أكثر من عشرة سنوات، عن ازدياد معاناة أعداد كبيرة من اللاجئين، وزيادة الضغوط عليهم وحَتَّى انتهاك حقوقهم وتهديديهم بالطرد(٦).

الثانية: إنَّ الرَّبيع العربي لم يكن هو السَّبب في تصاعد ظاهرة الهجرة واللجوء إلى أوروبا، وإنَّما السِّياسات الغربيَّة تجاه الرَّبيع العربي والانقلاب عليه، ودعم الثَّورات المضادة والانقلابية وتصعيد الحروب الدَّاخليَّة وتوسيع وتعميق الصراعات بَيْنَ الأنظمة والشعوب في بلدان الربيع العربي خاصة هي السبب في تزايد تدفق اللاجئين، وعلى أي حال فإنَّ الهجرة الناجمة عن الربيع العربي، مع كل اللاجئين الذين استغلوا الربيع العربي، لم يقلبوا الموازين بهذه الطريقة التي يوحون بها، فقد ألمحنا في المقدمة إلى نصيب دول الشمال هو الأقل من العدد الحقيقي للاجئين، فما نصيب دول الشمال من ١٧٥ مليون لاجئ في العالم عام ٢٠٠٠م(٧)، ونحو ثلاثين مليون زيادة على هذا العدد حتَّى اليوم؟

الثالثة: استغلال هواه المغامرة والهجرة إلى دول الشَّمال من الشُّعوب الأُخْرَى، الأوضاعَ المأساوية لدول الربيع العربي، وتدفقوا بأعداء هائلة إلى أوروبا وكثير منهم؛ على أنَّهُم سوريون أو عراقيون، أفارقة وآسيويون. وهذا ما فاقم مشكلة التعامل مع اللاجئين وحق اللجوء، ففي أغلب الإحصاءات التي قدمتها مؤسسات بحثية أوروبية، تبيَّن أن نسبة السورية والعراقيين من الأعداد (الهائلة) التي تدفقت على أوروبا في عام ٢٠١٥م، لا يزيد في أكبر التقديرات عن ٢٥٪، والحقيقة هنا أنَّ أوروبا غير معنيَّةٍ كثيراً بهذا التنوع إن لم تكن تحبذه أساساً للحدِّ من طغيان فئة معينة وتحولها إلى أكثرية، وإنما المتأثر والمتضرر هم المتضررون أساساً والمحتاجون فعلاً إلى اللجوء، وهم ضحايا العدوان على الربيع العربي.

---

٦ ـ انظر على سبيل المثال تقرير مفوضية شؤون اللاجئين عن تردي أوضاع اللاجئين في دول اللجوء الصادر في ٢٠نيسان/ أبريل ٢٠٠٦م.

٧ ـ في تقرير مفوضية شؤون اللاجئين الصادر في ٢٠نيسان/ أبريل ٢٠٠٦م إشارة إلى زيادة عدد اللاجئين في العالم كله من ١٠٠ مليون عام ١٩٦٠م إلى ١٧٥ مليون عام ٢٠٠٠م.





> ما لا يمكن تجاهله هو أنَّ أزمة اللاجئين ليست أزمة لجوء سياسي أو إنسانيٍّ فقط، وإنَّما هي أزمة مهاجرين عامَّة ناجمة عن الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتناقضة بيْنَ دول الجنوب ودول الشَّمال



الرابعة: في هٰذه الأوضاع المأساوية لبعض الدُّول العربيَّة؛ فقد ظهرت الانتقائيَّة الغربيَّة على نحو لافت جدًّا، من دون أن تجد أيَّ حرج من هذه الانتقائية الفاقعة التي يصحُّ تسميتها بالعنصريَّة نوعاً ما، فبعيداً عن طفرة التَّدفق التي عالجها الأوروبيون بسرعة، فقد لاحظنا تركيز الدُّول الأوروبيَّة في الاستقدام على الأسرة الكثيرة الأطفال، وعلى الأطفال، من أجل تنشئة الأطفال على العادات والتقاليد والقناعات والعقائد التي تريدها هذه الدول.

الخامسة: لأوَّل مرَّةٍ منذ الحرب العالمية الثانية تعود مخيمات اللاجئين إلى الظُّهور في أوروبا، ولا نستطيع في حقيقة الأمر الحكم أو القطع في السبب، هل يعود الأمر للعجز عن الاستيعاب أم لابتزاز اللاجئين والضَّغط عليهم؟ إذا نظرنا في أعداد اللاجئين في هذه الدول، باستثناء ألمانيا، فمن المتعذر القبول بذريعة العجز عن الاستيعاب. ويؤكِّد ذلكَ من عرفناه نصب الخيام وإقامة مخيمات اللاجئين من دون سببٍ صريح، إلا ما يمكن تفسيره بالرَّغبة في الضَّغط على اللاجئين لَأهداف مستقبليَّة تتعلَّق بالاندماج خاصَّة، ولا تعدم دول الغرب من الأعذار والذرائع ما تسوِّغ به سلوكها هذا إن احتاجت إلى التِّسويغ ولن تحتاج.

السادسة: الحقيقة المرة التي يجب أن نتخيلها في ظل هذه التَّناقضات، أنَّ السُّوريين والعراقيين الذين هم أحق الجميع بالحصول على الحماية واللجوء، هم



الأكثر معاناة حالياً في الحصول على اللجوء والحماية.

السابعة: توجد تسريبات غير قليلة، تبيَّن أن سفناً أوروبية تعمد إلى إغراق المهاجرين، مثل هذه الجريمة الشنعاء يصعب تصديق أنَّها سلوك فردي أو أخطاء شخصية؛ فالفيديوهات التي تم نشرها تصور بواخر عسكريَّة تقوم بذلكَ وليس قناصاً من وراء الشاطئ ولا غواصاً من تحت الماء(٨).

هذه الحقائق ليست هي التَّغيُّرات كلها التي طرأت على أزمة اللاجئين؛ وخاصَّة المسلمين منهم لأنَّهُم الأكثر، ولكنَّهَا مفاتيح أساسية لفهم التَّغيُّرات عامَّةً، كما أنَّها في بعضها تسليط أضواء على بعض التَّغيُّرات التي طرأت. وإذا كان ما سبق مفاتيح، فإنَّ الأسباب الحقيقيَّة للسِّياسة الغربيَّة تجاه اللاجئين تكمن في وقوعها بَيْنَ فكي كماشة الحاجة والمخاوف؛ الحاجة حقيقية والمخاوف أوهام لا بُدَّ منها لهم.

لا بُدَّ من التذكير هنا بما بدا واضحاً في سياق الكلام، وهو أننا نتحدث عن اللاجئين في دول الشَّمال، أي الدُّول الأكثر غنى في العالم، ولا نتحدث عن اللاجئين إلى دول العالم الثالث أو المجاورة بحكم الضَّرورة مثل الأردن أو لبنان للسوريين اليوم، فلا يمكن الحديث عن أيِّ حقوقٍ أو حَتَّى حقٍّ واحدٍ من حقوق اللجوء وتلك مصيبةٌ مستقلَّةٌ.

الغرب بَيْنَ الحاجة والمخاوف

أوروبا أو دول الشمال عامَّة ليست بحاجة فقط إلى الكفاءات من مختلف الاختصاصات، هي ارتأت في فترةٍ من الفترات أنَّها من الأفضل لها أن تستجلب الكفاءات، أو تركز عليها أكثر من غيرها ولكنَّهَا أيضاً بحاجة إلى أيدي عاملة، قال رئيس المفوضية الأوروبية رومانو برودي في مؤتمر بسنغافورة: «لا غنى عن الهجرة القانونية لأوروبا، لأن المهاجرين يوافقون في الغالب على العمل بوظائف يعزف عنها الشباب الأوروبي»(٩). في كواليس السياسة الأوروبية يدركون تماماً الحقيقة؛ حقيقة الحاجة إلى بشر لترميم الهرم السكاني، ولكنَّهُم يلبسون ذلكَ لبوس الحاجة إلى العمالة والكفاءات العلمية، وبهذا السِّياق كان كلام برودي قبل خمس عشرة سنة، وتابع قائلاً حينها ردًّا على الدَّاعين إلى وضع حد للهجرة: «إنَّ الشَّباب الأوروبيَّ لا يوافق على سبيل المثال على العمل في الزراعة، لذلك فإنَّ أوروبا تحتاج إلى الهجرة»(١٠). وأضاف: «إنَّ الهجرة أمرٌ ملح لسبب بسيط: لا يوجد ألماني أو إيطالي أو فرنسي بَيْنَ جيل الشَّباب يوافق على القيام بنوبات ليلية في المستشفيات».

كلام برودي السَّابق، كان قبل خمسة عشر عاماً، لم تتغير المعطيات أبداً عَبْرَ العقد ونصفه المنصرمين، بل إنَّ الخلل في البناء السُّكَّاني الأوروبي ازداد تآكلاً، لأنَّ الهجرة كانت محدودة، بسبب الأبواب المغلقة، وأقل بكثير من أن تسدَّ العجز الناجم عن الإحجام عن الإنجاب، دول الشَّمال إذن، في حقيقة الأمر، بحاجة إلى أعدادٍ هائلةٍ من مختلف المستويات؛ هي بحاجةٍ إلى ترميم وتدعيم الهرم السُّكَّاني المختلِّ الذي يهدِّد أوروبا بالفناء بعد أربعين سنة إذا ما استمر الأوروبيون بسياستهم الإنجابية(١١).

مع هذه الحاجة الماسَّة والرَّغبة الضِّمنيَّة الشَّديدة، فإنَّ ما يسمى اليمين الأوروبي وحَتَّى الحياديون، يتخوفون من طغيان الجاليات على الأصليين في السنوات القادمة، ولهذا تجدهم منذ عشرين سنة في خطوة إلى الأمام وخطوتين إلى الخلف، وهذا ما انعكس على اللاجئين وخاصَّة المسلمين انعكاساً مباشراً قبل الربيع العربي وازداد كثيراً بعده؛ ففي حين الفرحة الضِّمنيَّة العارمة بهذا العدد الهائل (نسبيًّا) من اللاجئين من جهةٍ أولى، كانت المخاوف القديمة تنهض بقوة من جهةٍ ثانيةٍ، وتنعكس بتصاعد ما يسمَّى اليمين واليمين المتطرِّف وتصاعد أو تصعيد فوبيا الإسلام.

يعني ذلكَ على نحوٍ مباشرٍ أنَّ أوروبا تريد اللاجئين ولا تريدهم، ترحب بهم وتحاربهم، وهذا ما انعكس في سلوكٍ انتقائيٍّ بدا كما أوضحنا سابقاً في التركيز على الأطفال والأسر كثيرة الأطفال لسهولة تطويعهم، وبعضٌ منهم على المسيحيين قصداً وتحديداً. وهذا في الحقيقة أمرٌ يتعذَّر ضبطه في الهجرة غير الشَّرعيَّة، ولذلك انفلتت ردود الأفعال في التَّعامل مع اللاجئين، وظهر منها ما هو عنصريٌّ صارخٌ، ومنها ما هو اجتماعيٌّ أو ماليٌّ أو أمنيٌّ، أو غير ذلك مما يمكن إجماله في النِّقاط التَّالية:

---

٨ ـ يمكن العثور على هذه الفيديوهات في اليوتيوب ومواقع الإنترنت من خلال كلمات مفتاحية مثل (إغراق اللاجئين). قلة عددها لا تعني قلة حدوثها فهذا ما تصادف ضبطه أو أمكن نشره.

٩ ـ الجزيرة نت: أوروبا تحتاج المهاجرين لشغل وظائف هامشية ـ موقع الجزيرة نت ـ السبت ١٤٢٣/٤/٢٥هـ الموافق ٢٠٠٢/٧/٦م ـ نقلا عن أسوشيتد برس.

١٠ ـ م. س ـ ذاته.

١١ ـ هذا ما تؤكده كثير من الدراسات الاستشرافية والاستراتيجية في عدد غير قليل من الدول الأوروبية خاصة دول الشمال ومعها ألمانيا، وقد بدأ الخبراء الاجتماعيون بالتحذير من هذا الخطر منذ أكثر من عشرين سنة.







> إنَّ الرَّبيع العربي لم يكن هو السَّبب في تصاعد ظاهرة الهجرة واللجوء إلى أوروبا، وإنَّما السِّياسات الغربيَّة تجاه الرَّبيع العربي والانقلاب عليه



أولاً: العنصرية الرسمية

لم تكن العنصريَّة غائبةً فيما قد سبق الرَّبيع العربي، ولا حَتَّى على مستوى السِّياسة الرَّسمية، ولكنَّهَا في المستويين كانت على حرج وخجل إلى حدٍّ كبير. مع تدفق موجة اللاجئين في أواسط عام ٢٠١٥م، ومع المخاوف المسبقة من المدِّ الإسلامي، ظهرت العنصرية بشكل جلي على المستوى الرَّسمي بدايةً على ألسنة كثير من المسؤولين الأوروبيين، وإن بدا المسؤولون المجر والمقدونيون ناطقون باسم السِّياسة الأوروبية، ومن التَّصريحات العنصريَّة الخطيرة المعبرة عن العقل الباطن الغربي، تصريح رئيس الوزراء المجري ڤيكتور أوربان بأنَّ «اللاجئين السُّوريين الواصلين إلى أوروبا أغلبهم مسلمون، وهذا يهدِّد هوية أوروبا المسيحيَّة وهذه الأعداد من المسلمين قد تجعلنا غرباء في بلادنا»(١٢).

ثانياً: التعذيب والتنكيل

في ظاهرةٍ غير مسبوقةٍ في التَّعامل مع اللاجئين، طالعتنا الأخبار من وسط أوروبا قيام بعض الدول الأوروبيَّة وخاصَّة مداخل اللاجئين، بممارسات شنيعة بحق اللاجئين من تعذيب وتنكيل واعتقال، وحَتَّى القتل في بعض الأحيان، وكان ذلك أكثر ما كان في المجر، خاصَّةً



---

١٢ - كان ذلك في ٢٨ /٢٠١٥/٧م. وقد تداولته مختلف وكالات الأنباء وسائل الإعلام العالمية، ولم يجد ذلكَ غضاضة ولا انتقاداً بمستوى التصريح الخطير، وإن كان الشارع الأوروبي في تلك الفترة يهيج تعاطفاً مع السوريين تحديداً واللاجئين عامَّة.

التي أذاقت المهاجرين عامة والسوريين والعراقيين خاصَّةً الويلات، وهم في طريقهم إلى أوروبا من اعتقال وسجن وضرب وتنكيل(١٣). وعلى نحو أقل حدَّة فعلت بعض الدول الأُخْرَى ومنها كرواتيا وسلوفينيا(١٤).

ثالثاً: الخيام والمخيمات

المخيم مشتق من التخييم لا من الخيمة، ولا يعني المخيم أنَّهُ خيام. ومع ذلكَ فإنَّ عودة الخيام بدل التَّجمُّعات السَّكنيَّة أمرٌ يمكن تفهمُّه في ظلِّ تدفُّق اللاجئين إبان الربيع العربي. في ٢٠١٥/٩/٩م قال بيتر بوكارت مدير الطوارئ في هيومن رايتس ووتش: «إن حال مخيمات الإيواء في المجر مرعبة، وإنَّ السُّلطات تعامل اللاجئين كالحيوانات»(١٥). المشكلة ليست هنا تحديداً، المشكلة هي أن كثيراً من الدُّول الأوروبيَّة أعجبتها هذه الفكرة، ولم تعد تضع اللاجئين في معسكراتها المعتادة، وإنما صارت تضعهم في خيم في العراء ومنها فرنسا والدنمارك وألمانيا، حسب إفادات لاجئين هناك.

رابعاً: التضييق في الحريات والحقوق

بعد الانتهاء من فورة تدفُّق اللاجئين والاتفاق مع تركيا، بخداعها بوعودٍ لن تتحقق، والاطمئنان إلى تسييج الحدود جيِّداً، بدأت الدول الأوروبية أكثرها بالتضييق على اللاجئين من جهة الحركة والتنقل والإقامة وحَتَّى إخضاعهم للمراقبة. هذا السُّلوك ظاهر في بعض الدول ومقنع في دول أُخْرَى، ومنها المماطلة في المقابلة ومنح حق اللجوء، حَتَّى إن كثيرين في أكثر من دولة أوروبية مضت عليهم أكثر من سنة تحت الانتظار.

خامساً: تخفيض المخصصات المالية

في حين أن تركيا وحدها تستضيف نحو أربعة ملايين لاجئ، وفي حين أنَّ الأردن وحدها تستضيف نحو مليون لاجئ، ولبنان وحدها تستضيف نحو مليوني لاجئ، فإنَّ أوروبا كلها لم يدخلها أكثر من مليون لاجئ، ومع ذلكَ تتذرع أوروبا بكثرة الأعداد لتخفيض المخصصات المالية لهم(١٦).

سادساً: تصعيد الفوبيا والعنصرية

ما إن انتهت أوروبا من كفايتها من اللاجئين بعد موجةٍ إعلاميَّةٍ موسيقيَّةٍ مناسبةٍ، أخرجت الشُّعوب الأوروبيَّة في مظاهراتٍ وسلوكاتٍ تعاطفيَّة مدهشة، حَتَّى بدأ العزف على الموجة المضادة، باستغلال أحداث جارية في المشرق خاصة، وافتعال أحداث في أوروبا والاستفادة من أحدث أُخْرَى، من أجل تصعيد العنصريَّة وفوبيا الإسلام بَيْنَ الأوروبيين. هذا التصعيد مقصود مدروس وليس عرضيًّا ولا مصادفة، الغاية منه مزدوجة طرفها الأولى إيجاد الحواجز النَّفسية لدى الأوروبين تجاه الإسلام والمسلمين، وطرفها الثاني الضغط على اللاجئين المسلمين خاصَّة للتَّنصل من الإسلام والقبول بالضغوط المختلفة سابقة الذكر التي يمكن أن يتعرضوا لها.

سابعاً: المصادرة على حق العودة

وأخيراً، فإنَّ السُّلوك النتيجة هو المصادرة على حق العودة إلى الوطن. يبدو ذلكَ غريباً، ولٰكنَّ هو الحقيقة، فمختلف التَّضييقات السَّابقة مع الضغط على اللاجئين، وإلزامهم بتعلم اللغات الوطنية والاندماج القسري، تظهر الرَّغبة الغربيَّة في الاستفادة منهم في ترميم هرمها السُّكاني، وجعلهم مواطنين لا يشكِّلون أيَّ خطرٍ أقلّويٍّ أو دينيٍّ على النَّسيج الأوروبي. علماً أنَّ حقَّ العودة بندٌ أساس في الشِّرعة الدوليَّة وفي أصل حق اللجوء.

خاتمة

الموضوع طويل ويستحق مناقشة أوسع، حسبنا أن نختم بأنَّ الشعب الأوروبي مثل أيِّ شعبٍ آخر تتلاعب به وسائل الإعلام وتقوده حيث تشاء، لا يمكننا أبداً أن ننكر حملة التَّعاطف المدهشة من قبل الشَّعب الأوروبي مع اللاجئين في مختلف أصقاع أوروبا، كان ذلك عندما كانت السياسة تريد ذلكَ. ولٰكن عندما اكتفى السَّاسة بما يحتاجون من اللاجئين بدأت الحملة المعاكسة، وتصعيد اليمين المتطرِّف، والنَّفخ في فوبيا الإسلام حَتَّى هدأت حملة التَّعاطف وتلاشت، وعادت الأمور شعبيًّا إلى نصابها المطلوب.

١٣ ـ كان ذلك في شهر آب/ أغسطس ٢٠١٥م. وقد تداولته مختلف وكالات الأنباء ووسائل الإعلام العالمية.

١٤ ـ انظر تقرير وكالة الأنباء الفرنسية AFP عن تدفق آلاف اللاجئين إلى النمسا في ٢٠١٥/٩/٢٠م.

١٥ ـ انظر: استنفار بالمجر ضد اللاجئين ونصف مليون منهم بألمانيا ـ الجزيرة نت ـ ٢٠١٥/٩/١٠م.

١٦ ـ ليس هٰذا بالسر فمختلف الدول الأوروبية وحَتَّى مفوضية اللاجئين بدأت بهذا التخفيض منذ أواخر عام ٢٠١٤م، وبدأت الحكومات الأوروبية بإعلان ذلكَ مع مطالع ٢٠١٦م.





ليس مجرد رقم إعلامي أو أداة ضغط سياسي

اللاجئ.. ثلاث قصص ومأساة واحدة!

بقلم:
ميس صاري
باحثة سورية بمركز سبر للدراسات الإحصائية والسياسات العامة

> توضح أرقام المفوضية أن عدد النازحين قد بلغ ٦٥,٣ مليون نازح حتى يونيو/ حزيران ٢٠١٦



أصبحت كلمة اللجوء كلمة متعارف عليها تداولها التقارير، على الرغم من المعنى الإنساني والعميق لهذا المصطلح. يعرّف الإعلام اللاجئين على أنهم رقم يتم عرضه كخبر ثانوي، ويعرّفهم السياسيّون على أنهم أداة ضغط سياسية، بينما تكمن في خبايا اللاجئ والنازح قصص إنسانية فرضت عليه، ويحاول أن يتكيف معها.

نحاول في هذه التقرير سرد قصة اللاجئين، والنازحين، معرّفين بمحورها، وبأسباب الانتشار، بالإضافة إلى ومضات رقمية على أحداث القصة.



تعد سوريا أكبر مصدر للاجئين في العالم، والتي بلغت ٤٫٩ مليون لاجئ حتى يونيو/ حزيران ٢٠١٦، تليها أفغانستان، والتي خرج منها ٢٫٧ مليون لاجئ

قصة النزوح:

حول من تدور هذه القصة؟

تدور حول النازح المجبر forcibly displaced people، وهو الفرد أو المجموعة التي تنتقل من مكان إلى آخر داخل حدود الدولة، ويتم النزوح رغماً عن إرادة النازح بسبب مؤثر خارجي مهدد للحياة كالمجاعة أو الحرب أو الجفاف والتصحر أو أية كوارث أخرى تدفع النازح إلى مغادرة موقعه، والتوجه إلى موقع آخر طمعا في الخلاص من تلك الظروف.

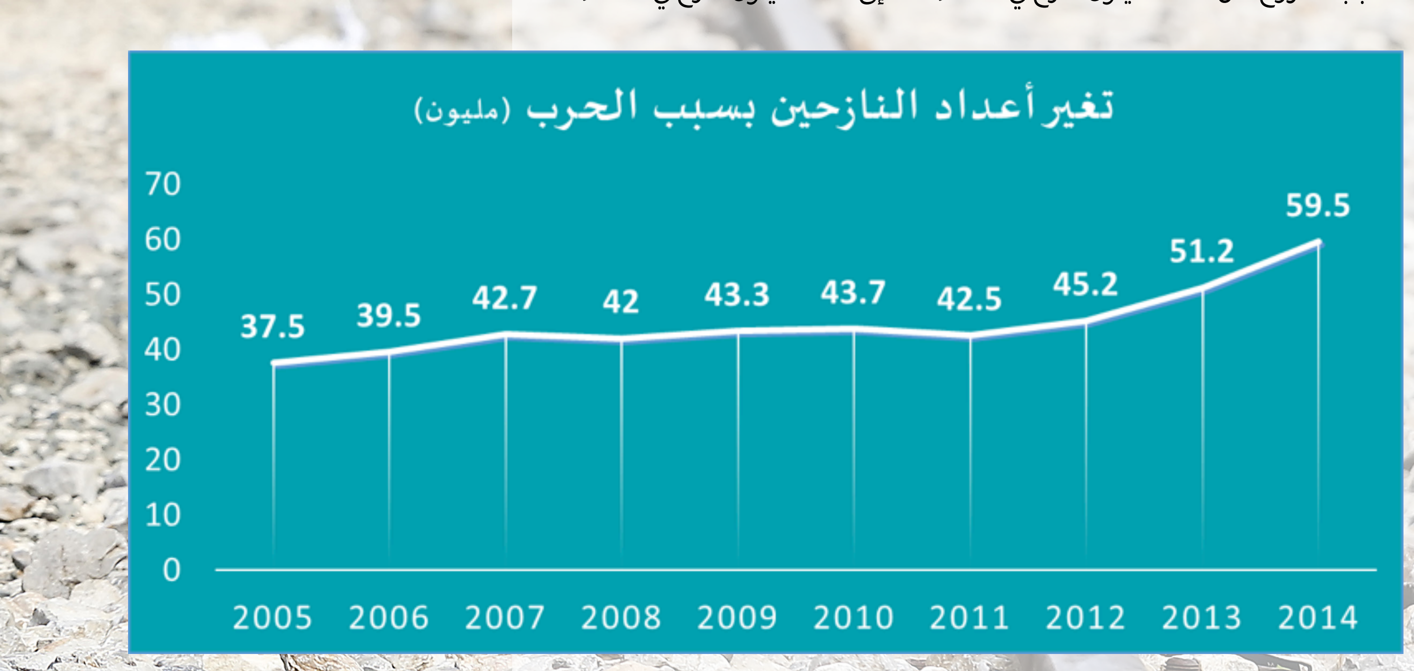
ما هي قصة النزوح؟

توضح أرقام المفوضية أن عدد النازحين قد بلغ ٦٥٫٣ مليون نازح حتى يونيو/ حزيران ٢٠١٦.

٦٥٫٣ مليون نازح حول العالم حتى يونيو/حزيران ٢٠١٦

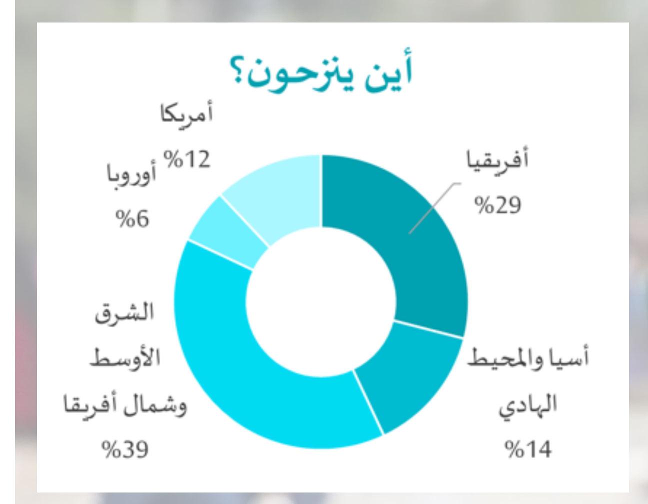
لماذا ينزحون؟

تشير أرقام مفوضية اللاجئين إلى أن الحرب أكبر مسبب للنزوح الإجباري، والذي كما عرفناه سابقا هو نزوح داخلي داخل حدود الدولة. ارتفعت الحرب كأكبر مسبب للنزوح من ٣٧٫٥ مليون نازح في العام ٢٠٠٥ إلى ٥٩٫٥ مليون نازح في العام ٢٠١٤.



أين ينزحون؟

الحصـة الأكـبر كانـت للـشرق الوسـط وشـمال أفريقيـا، حيـث اسـتضافت تلـك المناطـق ٣٩٪ مـن النازحـين في العالـم، فيمـا اسـتضافت قـارة أفريقيـا ٢٩٪ منهـم، تلتهـا آسـيا والمحيـط الهـادي بنسـبة ١٤٪، وفي المرتبـة الأخـيرة جـاءت قـارة أوربـا بنسـبة ٦٪.



قصة اللجوء:

حول من تدور القصة؟

تـدور حـول اللاجـئ، وهـو كل شـخص يـترك القطـر الـذي ينتمـي إليـه بجنسـيته، خوفـاً مـن الاضطهـاد أو الخطـر، بسـبب العنـصر أو الديـن أو عضويـة جماعـة اجتماعيـة أو سياسـية، أو خوفـاً مـن العمليـات الحربيـة أو الاعتـداء الخارجـي أو الاحتـلال أو السـيطرة الأجنبية أو الاضطرابـات الداخليـة، ولا يسـتطيع؛ أو لا يرغـب أحـد، بسـبب ذلـك الخـوف مـن الرجـوع إلى قطـره، أو مـن كان لا جنسـية لـه، ولكنـه تـرك القُطـر الـذي يقيـم فيـه عـادةً بسـبب تلـك الأحـداث، ولا يسـتطيع أو يرغـب بسـبب الخـوف في العـودة إليـه.

ما هي القصة؟

أصبحـت تداعيـات اللجـوء تمـس ٢١،٣ مليـون لاجئا حـول العالـم حتـى يونيـو/ حزيـران ٢٠١٦، وفقـا لأرقـام مفوضيـة الأمـم المتحـدة للاجئـين. عـاد منهـم فقـط ٢٠١ ألـف لاجـئ حتـى نهايـة العـام ٢٠١٥.

٢١،٣ مليـون لاجـئ حـول العالـم حتى يونيو/ حزيران ٢٠١٦

"تعد تركيا، وتليها لبنان والأردن أكبر ثلاث دول مستضيفة للاجئين السوريين

لماذا؟

بالنظر إلى أكبر ثلاثة مصادر للاجئين في العالم، وهي سوريا وأفغانستان والصومال، والتي تشكل ٥٤٪ من اللاجئين في العالم وفقا لأرقام المفوضية، نجد بوضوح أن الحرب هي إحدى أكبر أسباب حركة اللاجئين في العالم.

من أين يلجؤون؟

تعد سوريا أكبر مصدر للاجئين في العالم، والتي بلغت ٤،٩ مليون لاجئ حتى يونيو/ حزيران ٢٠١٦، تليها أفغانستان، والتي خرج منها ٢،٧ مليون لاجئ، والصومال ثالث أكبر مصدر للاجئين في العالم، والتي خرج منها ١،١ مليون لاجئ.

٥٤٪ من اللاجئين حول العالم أتوا من ثلاث دول، سوريا وأفغانستان والصومال حتى يونيو/ حزيران ٢٠١٦

إلى أين يلجؤون؟

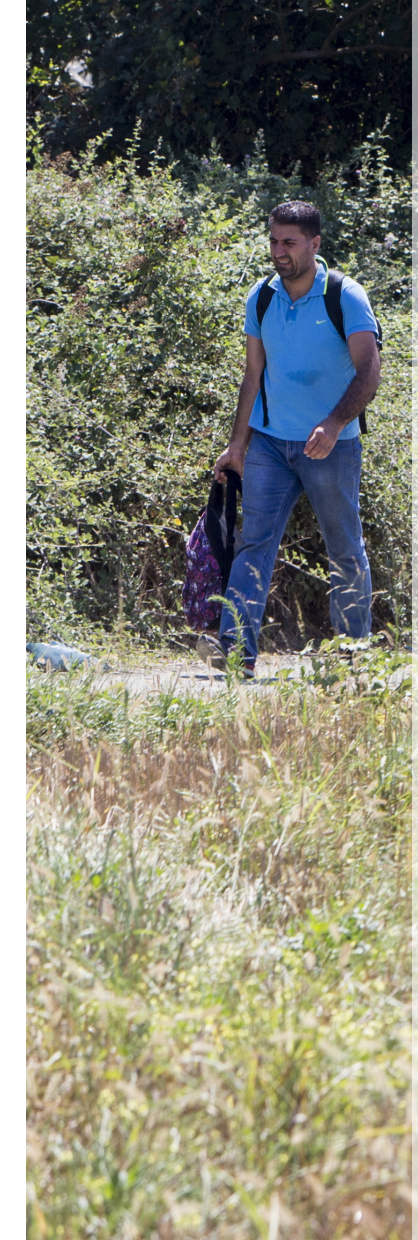
تأتي تركيا على رأس قائمة مستضيفي اللاجئين في العالم، والتي تستضيف ٢،٥ مليون لاجئ، معظمهم من السوريين. باكستان ثاني أكبر مستضيف للاجئين في العالم، بقرابة ١،٦ مليون لاجئ، ثم لبنان ثالث أكبر مستضيف للاجئين في العالم، بقرابة ١،١ مليون لاجئ.

أعداد اللاجئين في كل دولة (مليون لاجئ)





أكثر من نصف اللاجئين السوريين تقل أعمارهم عن ١٧ سنة أو أقل، نصفهم من الذكور، ومثلهم إناث



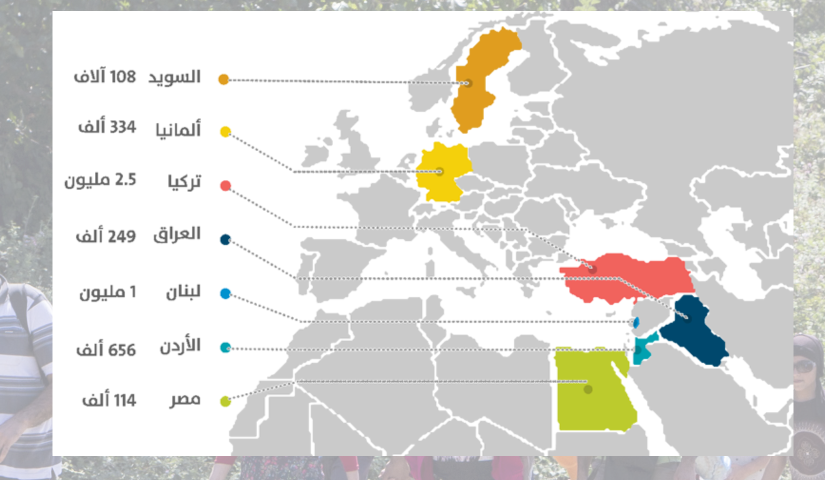
قصة اللاجئ السوري:

ما هي قصة اللاجئ السوري؟

هي أكبر قضية للاجئين في العالم بحجم الرقم، ٤،٩ مليون لاجئ سوري مسجل حتى يونيو/ حزيران ٢٠١٦، وهي أكبر كارثة إنسانية، منذ الحرب العالمية الثانية، كما وصفها المفوض السامي لشؤون اللاجئين، أنطونيو غوتيريس.

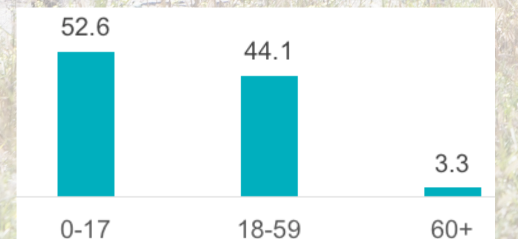
إلى أين لجأ السوريون؟

تعد تركيا، وتليها لبنان والأردن أكبر ثلاث دول مستضيفة للاجئين السوريين. وبالنظر إلى كثافة اللاجئين نسبة إلى عدد السكان، نجد أن لبنان هي أكثر الدول اكتظاظا باللاجئين نسبا مقارنة مع عدد سكانها الضئيل، حيث لكل ألف نسمة في لبنان، يوجد منهم ١٨٣ لاجئا سوريا. تأتي الأردن في المرتبة الثانية، والتي تبلغ فيها كثافة اللاجئين ٨٧ لاجئا لكل ألف مقيم في الأردن. بينما يبلغ هذا الرقم في تركيا ٣٢ لاجئا سوريا لكل ألف مقيم في تركيا.



من لجأ من السوريين؟

أكثر من نصف اللاجئين السوريين تقل أعمارهم عن ١٧ سنة أو أقل، نصفهم من الذكور، ومثلهم إناث، الأمر الذي يشير إلى كون اللجوء يحدث في شكل عائلات دون أن يتركز على الإناث مثلا أو الشباب فقط.



تتوزع أعمار اللاجئين السوريين

ختاما،

فقد التمسنا الموضوعية في هذا التقرير، بعرض قصة اللاجئين والنازحين من خلال إحصائيات مهنية. غير أن حجم الأرقام وتغيّرها، والأسباب الدافعة، كانت كفيلة بأن تجعل الرقم الإحصائي ناطقا بحد ذاته، متكلما بأبعاد القصة، والتي تبيّن أن مرور الزمن، لم يحلّ المشكلة، بل على العكس، مع كل سنة جديدة على عمر الأرض، هناك رقم جديد من اللاجئين والنازحين يضاف، والمشكلة تتوسع.

الباحث السوري مازن شيخاني لمجلة «ذوات»:

الأعداد الكبيرة من اللاجئين في ظل الربيع العربي دليل على فشل الأنظمة العربية





أفكار كثيرة عن الهجرة واللجوء، كانت تشغل بالي، وأنا في طريقي إلى نقطة اللقاء، التي سأجري فيها حوار هذا الملف المخصص للاجئين، لا أخفيكم أنني شعرت بحمل ثقيل، أحسست أني أحمل همّ العالم كله، ملايين اللاجئين في العالم تنتظر حلا منجزا لمشاكلها، وأنا لدي مئات الأسئلة تنتظر إجابات واضحة تتعلق بهم وبمستقبلهم، وفي النهاية رميت بعضا من ثقل هذه الأسئلة على عقل الـ د. مازن شيخاني، والذي بدا لي صاحب قضية/ تحولت لديه مشكلة اللجوء إلى رسالة يناضل من أجلها.

لا يقف هذا الحوار عند تعريف مصطلحي اللجوء والهجرة فقط، بل يتجاوزه إلى تحرير دلالات المصطلحين، ويحاول فهم السياقات السياسية والقانونية المرتبطة بهما، كما يقدم الحوار قراءة القصة التاريخية لنشوء اللجوء والهجرات، ويجيب عن كثير من الأسئلة المتعلقة بعلاقة اللجوء بالمفاهيم الحديثة مثل الدولة، والمفاهيم المضادة لها مثل الاستبداد، كما أنه يعمل على فهم الأبعاد الثقافية والفكرية للجوء، بالإضافة إلى مناقشة الآثار الناجمة عن عدم حل مشكلة اللاجئين، على المستويين المحلي والدولي.

شيخاني، باحث متخصص في شؤون الهجرة، وسوري مهموم بقضية بلده، بالإضافة إلى كونه سياسي مخضرم، لكنه قبل ذلك، يمثّل تعبيرا واضحا عن تاريخ جيلين وبلدين من الهجرات، نزح جده الكردي بعد سقوط الدولة العثمانية من تركيا واستقر في سوريا، ونزح هو بسبب الأحداث في سوريا إلى تركيا، حيث يقيم الآن. ومن هنا يكتسب هذا الحوار أهميته، فهو لاجئ حفيد لاجئ، بالإضافة إلى أن تركيا؛ المكان الذي أجري فيه الحوار، أضحت قبلة اللاجئين من كل البلدان العربية التي تشهد حروبا داخلية، ولا أنسى أن أقول لكم: إنني لست مجرد صحفي، أنا عالق في هذا البلد، بسبب الحرب التي تعيشها بلدي؛ اليمن.

حاوره: محمد اللطيفي

صحفي وباحث يمني
مقيم بتركيا

تحرير المصطلح

*** إذا ما بدأنا بتحرير مصطلحي الهجرة واللجوء، توجد تعريفات كثيرة ويوجد جدل كبير حول المصطلحين، وهو جدل يتجاوز التعريف العام إلى الأبعاد السياسية والإنسانية، فكيف يمكن أن نقرأ هذين المصطلحين، سواء من زاوية التعريف بهما أو التفريق بينهما؟**

** لحق بمصطلحي اللجوء والهجرة، ملابسات عدّة، تجاوزت مضمونها اللغوي، ولن أدخل في مجال التنظير، لكن من الواضح أن هناك خلطا بين مفهومي اللجوء والهجرة، سواء في دلالة هذين المصطلحين أو التفسير القانوني لهما، وأقول بإيجاز، إن مصطلح المهاجر ينطبق على من اتخذ قرارا بالهجرة لأسباب عدة، ليس منها الخوف على نفسه وأهله من الاعتقال أو القتل، فقد يكون الدافع اقتصاديا، وقد يكون البحث عن المعرفة، قد يكون سياسيا، لكن من الممكن أن يستطيع معه البقاء في بلاده، لكنه أراد أن يبحث عن مساحة أكبر للحرية، فقرر الهجرة إلى الغرب، هذه الهجرة قد تكون فردية أو عائلية.

*** في هذا الإطار هل يمكن التفريق بين الهجرة الطوعية والقسرية؟**

** نعم، بالحديث عن الهجرة القسرية، ندخل إلى معنى اللجوء، الذي يترك وطنه من أجل أن يبحث عن فرصة اقتصادية، أو من أجل زيادة المعرفة، أو من لا يرضى عن الوضع السياسي في البلد أسميه مهاجرا ...

*** وقد يكون هاجر والوضع العام لبلده مستقر**

** نعم، قد يكون وضع بلده مستقرا اقتصاديا، مع الإشارة إلى مضمون الاستقرار في ظل الاستبداد، ليس مثل الاستقرار الحاصل في البلدان الغربية، كمثال إنسان وضعه الاقتصادي مقبول، لكنه يطمح إلى ما هو أفضل، أو وضعه السياسي محتمل، لكنه يطمح إلى مساحة أكبر للحرية، فيؤثر أن يخرج بقرار من نفسه..

*** لكن ألا يسمى هذا لجوء سياسي؟**

** اعتبرنا أن المعيار هو القرار الشخصي، الخروج من البلد مع القدرة على البقاء، فهو مهاجر وليس لاجئا، اللاجئ في الغالب هو من اضطر قسرا إلى ترك



بلاده لأسباب متعددة، منها حالة الحروب، أو ثورة ضد مستبد، فدافع الهروب هنا ليس اقتصاديا أو بحثا عن معرفة أو مساحة أكبر للحرية، بل خوفا على الأمن الشخصي أو على الأهل من القتل والتشريد والاعتقال. وأحب أن أشيرهنا إلى قيام الدول المستبدة بعمليات مقصودة من تشريد وقتل منظم، من أجل أن تخفف الحاضنة الداعمة للثورة القائمة ضدها، كما هي الحالة السورية.

*** مع إنشاء المفوضية العليا للاجئين من قبل المنظمة العامة للأمم المتحدة، أتى تعريف اللجوء مرتبطا بالهروب من الحرب، في تقديرك هل حدث توسع في هذا المفهوم؟ وما هو التطور**

التاريخي لهذا المفهوم من النواحي السياسية والاجتماعية؟

** ربما هناك محطتان فيما يتعلق بالمفهوم الدولي لمعنى اللجوء أو الهجرة، ما حصل في اتفاقية جنيف (١٩٥٢)، وأيضا منظمة الوحدة الإفريقية (١٩٦٩)، لا شك أن هناك تعريفات معينة، لكن المشكلة أن هذه التعريفات ليست دقيقة، لو بحثنا عن دلالاتها، سنجد أنها تعريفات متحيزة أيديولوجيا أو سياسيا، لو ضربنا مثلا بما حصل للاجئين من السودان إلى مصر (٢٠٠٥)، وكان الهدف ليس البقاء في مصر، بل الانتقال عبرها إلى بلد آخر، لقد تم الصمت دوليا على المجازر التي ارتكبت في حقهم على مرأى من منظمات الحقوق الدولية. فيما يبدو أن هذه المصطلحات التي اعتمدتها تلك الدول مرنة، بالإمكان تغير مساحة دلالتها بما يتوافق مع الأهواء السياسية أو غير ذلك.



هناك خلط بين مفهومي اللجوء والهجرة، سواء في دلالة هذين المصطلحين أو التفسير القانوني لهما

الهجرة كمشروع تغيير

*** إذا ما ركزنا على مصطلح اللجوء، هل ظهر مع موجة النزوح التي طالت أوروبا، نتيجة الحروب التي جرت فيها، أم أن له دلالات سابقة للتاريخ الأوروبي؟ هناك من يعتقد أن الهجرات طبيعة أزلية شكلت النوع الإنساني، مثل الهجرات التي حدثت بعد طوفان نوح؟**

** هذا سؤال دقيق جدا، عادة ما ارتبط معنى اللجوء؛ أو الهجرة بمعنى سلبي، لكن في تاريخنا الإسلامي له معنى مختلف، هجرة المسلمين إلى الحبشة أو المدينة، لم تكن بالمعنى المعاصر للهجرة، بل لتأسيس حضارة غيرت طبيعة الجزيرة العربية، هم هربوا للحفاظ على أرواحهم، لكن في نفس الوقت كانوا يحملون مشروعا، وهذا له دلالات كبيرة جدا، ولعلها من الحالات النادرة في التاريخ البشري أن توجد كتلة بشرية تهاجر للحفاظ على وجودها، لكنها في ذات الوقت تحمل مشروعا غير وجه التاريخ.

*** على ذكر الهجرات ذات المشروع، بعض الباحثين يرى أن بعض الهجرات تؤسس لجغرافيا جديدة، تغير في بناء النظام السياسي، يمكن الاستناد على هذه الفرضية بانهيار سد مأرب في اليمن كمثال، حدثت بعد هذا الانهيار هجرات شكلت حضارات وغيرت طبيعة الأنظمة السياسية. في الزمن المعاصر إذا ما أخذنا الحالة السورية كمثال، هل يمكن أن تشكل هذه الحالة تغيرا في التركيبة التركية أو الألمانية؟**

** تساؤل مهم، لكن قبل أن أجيب عليه، أريد الإشارة إلى تجربة مهمة شبيهة إلى حدما بالهجرة الإسلامية السالفة الذكر، وهي هجرة الأوروبيين الطموحين الذين تركوا أوروبا إلى أمريكا، بعضهم هاجر من أجل المال، وبعضهم هروبا من الاضطهاد الديني، لكن هذه الهجرة الأوروبية أحدثت ما تساءلت أنت عنه، أحدثت تغيرا جغرافيا وأسست لدولة، والتي تعتبر حاليا الدولة العظمى في العالم، الولايات المتحدة الأمريكية.





> اللاجئ في الغالب هو من اضطر قسرا إلى ترك بلاده لأسباب متعددة، منها حالة الحروب، أو ثورة ضد مستبد



*** جميل، لكن لوعدنا إلى الحالة السورية؟**

** بالنسبة إلى الحالة السورية؛ فعدد السوريين في تركيا كبير، فهل نستطيع أن نقول إن هذا العدد الكبيرمن الممكن أن يحدث تغييرا ثقافيا وفكريا، خاصة في ما يتعلق بالصور النمطية عن العرب في الذاكرة التاريخية عند الشعب التركي، أوتأثيرا له دلالته في الجغرافيا السكانية لتركيا؟ هذا منوط ومرتبط بامتلاك السوريين طموحا يشابه إلى حدما ذلك الطموح الذي صنع تلك التغييرات الكبيرة في المثالين السابقين الذين نوهت إليهما. في الواقع، لا أعتقد أن السوريين في وضعهم الحالي قادرون على ذلك، لكن من الممكن أن يحصل فيما بعد، بمعنى عندما يتجاوز السوري حالة اللجوء المؤقت إلى تركيا، أعني بذلك أن يخرج من الحالة الوجدانية والنفسية للاجئ إلى حالة مهاجر يخطط لبناء مستقبل جديد له في البلد الذي وصل إليه، أن يتحررمن فكرة الإقامة المؤقتة المرتهنة بوضعه كلاجئ، إلى فكرة الاندماج في المجتمع الجديد، ليساهم في الإنتاج الاقتصادي والفكري والثقافي، بل حتى المشاركة السياسية، بعد أن تتوفر الظروف المهيئة لذلك من الحصول على جنسية البلد الجديد.

وبالنسبة إلى السوريين في تركيا، بل كل العرب الذين هاجروا إليها، فرصتهم في الاندماج والتأثير كبيرة جدا، لتوفر قواسم مشتركة كثيرة بينهم وبين الشعب التركي، إضافة إلى امتلاكهم القدرة على تلبية احتياجات فرضتها سياسات تعليمية في تركيا، وهي مشروع كبير لتعليم اللغة العربية، لأعداد كبيرة من الأتراك في كليات الإلهيات، وهذه فرصة نادرة؛ فاللغة ليست وسيلة تواصل فحسب، بل هي وعاء الفكر والثقافة ومنطق تفكير، بدأنا نلمح مؤخرا ظاهرة واضحة، وهي شروع أعداد من السوريين في التأسيس لعملية الاستقرار الدائم، والاندماج في الاقتصاد التركي، والتي إن تطورت وتبعها استقرار اجتماعي واندماج في المجتمع التركي، من الممكن أن يحدثوا تأثيرا ما، ليس بالضرورة بالحجم الكبير الذي حصل في هجرتي المسلمين للمدينة أو الأوربيين لأمريكا، لكنه سيكون تأثيرا مهما وملحوظا.

*** إذا ما تجاوزنا مثال الحالة السورية في تركيا، إلى ذات الحالة في أوروبا، ألمانيا مثلا، بحكم أن مدى اللجوء ربما يكون طويلا، فما رأيك؟**

** من حيث المبدأ، ليس بالأمر السهل أن يحدث السوريون تأثيرا كبيرا في أوروبا، لأن العوامل المشتركة التي تربط السوريين بالأتراك، قد تكون عاملا مساعدا يسهم في إحداث مثل هذا التغيير، لكن في الغرب هناك بون حضاري كبير وقيم مختلفة، ولذا أعتقد أن الأمر ليس مستحيلا لكنه صعب جدا في أوروبا، وخاصة في ظل تصاعد اليمين المتطرف فيها.

*** من الناحية الفكرية والفلسفية، كيف يمكن فهم ظاهرة اللجوء، في ضوء التأثر والتأثير المتبادل بين مجتمعي (النزوح والمستضيف)؟**

** عندما تلجأ كتلة بشرية كبيرة إلى بلد ما وهي تحمل فكرا مختلفا وفلسفة مغايرة، سيحصل هناك نوع من الصدام، خاصة فيما يتعلق بالمنظومة القيمية، سأضرب مثالا هناك، الآن أسر لجأت إلى أوروبا وترسل إلينا رسائل، لو أننا نضمن نمطا من العيش المستطاع في تركيا لرجعنا إليها، والسبب هو هذا الصدام بين المنظومتين.

*** على الأقل في تركيا هناك توازن بين هويتين؛ شرقية وغربية ..؟**

** نعم، صحيح، لكنني أريد أن أشير إلى نقطة مهمة، الغرب متقدم تقنيا وحضاريا، هذا أمر لا يمكن إنكاره، لكنه يعاني من أزمات كبيرة، ومن يتابع الدراسات الغربية يجد أن إيمان الشباب الأوروبي بالحداثة وما بعد الحداثة لم يعد كالسابق. أنا شخصيا أتمنى أن يأتي يوم يستطيع فيه اللاجئ من الدول العربية أن يتمكن من تنظيم نفسه، ويبني مؤسساته الخاصة ليشارك في البناء الثقافي في موطنه الجديد انطلاقا من فلسفته للحياة ومنظوره الثقافي.

*** الأمر صعب ربما، لكن لو ركزنا في الناحية الفكرية، إسلاميا، البعض ينظر للهجرة كمقاومة تقوم بها الشعوب ضد الظلم، ويؤصل لذلك من خلال سياق دلالي يؤكد ورود الهجرة في القرآن بمدلول المقاومة، هل تتفق مع هذه الفلسفة؟**

** هذه الفلسفة صحيحة، لكن هل تنطبق على وضعنا الحالي؟ أعتقد أن الأمر مختلف، الهجرة التي حدثت للحبشة مثلا، كانت مدروسة ومنظمة، هناك





جماعة لديها مشروع حضاري عانت في مكان ظهور هذا المشروع من تبعات سياسية واقتصادية، فأخذت قرارا بوجود مؤسس لهذا القرار، بالهجرة إلى بلد فيه من العدل ما يمكنهم من العيش فيه، وهذه الهجرة ليست شبيهة بما يحدث الآن. لو سألت كثيرا من السوريين: لماذا ذهبت إلى الغرب؟ سيكون الجواب: هربا من بطش النظام. لكن صاحب المشروع المقاوم هو الذي اختار مقارعة النظام حتى لو اضطر للخروج من بلده، هو يقاوم لكونه يعتبر المقاومة جزءا من ثقافته، وربما المقاومة تزيده إيمانا بمشروعه، وتصقل معرفته بأدوات الصراع في هذا العصر.

البدايات الأولى لتوطين فكرة اللجوء

*** إذا ما تحدثنا عن البدايات الأولى لتوطين فكرة اللجوء في تلك القوانين الحديثة، ما الأسباب التي أدت لجعل اللجوء حقا إنسانيا؟**

** أعتقد أنه يجب أن ننظر إليه في سياق ما حدث من تغيرات على المستوى السياسي والعلاقات بعد الحربين العالميتين. تعلم أن الغرب بعد تلك الحربين تعرض لمجموعة من الظروف غيرت طبيعة تعامله، وبعدها تغيرت العديد من المفردات في الثقافة الغربية؛ فالغرب ليس هو نفسه قبل الحربين وبعدها، ففي المجال الإنساني، حصل نوع من الاهتمام الإنساني عند المثقفين الغربيين وجماعة حقوق الإنسان، واعلم أنهم يعملون ضمن سيطرة قوى النفوذ السياسي، لكن طبيعة الحريات في الغرب تعطي مساحة لمن يؤمنون بالحق الإنساني، هناك عملية صراع ما بين جماعات الضغط التي تريد تغليب البعد الإنساني وبين جماعات المصالح.

على سبيل المثال، أحد أساتذة القانون في أمريكا، تحدث عن الأوراق الليبرالية التي أسست فيما بعد للدستور الأمريكي، وكانت خارطة طريق وولادة اتحاد بين الولايات الأمريكية، ذكر في سياق حديثه لطلابه عن حقوق الإنسان، أن كل ما حدث في الولايات المتحدة من مساحة واسعة للحريات، إنما كان بنضال طويل من قبل من كان يؤمن بحقوق الإنسان في مواجهة قوى النفوذ المتعددة. أعتقد أن ما حدث في الغرب من قوانين تضبط مسألة اللجوء، قدمت ولا شك، ملجأ لكثير من



> كل ما حدث في الولايات المتحدة من مساحة واسعة للحريات، إنما كان بنضال طويل من قبل من كان يؤمن بحقوق الإنسان في مواجهة قوى النفوذ المتعددة

اللاجئين في العالم، أتت في ظل صراع ما بين حقوق الإنسان وقوى الهيمنة السياسية، ونضيف إلى ذلك الحاجة الماسة للعمالة الوافدة بعد الحربين، وهذا سبب اقتصادي مهم.

*** ماذا لو أجملنا العوامل التي ساهمت في تقنين اللجوء في الدول المتقدمة؟**

** في الأصل قوانين تلك الدول عالجت مسألة اللجوء بمختلف أنواعه الإنساني والسياسي، سواء على مستوى المصطلحات الفنية القانونية أو طرق اللجوء وحقوق اللاجئ المختلفة، وإمكانية إعادته بعد استقرار موطنه الأصلي أو تمتعه بالإقامة الدائمة، ويعاد النظر فيها كل فترة، وخاصة عند قدوم أعداد كبيرة من اللاجئين إليها كما هو حاصل الآن، وباختصار يمكن أن نشير إلى عدة عوامل تؤثر في العملية القانونية منها التزام تلك الدول بما تبنته من قوانين إنسانية، ودور مؤسسات المجتمع المدني فيها كمؤسسات حقوق الإنسان، والحاجة لترميم النقص في عدد السكان فيها، والاستفادة من العقول المبدعة، وأيضا ضخ دماء شبابية جديدة في سوق العمل.

قصة اللجوء العربي

*** إذا ما تعمقنا في اللجوء العربي بالذات، ما هي الإرهاصات التي تشكل مقدمة لقصة موجات اللجوء العربية؟**

** الإرهاصات كانت سابقة، تعلم أن الوطن العربي عانى من الاستبداد وفشل المشاريع الوطنية، وفشل المشروع القومي، وأعتقد أن هناك نقطتين مهتين لعبتا دورا مهما لم يأخذا حقهما من الدراسة؛ الأولى دخول الفضائيات إلى العالم العربي، فقد وفرت منصة مهمة فتحت نوافذ للشعوب العربية على العالم. فعلى سبيل المثال، كان المسلم يعرف الإسلام من خلال مسجد الحي الذي يصلي فيه، لكن مع القنوات العربية وجد طيفا واسعا من المدارس الإسلامية أمامه، هذا لا شك أثر على طبيعة تفكيره الإسلامي، وعندما ظهر النيت كان تأثيره أكبر بكثير، لكونه يعطي فرصة للتفاعل المباشر، وكان للشباب العربي فرصة أكبر للتعرف على العالم عن طريق النيت.

*** ما علاقة ذلك بموجة اللجوء العربي؟**

** صار لدى العربي معرفة أوثق بالعالم الغربي، ومعرفة بالحقوق السياسية والإنسانية التي يوفرها، وهذا بدوره كان حاضرا في ذاكرة اللاجئ حين صار لاجئا، غير مغفلين دور ذلك في التواصل مع مؤسسات دولية لتؤمن الحماية للاجئين.

*** أشرت في حديثك إلى موجة لجوء عربية سودانية إلى مصر، فماذا عن موجات اللجوء الفلسطينية بعد تأسيس الكيان الصهيوني في فلسطين؟**

** طبعا، لجوء الشعب الفلسطيني علامة فارقة في تاريخ العرب والمسلمين، وتبعتها موجات لجوء أخرى كلجوء أعداد كبيرة من الشعب العراقي بعد احتلال أمريكا للعراق، ولجوء أعداد كبيرة من الشعب اللبناني هربا من الحروب الأهلية، وصولا إلى موجات اللجوء الجديدة. واسمح لي أن أشير إلى موجة لجوء معاكسة إلى الدول العربية، حدثت قبل تأسيس هذا الكيان، مثلا، بعد سقوط الدولة العثمانية حدثت موجة لجوء، من تركيا إلى سوريا، بأعداد ليست بالقليلة، وخاصة من الشعب الكردي. أنا مثلا جدي كردي من أوروبا هاجر إلى دمشق العربية.

*** وأنت حفيده هاجرت إلى تركيا..**

** (يضحك) نعم هذا صحيح، كان جدي يحدثني عن ذكرياته في موطنه تركيا، وأسأل الله أن لا أحدث حفيدي عن ذكرياتي في سوريا، بل أحدثه في دمشق إن شاء الله عن ذكرياتي عندما كنت لاجئا في تركيا.

*** هناك من يعتبر حالة النزوح الحاصلة الآن في الوطن العربي مؤشرا على فشل الدولة الوطنية، وهناك من يعتقد بعدم وجود دولة وطنية حتى تفشل! باعتبار أن من يحكم أنظمة عائلية؛ فكيف تقرأ مسألة اللجوء في سياقها السياسي الراهن، خصوصا ما يتعلق منها بالدولة؟**

**لا شك أن الأحداث الأخيرة بينت أن هذه الدول العربية لم تكن وطنية كما كان يروج لها، وفي الحقيقة

> بينت الأحداث الأخيرة أن الدول العربية لم تكن وطنية كما كان يروج لها



يوجـد مـن يـرى أن معظمهـا كان أقـرب إلى أن تكـون وكيلـة للاستعمار، وهنـاك مـن يعتقـد أن بعضهـا لـم يسـتطع أن يقـوم بـدوره الوطـني بسـبب التدخـلات الخارجيـة، وإن كان يغلـب عـلى أكثرهـا الارتهـان للخـارج. بالمحصلـة، فسـواء كانـت عميلـة أم لـم تكـن، فلجـوء أعـداد كبـيرة مـن شـعوبها في ظـل الربيـع العـربي، وطريقتهـا في التعامـل مـع شـعوبها الثائـرة، يـدل عـلى فشـل الدولـة، إن لـم يكـن مـؤشرا عـلى عـدم وجودهـا أصـلا.

الربيع العربي والغرب؛ واللجوء

*** هنـاك مـن يوجـه اتهامـا للثـورات العربيـة، باعتبارهـا أهـم الأسـباب الـتي أدت لـنزوح ملايـين اللاجئـين، فهـل هـذا الاتهـام صحيـح أم لا؟ وهـل يمكـن عقـد مقارنـة بـين موجـات اللجـوء العـربي قبـل هـذا الربيـع وبعـده؟**

** هـذا الموضـوع يمكـن أن ننظـر إليـه مـن منظوريـن سـياسي وإنسـاني، البعـض ينظـر لنتائـج مـا بعـد الربيـع مـن دمـاء وتـشرد ومـآس، فيوجـه أصابـع الاتهـام إلى الربيـع العـربي. لا أتفـق معـه في التحليـل، لكـن أحـترم هواجسـه الإنسـانية، لأن عمليـات التغيـير الـتي تحـدث مـن الطبيعـي أن ترافقهـا تلـك المظاهـر؛ فالغـرب لـم يصـل إلى هـذا المسـتوى المعـروف مـن التقـدم الحضـاري إلا بعـد نضـال وموجـات لجـوء وكـوارث أكـثر ممـا حصـل في بلادنـا، (٦٠) مليـون قتيـل في حربـين عالميتـين، الحـرب الأهليـة الأمريكيـة، الثـورة الفرنسـية وغـير ذلـك كثـير.

أمـا سياسـيا فهنـاك مشـكلة، خاصـة مـع مـن يـرى الربيـع، كإحـدى الأدوات الـتي أراد بهـا الغـرب تمريـر مشـاريعه في المنطقـة العربيـة، هـذا النهـج أقـرب لخطـاب الاسـتبداد ونظريـة المؤامـرة الـتي تديـر الكـون، منـه إلى فهـم تاريـخ الشـعوب والتجـارب الإنسـانية. وأمـا عـن المقارنـة بـين موجـات اللجـوء قبـل الربيـع وبعـده، أحـب أن أشـير هنـا إلى فـارق مهـم جـدا، وهـو أن موجـات اللجـوء السـابقة لـم تكـن نتيجـة ثـورات شـعبية تسـعى للإطاحـة بنظـم الاسـتبداد الـتي نجـح بعضهـا وبعضهـا الآخـر مـازال مسـتمرا في ثورتـه.

*** بعـض الباحثـين يتفقـون معـك في أن تصاعـد ظاهـرة اللجـوء لـم يكـن سـببها المبـاشر الرَّبيـع العـربي، ولكنهـم يلقـون باللائمـة عـلى السِّياسـات الغربيَّـة، الـتي دعمـت - في نظرهـم - الثَّـورات المضـادة والانقلابيـة، وعمقـت الصراعـات بَـيْنَ الأنظمـة والشـعوب، في بلـدان الربيـع العـربي خاصـة، فهـل تتفـق مـع هـذا الطـرح؟**

** هـذا الأمـر لـم يعـد يحتـاج إلى تأكيـد، موقـف الغـرب مـن دعـم الاسـتبداد العـربي واضـح، ولكـوني سـوري فواضـح لـديّ أن سياسـات الـدول الغربيـة، الـتي رأيتهـا خـلال السـنوات الخمـس الماضيـة عـلى الأقـل، كان لهـا دور كبـير في نشـوء واسـتمرار هـذه الكارثـة الإنسـانية الـتي تعيشـها سـوريا. تخيـل معـي لـو أن الـدول الغربيـة ساعدت في إسـقاط بشـار الأسـد منـذ السـنة الأولى، خاصـة في المرحلـة السـلمية، فهـل كنـا سـنتحدث اليـوم عـن كارثـة الشـعب السـوري؟ وهـل كانـت كل هـذه الأعـداد مـن اللاجئـين قـد هاجـرت؟

لكـن في الوقـت نفسـه، الغـرب ليـس جمعيـة خيريـة، لديـه مصالـح تحـرك سياسـاته، ولـذا لا نضـع كل اللائمـة عليـه، وعلينـا أن نعـترف أن النخـب السياسـية والثقافيـة العربيـة؛ المعارضـة تحديـدا، لهـا أيضـا دور سـلبي، كان يمكـن لهـا أن ترتـب أوراقهـا بشـكل جيـد، وتحسـن التعامـل مـع الغـرب وتخاطبـه بلغـة المصالـح، ربمـا اسـتطاعت أن تخفـف كثـيرا مـن كارثـة اللجـوء الحاصلـة الآن، لـو وجـد الغـرب معارضـة متحـدة تسـتطيع تحقيـق مصالحـه بمعـنى الندبـة، كان موقفـه مـن دعـم الأنظمـة العربيـة قطعـا سـيتغير.

*** بعـض المهتمـين بقضيـة اللجـوء المعـاصرة، يتعامـل معهـا مـن زاويـة أزمـة مهاجريـن عامـة، ناتجـة عـن الظـروف المتناقضـة بـين دول الشـمال المتقدمـة ودول الجنـوب الناميـة، بمعـنى هنـاك مـن هاجـر إلى أوروبـا رغبـة فيهـا، وليـس هربـا مـن واقـع بـلاده، وفي ذات الوقـت الـدول الأوروبيـة لديهـا حاجـة لترميـم هرمهـا السـكاني؟ مـا هـو تحليلـك؟**

** أعتقـد أن هـذا التحليـل صحيـح؛ فالبـون الشاسـع بـين الشـمال والجنـوب حضاريـا وسياسـيا واقتصاديـا وعلميـا وغـير ذلـك، أسـس لحالـة هجـرة دائمـة مـن الجنـوب إلى الشـمال، لدوافـع لا علاقـة لهـا عـلى الأغلـب بالحالـة

> إن البون الشاسع بين الشمال والجنوب حضاريا وسياسيا واقتصاديا وعلميا وغير ذلك، أسس لحالة هجرة دائمة من الجنوب إلى الشمال

الإنسانية، لكن حالة اللجوء أمر مختلف تماما، ومن الظلم أن نخلط بين مهاجر يسعى لتحقيق طموح شخصي أيا كان، وبين لاجئ فار من الموت والقهر يبحث عن ملاذ آمن له ولأولاده، وصادف أن الغرب يعاني من أزمة في هرمه السكاني فوجد في الهجرة أو اللجوء سبيلا إلى معالجة أزمته. الذي يؤلمني حقيقة هو الخلاف حول مصطلحات وتفاصيل متعلقة بالهجرة أو اللجوء، لدى النخب تضيع معه المأساة الإنسانية للاجئين.

اللجوء وإشكالية الهويات

*** كيف تنظر إلى التأثيرات الناتجة عن اللجوء على الدول العربية، سواء منها السياسية المتعلقة بتغلب الهويات اللاوطنية - وخصوصا منها الطائفية - على الهوية الوطنية، أو التأثيرات الاجتماعية المتعلقة بتفكك النسيج الاجتماعي، أو حتى الاقتصادية المرتبطة بهجرة الكفاءات العلمية والمهنية، وكيف تقرأ هذه التأثيرات على بلدان مثل سوريا والعراق وحتى اليمن؟**

** بالتأكيد، تأثيراتها خطيرة، سياسيا واجتماعيا، وأكثر ما يخيفني هو انقسام المجتمع على نفسه طائفيا، وقوميا وفئويا، كما حصل للأسف في العراق وسوريا واليمن. أنا قلق جدا من الحالة السياسية، وغياب أفق الحل السياسي، وما يستتبع ذلك من أخطاراجتماعية في بلدان الربيع العربي. إن التفكك المجتمعي يهدد نسيج دول الربيع العربي، وهجرة العقول والمبدعين منها يهدد مستقبلها، ولكني أعتقد أن الأمر يمكن معالجته، فما يجمع مكونات هذه الدول أكبر بكثير مما يمكن أن يفرقها ويمزقها، فلو وجد مشروع وطني حقيقي، وأحسن العمل عليه، وشارك فيه الجميع ووجد نفسه فيه لاتخذت المسألة مسارا آخر، لذلك علينا ألا نستسلم للواقع البائس وألا نستهين به أيضا.

*** إذا ما ناقشنا وضع اللاجئين في دول الاستقبال، وخصوصا منها الدول الأوروبية، ما هي الفوارق بين وضع اللاجئين في دول عربية وبين وضعهم في دول أوروبية؟**

** هناك فوارق عدة على أكثر من صعيد، فلو سألنا أنفسنا ما الذي دفع باللاجئ أن يقذف بنفسه ومعه أسرته في منافي اللجوء، ولو كان ذلك بتعريض حياته وحياة عائلته للموت غرقا في البحر، أليس هو البحث عن ملاذ آمن، وإقامة مستقرة، وعيش كريم،



> معظم الدول العربية أغلقت أبوابها في وجه اللاجئ السوري، مع أن إعلام تلك الدول يردد نشيد «بلاد العرب أوطاني»

وتعليم جيد لأولاده، وضمان صحي، وأمر مهم جدا وثيقة سفر وأوراق ثبوتية، من هنا يبدأ الحديث عن الفوارق. اللاجئ إلى أوروبا يجد كل ما سبق عندما يحصل على حق اللجوء، بل عندما تطأ قدمه أرض البلد التي لجأ إليها ولو بعد أشهر، الذي حصل على حق اللجوء في الغرب لا يقلق على نفسه وأهله ومستقبله، لكن للأسف هذا لا توفره دول اللجوء العربية، لأن اللاجئ إلى الدول العربية يعاني من قلق دائم وخوف مستمرين، وهو محروم من حقوقه الأساسية، فمن استطاع منهم أن يلجأ إلى المدن يجد صعوبة في تأمين المسكن، وإن استطاع فأجور السكن تلتهم معظم ما يستطيع تأمينه من المال، وليس هناك ضمان صحي، والتعليم سيء للغاية، وكثير من الطلاب السوريين هناك بلا تعليم منذ سنوات، ناهيك عن حق العمل وغيره، وهناك قيود على الحركة والسفر، فإن اضطر للسفر لأمر ضروري يجد صعوبة في العودة، وربما منع منها، ولا يشفع له أن أسرته في تلك البلاد، فما بالك بمن يعيش أصلا في مخيمات تعاني من ظروف سيئة جدا.

للأسف الإنسان السوري اللاجئ في الدول العربية لديه أزمة مستمرة وقلق متواصل، واسمح لي أن أشير هنا إلى أن معظم الدول العربية أغلقت أبوابها في وجهه، مع أن إعلام تلك الدول يردد نشيد «بلاد العرب أوطاني»، ويتحدث عن الانتماء للعروبة والدين، وشهامة العربي ورحمة الإسلام.

*** هناك من يتهم الدول الأوروبية، بممارسة ضغوط على المهاجرين، متعلقة بالتخلي عن هوياتهم تحت مبرر الاندماج، خصوصا وأن أغلب اللاجئين ليست لديهم القدرة على المواجهة، كيف تنظر لعلاقة الهجرة بالهوية؟**

**هذا الاتهام لم يأت من فراغ، هناك كثير من اللاجئين تحدثوا عن مثل هذه الضغوطات، أحدهم حدثني عن فرض دروس في الحريات الجنسية في السويد، وجد ابنته ولم تتجاوز بعد العاشرة من عمرها، تقرأ كتيبا مدرسيا فيه صور لن تقبلها ثقافة المسلم، ذهب إلى مدرستها واعترض، لكن اعتراضه رفض مصحوبا بخيار العودة لبلده إذا لم تناسبه طبيعة النمط التعليمي في السويد، وإن كرر الاعتراض ستأخذ الدولة منه ابنته؛ لأنه ليس مؤهلا ليكون وصيا عليها.

في الحقيقة هناك من يحاول أن يدفع اللاجئ للانسلاخ عن هويته، لكن في ذات الوقت هناك خطأ من جانب اللاجئين، بما أنهم أخذوا قرارا بالاستقرار في بلدان أوروبا، فيجب أن يكون لديهم من المرونة للتعايش مع هذه المجتمعات، وليس بالضرورة على حساب الهوية. هناك مساحات مشتركة إنسانية بين العرب والغرب، وهي كبيرة جدا، ولو أحسن اللاجئون تفعيل هذه المساحات، لكانوا مشاركين حقيقيين في الفعل الحضاري في بلد المهجر بدون التخلي عن قيمهم، وخاصة إن أحسنوا تأسيس مؤسسات عربية وإسلامية ترعى شؤونهم.

*** ما هو الرصيد الإيجابي للمهاجرين من تلك الموجات؟**

** أهم الإيجابيات التي تعود على اللاجئ، الاستقرار والأمن والسلامة وتأمين المعيشة والضمان الصحي، والتعليم الجيد لأولاده، ووثيقة سفر، وضمان حصوله على جنسية.

*** كيف يمكن قراءة العلاقة المتبادلة ما بين حركات اللجوء والتنمية المستدامة (داخل دول الاستقبال) وعلى المستوى العالمي؟**

** لا شك أن دخول دماء جديدة، وخاصة أصحاب العقول العلمية المبدعة، سيلعب أثرا مهما في التنمية المستدامة لدول الاستقبال، وفي إثراء الحركة العلمية والإنتاج الاقتصادي فيها من استثمار لليد العاملة الشابة.

الارتباك الأوروبي

*** في علاقة الغرب باللجوء، ألا ترى أن الغرب يعيش حالة من الخوف من اللجوء والحاجة إليه في آن؟ هذه الحيرة الأوروبية؛ إن صحت التسمية، أليست هي من سببت حالة الارتباك الأوروبي في تعاطيه مع قضية اللجوء العربي؟**

**صحيح، وربما لم يعد خافيا موضوع الأزمة الديمغرافية في أوروبا. بعض الدول لديها تخوف من انخفاض سكانها بنسبة كبيرة، فهم بحاجة إلى إعادة



> **كل ما حدث في الولايات المتحدة من مساحة واسعة للحريات، إنما كان بنضال طويل من قبل من كان يؤمن بحقوق الإنسان في مواجهة قوى النفوذ المتعددة**

ترميم هرمهم السكاني، لكن بالمقابل هناك تخوف؛ وقد يكون تخوفا مشروعا، مرتبطا بالآثار السلبية التي قد تنتج عن اندماج اللاجئ في المجتمع الغربي، ولا ننسى موضوع بروباغندا الإرهاب واستخدامه من قبل بعض وسائل الإعلام الغربية لأهداف لم تعد خافية، فهناك ضخ إعلامي مضخم يتحدث عن «رهاب الإسلام» وربطه باللاجئين، وللأسف تحدث بعض الحوادث من قبل اللاجئين تعزز هذه التخوفات، من عمليات قتل أو تفجير. طبعا، من حق الغرب أن يخاف على نفسه، حتى ولو وقع ضحية خداع ما، ولكن يجب أن نضع أيضا في الحسبان أن لليمين المتطرف بالغرب دوراً في هذا، وبالمحصلة فصورة اللاجئ وما يحمله من أخطاء في ذهنية الغربي وذاكرته مشوهة، جزء منها صحيح، لكن جزء كبير منها مصنوع في دوائر معينة لمصالح معينة.

*** لكن ما هي الفوائد التي تعود على دول الاستقبال من استقبال كل تلك الموجات من اللاجئين؟**

** هناك فوائد عدة، منها ترميم النقص في عدد السكان الذي تعاني منه دول الغرب، الاستفادة من عقول العلماء من اللاجئين الذين لم يكلفوا تلك الدول أي مجهود في بنائهم أو الحصول عليهم، ولا ننسى أن هناك رؤوس أموال لجأت مع أصحابها واستثمرت في الغرب، فليس كل اللاجئين فقراء.

*** هذا الحديث ينقلنا إلى تساؤل مهم حول تأثيرات صعود اليمين المتطرف على اللاجئين العرب في أوروبا؟ وما هي الأضرار التي ستلحق بهم في حال صعود اليمين المتطرف إلى الحكم؟**

** في الحقيقة نتمنى ألا يحدث ذلك، لأن صعود اليمين المتطرف إلى سدة القرار في الغرب كارثة؛ لن تكون نتائجه السلبية محصورة فقط على اللاجئين. بالتأكيد ظروف اللاجئين ستكون صعبة، وسيجدون أنفسهم أمام خيارات أحلاها مر وبائس، وبتقديري لن يلجأ اليمين الأوروبي إلى ممارسة التهجير القسري بحق اللاجئين، لكن ثمن بقاء اللاجئين قد يكون كبيرا، على سبيل

> بينت الأحداث الأخيرة أن الدول العربية لم تكن وطنية كما كان يروج لها

المثال، فأحد المتطرفين من اليمين الفرنسي سألته قناة «الجزيرة»: ماذا ستفعلون مع اللاجئين في حال صعودكم للحكم؟ فأجاب: إن أعلنوا فرنسيتهم الكاملة، وتخلوا عن جنسيتهم الأصلية، وهويتهم الوطنية، فأهلا بهم كفرنسيين. معنى هذا، أن اللاجئ قد يجد نفسه مضطرا للانسلاخ عن هويته، أو قد يختار من نفسه المغادرة، إذا ما أصر على الاحتفاظ بهويته الأصلية.

*** هناك محاولة لربط الإرهاب ببعض اللاجئين، وهي محاولة تستند إلى ظاهرة منتشرة في الوسط الأوروبي تسمى بفوبيا الإسلام، فكيف يمكن قراءة مستقبل اللاجئين في ضوء هذه التشابك بين اللجوء والإرهاب وفوبيا الإسلام؟**

** أعتقد أن العمل على ترسيخ اعتقاد لدى شعوب الغرب بعلاقة الإرهب باللاجئين العرب المسلمين أمر دبر بليل، ولم تخطط له دوائرمعينة في الغرب فقط، بل إن الأنظمة الاستبدادية في العالم العربي لها دور كبير، وربما سابق على الدور الأوروبي في التأسيس لهذه الظاهرة وتضخيمها، وأشير هنا إلى اعتماد نحت المصطلحات التي تحمل دلالات خطيرة وربطها بالإسلام، وأخطر ما فيها أن هذه الدلالات يمكن تجييرها لتخدم مصالح دول وتعطي الشرعية لاستخدام القوة ضد أشخاص أو جماعات أو شعوب، كل ذنبها أن استخدام القوة في قمعها يحقق مصالح سياسية لدول متنفذة، أو يحرم لاجئين فارين من الموت والقهر من حقوقهم الإنسانية. صحيح أن هناك نماذج سيئة جدا من استخدام العنف والاعتداءعلى الحريات مارستها جماعات تنسب نفسها للإسلام كتنظيم الدولة أو القاعدة، تركت آثارا سلبية عند الشعوب الأوروبية، لكن القراءة الدقيقة لتلك الجماعات تؤكد الدور الوظيفي الذي تقوم به لصالح جهات دولية متنفذة، إن بالارتباط المباشر أو غير المباشر، لكن ظاهرة الإسلاموفوبيا أعمق من الأثر الذي أحدثته تلك الجماعات، ولها جذور سابقة على ظهور تلك الجماعات.

*** ما يهم هنا هو، ماذا عن تأثيرها على ا للاجئين؟**

** للأسف، وجد اللاجئون الفارون بحياتهم والباحثون عن ملاذ آمن، وعن مستقبل لأسرهم، يدفعون ثمن تلك الظاهرة من محاولة ربط الإسلام بالإرهاب، وما يحمله ذلك من وقوع اللاجئ في حالة فوبيا من تلك الفوبيا التي تلاحقه، فيدفع به ذلك إلى مسارات غير محمودة، وهو يعاني في الأصل من حالة عدم استقرار، ويعاني من آثار زلزال دمر معظم أركان حياته، وقذف به في بحر متلاطم الأمواج لا يقر له قرار، فلا يجد نفسه إلا كالغريق الذي يبحث عن سبيل يدفع بها الموت عنه، ولا يفكر حينها في أي شيء آخر.

وبدأنا نسمع عن ألوان من السلوك الذي يدافع بها اللاجئ عن نفسه حتى يتخلص من آثار تلك الفوبيا؛ فمنهم من انسلخ عن هويته العربية الإسلامية وحاول أن يتقمص الهوية الغربية، واتخذ لذلك لبوس الانحلال القيمي والأخلاقي حتى ينفي عن نفسه تهمة الانتساب للإسلام، وأيضا هناك من تحكمت به الرغبة في الانتقام لنفسه من المعاملة السيئة التي عانى منها بسبب كونه مسلما، فصار تربة خصبة للتطرف، واستخدام العنف للتعبير عن غضبه وثأره، ولك أن تتخيل بين هذين النقيضين ألوانا أخرى من السلوك الدفاعي.

تحدي البقاء

*** اللجوء قد تكون له فوائد على الشخص الذي اختار ترك بلده، ولكن هذا له تأثيرات سلبية متعلقة بهجرة الكفاءات العلمية، فماذا عن تحديات بقاء الجزء الذي لم يغادر وطنه بعد؟ بمعنى آخر، ماهي التحديات التي تساهم في تفضيل الناس البقاء في أوطانهم على الهجرة؟**

** هجرة العقول معضلة قديمة يعاني منها العالم العربي، لكنها ازدادت كثيرا وعلى نحو خطير بعد الثورات العربية الأخيرة، واختلفت الأسباب الدافعة للهجرة معها.

لا شك أن الغرب أتقن استجلاب هذه الكفاءات، على سبيل المثال فمشروع (Comuter Cloud) الأمريكي، يمكن أمريكا من الوصول إلى أهم العقول المبدعة في العالم وهم في أوطانهم، وتستطيع الاستفادة منهم من غير أن يهاجروا إليها.



لن يلجأ اليمين الأوروبي إلى ممارسة التهجير القسري بحق اللاجئين، لكن ثمن بقاء اللاجئين قد يكون كبيرا



وعودا إلى السؤال عن تحدي بقاء هذه الكفاءات في أوطانها وخاصة في دول الربيع العربي التي دخلت في صراع دموي، فهو صعب جدا، فهناك جملة أخطار تهدد هذه الكفاءات، على رأسها فقدان الحياة نتيجة الصراع، بل حتى التصفية المباشرة والاعتقال، وتشريد الأسرة، وظروف الحياة الصعبة جدا. إذا ما أخذنا مثلا أطباء سوريا، فقسم منهم تحمل الظروف الصعبة وقرر البقاء إحساسا منه بالمسؤولية الأخلاقية تجاه شعبه، لكنه مع تعقد الظروف بدأ الكثير منهم بالهجرة، ليس فقط من بطش النظام، بل أيضا بسبب الحالة الاجتماعية والاقتصادية المتردية المهددة لكيان الأسرة، وعلينا أن نعترف أن تجاوز تحديات البقاء ليس بالأمر السهل، حتى ولو وجد في بيئة ثورية، فلن يجد للأسف كمبدع إلا إغراء المغادرة.

*** ماذا عن التحديات المتعلقة بالقومية والهوية والثقافية، التي تغري على البقاء؟**

** لاشك أن تحدي الحفاظ على الهوية تحد خطير، وهذا ما دفع بالكثير من الناس بالخوف من اللجوء إلى الغرب، وآثر اللجوء إلى دول عربية أو تركيا التي تجمعهم فيها هوية مشتركة، وإن فقد بذلك الكثير مما يؤمنه له اللجوء إلى الغرب، هذا طبعا لمن اضطر لمغادرة موطنه، ومن لم يغادر صار لاجئا في موطنه وتلك قصة أخرى.

*** ما هي قراءتك لكيفية تناول الإعلام العربي، والأوروبي إن أمكن، لظاهرة اللجوء العربي لأوروبا، وأسباب تركيز الإعلام على البعد السياسي لهذه الظاهرة وتجاهله أو قلة تناوله للأبعاد الإنسانية والاقتصادية والاجتماعية؟**

** لا يغيب عن أحد دور الإعلام في صناعة الرأي وصناعة عقول الناس. لم يكن الإعلام للأسف صادقا في نقل الكارثة الإنسانية للاجئين؛ فقد استرسل الإعلام عند تناول قضية اللجوء في البعد السياسي، وهو أيضا تناول غير دقيق في كثير من جوانبه، بل قد يكون مفرطا في التحيز، ويبدو لي كأنه هروب متعمد من حقيقة كارثة اللجوء وحجمها الحقيقي. فما فائدة الجدل الإعلامي حول الإنسان الهارب من بلده خوفا من القتل أو



> هجرة العقول معضلة قديمة يعاني منها العالم العربي، لكنها ازدادت كثيرا وعلى نحو خطير بعد الثورات العربية الأخيرة



الاعتقال هل هو لاجئ أم لا؟ وهل يستحق اللجوء أم لا؟ ومن مراقبتي لتناول الإعلام للحالة السورية، تم التركيز على التحليلات السياسية، باعتبارها حربا أهلية، بينما هي في حقيقتها قضية شعب مضطهد يقف ضد نظام مستبد، وفي ذات الوقت يتم تناسي ملايين اللاجئين الذين يعيشون ظروفا قاسية جدا. وفي اعتقادي، إن حصر المسألة في جانبها السياسي أو القانوني فقط، هو بحد ذاته جريمة أخلاقية يقوم بها الإعلام، سواء قام بها الإعلام العربي، أو الأوروبي.

*** ما هي السيناريوهات المستقبلية للتحولات في العالم العربي وتأثيراتها على وضع اللاجئين، خصوصا إذا ما وضعنا افتراض عودة الاستقرار للوطن العربي؟ فهل يمكن أن تعود الكفاءات العلمية لبلدانها الأصلية؟**

** حتى لو افترضنا أن هذه الدول العربية تخلصت من أنظمتها المستبدة، وبدأت تدخل حالة من الاستقرار النسبي، أعتقد أنها ستظل تعاني من افتقارها للكثير من الكفاءات المتخصصة التي فقدتها أثناء الحرب، فمعظم هذه الكفاءات العلمية أغلبها موجود في الغرب، وعندما نكون في حال استحقاق إعادة إعمار الوطن، سيكون من الصعب إقناع تلك الكفاءات بفكرة العودة، يمكن الاستدلال ببعض الدراسات الإحصائية التي تشير إلى أن نسبة من يفكر بالعودة من اللاجئين منذ عقود في حالات مشابهة، بالكاد يصل إلى (٢٠٪).

في تقديري، إن كثيراً من النخب التي ذهبت إلى أوروبا، وارتبطت مصالحها الاقتصادية والعلمية بالعالم الغربي، لا أعتقد أنها تفكر بالعودة، ربما تفكر بتقديم مساعدة ما للوطن، أو بتقديم الخبرات المؤقتة الموسمية، لكن فكرة العودة النهائية، يبدو لي أنها ستكون بنسبة قليلة جدا، وهذا بالتأكيد تحدي كبير، ستواجهه كل دول الربيع العربي، في حال ما حدث أن استقرت سياسيا واجتماعيا واقتصاديا.

*** ربما آن لنا أن نكمل حوارنا بسؤال تخصصي نوعا ما، من خلال قراءتك لتاريخ اللجوء أو تتبعك لظاهرة اللجوء العربي تحديدا، هل توجد إضافات بحثية علمية في هذا الخصوص؟ وهل هذه الإضافات بحجم هذه القضية الخطيرة؟**

** توجد مقالات ودراسات، اطلعت على بعضها، لكنها لم تعالج حتى (١٪) من حجم ما تحتاجه هذه المسألة من دراسات عربية متخصصة في قضية اللاجئين، متعلقة بالجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإنسانية، ما نزال بحاجة للكثير منها. كيف نستطيع أن نتحدث عن أية قضية حديثا علميا ودقيقا ومعطياتها غير متوفرة أو غير مكتملة؟ بل أعتقد أن ما كتب في الغرب أكثر وأفضل بكثير مما كتب في العالم العربي. على سبيل المثال، في الحالة السورية إذا ما وجدنا بحثا رصينا باللغة العربية سيقابله عدد كبير من البحوث المتخصصة باللغة الإنجليزية، وعملية ترجمة هذه البحوث إلى اللغة العربية لم تحصل إلا لماما، وإن حصلت لا ترق إلى المستوى المطلوب، لا كما ولا نوعا، ولا أدري هل هذا تعبير عن حالة افتقار بحثي لظاهرة اللجوء أم عن حالة عدم اهتمام بها.



> إن كثيراً من النخب التي ذهبت إلى أوروبا، وارتبطت مصالحها الاقتصادية والعلمية بالعالم الغربي، لا أعتقد أنها تفكر بالعودة، ربما تفكر بتقديم مساعدة ما للوطن

المراجع العربية:

- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، ١٩٦٨، المجلد١٣
- إلياس بلكا، مفهوم الهوية: تاريخه وإشكالاته، مجلة الكلمة، العدد٤٦، ٢٠٠٥
- بكري علاء الدين، الأنا، الموسوعة العربية، المجلد الثالث.
- بيتر فارب، بنو الإنسان، ترجمة زهير الكرمي، عالم المعرفة، العدد ٦٧، يوليو ١٩٨٣
- جون ماكوري، الوجودية، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، العدد ٥٨، أكتوبر ١٩٨٢
- خضر عباس، الأنا والآخر بين الفلسفة والسيكولوجيا، مدونة الدكتور خضر عباس.
- زيجمونت باومان، الحداثة السائلة، الشكبة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٦
- يسرى السعيد، كيف نفهم الاندماج؟، العربي الجديد، ٣ أغسطس/ آب ٢٠١٦
- محمود السيد حسن حسن: حماية اللاجئين إبان النزاعات المسلحة ـ مجلة السياسة الدولية ـ العدد ١٦٢ ـ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٥
- عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، دار الفكر، ج٢
- تاريخ فتح أمريكا، تزفينان تيودوروف، ت. بشير السباعي، دار الثقافة الجديدة، ٢٠٠٣
- صموئيل هنتجتون، صدام الحضارات، دار الجماهيرية، ١٩٩٦
- جدليات الاندماج الاجتماعي وبناء الدولة والأمة في الوطن العربي، مجموعة مؤلفين، الطبعة الأولى، بيروت ٢٠١٤، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- اللاجئون والأمن الإنساني في الشريعة والمواثيق الدولية، حماد على محمد حسنين، ٢٠١٠، http:// repository.nauss.edu.sa/handle/١٢٣٤٥٦٧٨٩/٥٥٩٤٣
- الاتفاقية الدولية لحماية جميع العمال المهاجرين، البرعي أحمد حسن، ٢٠١٤، http://repository. nauss.edu.sa/handle/١٢٣٤٥٦٧٨٩/٥٧٥٩١
- اللجوء في الإسلام وقانون اللجوء الدولي: نبذة عن وضع اللاجئين في العالم العربي والإسلامي، بخاري حمدي، ٢٠١٠، http://repository.nauss.edu.sa/handle/١٢٣٤٥٦٧٨٩/٥٥٩٤٠
- بول كيندي، نشوء وسقوط القوى العظمى، الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٨
- جواكلين آرنجو، تفسير الهجرة: المداخل المفاهيمية والنظرية،)ترجمة الكرار درية(، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية، القاهرة، مركز مطبوعات اليونسكو، العدد ١٦٥، سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٢
- التعاون الأورو- مغاربي في مكافحة الهجرة غير القانونية، رسالة ماجستير، عايش عبد المالك، جامعة باجي مختار، ٢٠٠٦
- تردي أوضاع اللاجئين في دول اللجوء، تقرير مفوضية شؤون اللاجئين، الصادر في ٢٠ نيسان/ أبريل ٢٠٠٦
- تقرير وكالة الأنباء الفرنسية AFP عن تدفق آلاف اللاجئين إلى النمسا في ٢٠/٩/٢٠١٥
- تقرير للمفوضية السامية للأمم المتحدة لغوث اللاجئين، ٠٢ سبتمبر/ أيلول٢٠١٦
- موقع DW عربية، «ألمانيا تتكلم عربي»، ٠٣،١١،٢٠١٥
- مركز الشرق العربي للدراسات الحضارية والاستراتيجية - لندن: http://asharqalarabi.org.uk/
- موقع الأمم المتحدة: http://www.un.org/ar/documents/udhr/index.shtml#a١٤
- موقع حقوق الإنسان بالأمم المتحدة، مكتب المفوض السامي، http://www.ohchr.org/AR/ ProfessionalInterest/Pages/StatusOfRefugees.aspx
- موقع المفوضية السامية لشؤون اللاجئين: http://www.unhcr.org/ar/٢٧٢٠١cc٤beV.html
- نشرة الهجرة القسرية: http://www.fmreview.org/ar/front-page.html

المراجع الإنجليزية:

- Putins verdeckter Krieg: Wie Moskau den Westen destabilisiert
- Deutschland schafft sich ab: Wie wir unser Land aufs Spiel setzen
- Khaled Koser,International Migration, Oxford,٢٠٠٧
- Charlis tilly, Road from past to Future,Rowman little field,١٩٩٧,Ibook Edition
- Edward Newman, Understanding Civil war, Rutledge,٢٠١٤
- Martha hemmelfarb, The apocalypse,Wiley Blackwell,٢٠١٠
- Ganguly, Sumit, and Brandon Miliate. «When Refugees Were Welcome.» Foreign Affairs. ٣١ July ٢٠١٦. Web. ٣١ July ٢٠١٦
- Bollfrass, Alex, Andrew Shaver, and Yang-Yang Zhou. «Don›t Fear Refugees.» Foreign Affairs. ٢ Aug. ٢٠١٦. Web. ٢ Aug. ٢٠١٦
- Source: UNDESA, World Economic and Social Survey: International Migration (New York: UN, ٢٠٠٤
- . SOKO Asyl: Eine Sonderkommission offenbart überraschende Wahrheiten über. - Ulf Küch, ٢٨. Januar ٢٠١٦. Flüchtlingskriminalität Gebundene Ausgabe
- Rhein-Zeitung \ ٢٠١٦\٠٨\٣١, http://www.rhein-zeitung.de/region/lokales/westerwald_artikel,-syrischer-geschaeftsmann-reist-mit-vier-ehefrauen-und-٢٣-kindern-ein-_arid,١٥٣٩٨٢١.html
- Bild, ٢٠١٦\٠٨\١٣, http://www.bild.de/politik/inland/heiko-maas/will-gegen-kinder-und-mehrfach-ehen-vorgehen٤٦٢٨١٧٣٢-.bild.html
- http://www.unhcr.org/publications/legal/٣d٤aba٥٦٤/refugee-protection-guide-international-refugee-law-handbook-parliamentarians.html
- https://www.stratfor.com/situation-report/un-refugee-numbers-reach-record-high
- http://www.unhcr.org/news/latest/٥٧٦٣/٦/٢٠١٦b٦٥a٤/global-forced-displacement-hits-record-high.html
- https://www.stratfor.com/weekly/geopolitics-syrian-civil-war»>The Geopolitics of the Syrian Civil War is republished with permission of Stratfor.



عن «الدياسبورا» السورية



بقلم: طارق عزيزة
كاتب وباحث سوري

من بين البلدان العربية التي شهدت موجة الانتفاضات والثورات والاضطرابات التي اصطلح على تسميتها «الربيع العربي»، كانت كلفة التغيير وضريبة التوق إلى الحرية والانعتاق من الاستبداد في سوريا هي الأعلى على الإطلاق مقارنةً بسواها من دول المنطقة. وحشيّة النظام في قمع الثورة، وكذلك تخاذل «المجتمع الدولي» عن لجمه تجاوزا أشدّ التوقعات تشاؤماً. ثم مع استمرار تعنّت النظام وتعثّر الثورة السورية وانزلاقها في أتون التطييف والعسكرة، ودخول المعارضة كما النظام في حمّى تجاذبات خارجية ما فتئت تستثمر في المقتلة السورية، غدت سوريا ساحة لتصفية الصراعات وتسوية الصفقات الإقليمية والدولية، عدا عن تحوّل البلد إلى مرتع للإرهاب والتطرّف، يجتذب مجانين الجهاد من مشارق الأرض ومغاربها. والحصيلة كارثية: مئات ألوف القتلى والجرحى، وبلاد منكوبة ممزّقة يتقاسمها أمراء الحرب، بات أكثر من نصف شعبها شريداً، أضافت مأساته إلى التاريخ «دياسبورا»[1] جديدة بنسخة سورية.

أرقام وإحصاءات

في كتابه «نشوء الشرق الأدنى الحديث»، تناول البروفسور البريطاني مالكوم ياب «ما يوصف بأنه كارثة ديمغرافية للشرق الأدنى»، جرت بين عامي ١٩١٢ و١٩٢٣، وهي الفترة التي شهدت اندلاع حروب البلقان والحرب العالمية الأولى وانهيار الدولة العثمانية. يذكر ياب، وهو المتخصص في تاريخ المنطقة الحديث، أن «٢٠٪ من سكان الأناضول قد لقوا مصرعهم وهاجر ١٠٪ منهم، ولقي ٤٠٪ من الأرمن و٢٥٪ من اليونانيين و١٨٪ من المسلمين حتفهم»[2]. البروفيسور ياب تحدّث عن شعوب عدّة وبلدان مختلفة، وأحداث جسام على امتداد أكثر من عقد من الزمن، تخللته أكثر من حرب إحداها عالمية. فإذا كانت تلك «كارثة ديمغرافية»، يمكن للمرء من خلال مطالعة الأرقام والإحصاءات «الديمغرافية»، المفجعة والمفزعة في آن، المتعلقة بشعب واحد في بلد

١- دياسبورا (Diaspora) كلمة إغريقية تعني "التشتت" و"الشتات"، وقد شاع استخدامها للدلالة على اليهود المنتشرين في دول العالم المختلفة. لم يقتصر استخدامها على دلالتها اليهودية هذه، فقد استخدمت للحديث عن "دياسبورا فلسطينية" في إشارة إلى فلسطينيي الشتات.

٢- مالكوم ياب، نشوء الشرق الأدنى الحديث (١٧٩٢ – ١٩٢٣)، ترجمة خالد الجبيلي، الطبعة الأولى ١٩٩٨، دمشق، دار الأهالي. ص ٢٩

واحد وعبر خمس سنوات فقط من النزاع المستمر، أن يدرك جانباً مهمّاً من الأسباب التي دفعت «الأمم المتحدة» إلى وصف ما يحدث في سوريا بأنه الكارثة الإنسانية الأخطر التي يشهدها العالم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

في سوريا، قُدّر عدد الوفيات مع نهاية العام ٢٠١٥ بنسبة ١٠ بالألف، وعدد الجرحى بنحو ١,٨٨ مليون نسمة، أي إنّ ما يقارب ١١,٥٪ من السكان في سوريا إمّا قتلى أو جرحى نتيجة للنزاع المسلح[٣]. وبحسب بيانات المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين (UNCHR)، فإن عدد اللاجئين السوريين المسجلين في دول الجوار فقط، أي تركيا ولبنان والأردن والعراق إضافة إلى مصر، قد قارب خمسة ملايين لاجئ، (بلغ عددهم حتى منتصف شهر آب/ أغسطس ٢٠١٦: ٤,٨٠٨,٢٢٩ لاجئ). في حين وصل عددهم في أوروبا في الفترة نفسها، إلى أكثر من مليون ومئة وعشرين ألفاً (١,١٢٠,١٣٢)، يتواجد نصفهم تقريباً في ألمانيا[٤].

طبعاً لا يدخل في حساب أعداد اللاجئين آلاف الضحايا الذين قضوا في البحر الأبيض المتوسط، خلال محاولات العبور إلى أوروبا باستخدام «قوارب الموت». ولمّا كانت منظمة العفو الدولية (Amnesty) قد أكدت أن «واحداً من بين شخصين ممن يعبرون البحر الأبيض المتوسط في السنة، أي نصف مليون شخص هم سوريون فروا من النزاع في بلدهم[٥]»، فبالتالي من المرجح، منطقياً، أن يكون نصف «المهاجرين غير الشرعيين» الذين ابتلعهم المتوسط في السنوات القليلة الماضية هم من السوريين أيضاً.

يقدر عدد اللاجئين السوريين المسجلين في دول الجوار فقط، أي تركيا ولبنان والأردن والعراق إضافة إلى مصر، بخمسة ملايين لاجئ

وبتحليل الأرقام وحساب نسبة أعداد السوريين إلى عدد السكان في بعض دول الجوار، يتبين أنه في لبنان، الذي يستضيف قرابة ١,١ مليون لاجئ من سوريا، فإن «حوالي واحد من كل خمسة أشخاص موجودين في البلاد سوريون[٦]»، أي ما نسبته ٢٠٪ من السكان. أما في الأردن، فقد كشفت المصادر الحكومية «أن السوريين يشكلون نحو ١٤٪ من السكان»[٧]. في حين أن ما يقارب ٢٪ من سكان تركيا اليوم هم المليونان ونصف المليون لاجئ سوري المتواجدين على أراضيها.

٣- راجع: ”سورية مواجهة التشظي! تقرير يرصد آثار الأزمة السورية خلال العام ٢٠١٥“، المركز السوري لبحوث السياسات، دمشق، شباط ٢٠١٦. ص ٨ من المؤكّد أن الأرقام ازدادت منذ ذلك الحين، فالصراع ما زال مستمراً كما عاد التصعيد العسكري مجدداً إلى جبهات حلب وريف دمشق.

٤- يمكن الاطلاع على تحديثات قاعدة البيانات الخاصة بالمفوضية، على الرابط:

http://data.unhcr.org/syrianrefugees/regional.php

٥- https://www.amnesty.org/ar/latest/news/٠٢/٢٠١٦/syrias-refugee-crisis-in-numbers/

٦- المصدر نفسه.

٧- الجزيرة نت: ”سكان الأردن ٩,٩ ملايين منهم ١٤٪ سوريون“. تجدر الإشارة إلى أنّ هذه المعلومات تعود إلى نيسان/ أبريل ٢٠١٤

علاوة على ما تقدّم ثمة في داخل سوريا أيضاً، تهجير ونزوح وتشرّد لا يقلّ كارثيّة عنه خارجها، فقد أجمعت مصادر مختلفة على أن نحو نصف السكان في سوريا اضطرّوا للنزوح عن بيوتهم ومناطق سكناهم[٨].

عنوان واحد لأزمات متعددة

«اللاجئون السوريون». هذه العبارة تظهر كعنوان عامّ واحد، في حين أنه تندرج موضوعات وحالات مختلفة تحت هذا العنوان. كلّ منها ينطوي على كم لا يسهل حصره من المشكلات والأزمات المركّبة والمتداخلة فيما بينها، والتي تشمل جميع ما يمسّ حياة اللاجئين على المستويات كافّة: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية والعاطفية... إلخ.

هذا التراكب والتداخل فيما بين المشكلات تلك يزيد من تعقيدها، كما ويزيد من صعوبة التعامل معها ومعالجة الآثار الناجمة عنها وتأثيراتها على اللاجئين، جماعاتٍ وأفراد، سواء ما ينعكس منها مباشرة على التفاصيل المعيشية وأمور الحياة اليومية أو تلك المرتبطة بالمستقبل في مداه المتوسط أو البعيد.

> تواجه النساء اللاجئات تحديات إضافية فقط لكونهن نساءً، تضاف إلى ما يعشنه ويتقاسمنه من أزمات مع اللاجئين من الرجال

وقد لا يكون من المبالغ فيه القول، إنّ ثمّة مشكلات على عدد اللاجئين، ذلك أنّه لكلّ منهم قصته، ومعاناته، وذاكرته، وآماله، وطموحاته، وخساراته الخاصة.. حتى لو بدا أنّ الشروط الموضوعية العامّة التي تحكم أحوال اللاجئين ومشكلاتهم الأساسية متشابهة، علماً أنها ليست كذلك، فهي متفاوتة بشدّة بين بلد وآخر من بلدان الشتات السوري، سواء فيما بين دول الجوار (يختلف وضع اللاجئين في الأردن عنه في لبنان، وفي كليهما عن الوضع في تركيا)، أو باختلاف أماكن تواجد اللاجئين على أراضي كل منها (ضمن مخيمات اللجوء أو خارجها مثلاً). كذلك الاختلاف بينها جميعاً وبين دول الاتحاد الأوروبي، بل وأيضاً الفروق النسبية بين حالة اللاجئ وقوانين الهجرة واللجوء والإجراءات المتعلقة بها ما بين دولة أوروبية وأخرى (شتّان بين أحوال اللاجئين في بلغاريا وهنغاريا وإيطاليا مثلاً، وبين أحوالهم في ألمانيا أو السويد، وجميع هذه الدول أعضاء في الاتحاد الأوروبي).

كذلك على مستوى الشرط الذاتي للاّجئين أنفسهم، أيّاً كانت أمكنة تواجدهم وظروفهم الموضوعية. هناك عوامل كالجنس والفئة العمرية تشكّل عنصراً حاسماً في مشكلات إضافية من نوع خاص. فمثلاً تواجه النساء اللاجئات تحديات إضافية فقط لكونهن نساءً، تضاف إلى ما يعشنه ويتقاسمنه من أزمات مع اللاجئين من الرجال. كما أنّ المشاكل التي يعاني

٨- ما نسبته ٥٠٪ من السكان وفق منظمة العفو الدولية (مصدر سابق). فيما تشير تقديرات أخرى إلى ٤٥٪، انظر: "سورية مواجهة التشظي" (مصدر سابق) ص ٤١

منها الأطفال والمراهقون هي أيضاً من طبيعة خاصة مرتبطة بمرحلتهم العمرية هذه.

كل ما تقدّم عرضه لن يمرّ من دون أن يرخي بظلاله الثقيلة على الأسرة، ما سيوّلد مزيداً من المشكلات المرتبطة بتفكك العلاقات الأسرية، في مجتمعات مازالت الأسرة هي نواتها الأساسية. وهنا تجدر الإشارة إلى نوع من المشكلات المستجدة بدأت تظهر مؤخراً في أوساط اللاجئين السوريين في أوروبا، ذلك أن معظمهم وصل بمفرده، وبعد طول معاناة وانتظار للحصول على الإقامة، وصولاً إلى الانتهاء من إجراءات استقدام عائلته من حيث هي تنتظر، في سوريا أو في أحد بلدان الجوار. ثم وبعد التئام شمل الأسرة من جديد تظهر تحدّيات لم تكن في الحسبان، وقد لاحظت الباحثة علياء أحمد وجود «أسر تستمر تحت شعار حماية العائلة من دمار الطلاق وسط مشاحنات قد تزداد أو تتخفض شدتها، فيما تنتهي أسر أخرى إلى الطلاق».[٩]

اللجوء وأزمة الهوية

في سياق الحديث عن اللجوء، قد يكون من المفيد إعادة التفكير في بعض المفاهيم والكلمات الكبيرة، التي بقدر ما تبدو عليه من بساطة وبداهة ووضوح إلا أنها معقدة، وإشكالية، لا تخلو من غموض، وتحتمل أوجه فهم متعددة. من تلك المقولات «الوطن» و«المنفى» و«الهوية». وأغلب الظن أن طريقة فهم كل شخص لها وكيفية تصرّفه في ضوء هذا الفهم يؤثران بشكل كبير في الكثير الأمور العملية في حياته. وعليه، ثمّة أسئلة لا بد من طرحها:

> إنّ الإشكالية التي تولدها «أزمة الهوية» ستضغط بشكل أكبر على الأجيال الأصغر سناً من اللاجئين والمهاجرين

هل «الوطن» هو محض جغرافيا تولد فيها وتعيش عمرك وتفاصيل حياتك بين تضاريسها، ووسط الناس الذين يقطنونها، أمّ أنّه يقتضي أيضاً أن تتحقق فيه كرامتك الإنسانية، وأن تمارس حقوقك ومواطنيتك بحرية، بوصفك مواطناً من هذا «الوطن»؟ وماذا عن احتكار هذا «الوطن» من قبل طغمة مستبدة، تختصره بـ«القائد»، تضيّق عيشك، وتصادر حقوقك وتغرّبك عن وطنك وأنت فيه، أليس هذا هو المنفى والاغتراب في أجلى معانيهما؟ وهل يختصر مكان ولادتك، أو لغتك، أو دين آبائك، أو سواها مما تلقّيته دون خيار، هل يختصر أيّ منها هويّتك؟ أم أنّ شخصيّتك وما أنت عليه هو محصّلتها جميعاً، مضافاً إليها ما اخترته لنفسك، وبالتالي فكلّ منها مجرّد جزء بسيط من مركّب كلّي هو الهوية؟

إن التمترس خلف انتماءات بعينها والتوهم أنها هوية نهائية يحدّ من قدرة الفرد على التطور والتكيّف والتأقلم مع شروط حياته المتغيّرة. واللاجئ (والمنفي) أحوج ما يكون إلى تجاوز تلك اليقينيات الزائفة، وعوضاً

٩- علياء أحمد: تحديات تواجه الأسرة بعد لم الشمل في بلد اللجوء. (جريدة "أبواب" العدد ٨، آب/ أغسطس ٢٠١٦).



عن الانغلاق والتقوقع على الذات تحت شعارات «الخصوصية» وعقدة «الأجنبي»، يجب التفكير في غنى الهوية الإنسانية وتنوعها، والانفتاح على الآخر المختلف، وتوسيع مروحة الانتماءات التي تصوغ الهوية وتشكّلها. سبق للكاتب اللبناني/ الفرنسي أمين معلوف أن تحدث عن «الناحية المضلِّلة في الهوية»، وهي أن الإنسان في أوقات كثيرة، يستعيض عن الهوية بعنصر ما منها، ويعتبر أن هذا العنصر، سواء كان دينياً أو قومياً، يختصر أو يختزل كلّ الهوية، بينما الهوية مركّبة من عناصر عدّة[١٠].

يبدو أن هذا التضليل واختزال الهوية يزدهران بقوّة في وضعيّة اللجوء، وأكثر من يستثمر في هذا هم دعاة التأسلم والتطرّف، الذين لم يكتفوا بما عاثوه في سوريا، فتراهم يغزون تجمعات اللاجئين السوريين في كلّ مكان، ولا يألون جهداً في الترويج لما يصفونه بـ «القيم الإسلامية»، و»الحياة الإسلامية»، والمبالغة فيها وحشر «الإسلام» في كل صغيرة وكبيرة من تفاصيل الحياة اليومية للأفراد، وكأنّ الإسلام قد ظهر للتو. وعبر استغلال المشاعر الدينية يغرّرون باللاجئين لا سيما الشباب، خدمة لأجندات تنظيماتهم العدمية. ويظهر الأثر السلبي لهؤلاء بشكل أكبر في بلدان اللجوء الأوروبية، حيث يقدّمون الذريعة لليمين المتطرّف، في حملاته المعادية للمهاجرين واللاجئين.

إنّ الإشكالية التي تولدها «أزمة الهوية» ستضغط بشكل أكبر على الأجيال الأصغر سناً من اللاجئين والمهاجرين. فإذا كان الآباء قد عاشوا الشطر الأكبر من حياتهم وفق قيم معينة تحكمها انتماءاتهم والبيئات التي قدموا منها، فالأمر مختلف إلى حد بعيد مع أطفالهم، الذين سيكون عليهم «التعامل مع صورتين مختلفتين، الأولى تقدمها الأسرة مستمدة من المجتمع الماضي والثانية تقدمها الروضة والمدرسة أو المجتمع بشكل عام».[١١]

خلاصة

في واحدة من محاضراته، تحدّث الراحل إدوارد سعيد عن تحوّل المنفى في القرن العشرين «من عقاب حاد، وأحياناً حصري، لأفراد ذوي صفة خاصة إلى عقاب شرس لمجموعات وشعوب بأسرها، كثيراً ما يكون نتيجة غير متعمدة لعوامل غير ذاتية مثل الحرب والمجاعة والمرض»[١٢]. ما كتبه سعيد هو عين الحقيقة، وها هم السوريون يعاقبون اليوم بسبب تجرّؤهم على مستبدّهم، الذي يحتضنه هذا العالم المجحف، وشريعة الغاب التي تحكمه.

لقد أثبتت التجربة العملية أنّ كل ما يُمكن أن يُقدّم للآجئين، على أهميته، لن يفعل سوى التخفيف من شدّة المعاناة التي يقاسونها، بالتالي،

١٠- جريدة الحياة، حوار مع أمني معلوف أجراه عبده وازن، ونُشر على حلقات. والكلام أعلاه من الحلقة الثانية، وهي منشورة بتاريخ ١٢ آذار/ مارس ٢٠٠٦

١١- تحديات تواجه الأسرة (مصدر سابق)

١٢- صور المثقف (مصدر سابق). ص ٥٧



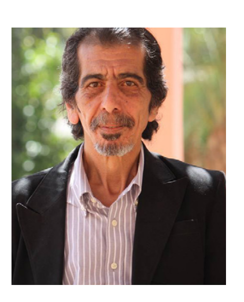
ليس أمامهم سوى أن يأخذوا أمورهم على عواتقهم. لقد بات السوريون جزءاً من سكان البلاد التي لجؤوا إليها، يعيشون ظروفاً قاسية وتعترضهم تحدّيات كبيرة، ما يعني عدم الاكتفاء بالخلاص الفردي. ثمة مصالح مشتركة فيما بينهم يجب تحقيقها والدفاع عنها، وأولى مقتضيات ذلك هي البحث عن سبل لتنظيم أنفسهم عبر جمعيات وروابط واتحادات طوعية ينتظمون فيها، على شكل هيئات مجتمع مدني في أماكن تواجدهم، تعبّر عنهم وتدافع عن مصالحهم.

ليس من المجدي استمراء حالة «الضحيّة»، والتباكي واستجداء العون أو انتظار فرج لن يأتي. لا يبدو أن العودة ستكون قريبة، فالمؤشرات الدالّة على طول أمدً الصراع في سوريا وعدم وجود أي حل يلوح في الأفق يضع حدّاً للكارثة الإنسانية تعزز هذه الفرضية. وبالتالي سيبقى اللاجئون حيث هم لمدة لا يُعرف متى ستنتهي، لذا يفترض أن يكفّوا عن التعامل مع حياتهم في البلد المضيف كحالة عارضة ومؤقتة لمجرّد أن مجيئهم إليه لم يكن خياراً؛ وإنما لأسباب طارئة واضطرارية. البديل هو التفكير بعقلية «المهاجر» المستقرّ لا «اللاجئ» المؤقّت والعابر. وإلى أن تتوقف آلة القتل وتتاح ظروف العودة، لكل حادث حديث.

« رغـم حضـوري، وكل مـا ألاقيــه مـن دفء وحــب واحــترام، أنّ حللـتُ وأقمـت، تفسـد عـليّ كلمـة لاجـئ حيـاتي كلّهـا».

أستاذ الفلسفة (الفلسطينيّ/ السوريّ)
الدكتور أحمد برقاوي

اللجوء والهجرات إلى الأردن عبر ١٥٠ عاما



بقلم : عمر شبانة
كاتب وشاعر من الأردن

طوال مئـات، بـل آلاف السـنوات، شـكّل «الأردن»، ومـا زال يشـكّل، أرض عبـور للكثـير مـن الشـعوب والحضـارات العابـرة للجغرافيـات، وهـذا مـا تشـهد عليـه الآثـار واللقـى الأثريـة الـتي تحمـل هويـة الحضـارة الرومانيـة، مثـلا، حيـث المدرّجـات الرومانيـة منتـشرة في غـير مدينـة مـن المـدن الأردنيـة، أو بصمـة مـن الحضـارة النِّبطيـة، المتمثّلـة أساسـا في مدينـة «البـتراء» المنحوتـة في الصخـور، جنـوبي الأردنّ، وغـير ذلـك مـن الحضـارات والشـعوب.

كان هـذا قبـل آلاف السـنوات، ولكـن حـتى قبـل أن يولـد الكيـان الأردنيّ المعـروف حاليّـا؛ أي حـتى قبـل نشـوء مـا يعـرف بـ»إمـارة شرق الأردنّ» الـتي نشـأت مطلـع العشرينيـات مـن القـرن العشريـن، مع الأمـير (الملك لاحقا) عبد الله بـن الحسـين، وقبـل ما يُعـرف حاليا بـ»المملكة الأردنيّة الهاشـمية»، الـتي نالت الاسـتقلال عـن بريطانيـا (١٩٤٦)، قبـل هذيـن الكيانـين، كان الأردن تابعـا لسـورية الكـبرى، في نطـاق الدولـة العثمانيـة، وضمـن ولاياتهـا في بـلاد الشـام.

وحـين نريـد الحديـث عـن اللجـوء والهجـرات إلى الأردنّ، قبـل نشـوء «الإمـارة» ثـم «المملكـة»، بوصفهمـا كيانـا أردنيـا «خالصـا»، فإننـا نعـني الأراضي الـتي كانـت خاضعـة للدولـة العثمانيـة. وبعيـدا عـن ذلـك التاريـخ، فـإن مـا نقصـده بـأولى الهجـرات (الحديثـة) الـتي بـدأت مـن أواسـط القـرن التاسـع عـشر، هـو هجـرة الشركـس، ثـمّ الأرمـن، مـن ديارهـم، ولجوئهـم إلى بـلاد الشـام، سـورية وفلسـطين ولبنـان والأردن. هجـرات كانـت تتـم بدوافـع الظلـم والاضطهـاد اللذيـن تعرضـت لهـا هـذه الشـعوب، تحـت حكـم روسـيا القيصريـة، بـل عمليـات الإبـادة الجماعيـة الـتي تعرّضـوا لهـا وأدّت إلى تهجيرهـم منـذ العـام ١٨٦٤، وكان لبـلاد الشـام، ومنهـا الأردن، النصيـب الأكـبر مـن المهجّريـن.

كانـت هـذه هـي الهجـرة الكـبرى الأولى، الـتي جـرت قبـل تأسـيس الأردنّ، وفي أثنـاء تأسيسـه، أمـا الهجـرة الكـبرى، فهـي مـا جـرى في العـام ١٩٤٨، عـام

«النكبـة» الفلسـطينية الشـهيرة، حـين قامـت العصابـات الصهيونيـة بتهجـير مئـات الآلاف مـن الفلسـطينيين، وتشـتيتهم في أرجـاء شـتّى، وكان نصيـب الأردن منهـم هـو الأكـبر، فيمـا نالـت سـوريا نصيبـا أقـلّ، وكذلـك كل مـن لبنـان ومصر والعـراق، فضـلا عـن هجـرة تمّـت داخـل الأراضي الفلسـطينية نفسـها، مـا بـين مـدن فلسـطين الـتي بقيـت خـارج دولـة «إسرائيـل»، الـتي جـرى تعريفهـا بأنهـا «الضفّـة الغربيـة»، وبـين غـزة.

وإلى هاتـين الهجرتـين الكبريـين، ومـا شـهده الأردنّ مـن إقامـة هـؤلاء المهاجريـن بصـورة دائمـة، فقـد شـهد عـددا مـن الهجـرات الـتي يمكـن تعريفهـا بأنهـا «مؤقتـة» و»عابـرة»، مـن دول عرفـت حروبـا أو أزمـات داخليـة متباينـة المسـتوى، كمـا هـو الحـال في مـا يخـص الحـرب الأهليـة اللبنانيـة مـا بـين العـام ١٩٧٤ والعـام ١٩٨٩، وكذلـك الحـال في يتعلـق بالحـروب والمعـارك والأزمـات في العـراق، سـواء ممـن «هربـوا» مـن قمـع نظـام نظـام صـدّام حسـين، منـذ سـبعينيّات القـرن العشريـن، أو مـن شرّدتهـم الحـرب العراقيـة- الإيرانيـة، أو الفلسـطينيون الذيـن جـرى تشريدهـم وإبعادهـم مـن الكويـت عـلى إثـر اجتيـاح النظـام العـراقي لهـا العـام ١٩٩٠، فجـاؤوا إلى الأردنّ.

شكّل «الأردن»، وما زال يشكّل، أرض عبور للكثير من الشعوب والحضارات العابرة للجغرافيات

واليـوم، مـع «الثـورات» الـتي عرفـت بـ»الربيـع العـربي»، كان أسـلوب القتـل والدمـار الـذي شـهده السـوريّون، ومـا يـزال، سـببا في دفـع مئـات الآلاف منهـم نحـو الأردن، البلـد الأقـرب إليهـم، والـذي تربطهـم بـه أواصر علاقـات شـديدة التشـابك والتداخـل، حـتى عـلى مسـتوى العائـلات والعشـائر. وفي حـين نجـد أن قلـة مـن هـؤلاء المهجّريـن قسـرا، تحـت طائلـة المـوت، يتخـذون مـن الأردن معـبرا ثـمّ يغـادرون إلى دول أوروبـا والعالـم، تبقـى الغالبيـة في انتظـار العـودة إلى ديارهـا السـورية.

هـذه عناويـن رئيسـة لمـا يمكـن تسـميته «كتـاب» الهجـرة واللجـوء إلى الأردن عـبر مئـة وخمسـين عامـا ونيّـف.

الهجرة الشركسية وآثارها

ابتـداء، وللتعريـف بهويـة الشـعب الشركـسيّ، نكتفـي بقـول المـؤرّخ ابـن خلـدون عـن الشركـس إنهـم «جيـل مـن النـاس يسـكنون جبـال القوقـاز، وهـم أكمـل بـني آدم خلقـة، وأحسـنهم وجوهـا، وأشـجعهم قلبـا، وأشـدّهم للشـدائد مقاومـة، وهـو مـا يؤكـده الجغـرافيّ والمؤرّخ المسـعودي، حيـث يقول: «إن لهـذا الشـعب أخلاقـا حميـدة، ولا يوجـد أي شـعب آخـر مـن الشـعوب الـتي تقطـن في هـذه الأرجـاء أو في الأقاليـم الأخـرى، مَـن عنـده مـن الكمـال الجسـماني والكمـال الأخـلاقي واللـون الصـافي كهـذا الشـعب».

وبخصـوص دوافـع هجرتهـم، فإنـه عـلى إثـر المواجهـات الشرسـة بـين بـلاد الشركـس (القوقـاز) والجيـوش القيصريـة، الـتي بـدأت في العـام ١٧٢٢



وامتدّت حتى العام ١٨٦٤، فقد انتهت المواجهات بعمليات إبادة جماعية للشركس، كما انتهت عمليات الإبادة هذه بتهجيرهم من وطنهم الأمّ. وفي وصف تلك المواجهات، كتب كارل ماركس في جريدة «المجلة الشيوعية» الناطقة باسم الاتحاد الشيوعي «أيها العالم، أيتها البشرية جمعاء، خذوا العبر من بطولات وتضحيات الشراكسة في حربهم ضد قوات القياصرة، إنها بطولات خارقة».

وكانت أعداد كبيرة من هؤلاء المهاجرين قد توجّهت إلى بلاد الشام، أو سورية الكبرى، أو ما كان يعرف بأراضي الدولة العثمانية، ومن بينها الأراضي التي صارت تعرف، في ما بعد، بالدولة الأردنية. فما هو وضع الشركس من هجرتهم إلى هذه البلاد حتى اليوم؟

تذكر المصادر التاريخية المتخصصة بشؤون الشركس في الأردن، ما يؤكد أنهم بعد استقرارهم في «أوطانهم الجديدة»، قد انخرطوا في مختلف «الأجهزة الأمنية»، وأنهم أسهموا على نحو واضح في تأسيس عدد من هذه الأجهزة وقيادتها، وصولا إلى أعلى المراتب العسكرية في الدولة، خصوصا في الأردن وسورية. فالشراكسة، وبحسب المصادر نفسها، جاؤوا إلى الأردن في الوقت الذي لم تكن توجد فيه دولة أردنية، وأنهم سكنوا في الأردن قبل أكثر من ثلاثين عاما من تأسيس إمارة شرق الأردن، بل إنّهم قاموا باستقبال مؤسس إمارة شرق الأردن والمملكة الأردنية الهاشمية (المقصود الأمير/ الملك عبد الله، وهو ابن الحسين الأول قائد ومطلق «الثورة العربية الكبرى»). كما أنهم «قاموا بحماية الدولة الأردنية الناشئة، وبتأسيس عدد من المدن والقرى المحيطة بالعاصمة عمّان.

جاء الشراكسة إلى الأردن في الوقت الذي لم تكن توجد فيه دولة أردنية

جولة حيّة

وتصديقا على هذه، فإن من يعرف العاصمة الأردنية عمّان، ويتجوّل في شوارعها، يجد «آثار» الحضور الشركسيّ مبثوثة في معالم ومظاهر عدة، بدءا بأسماء بعض الشوارع والأحياء، حيث تأخذه الجولة إلى أقدم شوارع العاصمة، في وسط المدينة التي يعود بناؤها إلى عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته، أي مع تأسيس العاصمة خصوصا، وشرق الأردن عموما. ولعلّ من أبرز هذه الشوارع واحد يحمل اسم «الشابسوغ»، وهو اسم «شركسيّ» شهير وعريق. وهذا الشارع يشكل شريانا وصلة وصل بين طرف العاصمة، حيث تقع القصور الملكية، وبين وسط المدينة حيث تجد أقدم فنادقها ومقاهيها ومطاعمها ومكتباتها. وفي شارع الشابسوغ هذا، تعثر على أقدم البيوت المبنيّة من الحجر، وتبدو عليها علامات «القِدم»، وبعضها ما يزال مسكونا إلى اليوم. وفي هذا الصدد، يمكن للمهتمّين ببدايات تأسيس العاصمة عمّان، ومساهمة الشركس في التأسيس، العودة إلى رواية شهيرة باسم «أبناء القلعة» للكاتب الأردني/ الفلسطيني الراحل زياد قاسم.

وكما تركّزت وتميّزت بعض أحياء الشركس في «قلب» العاصمة عمّان،



وخصوصا بالقرب من ينابيع المياه ومصادرها والسيول التي تنشأ عنها، حيث كنت ترى الحقول حتى نهاية عقد الستينيات ومنتصف السبعينيات من القرن العشرين، وهي مظاهر انقرضت بعد ذلك.. فقد نشأت بعد ذلك أحياء وبلدات خارج العاصمة، في مناطق التلال والجبال، كما هو الحال في البلدة التي صارت تعرف لاحقا بمدينة «وادي السير»، المدينة التي خلّدها شاعر الأردنّ مصطفى وهبي التل الشهير باسم (عرار)، في قصائد عدة، منها ما هو غزل صريح بجمال النساء الشركسيّات، كقصيدته الشهيرة «ظبيات وادي السير»، وهو ما يتطلب بحثا آخر.

ومنذ استقرارهم في الأردن، كانت للشركس مشاركاتهم في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الأردنية، فهم يمتلكون حضورا بارزا يُظهر صورا من تداخلهم ومشاركتهم، سواء عبر المصاهرة مع أطياف المجتمع الأردني، خصوصا لجهة تزويج المرأة الشركسية لرجل عربي، بينما من النادر زواج الرجل الشركسيّ من امرأة عربية. كما يمتدّ حضورهم في «الحياة الثقافية» من خلال بروز عدد من الكتّاب، خصوصا في مجال الأدب الروائي، حيث لا ينسى الأردنيّون الحضور المميّز للروائية زهرة عمر (الرّاحلة قبل سنوات)، على سبيل المثال لا الحصر، وحتى الحضور في مشهد الفنّ التشكيلي. كما أن لهم حضورهم في «الحياة الرياضية» من خلال أحد الأندية ذات الأنشطة المتعددة. ونكتفي بهذا القدر من حضور الشركس وإسهاماتهم في الجوانب المختلفة لحياة المجتمع الأردني، رغم أن «التغطية» يمكن أن تمتد فتحتاج إلى مجلّدات، كونهم أصبحوا جزءا أساسيا من نسيج هذا المجتمع وبنيته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية.. إلخ، وإن كانوا ما يزالون يُعتبرون من ضمن الأقليّات.

رغم التداخل بين الشعبين الفلسطيني والأردني، في مناحي الحياة عامة، فإنّ ثمة حضورا مميّزا للفلسطينيّين في الأردن، يتجسّد من خلال مخيّماتهم المنتشرة على الأرض الأردنية

الهجرة الفلسطينية

بالنظر إلى المفهوم الشائع للهجرة، وحتى «التهجير»، فقد شهد الأردن منذ «استقلاله» في العام ١٩٤٦، استقبال موجتين كبيرتين من المهجّرين الفلسطينيين عن ديارهم، تجسّدت الموجة الأولى في «اللاجئين» المشرّدين في عام النكبة ١٩٤٨، فيما تمثّلت الموجة الثانية في تشريد أعداد كبيرة من «النازحين» مع النكسة العربية الشهيرة في حزيران ١٩٦٧. وما بين هاتين الموجتين، وحتى اليوم، تشكّل أراضي الدولة الأردنية مجالا حيويّا لمن يشاء الإقامة فيها من الفلسطينيين، مع استثناءات تتعلق بأبناء غزة، واللاجئين الفلسطينيين في دول الجوار من حملة الوثائق السورية واللبنانية والمصرية.

ولأسباب كثيرة، سياسية واقتصادية واجتماعية، لم يعد ممكنا الفصل بصورة كاملة ونهائية في الأردن بين من هو أردني ومن هو فلسطيني، إذ تداخلت العلاقات بين «الشعبين» وتشابكت حدّ الاختلاط والتمازج



و«الوحدة» في «شعب واحد»، بلا تراجع تقريبا، حتّى أن الفلسطينيّ هنا لم يعد «لاجئا» إلا لجهة ارتباطه بجذوره، وبوطن سليب ينبغي أن يظل مرتبطا به حتى «العودة إليه»، أي بما لا يمنع الأردني من أصول فلسطينية من «الحلم» بالعودة إلى «أرض الآباء والأجداد»، هذا الحلم المستند، إلى أمور سياسية وعاطفية كثيرة، بينها قرارات دولية تؤكد «حقّ العودة».

لن أخوض هنا في تفاصيل «التهجير»، وصور وأعداد وعذابات اللاجئين والنازحين أي من الموجتين، فهذه التفاصيل مكانها كتب التاريخ، وهي لا تحصى، وسأكتفي بإطلالة سريعة ومختصرة على أبرز معالم التداخل الفلسطيني/ الأردني، في مستويات الحياة كافة، للتأكيد على أننا أمام مجتمع يقوم على الاندماج الكامل بين الركيزتين، الأردنية الفلسطينية، المتشابكتين في بنية واحدة، رغم بعض مظاهر الشد والجذب و«التشنّجات» التي قد تحدث بين فينة وأخرى، بتأثيرات مختلفة.

رغم التداخل بين الشعبين، في مناحي الحياة عامة، وفي مدن وقرى المملكة كافة، فإنّ ثمة حضورا مميّزا للفلسطينيّين في الأردن، يتجسّد من خلال مخيّماتهم المنتشرة على الأرض الأردنية، ولعلّ أكبرها وأشدّها حضورا «مخيّم البقعة» (حوالي ٢٠ كلم إلى الشمال من العاصمة عمّان). ففي هذا المخيم خصوصا، وفي المخيّمات عموما، يمكن للمتابع أن يلحظ وجود مؤسسات وجمعيات وأندية ذات طابع ثقافيّ اجتماعي ورياضيّ، فضلا عن وجود الفرق الفنية للغناء والدبكة الفولكلوريّين. وفي حين يتبع بعض هذه المؤسسات لهيئة الأمم المتحدة وشؤون اللاجئين، فإن مؤسسات أخرى تخضع لقوانين وأنظمة الوزارات الأردنية التي تنظم شؤونها.

لاجئون سوريّون

وبالانتقال إلى ما تشهده حال السوريّين اليوم، وقريبا منها حال العراقيّين، منذ سنوات، يمكن رسم ملامح مشهد شديد المأسويّة، مشهد من اللاجئين الفارّين من الموت بوسائل وأساليب غير مسبوقة في التاريخ، وما يعنينا من هذا المشهد هو مآلاته، وحال اللاجئين فيه، ومصائرهم التي يلاقونها في بلد اللجوء. وقبل الدخول في تفاصيل هذا المشهد، و«دهاليز» مخيمات اللجوء وأمكنة وبيوت اللاجئين، نقوم بجولة «انطباعية» سريعة في الحالة السورية، نطلّ من خلالها على «عناوين» رئيسة وخلاصات أساسية.

العنوان الأول، العامّ، الذي يحتل الواجهة الرئيسة، هو مشهد اللجوء التراجيدي العظيم، لشعب هارب من هول موت تحْدثه «براميل» تُلقى من طائرات النظام الحاكم، نظام «الأسد» ومن حوله ممن يتحكّمون بمقدّرات بلد عريق، شديد العمق في التاريخ والحضارة. عشرات الآلاف يتدفّقون عبر الحدود الأردنية، ثم مئات الآلاف، حتى تجاوزت الأرقام المليون ونصف المليون لاجئ. الكثيرون احتوتهم المخيمات المقامة على عجل، في بقاع جرى اختيارها بعيدا عن المدن والأماكن المأهولة، غالبيتها وأكبرها، مخيّمٍ الزعتري، في الصحراء الجرداء القاسية صيفا شتاء. القلّة القليلة التي تملك شيئا من المال، انتشرت في المدن، تستأجر المساكن

البسيطة والمتواضعة، وتمارس حياة شديدة البؤس، تعمل في أعمال غالبيتها «سوداء» من تلك التي يستنكف المواطن الأردني عن القيام بها. النساء موزّعات بين العمل في البيوت، وبين التعرّض لمؤامرات «مافيات» محلية وعربية لبيعهنّ في سوق النخاسة، بل «الدعارة» المقنّعة وغير المقنّعة.

في الحياة الثقافيّة

هذا هو المشهد العام لصورة اللجوء إلى الأردنّ. وعندما ندخل إلى واحد من تفاصيل هذا المشهد، ما يتعلّق بالجانب الثقافيّ منه، أعني ظاهرة اللجوء الثقافي، وما ينطوي عليه هذا الجانب من تفاصيل ومفارقات، تظهر من خلالها واحدة من سمات الحياة الثقافية في الأردن، وهي سمة تحيل إلى سؤال حول قدرة «الساحة» الثقافية الأردنية على «استضافة» كتّاب ومثقفين، عرب أو أجانب، واستيعابهم والإفادة من طاقتهم الإبداعية، في ما يُغني المشهد الثقافي المحلي، فإلى أي حدّ استطاعت هذه الساحة النجاح في الاستضافة والاستيعاب والهضم والإفادة، كما هو حال بعض الساحات الثقافية العربية والعالمية القادرة على القيام بذلك؟

شهدت الساحة الثقافية الأردنية، طوال سنوات العقود الأربعة التي سبقت الثورات العربية، حضورا لافتا لمبدعين عراقيين في شتى الحقول

نتوقف هنا، لنلقي إضاءات على «تجارب» لجوء المثقفين والكتاب العرب إلى الأردن، من خلال التجربة في حالة المبدعين العراقيين، أولا، وهي تجربة تعود إلى سبعينيات القرن العشرين، وتمتد حتى اليوم، إذ شهدت الساحة الثقافية الأردنية، وما تزال تشهد، مرور العشرات، بل المئات من المبدعين العراقيين، غالبيتهم كانوا من «العابرين»، أو المقيمين لفترات قصيرة متفاوتة، ولم يبقَ منهم اليوم سوى قلّة قليلة.

شهدت الساحة الثقافية الأردنية، طوال سنوات العقود الأربعة التي سبقت الثورات العربية، حضورا لافتا لمبدعين عراقيين في شتى الحقول، ويستطيع المتابع لهذه الظاهرة تعداد مئات الأسماء، من ذوي التجارب الإبداعية، الشهيرة والمغمورة، المقيمة والعابرة، شعراء وروائيين وفنانين، يغلب على هذا الحضور تجارب الفنّ التشكيلي العراقي من خلال أبرز رموزه، وكذلك بعض التجارب المسرحية عبر كتاب ومخرجين وممثلين معروفين.

أذكر أننا، في الساحة الثقافية الأردنية، ومنذ الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين، وحتى اليوم، رأينا كيف نقل العراقيون تقاليدهم الثقافية إلى العاصمة الأردنية عمان، وأدى تزايد أعداد العراقيين في الأردن، إلى افتتاح مطاعم عراقية مختلفة لا تقدم إلا المأكولات العراقية المشهورة، ومن بينها السمك المشوي على الطريقة البغدادية (المسقوف). وتختلف مستويات هذه المطاعم، وبعد أن كان هناك مطعم شعبي واحد وسط عمان الشرقية قرب الساحة الهاشمية، يقدم الأكلات العراقية الشعبية،



افتتح مطعم «سومر» للأكلات العراقية، وهو أول مطعم يتم افتتاحه في عمان الغربية (دوار الواحة)، وتلته مطاعم أخرى، أبرزها «خان كباب»، و«ضفاف الرافدين»، ومطعم «القرة غولي». وهذه من مظاهر اندماج العراقيين في المجتمع الأردني، وتعرّف الأردنيين إلى «ثقافة الطعام الشعبي العراقية».

وعلى مستوى الثقافة في الأدب والفنّ، التقينا وما نزال نلتقي أعدادا من المبدعين العراقيّين الفارّين من «جحيم» السلطة العراقية، ومن حروب صدّام على كلّ أطياف المعارضة، من شيوعيّين ويساريّين عموما، وحتّى بعثيّين وآخرين من المستقلّين، ثم الهاربين من جحيم الاجتياح الأمريكي للعراق بعد ذلك. ولكنّ المفارقة الغريبة في هذا الحضور، أنه كان قليل «الفاعلية» والتأثير على الحياة الثقافية الأردنية.

لقد شهدنا على مدى سنوات، إقامة عدد من كبار الفنانين التشكيليّين، مثلا، أصحاب التجارب الرائدة في التشكيل العراقيّ خصوصا، والعربي عموما، أمثال شاكر حسن آل سعيد، ورافع الناصري، ونوري الراوي، وغيرهم من الفنانين من أجيال عدة. وربّما كان هؤلاء الرواد هم الأكثر تأثيرا في الفن التشكيلي الأردني، الذي شهد تطوّرا ملموسا بسبب التأثر بهؤلاء الفنانين الكبار ومدارسهم الفنية. وفضلا عن الحضور والإقامة، شهدت الغاليريهات الفنية في الأردن حركة نشطة لافتة خلال الفترة التي يجري الحديث عنها، وباتت اللوحة العراقية تشهد ترحيبا كبيرا من أصحاب المعارض، ومن المقتنين، مؤسسات وأفرادا. وإلى ذلك، فقد أقيمت صالات عرض عراقية معروفة ومتخصصة بعرض الأعمال التشكيلية العراقية، والعربية أحيانا، ربما كان من أبرزها غاليري الأورفلّي في العاصمة عمّان.

أما في الشعر، فأذكر أن عشرات من الشعراء مرّوا «من هنا»، البعض أقام لسنوات، كما هو حال الشاعر الرائد عبد الوهاب البياتي والشاعر سعدي يوسف، ثم حسب الشيخ جعفر، وشعراء من أجيال لاحقة منهم من مضى على إقامته «هنا» سنوات، وارتبط بعمل ومصاهرة، مع أنهم قلة، وثمة من عاش فترة وهاجر، ومن بينهم الشاعر الصعلوك الراحل جان دمّو، وغيره كثر. كما شهدنا ونشهد حضورا لافتا لعدد من المبدعين روائيا، ومنهم الراحل عبد الستار ناصر، والروائي والقاص المقيم حتى اليوم علي السوداني.. إلخ. لكن الطابع العامّ لحضور «الأدباء» العراقيين عموما، هو لقاءاتهم «العراقية» في المقاهي، وبعض الحانات والمطاعم، ضمن مواعيد كانت معروفة للجميع، وقد يحضرها مثقفون وكتاب أردنيون بالطبع، لكن الغالب عليها أنها لقاءات وتجمّعات «عراقية»، كما كان الحال في «مجلس» البياتي، في أحد مطاعم شارع «الجاردنز» الشهير في عمّان.

كما لا ننسى تجارب المسرحيّين الذين عاشوا «هنا»، ودخلوا الحياة المسرحية المحلية بمشاركات قوية وفاعلة، وربما كان الحضور الأبرز للمخرج جواد الأسدي، فقد كانت له إسهاماته الفاعلة في المشهد المسرحي المحلي، من خلال عدد من الأعمال المسرحية المتميزة.



سوريّون مقيمون وعابرون

يختلف المشهد السوري عن العراق، إلى حدّ ما، اختلافا لجهة أعداد المبدعين السوريين اللاجئين إلى الأردن، ومدّة إقامتهم، وحجم التفاعل الذي باشروه. يتعلّق الأمر هنا بصور من حضور «الثقافة السورية اللاجئة»، ممثّلة في لجوء أعداد من المبدعين السوريين، شعراء وروائيين وفنانين تشكيليين وسينمائيين ومسرحيين.. إلخ، إلى بقاع الأرض، ومنها الأرض الأردنية، فما هو حال هؤلاء المبدعين وإبداعاتهم، وحجم حضورهم في الفضاءات التي استقبلتهم عموما، وفي الساحة الثقافية الأردنية على وجه الخصوص؟

منذ بدايات «الثورة» السورية، أخذت طلائع من المثقفين والمبدعين السوريين تجتاز الحدود الأردنية، فاستقر عدد منهم في العاصمة عمّان، فيما «تشرّد» آخرون في مدن وقرى أردنية شتّى. وكانت بدايات اللاجئين يغلب عليها، بعد الكثافة الكبيرة لعامّة المواطنين، كثافة نسبية للحضور الإعلاميّ بين المثقفين، حيث بدأ اهتمام قوى المعارضة «اللاجئة» بالجانب الإعلامي، من خلال كتّاب الصحافة، ومراسلي الفضائيات العربية، فضلا عن إنشاء وإدارة فضائيات وإذاعات، أقامت لها مكاتب واستوديوهات في عمّان، وعمل فيها كتّاب وإعلاميون معروفون، منهم شعراء ومسرحيّون حتّى.

> منذ بدايات «الثورة» السورية، أخذت طلائع من المثقفين والمبدعين السوريين تجتاز الحدود الأردنية، فاستقر عدد منهم في العاصمة عمّان، فيما «تشرّد» آخرون في مدن وقرى أردنية شتّى

وإلى هذا الحضور الإعلامي، فالمشهد ظلّ «عامرا» بحضور متعدد الأشكال والصور للمبدعين من الشعراء والروائيين، لكنه حضور اقتصر على لقاءات خاصة و«شخصية»، في الغالب، مع أصدقاء من الكتاب الأردنيين، من جهة، وعابرين تركوا آثارا إنسانية أكثر مما تركوا إسهامات إبداعية، من جهة ثانية. ومن بين هؤلاء لا بد أن أذكر الكاتب القاصّ إبراهيم صموئيل صاحب التجربة القصصية المميزة في مجموعة من الأعمال، وهو الذي ما يزال مقيما منذ السنة الثانية للثورة واللجوء حتى كتابة هذه الكلمات. ومن العابرين كان الشاعر علي سفر صاحب التجربة التلفزيونية، والفنّان النحّات جمال الجرّاح، وغيرهم. وربّما كانت الأكثر حضورا الفنانة التشكيلية ريم يسّوف (١٩٧٩)، التي شاركت بنشاط في الساحة التشكيلية، من خلال مساهماتها مع غاليري «دار الأندى»، ومن خلال معرضها «حوار» الذي شاهدتُه شخصيّا، وكتبتُ عنه في حينه كيف أنها «رسمت فيه أحلام أطفال سورية بغدٍ جميل خالٍ من الرصاص القاتل، ومملوء بالطائرات الورقية المرفرفة في فضاء وطنٍ حنون للجميع، وطن خالٍ من الاستبداد. وأنجزت، في الوقت نفسه، دفتراً فنياً، بعنوان «رسالة من طفل إلى طفل»، معبرة فيه عن الحلم بمستقبل جميل للأطفال الذين يتعرضون لانتهاكات صارخة».

ومـن العابريـن «الزائريـن»، عـليّ أن أذكـر الحضـور المميّز للـروائي صاحـب التجربـة الروائيـة والفكريـة الأبـرز في سـورية، خـيري الذهـبي، المقيـم في دبي، خصوصـا مـن خـلال زياراتـه المتكـرّرة إلى عمّـان، حيـث يقيـم نجلـه الإعلاميّ فـارس الذهـبي مسـؤول محطـة «أورينـت» الفضائيـة المعارضـة. وفي زيارتـه الأخيرة إلى عمّـان، وفي مناسبة صـدور كتابـه «محـاضرات في البحث عـن الروايـة» (دار الـشروق، عمّـان)، أقيـم لـه حفـل توقيـع (شـهر آب/ أغسـطس) كان غالبيـة الحاضريـن فيـه مـن السـوريين المقيمـين في عمّـان.. تحـدّث فيـه عـن الأوضـاع الـتي أوصلـت سـورية إلى مـا وصلـت إليـه.

المراجع:

١. مجلة «حوكمة» الإلكترونية، قسم التحقيقات، goo.gl/rURSB٦

٢. صحف أردنية، جريدة «الغد»، ١٥ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٥،

٣. goo.gl/٤apo٢v

٤. الهيئة الوطنية لإغاثة اللاجئين السوريين في الأردن

٥. ويكيبيديا، شركس الأردن، goo.gl/oBuo٩e

٦. تاريخ الشراكسة في الأردن، كتاب إلكتروني، تأليف وليد هاكوز:

٧. goo.gl/uDnXsd، و goo.gl/FceVOt

٨. العراقيـون في الأردن: ١١ عامًـا مـن اللجـوء المتجـدد، مجلـة «حـبر»، goo.gl/n٢xMh١

السوريّ اللّاجئُ طائرُ الفنيق



بقلم: فرات إسبر
شاعرة سورية مقيمة بنيوزيلاندا

إنَّ المتتبع لحركات اللجوء في العالم العربي، منذ نكبة فلسطين عام ١٩٤٨، إلى نكبة سورية في بداية عام ٢٠١١، يلاحظ أن مجريات الأحداث وحركتها انقلبت رأسا على عقب، حيث تحول المواطن السوري إلى لاجئ حرب، في الوقت الذي كانت فيه سورية على مدى قرون، تفتحُ حدودها لجميع العرب اللاجئين إليها بدون قيود أو شروط، بدليل وجود أعدادٍ هائلةٍ كانت قبل الحرب من العراقيين والفلسطينيين واللبنانيين، إلى الكثير من العرب الذين لجأوا إلى سورية لاعتبارات سياسية وإنسانية.

الحرب السورية أثرت على مصير السوريين، الذين اضطروا إلى مغادرة بيوتهم ومناطقهم إلى أماكن وبلدان أخرى، سواء أكانت لجوءاً إلى مناطق آمنة داخل الحدود الجغرافية السورية، أم خارج الحدود السورية، وخاصة بالنسبة إلى مناطق النزاع التي كانت أشد خطورة من باقي المناطق السورية الأخرى، حيث الحدود المجاورة لدول صديقة زادت من ألم ومعاناة السوريين في مأساتهم الحقيقية، إذ لم يشهد العالم إلى اليوم فجيعة أكبر من هذه الفجيعة بالنسبة إلى قوانين الدول وأعرافها في رفض دخول السوريّ وعدم قبوله لاجئا، حيث كانت سورية بيتاً مفتوحاً لكل عربي قدم إليها لاجئاً أو مهاجراً.

في عام ٢٠١٤ كنتُ في زيارة للمغرب، لاحظت نزوح الكثير من اللاجئين السوريين إليها. وأثناء تجوالي حدثني صديق لي عن عائلة سورية مقيمة بالقرب منهم، وأخبرتهُ بأنني أرغب بزيارة العائلة والتعرف عليها، لكن مع الأسف الشديد تم رفض قبول زيارتي كوني من المناطق السورية التي لا نزاع فيها ولا لجوء منها، لكنني كنت من المناطق التي لجأت إليها العائلات السورية التي أصبحت جارة وأخت وصديقة لكل بيت سوري في تلك المناطق الآمنة.

في رحلة الشك واليقين ما بين بلادٍ وبلاد تزدادُ قناعاتي بجذوري الأولى. شيخٌ مغربيٌ جليلٌ يسألني: من أين أنت يا ابنتي، هل أنت لبنانية؟ تسبقني دمعتي في الإجابة وأشهقُ: أنا من سورية! ليرد بحسرة: الله... الله على سورية، وما آلت إليه الأمور فيها وسقطت دمعة على خده أعادتني إلى أحلامنا التي لم ولن تتحقق في أن تكون عربياً في كل البلدان العربية، ولترى أخوة الروح في كل مكان.



بدأ الشيخ يحدثني عن سورية وأيامها العظيمة عن الوحدة العربية ما بين مصر وسورية، حيث كانت هدفاً وحلماً لجميع الأقطار لإزالة الحدود فيما بينها وبناء كيان اقتصادي سليمٍ وقويٍ يجمع ما بين هذه الدول.

أعادني هذا إلى حلم القوميين العرب بجمع جميع الأطياف بدون استثناء تحت رايتها في دول تتجاور وتتآخى في مآسيها ومستقبلها، لا حدود لها. يعيش فيها الإنسان بكامل حريته، ويتنقل كيفما شاء بعيداً عن التعقيدات التي تعيق التواصل بين حدود الوطن العربي الذي تجمعه الحضارة والثقافة واللغة والتاريخ.

السوري الغريب على أرض عربية

قبل عام ٢٠١١، كانت سورية بيتاً للعرب، فتحت أبوابها للفلسطينيين الذين قدموا إليها بعد النزوح الكبير عام ١٩٤٨. بقيت أبواب دمشق وسورية مفتوحة ً أمام أعداد لا تحصى منهم، وأصبحوا نسيجاً من المجتمع السوري يمارسون أعمالهم التجارية والاقتصادية.

أثرت الحرب السورية على مصير السوريين، الذين اضطروا إلى مغادرة بيوتهم ومناطقهم إلى أماكن وبلدان أخرى

يعد الفلسطينيون في سوريا من حيث التصنيف القانوني غير سوريين، على الرغم من أن القانون السوري ينص على منحهم الجنسية، إلاّ أن الموقف السياسي المرتبط بالحفاظ على الهوية الوطنية للفلسطينيين والبعد القومي للقضية، وخاصةً باعتبار القضية الفلسطينية، القضية الأولى في الخطاب السوري، حال دون منحهم الجنسية السورية.

مخيم فلسطين واليرموك يشكلان عصب التجارة وقوتها بالنسبة إليهم، ولكن البعض يرثي لحالهم بعد ٢٠١١، لقد ساهموا بكثير من الخراب الذي حل بسورية، مما اضطرهم إلى فقدان أموالهم وأملاكهم بسبب تراخيهم وفتح الأبواب لدخول المسلحين للاقتتال.

سورية البلد الوحيد من بين جميع الدول العربية التي يملك فيها اللاجئ الفلسطيني حقوقاً لا يملكها أي لاجئ في بلد عربي آخر.

ها هو السوري اليوم مشرد في أصقاع الأرض لا يجدُ مكانا يأويه، حيث غَدرهُ من غدره، وأودى به وبسورية إلى هذا المصير، بتآمر دولٍ مجاورة لتقديم السلاح والمال لضرب الدولة السورية تحت مزاعم «الربيع العربي» الذي قادنا إلى هذا الجحيم العربي.

مصيرٌ آخر..

ما بين عام ١٩٨٣ وعام ٢٠٠٦، فترات الحرب على لبنان، كنتُ وما زلت أذكر كيف كنا طلاب جامعة دمشق؛ نخرج في مظاهرات استنكارية

والمطالبة بشجب الغزو الإسرائيلي، نرفع الرايات والأعلام ونهتف بسقوط إسرائيل، إلى عام ٢٠٠٦، حيث تم الإعلان بجميع وسائل الإعلام عن فتح البيوت السورية لجميع الإخوة اللبنانيين الذين تركوا مناطقهم إبان الاجتياح الإسرائيلي، ليدخل إلى سورية الآلاف منهم، الذين لم يدخلوا تحت خيمة ولا مخيمات كما نرى اليوم، الآلاف من السوريين في العراء تحت البرد والمطر والعواصف والجوع، ومن فُتحت له الحدود في أشد أزماته أغلق حدوده في وجه السوري الذي بات يشكل عبئاً ثقيلاً على المجتمع الدولي.

اللبناني والعراقي والفلسطيني، وجدوا الحدود والأرض مفتوحة لهم، في الوظائف والأعمال والبيوت، لا يحتاجون إلى تصاريح المغادرة والخروج كما في قلب المدن الراقية، كالأردن، والخليج وغيرها من باقي الدول العربية، لكن ما ذا جنت سورية من هذ العطاء؟ هل رَدُّ الجميل بالنسبة إلى السوريين يكون بنكران حقهم حتى في الخيام التي تضربها الرياح والأعاصير والثلوج، مخيم الزعتري مثالاً؟

ما أوسع الألم السوري.. مواليدٌ جددٌ سيكون تاريخ ميلادهم ومكانه مختلفاً، فكم من رهبة وموت أن يكون السوري من مواليد مخيم الزعتري، أو يكون من مواليد دمشق وحمص وحلب وتدمر؟ مدن سورية العظيمة التي مر عليها الطغاة، ولكنها عادت من جديد. مرت الهمجية من أبواب دمشق السبعة، ولكنها عادت كما كانت تحكي قصص التاريخ والسّير، وكما حدّثَ الواقدي في كتابه فتوح الشام: «بأن قلب السوري مع السوري من كل الأديان والطوائف تجتمع لنصرة بلدهم» بينما اليوم يتم تفرقتهم على أساس المذاهب والطوائف!

> مرت الهمجية من أبواب دمشق السبعة، ولكنها عادت كما كانت تحكي قصص التاريخ والسّير

السوري الشريد في الأرض

نتائج هذه الحرب قذرة بكل أبعادها الطائفية الشرسة التي تفتك بنا، والتي دفعنا ثمنها باهظاً وغالياً. خسرنا العلماء والأدباء والشعراء، خسرنا الأرض والتاريخ وحتى الإنسان الذي ظهرت روحه الطائفية. قوافل من الجهل والتعصب تدخل إلى البيوت السورية لتمزقها على سنن رسول الله، من كان اسمه علياً فليذبح، ومن كان اسمه عمرا فعليه الجهاد. هكذا فعلت هذه الهمجية بنا بينما تؤكد كتب التاريخ ومراجعه وما يذكره الواقدي في فتوحات الشام من حمص إلى حلب إلى دمشق كيف كانت الكنائس والأديرة ملاذا وبابا مفتوحا يُلجأ إليها السوري والاحتماء بها بدلاً من الضياع في الأصقاع.

في الأرض الأخرى

اللبناني الذي فُتحت له أبواب سورية بدون قيد الإقامة، بقانونه يمنع على السوري دخول الأراضي اللبنانية، وبإنسانيته يعامل السوري

بأسوأ أساليب التعامل وأكثرها وحشية من إهانة وتعذيب وقتل وكل ذلك - مؤكد بوثائق مصادقة من منظمات حقوق الإنسان -. أي عابر في هذا العالم يمكنه الدخول باستثناء السوري، ولكأن الجنسية السورية صارت مرضا معديا!

خلال هذا العام ٢٠١٦، في أحد الأسواق في دولة عربية، كنت ألاحظُ فتاةً «محجبة» تلاحقني بنظراتها، كنت أحيانا أنظر إليها، وأحيانا أتجاهل الموضوع. قلت في نفسي: ربما رأت بي ما يذكرها بأحد من معارفها أو أصدقائها، لكنها استمرت في متابعتي والنظر إلي. تقدمت وقالت بصوت خفيض: هل أنت سوريّة؟ ورأيت نفسي أحضنها كابنة لي، واسترسلنا معاً في نوبة بكاء توقفنا منها بصعوبة. حدثتني عن الحرب في حمص والجامعة وكلية الهندسة والأهل والجيران والجامع والكنسية وسوق حمص العتيق وحلاوة الجبن وأصدقاء المدرسة.

أكدت لي، لا شيء يقهر قلبها سوى الجامعة وسورية، هي تريد أن تعود، لأنها تشعر بأنها في سجن كبير وتشعر بالقهر والإهانة من خلال المعاملات القانونية المعقدة بالنسبة إلى إقامة السوري خارج بلده، ومع ذلك تشكر حظها في إيجاد ساعات عمل تعيلها مع أهلها في غربتها ومكان لجوئها.

إن من ساهم في خراب سورية وضياع السوري، هم الجيران بأموالهم وأسلحتهم، وفقد السوري ملاذه الآمن، مكاناً وروحاً.

أيُّ جيلٍ قادم سوف يولد ويعود إلى سورية؟ وأي خراب يمكن ترميمه إذا ماتت الروح السورية؟

صورةُ الذات المُهجّرة

في إحدى الحدائق العامة، كان بالقرب مني عائلة عرفتها من سماتها ولهجتها السورية، لأرى طفلاً في حوالي السابعة من عمره، يشد أمه من يديها ويقول لها: «ماما ماما هي عم تحكي سوري».

لفت انتباهي الطفل الصغير بكل حبه وجماله، وكانت كلمة سوريّة تكفي لأن تجعلني في أعلى شجرة من شجرات اليأس التي لا يعرفها إلا من غادر وطنه في ظروف الحرب، ليأتي هذا الطفل السوري العابق بالحياة وكأنه يحمل في قلبه كل سورية وأهلها؛ تقدمت إليهم وسلمت على الوالدة وصافحته، وتحدثنا عن بلادنا ومصيرها وكل منا تطفر دمعته رغم هذا البعد، ليقتحم والد الطفل هذا الشعور الإنساني العظيم، بسؤاله:

من أين أنت، من سورية؟

هذا السؤال الذي كثيراً ما يشعرني بالخوف وخاصة بعد عام ٢٠١١ وقيام الحرب الملعونة والمؤامرة الملعونة على سورية، لأسبقه أنا في السؤال: حضرتك من أية مدينة؟ لكنه ألحّ على أن يعلم من أي المدن



السورية أنا. أخبرته، فرد بجفاء، طبعاً أنتم ليس عندكم حرب، نحن من حلب التي تشتعل.

شعرت بهذا الرد الذي لم يكن مريحا ـ ليخاطبني بعصبية: نحن مع النظام، نحن لسنا ضد النظام. قلت له يا عم: لا أحد مع النظام.

نحن مع سورية الواحدة بكل ما فيها من شجر وبشر. انسحب بسرعة غريبة مع عائلته، لتبقى نظرات الطفل تلاحقني وصوت الأم التي تقول: آسفة!

الحرب تركت آثارها المرعبة على الإنسان السوري. أنا أومن تماما أنه لن يكون شعوري وخوفي كخوف السوري الذي قتل أولاده وتهدمت بيوته، وكان على الحدود التي تقصف من كل الجهات، ولكن هناك ما هو أخطر من القتل والهدم، ألا وهو قتل الروح الإنسانية وتصعيد الطائفية البغيضة التي صارت تُحدد بها المدن السورية. أيُّ جيلٍ قادم سوف يولدُ ويعود إلى سورية؟ وأي خراب يمكن ترميمه إذا ماتت الروح السورية؟

إن للحروب كوارثها الفظيعة على جميع الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لكن الأخطر فيها هذا الانقسام الطائفي الرهيب الذي رسخه الإعلام العربي وساهم فيه إذاعيا وإعلاميا. باستطاعة السوري أن يعيد بناء المدن والجسور والعمران والجامعات والمؤسسات والمشافي، بعد الحرب، ولكن من يعيد روح الإنسان السوري بعيدا عن التعصب والطائفية التي ظهرت في هذه الحرب؟

> باستطاعة السوري أن يعيد بناء المدن والجسور والعمران والجامعات والمؤسسات والمشافي، بعد الحرب، ولكن من يعيد روح الإنسان السوري بعيدا عن التعصب والطائفية التي ظهرت في هذه الحرب؟

لا بد من دراسة سيكولوجية اللاجئ ومدى تأثير الإعلام السلبي عليه، بتأجيج الطائفية التي هي أشد خطورةً من الحرب ذاتها. إنّها هجمة الوحش المفترسة، حاصرت سورية، وهجرت الملايين من أبناء سورية ولكن اللاجئ السوري فنانٌ ومبدعٌ على أي أرض يلجأ إليها.

الفن السوري الخالد حضارة وعمراناً وأدبا وشعراً ما زال يضيئ، رغم الحربة والموت والدمار!

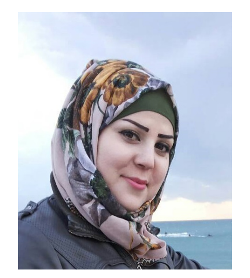
السوريّ المبدع في المخيمات

شهد مخيم الزعتري أعمالا إبداعية فاقت الخيال، حيث قام مجموعة من الفنانين السورين برسم لوحات بألوان مضيئة ومشرقة على جدران المخيم الآيلة للسقوط، والتي لم تكن تقيهم برد الشتاء وحر الصيف، حيث أعلنت منظمة الأمم المتحدة بأنه أسوأ مكان عرف للجوء في العالم من الناحية الصحية والإنسانية، حيث طالب عدد كبير من الحقوقيين

بإغـلاق المخيـم لعـدم ملاءمتـه مـن جميـع النواحـي البشريـة والتعليميـة، لكـن السـوري هـو طائـر الفنيـق الـذي سـينهض مـن تحـت الرمـاد ليعيـد إحيـاء روحـه بالعلـم والثقافـة والإشـعاع. ومـا السـباحة السـوريّة «يـسرى مارديـني» الـتي دخلـت الأولمبيـاد، والـتي قطعـت البحـر سـباحةً لتنقـذ مـن كان معهـا في قـارب المـوت، ولتشـارك تحـت اسـم سـورية بمشـاركتها في مجـال السـباحة إلا نموذجـاً عـلى عظمـة السـوري الـذي ولـدت عـلى أرضـه كل النبـوءات.

المجـد لـك أيهـا السـوريّ اللاجـئ، سـتعود كمـا طائـر الفنيـق، لتحيـا بعـزة وكرامـة في أرضـك العظيمـة، يبـدو أنـه لـك نفـس الأقـدار، فبعـد المـوت والتـشرد لا بـدّ مـن حيـاة وانبعـاث.

اللجوء من فلسطين إليها... عذابٌ على مقربة من ذات الأرض



بقلم: ثورة حوامدة
كاتبة فلسطينية

من الطبيعي أن يتساءل الفلسطينيون كلما تقدم بهم الوقت، عن انحسار الحلم، وضيق الأوطان، وتبدل الأفكار، وتراجع الإيمان المطلق باقتراب موعد التحرير، وهم على الحال نفسه، في مستوى ينحدر للأسفل على جميع المقاييس الاقتصادية والسياسية والنفسية.ليس من سبيل الصدفة أن يولد الفلسطيني في دروب الشتات، وأن يكون متحاملا منذ لحظات حياته الأولى على الخنوع العربي والدولي في ما يخص قضيته المعلقة بلا رد واستجابة، مكرها بقناعة تامة على البقاء أكثر في تلك البقع الجغرافية المفتقرة لأسباب الحياة، ومما يلزم للقليل من الحياة، إلا فقط بما يزيد من إصراره على البقاء لتحقيق هدفه الذي يعيش على أمله، وهو «العودة»، ولا حلول بديلة منذ العام الذي تشردت فيه ملايين العائلات الفلسطينية ١٩٤٨، وتسطرت على بطاقات تعريفهم الشخصية كلمة «لاجئ» سواء خارج فلسطين أو داخلها، مع التأكيد على أن الواقع صعب في تشريح صيرورته إذا اجتمعت عدة خيارات جميعها سيئة بلا استثناء، ليس صعبا انتقاء أحدها بالقدر الذي كان فيه التفكير في الاختيار أو المفاضلة ذلا وقهرا.

لذلك، وبما أن الموت على هذه الأرض هو أكثر شجاعة من المغادرة، استشهد الشبان في أزقة المدن الفلسطينية إبان سقوط الأرض وإقامة المغتصب لدولته، ممن حملوا السلاح في وجه المحتل، وأفنوا شبابهم في البحث عن حدود لفلسطين لا تحتمل غريبا قادما لسفك الدماء، والكثير منهم انضم لمجموعات منظمة خارج فلسطين، كان هدفهم المشاركة في الجيوش العربية القادمة للتحرير، لكن النكسة أيضا أفنت واقعا كان بإمكانه أن يكون، وتلاشت خطط عربية وفلسطينية داخلية، فانهزمت البندقية، وتم تقويض الفكرة الداعية إلى «فلسطين حرة» ومضافا لها في النهاية «عربية» ذليلة.

نزحت عائلات فلسطينية لأسباب إجرامية ارتكبت في حقهم من قرى فلسطين المهجرة أو ما يسمى الآن بأراضي الـ «٤٨»، وهي مجموع تلك

الأراضي الـتي تقـع الآن تحـت السـيطرة الإسرائيليـة، إلى(خـارج فلسـطين) تاركـين كل شيء خلفهـم مـن بيـوت وأراضٍ وممتلـكات، متيقنـين بعـودة سريعـة لحفـظ الأرواح والأنفـس، وهؤلاءهـم الذيـن يمنـع الآن عودتهـم، ولا قـدرة للمجتمـع الـدولي عـلى إيجـاد حـل يليـق بصبرهـم الطويل.وتحت بنـد (اللجـوء الداخلي)، والـذي لـم يكـن الرحيـل فيـه بعيـدا عـن الأرض ذاتهـا، أو استنشـاق هـواء ليـس متخمـا برائحـة المهـد واللحـد، تفرقـت جماعـات فلسـطينية في مناطـق داخـل فلسـطين، مرغمـة بقسـوة عـلى الرحيـل والبحـث عـن ملجـأ في الكهـوف أو في «الخِـرَبِ» أو في العـراء، أو في أماكـن ليسـت صالحـة للعيـش الآدمـي، حاولـوا بشـتى الوسـائل المتاحـة أن لا يغـادروا، فاحتملـوا، وقاسـوا الأَمَرَّيْـنِ، تكدسـوا في أماكنهـم تحـت إطـار «مخيـم» بحـدود معينـة في محافظـات الضفـة الغربيـة وقطـاع غـزة، وأوراق تخصهـم وحدهـم تسـمى «كـرت الوكالـة»، ليكـون مخصـص لمـن يحمـل هـذه البطاقـة معونـات ماليـة وغذائيـة دوريـة، تسـاعدهم عـلى التكّيـف واحتمـال الواقـع بغيـة إيجـاد حـل قريـب، طـال فيـه الأمـد لأكـثر مـن سـتين عامـا دون معرفـة لأجـل هـذا القريـب.

نِسَب تقريبية لأعداد اللاجئين الفلسطينيين

في اليـوم العالمـي للاجئـين (٢٠١٦/٦/٢٠)، وبحسـب إحصائيـة نشرهـا الجهـاز المركـزي للإحصـاء الفلسـطيني عـلى مواقـع إعلاميـة فلسـطينية، بلـغ عـدد اللاجئـين الفلسـطينيين المسـجلين لـدى وكالـة الغـوث وتشـغيل اللاجئـين بتاريـخ الأول مـن ينايـر/ كانـون الثـاني عـام ٢٠١٥ نحـو ٥٫٦ مليـون لاجـئ، هـو الحـد الأدنى لعـدد اللاجئـين الفلسـطينيين الحاليـين، قـد شـكل اللاجئـون المقيمـون في الضفـة الغربيـة والمسـجلون لـدى وكالـة الغـوث بدايـة العـام ٢٠١٥ مـا نسـبته ١٦٫٩٪ مـن إجمـالي اللاجئـين المسـجلين لـدى وكالـة الغـوث، مقابـل ٢٤٫١٪ في قطـاع غـزة.أمـا عـلى مسـتوى الـدول العربيـة، فقـد بلغـت نسـبة اللاجئـين الفلسـطينيين المسـجلين لـدى وكالـة الغـوث في الأردن ٣٩٫٦٪ مـن إجمـالي اللاجئـين الفلسـطينيين، في حـين بلغـت النسـبة في لبنـان ٨٫٨٪، وفي سـوريا ١٠٫٦٪.

> ليس من سبيل الصدفة أن يولد الفلسطيني في دروب الشتات، وأن يكون متحاملا منذ لحظات حياته الأولى على الخنوع العربي والدولي فيما يخص قضيته المعلقة

تشـير بيانـات عـام ٢٠١٥ إلى أن نسـبة السـكان اللاجئـين في دولـة فلسـطين بلغـت ٤١٫٦٪ مـن مجمـل السـكان الفلسـطينيين المقيمـين في دولـة فلسـطين، وأن ٢٦٫٣٪ مـن السـكان في الضفـة الغربيـة هـم لاجئـون؛ في حـين بلغـت نسـبة اللاجئـين في قطـاع غـزة ٦٧٫٧٪.

التزاحم الجغرافي في مخيمات اللاجئين

أقيمـت المخيمـات الفلسـطينية عـلى مسـاحة جغرافيـة ضيقـة لا تكفـي لنصـف عـدد السـكان الفعـلي، بيـوت مكدسـة مـن الإسـمنت، ونوافـذ متلاصقـة يـكاد الجـار يتلصـص بـلا قصـد عـلى مـا يجـري في مـنزل جيرانـه لانعـدام

مسافة تفي بالخصوصية الذاتية، وشوارع ضيقة يصعب السير بها أو دخول سيارة إسعاف إذا ما اقتضت الحاجة. النقاط السالفة الذكر لا تساوي خطر العشوائية في البناء لتزايد معدلات المواليد على نفس المساحة الفعلية منذ نكبة عام ١٩٤٨، فالطوابق المرتفعة يكون بناؤها بلا ترخيص وبلا مهندسين متخصصين لقياس مدى احتمالية وقدرة المبنى على استيعاب شقق أخرى فوقه، لتوافي احتياجات المقبلين على الزواج والعدد الكبير من الأبناء في العائلة، ومما لا يؤخذ بعين الاعتبار في وقت النظر إلى حلول المشكلة دون النظر إلى نتائجها انزلاقات الشتاء، وانهيارات المباني التي لا يكون بناؤها على أسس صحيحة وسليمة، فأرواحٌ تزهق لانعدام أسس السلامة العامة في مخيمات الضفة وقطاع غزة، باعتبارها بؤر اكتظاظ سكانية.

العجز الواضح في البنى التحتية يظهر مُلابسات الحوادث المتكررة في الشتاء من الفيضانات الصغيرة والأمراض المزمنة والصدرية لانعدام شبكة صرف صحي، الماء المتجمع والمختلط بالمياه العادمة، يعطي صورة مكتملة الملامح عن انعدام الدور الفاعل للمؤسسات الدولية التي تقدم الرعاية للمخيم منذ لحظات تأسيسه الأولى، والتي من واجبها ابتكار حلول جذرية لفائض السكان والتشوه الواضح في شكل المعمار لتنظيمه على الأقل، وتحسين شكله الخارجي من خلال إيجاد مساكن بديلة.

> أقيمت المخيمات الفلسطينية على مساحة جغرافية ضيقة لا تكفي لنصف عدد السكان الفعلي، بيوت مكدسة من الإسمنت، ونوافذ متلاصقة يكاد الجار يتلصص بلا قصد على ما يجري في منزل جيرانه

مقرات وكالة الغوث-الأونروا الدائمة ومكاتبها وموظفيها في المخيمتفتقد القدرة الفعلية على التحرك، بالتزامن مع تضييقات احتلالية تساعد الوضع الداخلي على النزول إلى الحضيض أكثر، فاستمرار الاستيلاء على مساحات الأراضي الفلسطينية من قبل الاحتلال، وتقلص مساحة الأراضي الفلسطينية المجاورة للمخيم بسبب الزحف العمراني، وتقطيع أوصال المدن والقرى من خلال الاغلاقات والحواجز والسواتر ونقاط التفتيشالعسكرية، يُفقد المشاريع الدولية مصداقية التطبيق الفعلي، وافتقاد الشفافية في المعطيات الموضوعية على الأرض.

مآلات الوضع النفسي للاجئين مخيم «الفوار» أنموذجا

اللحظات التي تبعت صراخ وعويل المشردين والمُهجرين عن مدنهم الأصلية في يافا وحيفا والكرمل والجليل، وهي مدن من آيات الجمال الفلسطيني، إلى بنايات مكدسة مثل «التّونة» في مخيم الفوار الذي تأسس عام١٩٥٠ جنوب مدينة الخليل في الضفة الغربية. على مضض تعايش اللاجئ الفلسطيني فيه تحت وطأة انعدام الحلول، وتأقلم على تلك الحدود الضيقة في السكن والعمل والعيش، ولا يكفيه نكبة ونكسة متتالية، لتستمر بشكل يومي المضايقات الإسرائيلية من اعتقال واستهداف شبان على حاجز المخيم القريب من عين الفوار التي سُمّي المخيم على اسمها.

تخبطات فكرية نتجت عن الأساليب المستخدمة في المضايقات، والتي تستفز بشكل مباشر اللاجئين الذين ينغرس فيهم بعد نصف قرن من اللجوء يقين وطني بوجوب وضرورة العودة، واحتمال المُر لنيل الأقل مرارة ولو بعد حين. والذي يدفع اللاجئ إلى التذمر افتقاد التوافق النفسي بينه وبين المكان الذي يعيش فيه، والتحول الملموس في القضية التي ما زال بإمكانه التفريط بأي شيء سواها، وتبدلها على المستوى الداخلي من قضية سياسية لا تموت لشعب وأفراد تم تهجيرهم والاستيلاء على أرضهم من غريب قاتل، إلى قضية إنسانية السقف الأعلى لها المقاومة في سبيل توفير الحياة الكريمة ولقمة العيش، والماء والكهرباء، وفرص التعليم والعمل، والعلاج.

ويعتبر الترفيه ووسائله التي انعدمت، نقطة جوهرية في بداية يوم كل طفل يخرج من البيت إلى المدرسة التي لا ترفيه فيها، والذي يقابله في طريق الذهاب والإياب برجٌ اسرائيلي للمراقبة، يزيد من شعوره بالإحباط واليأس الطفولي من أن يأتي يوم لا حواجز به، أو دخان قنابل غازية تطلق على الأطفال الذي يرشقون سيارات الاحتلال بالحجارة. تبلغ مساحة المخيم «٢٨٥» دونما حسب احصائية الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني الأخيرة، تفتقد إلى المنتزهات والملاعب ووسائل الترفيه المختلفة. ومن الملاحظتكرار المُخيمات التربوية الصيفية والشتوية للأطفال مؤخرا في مدارس المخيم التابعة للأونروا، للتخفيف من الكبت النفسي الذي يزرع في أدمغتهم لتشربهم الواقع الفلسطيني منذ نعومة أظفارهم.

> أثَّرَ اللجوء والشتات في شكله الظاهر والباطن على الوضع الاجتماعي للأسرة الفلسطينية المُهاجرة

اللجوء مُبرر اجتماعيا

أثَّرَ اللجوء والشتات في شكله الظاهر والباطن على الوضع الاجتماعي للأسرة الفلسطينية المُهاجرة، ثمة مفارقات اتضحت مع انقضاء السنوات في مخيماتاللاجئين خارج فلسطين وفي داخلها، تركت ضمنيا انطباعاتمن فقدان التواصل العائلي وضعفه في الأجيال اللاحقة، لتباعد الأُسَر عن بعضها البعض في بقع جغرافية بعيدة ومجزأة استنادا إلى البُعد المكاني.وانعدام فرص الزواج من الأقارب خاصة الدرجة الأولى، وتبعات معينة أوضحتها الدراسات الميدانيةوالأبحاث السوسيولوجية المقارنة.

والعمل الذي خُص فيه أبناء المخيمات (عمال تنظيف، البناء، العِتالة)، بعيدا عن أي مناصب إدارية أو قانونية في الوزارات والمراكز المهمة في الدول/الدولة، ولهذا ارتداد مجتمعي يُظهر تزايد نسبة العنوسة في ظل انعدام فرص العمل التي تفي باحتياجات الأسرة، وعزوف الشباب عن الزواج في ظل غلاء المهور. هذا الأمر يقاس على وضع العمل عند المرأة اللاجئة الذي يمكن اعتباره متدنيا في أعمال بيتية أو سوقيةتساعد في انهيار التشابك الاجتماعي في ظل الفقر والعوز والحاجة.والأمر الأقسى هوزواج بنات المخيمات «كزوجة ثانية أو ثالثة» من رجالات القرى والمدن الذين تقدم بهم السن، ليهربن من فخ العنوسة، فيواجهن متاعب تودي



بهن في مراحل متقدمة من العمر للعودة إلى المخيم، إما أرامل أو مطلقات أو هاربات من جور وبطش أتعبهن أكثر من أي لجوء. وهناك أبناء الذين يهربون من فخ الدونية واستغلالهم جسديا في أعمال قاسية، إلى الدول العربية والغربية بحثا عن فرصة عمل مواتية ولائقة تكفل لهم الزواج من هناك واستقرارا بلا عودة.

حالة وحياة على دكة اللجوء

ما يُظهره الواقع من مفارقات معيشية صعبة على النساء الثكالي اللواتي فقدن أزواجهن أو أبناءهن ولا يحتكمن على دخل شهري بسيط، ولا معيل لهن إلا يدهن التي تُمد إلى المارة في شوارع المدن الكبيرة. متسولات من مخيمات العروب والفوار في الخليل، يوميا يستيقظن بحثا عن متصدق سخي يوفر عليها جهدا بدنيا ونفسيا وروحيا أمام نظرات أولئك الذين يركبون أفخم أنواع السيارات، ويسكنون القصور والعمارات لا الغرف الرديئة المفتقدة للتهوية.

(ف.ن) اللاجئة في مخيم العروب، تزوجت برجل عاجز من قرية بجانب المخيم، لتخدمه وليوفر لها طعامها وشرابها ومأواها، ولأنها لا تحتكم على المال من أحد، تخرج في أوقات ليست منتظمة، وإلى أماكن غير مكررة لتتسول الشواكل لشراء ما ينقصها.

> أتاحت اتفاقية أوسلو، الموقعة عام ١٩٩٣، للإسرائيليين التحرك في الضفة الغربية دون التعرض لهم أو اعتقالهم، وأعطتهم الحق بالتواجد والسير دون قيد أو شرط

الاتجار بالمخدرات قُنبلة المُخيم المُفخخة

الحديث عن الأبعاد المجتمعية لتعاطي المواد المخدرة في المخيمات الفلسطينية هو السر ورأس الخيط للوصول إلى سبب تردي الوضع الداخلي. في المرّات التي وقف فيها الكُتّاب وأصحاب الشأن وجها لوجه أمام هذه المعضلةزجت الأسئلة في وجههِم، منهاأسباب الحديث عن هذا الأمر في مثل هذا التوقيت، وهل الهدف المخفي إضعاف المخيم نفسيا وإتباع ضعفه المزيد من الانهيارات التي تنتهي به إلى تشويه سمعة الشعب الفلسطيني في ظل تكالب دولي على قضيته؟أم في الخفاء غاية لا يدركها من يقع تحت طائلة الإدمان المخطط له؟

أن تُشَل إرادة الإنسان ويُغيَب عقله لتعاطيه مادة مخدرة، متبوعا بسياسة ممنهجة ومحبوكة لكي يصل أعتى درجات الإدمان تدريجيا، فلهذا تفسيرٌ وحيدٌ لمن هم في مخيمات اللجوء الفلسطينية، في سوريا ولبنان والضفة الغربية، أن الاحتلال لا يعمد إلى ذلك إلا لدفع التماسك الداخلي إلى الانقسام أكثر، والتفكك والشرذمة، وأن لا يعود الاهتمام إلى مآلات الوضع العام في المخيم ومشاكله وما يحدث من حلول وتداعيات، بل يصبح الشبان منهكين فكريا وجسديا ونفسيا ومتحكم بهم من خلال مروجيها. ولأن الإدمان لا يقف على حدود المدمنين، سُجلت في أحد مخيمات



رام الله «الأمعري» تزايدا ملحوظا لمعدلات المدمنين من فئة الشباب، وأعداد متزايدة للمتوفيننتيجة تعاطيهم جرعات إضافية، وجرائم وسرقات وانتهاكات الخارجين عن القانون، وإطلاق نارمن أسلحة غير مرخصة.

ولأن الشباب عماد الدولة والأساس القوي والمدعم للبناء والإعمار والإصلاح، وفي ظل انتشار آفة الترويج في المخيمات وغياب الدور الفاعل من المسؤولين، والتغاضي عن التّجار والباعة المتخفين في زي عامل نظافة أو بائع سجائر متجول أو بائع جرائد متنقل، والإهمال الفعلي في علاج المروجين للفكاك من المعضلة بالشكل الصحيح والصحي، أفسح ما سبق المجال إلى تراجع الدور الفاعل للشباب في المواقع الإدارية والحكومية في المؤسسات السياسية، والولوج من خلال هذا الأمر إلى تكريس وتغييب التجارب الشبابية الجديرة بالثقة والمكانة وتحويلهم من فاعلين إلى منقادين لمن هم أكبر سنا وخبرة وفسادا أحيانا.

المستوطنات الإسرائيلية بؤر سرطانية

إلى جانب الدور السياسي الاحتلالي، وفي التقرير الذي نُشر في صحف ووسائل إعلام إسرائيلية عن استمرار بقاء المستوطنات في الضفة، وتحولها إلى بؤر تجنيد للشباب المُدمن المتحكم به عقليا من خلال المواد المخدرة، والدور المنوط بها من توزيع وتوريد المواد المخدرة إلى المخيمات والمدن في الضفة الغربية، ثمة أسباب لذلك ترتبط بالوضع السياسي. جاء ذلك بعد إهمال الأدوار الجنائية أمام الدور الأمني الشرطي للشرطة الاسرائيلية داخل المستوطنات، باعتباره الأهم، فمن المستحيل أن يقوم أحد داخل المستوطنة بالتبليغ عن مستوطن يقوم ببيع وترويج المخدرات، لإيمانهم بفكرة الهدم الداخلي للبيئة الاجتماعية الفلسطينية، والمصوبة وجهة إفقار العقل الفلسطيني وإفراغ محتواه الوطني وتوجيهه صوب الجحيم لتحقيق حلم الدولة اليهودية الصهيونية.والفئة المستهدفة من تُجار المستوطنات، هُم العُمال الفلسطينيون الذين يعملون في المستوطنة أو مناطق متاخمة لها، أو في أماكن يُديرها مستوطنون.

والطامة الكبرى أن اتفاقية أوسلو الموقعة عام ١٩٩٣، والتي أتاحت للإسرائيليين التحرك في الضفة الغربية دون التعرض لهم أو اعتقالهم، وأعطتهم الحق بالتواجد والسير دون قيد أو شرط، بحماية ضمنية وتوفير البيئة الخصبة لهم. وحسب مصادر إعلامية يتمتع المستوطنون في الضفة الغربية بالأمان أكثر من الفلسطينيين أنفسهم، ويستفيدون بشكل مباشر من مناطق التماس الواقعة بالقرب من الطرق الالتفافية في العيزرية وعناتا وحزما للتبضع والشراء والترويج ضمنيا للآفة الفتّاكة.



عمران أنا... فلتغرقوا في صمتي الأبدي



بقلم: د. جمال الشوفي
كاتب سوري



شاهدت إيلان يغفو على شاطئ مدينة ما، وأنا أسأل أمي كل يوم: لماذا لم نذهب معهم يا أمي، كنا لعبنا معاً على الشاطئ ومن ثم غفونا سوية؟ تنهمر الدمعة من عينيها، تضمني، وتقول: بعيد الشر عنك...

اليوم، جنحت الأسئلة وشُدِهت عين أمي، فلا أنا تكلمت ولا هي بكت! لا أعلم لماذا تنتشر صورتي في مجلات العالم وجرائدها ونشراتها الإخبارية! هل بت قائد أمةٍ أم بطل حربٍ؟لا أدرك المعنى أبداً، لكن إيلان قد يرى صورتي، فيعود لنلعب سوية. سأقول له لا تخف من هذا اللون الأحمر اللزج الذي يسيل على وجهي، فأنا أغسل وجهي جيداً، أنظف أسناني حتى تلمع، لكن لم أكن أظن يوماً أنها ستكون يوماً هدف طيار أعمى وقذائفه.يا إيلان، سرحت شعري ورتبته، لحظة هممت للخروج لضوء الشمس ورشاقةُ الصبح تغري قدمي، ناوياً الخروج للعبٍ في الحديقة، أطبقت العتمة علي من كل جهة، وملأ أنفي زكام غبار كثيف وسيل من ركام جبل!

من أنتم؟ أنا لا أعرفكم، أما أنا، فأنا عمران وعمري خمسة أعوام، ولازلت حياً، بعد أن غادرني إيلان قبل عامٍ مضى، لكنني توقفت عن ترديد كلماتكم، وتحشرجت الحروف في حنجرتي، واليوم هجرت لغتكم أبداً، «فلكم لغتكم ولي لغتي». قلقكم واستنكاركم مجرد حروف أستهجنها، فأبدا لم تستطع إيقاف الصواريخ من الانهمار علي حينا، ولا البراميل من اجتياح حديقتنا! حديقة الحي التي كلما تعاونت ورفاقي على تنظيفها، انهالت عليها قنابل وبراميل. ونعيد الكرة، نعاود اللعب فيها وتعلو أصوات ضحكاتنا على صوت الضجيج وهدير الطائرات، فلماذا لا تسمعونها؟لاتظنوا أنا نجري خوفاً من الطائرات، فقد اعتدنا منها أن تملأ سماءنا بدل الطيور والعصافير!فقط، نحن نجري كل منا اتجاه أمه يخبرها أنه حيٌ ولم تطله قذيفة أو برميل، ولم يغف بعد كما إيلان! وعدتك ألا تبكي يا أمي، لا أحب أن تذرفي المزيد من الدموع، فابتسامتك فيض حنان، وبريق عينيك يغريني كي أكبر وأغدو أجمل، فأصبح قادراً على التغلب على جوعنا وبأسنا اليومي المطبق علينا مذ ولدت. يا أمي هكذا أردت أن أحميك من وجعك ومن خوفك المستدام، لكن....

أنـا عمـران ابـن حلـب، حلـب الـتي تتكلمـون عنهـا في الصحـف ونـشرات الأخبـار واجتماعـات الـدول وغـرف العمليـات، حلـب الـتي لـم تبـق يـد آثمـة في الكـون ومـن كل أصنـاف شـذاذ الآفـاق، إلا وامتـدت إليهـا لتقتلنـا!! وطالمـا سـألت أمـي وهـي لا تجيـب: لمـاذا لا يحبوننـا يـا أمـي؟ مـا الجريمـة الـتي ارتكبتهـا ليأمـروا بقتـلي؟ أنـا أحـب العصافـير وكل أنـواع الطيـور، أنـا أحـب الأزهـار والفراشـات وأهتـم بهـا وأعتـني بـكلاب الحـارة وقططهـا، أرتـب سريـري كل صبـاح، وأغسـل يـدي قبـل كل طعـام وأنظـف أسـناني قبـل النـوم، أنـا لـم أسرق يـا أمـي ولـم أكـذب يومـاً... ألـم يعلمونـا في المدرسـة أن الأطفـال كـنز الحيـاة وزينتها؟وأننـا حـاضر سـوريا ومسـتقبلها؛ فلمـاذا يسـموننا إرهابيـين؟!!

قبـل أعـوام نجـوت وأصحـابي مـن السـم الأصفـر الـذي انهمـر علينـا، هـل تذكريـن؟ هـل تتذكـرون؟ يومهـا ظننـت أن المطـر بـات أصفـراً بلـون أوراق القمـح في موسـم الحصـاد، فالقمـح في هـذا الموعـد مـن العـام يكـون قـد تـم جنيـه وبـات مخزنـاً في المنـازل لشـتاء قـارص، يبعـث البهجـة في نفـس أبي وأمـي، ولربمـا ابتسـامتهما الصفراويـة كانـت تعكـس لـون القمـح أيضـاً!! أنـا لا أعلـم لمـاذا يقولـون عـن ابتسـامة عـدم الرضـا هـذه بالصفراويـة؟ ألأنهـا تشبه السـم الأصفـر؟ ولمـاذا يبتسـم أبي بذلـك اللـون رغـم تأمـين الموسـم؟ أتـراه يقـول في نفسـه: أمنّـا الخبـز لكـن كيـف سـنؤمن المـاء؟ وكيـف سـنتقي مطـر المدافـع ووابـل الطائرات؟ولازلـت أتسـاءل، هـل الأصفـر هـو نهايـة حيـاة كانـت خـضراء مزدانـة بالفـرح؟

> أنا عمران وعمري خمسة أعوام، ولازلت حياً، بعد أن غادرني إيلان قبل عامٍ مضى

أتعلمـون أن صمتكـم قتلـني مـرات ومـرات، فرغـم أني شـعرت بالاختنـاق لكـن أقوالكـم المزينـة بمشـاعر هلاميـة خنقتـني أكـثر، أنـا لا أكـذب ولـم أكـذب يومـاً، وأنتـم كل يـوم تكذبـون عـلى أطفالكـم وعالمكـم حـين تصفوننـا نحـن الأطفـال، بالإرهابيـين وتبيحـون قتلنـا اليومـي!!

سـأصمت عـن قـولٍ، فصمـتي ليـس عجـزاً، ولا فـراغ نظـرتي، لـن أجيـب عـن أسـئلتكم، ولـن أقـول لكـم مـن هـو قاتـلي، فمحاكمكـم وقضاؤكـم يعرفونـه أكـثر مـني، بـل تتسـترون عليـه عنـوةً ولغايـة في نفـس يعقوب.وأنـا مازلـت بريئـاً مـن ذنـب كـبراءة الذئـب مـن دم يوسف.سـأترك قلقكـم يأخذكـم إلى مـا لانهايـة، وسـأترك لكـم فتـح معاهـد جديـدة في التحليـل النفـسي وعلـوم السياسـة والقانـون الـدولي لتجيبـوا عـن أسـئلة العلـم الحديـث: لمـاذا عمـران لا يتكلـم؟ لـم هـو مصـدوم؟ مـا المعـنى النفـسي لنظراتـه الشـاردة تلـك؟ هـل يفهـم مـا يجـري حولـه؟ هـل خرقـت الطائـرة الـتي قصفـت بيتـه الهدنـة؟ وهـل انتهكـت قواعـد الاشـتباك المعلنـة بـين أمريـكا وروسـيا؟ هـل كان يحمـل سـلاحاً لإسـقاط الطائـرات وخـرق باسـتخدامه القانـون الـدولي؟ سـأترك لكـم أسـئلتكم بـلا إجابـة فهـي أسـئلة صعبـة عـلي، لكـني سأسـألكم علكـم تجيبونـني:

- هـل تذكـرون حمزة؟مـن ثقـب جسـده بمثقـب الكهربـاء وأعـاده لأهلـه جثـة هامـدة؟



- هـل تتذكـرون هاجـر وأحمـد وغيـاث وسـلمى وآلاف الأطفـال مثـلي؟ لماذاقتلـوا فـرادى وجماعـات؟

- أيـن إيـلان، ولمـاذا غفا طويـلاً عـلى شـاطئ مـا؟ هـل تعلمـون أنّا كنـا نلعـب سـوية كل صباح، وكنـا نحلـم أن نكبر معـاً وأن نبـني معـاً، سـأصارحكم بأنـه هـرب مـن المـوت هنـا، فمـات هنـاك، وأنـا بقيـت ولازلـت أنتظـر موتـاً مـا، فهـل مـن سـبيل لديكـم خـلاف ذلـك يـا سـادة؟

- هـل أنـا مـن أسـعى لانقـراض الطائـر أبـو منجـل في باديـة الشـام؟ وهـل حياتـه أهـم مـني ومـن رفـاقي، لتدفـع لـه الأمـم المتحـدة في برنامجهـا العالمـي لإنقـاذ الطيـور المنقرضـة وتوافـق عـلى انقراضنـا كل يـوم؟

- لمـاذا يجتمـع العالـم عـلى قتـلي؟ ألـم يخـبر أطفـال روسـيا بوتـين وجنرالاتـه، يومـاً، أن أطفـال سـتالينغراد كانـوا مثـلي ذات يـوم، ذات حصـار ومـوت؟

- مـاذا تراهـا سـتفعل مراكـز بحثكـم العلميـة والسياسـية والاقتصاديـة وعلـوم التقنيـة الحديثـة في تفسـير مسـار الـدم الحـار عـلى وجنـتي؟ ولمـاذا بقيـت حيـاً ولـم أمـت؟ بينمـا مـات أخـي ولـم أسـتطع بـكاءه؟

- لمـاذا تعتقـدون أن أطفالكـم فقـط هـم الأطفال، وأني ابـن سـبعين عامـاً مثلاً؟!

ربما كان ذنبي الوحيد أني ولدت سورياً، ولدت حيث تصنع آلة القتل والتدمير مواكب المهجرين إلى كل شتات الأرض

أنـا ابـن المئـة عـامٍ وعـام يـا سـادة، أنـا مـن تيبسـت روحـه وجفلـت الكلمـات منـه، أنـا وجـع الصمـت المـر وأنـين المـوت في الشرايـين، أنـا ضحيـة إجرامكـم الطويـل وحبكـم في مشـاهدة أفـلام الرعـب القاتـل ولعـق الدمـاء، أنـا لا أسـتطيع لعنكـم فلـم أتعلـم ثقافـة اللعـن والكراهيـة، ولا يمكنـني أن أتمـنى المـوت لقاتـلي فأنـا ابـن الحضـارة الـتي تريـدون إزالتهـا مـن الوجـود، أنـا طفولـة سـوريا الـتي تتمنـون صمتهـا عـن جريمـة العصـر. ربمـا إنسـانيتكم المفرطـة تمنعكـم مـن متابعـة مشـاهد بؤسـنا اليومـي وموتنـا اليومـي وجريمـة أسـيادكم اليوميـة فينـا!سـأتابع صمـتي، فـإن عذبكـم وأقلـق نومكـم وحـارت بـه منظماتكـم ومجتمعاتكـم الحقوقيـة والإنسـانية فلـم يكـن أبـداً ذنـبي، فأنـا لـم أنـو يومـاً أذيـة حـتى نملـة. هـو ذنـب اللغـة وعجزهـا، ذنـب الصمـم الأبكـم وعجـز نطقكـم أيضـا! ولربمـا كان ذنـبي الوحيـد أني ولـدت سـورياً، ولـدت حيـث تصنـع آلـة القتـل والتدمـير مواكـب المهجريـن إلى كل شـتات الأرض وطريـق الراحلـين في رحلـة جنائزيـة طويلـة، والباقـون منـا يعزفـون لعنـة الصمـت المـر.

صمـتي ليـس موقفـاً وفقـط، ولـن أخطـب «خطبـة الهنـدي الأحمـر الأخـيرة» ولـن أسـأل عـن المتبقـي فينـا، صمـتي تحفـة أثريـة لتحتفظـوا بهـا في متاحفكـم التاريخيـة، في اللوفـر، في السـاحات الحمـراء، بجـوار تمثـال الحريـة، في متاحـف نصركـم في حروبكـم الوطنيـة! حـتى إذا مـر الزائـرون يومـاً ولفـت انتباههـم تمثـالي، وقـرؤوا مـا كتـب عـلى لوحـتي بلـون برونـزي مخضـب:

«هـذا مصـير أطفـال سـورية، وثمـن صرخـات الحريـة».... غرقـوا، كمـا غرقتـم مثـلي في صمـت الأبـدي...





عيسى جابلي

الفكر المسيحي الكاثوليكي المعاصر والآخر

HOLY BIBLE

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث



أثر الأزمة السورية في الأدب..

الرواية بين التخييل والتوثيق

بقلم : أنجيل الشاعر

شاعرة وكاتبة سورية

الوعي الجمالي لا ينفصل بأي شكل من الأشكال عن الموضوع (الواقع)، مهما كان ذاتوياً؛ فالواقع هو الرحم البدئي لأية حساسية ستولد في ذات المبدع، هذه الذات سواء أوغلت في الواقع أو انفصلت عنه في يوتوبيا ما، سيبقى الواقع معطىً أساسياً لشروط تحققها. ولا شك أن الوعي الفكري والجمالي المتبديان في الأدب، يختلفان من كاتب إلى آخر. ذلك أن هناك جملة من المؤثرات تساهم في بناء هذا الوعي وفي منحه شكلاً تعبيرياً. ولعلنا نجد ذلك ماثلاً في تغيرات «لعبة» الواقع في سوريا في ظل الاحتراب الدائرة رحاه بين أطراف النزاع المختلفة منذ خمس سنوات، فهذا الواقع قد أرخى بظلاله العميقة، بل فاق المخيال الأدبي، وترددت هذه الظلال في كافة الأجناس الأدبية؛ الرواية والشعر والقصة.

ولعلنا نتلمس ذلك بما طرأ على الفضاء الأدبي في واقع الحرب بقسوتها وآلامها، والتي شكلت مصدراً للإلهام والإبداع المنحاز إلى الإنسان والإنسانية بشكل خاص، وقد لا أجازف إذا أخذتني المغامرة إلى تسمية الأدب في هذه الفترة بـ «الأدب الإنساني»، بدلاً من أدب الأزمات أو الحروب، فهذا الأدب الجديد يعرض أدق تفاصيل أبطال حقيقيين عاشوا في زمان ومكان الحرب، وكانوا ضحايا مباشرين للنزاعات السياسية والدينية والإثنية والعرقية والاجتماعية، مثلما كنّا قرأنا في رواية تولستوي» الحرب والسلام»، إبان الاجتياح الفرنسي لروسيا، وكيف ألحقت هذه الحربُ التغيراتِ بالطبقة الأرستقراطية في كل من فرنسا وروسيا، أو رواية إرنست همنغواي «وداعاً أيها السلاح»، التي تحمل رغم واقعيتها مضامين إنسانية بعيدة الغور.

أما فضاء الحلم السوري، فقد ضاع ها هنا بين اللحى الطويلة وبراميل النظام، وهذا الضياع ما يزال أكثر توهجاً ممّا كتب أو قيل، فبعد أن وسّع الإنسان السوري أحلامه وأمنياته لعناق حريته، قامت حرب عبثية بحصاره داخل لا جدوى فارغة فرشت طريق الألم والخوف والقهر تحت أقدام السوريين جميعاً. فمات من مات ونزح من نزح وهاجر من هاجر، كلّ ذلك ساهم في تبديد أواصر الحياة العامّة، الاجتماعية والثقافية والسياسية، مما جعل الأدب يقف حائراً بين التوثيق والتخييل، وجعل الفكر ينغلق، أو يراوح بين تحليل ضبابي وتوقع مشوب بالرجاء لمستقبل مازال في طي المجهول في أحسن الأحوال.

> الأدب الجديد يعرض أدق تفاصيل أبطال حقيقيين عاشوا في زمان ومكان الحرب، وكانوا ضحايا مباشرين للنزاعات السياسية والدينية والإثنية والعرقية والاجتماعية

برز التعبير الأدبي أثناء الأزمة السورية من أبوابٍ واسعةٍ، وما هذا إلاّ رائزٌ لشغف الكاتب بوعي جماليٍ مصادَر منذ عدة عقود، حيث كان الأدب في حقبة زمنية محدودة، مشبعاً بإيديولوجيات الفكر الاشتراكي أو الفكر القومي، أو أدب يمجد السلاطين ومآثرهم، أما الأدب الحرّ ذو الطبيعة النقدية، والذي يقوم جوهره على جدل الوعي والواقع، كان يولد ويعيش في الظل، مما حدا بالكاتب إلى البحث عن ذاته خارج حدود الوطن «الماغوط، وهاني الراهب» وغيرهم. ومما لا شك فيه أن الأزمة السورية اتسعت لتطال الأدب بكافة أجناسه، فتجلت فيه الصراعات السياسية والدينية والجغرافية، وطرح مفاهيم جديدة حررت الأدب من الأيديولوجيا ودفعته نحو النور بعد عتمة سنوات طويلة، ليقف وجهاً لوجه أمام هويته الجديدة ووجوده الإنساني.

وكون الرواية أحد أهم أنساق الخطاب الاجتماعي العام والخاص، وهي التشخيص لمتخيّله، والتأويل لمفاهيمه ومصطلحاته، ولأن الرواية شاملة وقائمة على اللا تحديد، فإن نصها ملتبس ومتعدد الدلالات، لكنها تعرفت على طريق تشكلها الأول خارج طوطم المسكوت عنه وقيود الرقابة. لهذا أثارت الرواية السورية الراهنة لدى المتلقي، الناقد الأدبي بوجه خاص، عدة إشكاليات، ولكل منها إيجابياتها وسلبياتها، وتتمحور بشكل رئيس في ثلاث إشكاليات: إشكالية سرد السياق التاريخي، وإشكالية المتلقي، ثم إشكالية الكاتب، وهذا ما سنقوم باستقصائه.

الإشكالية السردية

يقول رولان بارت في كتابه «مدخل إلى التحليل البنيوي»: «.. ويمكن للقصة أن تعتمد على المفصلية،



تصارعت في الرواية السورية، في ظل الشروط الراهنة والأزمة اليومية المعيشة، إرادة الحرية والاستقلال مع أنظمة تشبه الاستعمار، ومع التبعية السياسية والدينية والتطرف والإرهاب

شفوية أو مكتوبة، ويمكنها كذلك أن تعتمد على الصورة، ثابتة أو متحركة، كما يمكنها أن تعتمد على الحركة، وعلى الاختلاط المنظّم لكل هذه المواد. وأنها لحاضرة في الأسطورة والخرافة وحكايا الحيوان، والحكاية والقصة القصيرة والتراجيديا والكوميديا والمسرح الإيمائي والصورة الملونة.. وإن القصة حاضرة بكل هذه الأشياء غير المتناهية تقريباً في كل الأزمنة وكل الأمكنة وفي كل المجتمعات، وأنها لتبدأ مع التاريخ الإنساني نفسه»١. فالرواية أو القصة تعتمد اعتماداً كلياً على السرد (الحكي)، والذي هو صلة الوصل بين الكاتب والمتلقي، وهو أشمل وأوسع من أن يخضع للغة محددة، كاللغة المكتوبة مثلاً، هذا ما كنا نراه في الرواية السورية قبل الأزمة، كرواية «سليم بركات فقهاء الظلام» في جمالية الشعرية الروائية التي تقوم على مزج الواقعي بالتخييلي، وتوظيف الخارق والعجيب: «النبات يحاور النبات والطيور تحاور نفسها والإنسان، يتحول الى حيوان. وخلق شخصيات مأزقية وغامضة تقع في المتاهة وتعيش وجوداً إشكاليا، واستقطاب المثيولوجي والماورائي، بإثارة أسئلة الوجود حول النشأة والمصير والقدر، وتوظيف متخيل الموت والملائكة والعوالم الأخروية. والنزعة التأملية في مصائر الكائنات مما يجعل رواياته تنضح بالمعرفة والفكر. وثقافة الماضي الذي لا يمضي فيتحول إلى ذاكرة، والذاكرة تصير هوية».٢ وما ينطبق على الكاتب سليم بركات ينطبق على الكثيرين غيره من الأدباء السوريين مثل؛ هاني الراهب، محمد

١ رولان بارت: مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري ط١، ١٩٩٣ ص ٢٥، ٢٦ (عن الدرس السردي في الخطاب النقدي المعاصر، رسالة ماجستير، زهير بارش)

٢ أنجيل الشاعر: الخروج من الذاكرة إلى النور، دراسة في رواية سليم بركات فقهاء الظلام، مجلة ذوات- العدد ٢١

الماغوط، نبيل سليمان، والأسماء كثيرة. يقول الناقد المغربي سعيد يقطين «... تندرج السرديات باعتبارها اختصاصاً جزئياً يهتم بسردية الخطاب السردي ضمن علم كلي هو البويطيقا، التي تعنى بأدبية الخطاب الأدبي بوجه عام، وهي بذلك تقترن بالشعريات التي تبحث شعرية الخطاب الشعري»٣.

إن التطور التاريخي للرواية العربية كان في ظل الشروط الواقعية خلال الثورات٤، والتي تصور النضال والكفاح المسلح وغيرها من الأيديولوجيات السياسية، كالأدب الفلسطيني أثناء النكبة والنكسة، والأدب الجزائري، إذ كان العدو مكشوفاً وواضحاً، فعكست الرواية الرأي العام للشعب الفلسطيني وموقفه من الاحتلال الإسرائيلي، وموقف الشعب الجزائري من الاحتلال الفرنسي، في هذه الأعمال كانت اللغة تسيطر على السرد مما جعل الوقائع التاريخية تنسجم مع التخييل كرواية» ذاكرة الجسد» لأحلام مستغانمي و»أصابع لوليتا» لواسيني الأعرج، والكثير من الروايات السورية التي صورت الثورة السورية الكبرى «التجذيف في الوحل» لجميل سلوم شقير، و»المصابيح الزرق «لحنا مينة، فإن الزمن فيها متسع وطويل، يصحب المتلقي إلى التخييل والمغامرة الذاتية ويحرض الفكر على التحليل والنقد والاستقراء للوقائع. أما الرواية السورية في ظل الشروط الراهنة والأزمة اليومية المعيشة، فقد تصارعت فيها إرادة الحرية والاستقلال مع أنظمة تشبه الاستعمار، ومع التبعية السياسية والدينية والتطرف والإرهاب. فانشغل الأدب في وعي الذات إزاء الآخر المهيمن، (السلطة، المعارضة)، وصار السرد يخضع لبعض المعايير المتصلة بالواقع اتصالاً مباشراً، وتنضوي تحت لواء الأحداث اليومية والتاريخية في إسقاط الماضي على الحاضر، ونراه جلياً في رواية الكاتب فواز حداد«السوريون الأعداء»:

«إن عنوان الرواية «السوريون الأعداء» يثير الكثير من التساؤلات: هل هو عنوان ذو قيمة؟ أم أنه تماهي بالسؤال عما آلت إليه الأوضاع في سورية؟»

تمتد الرواية بين فترتين زمنيتين متباعدتين، الفترة الأولى في شباط العام ١٩٨٢ المتمثلة بأحداث حماه، معرجاً وبقصد على العام ١٩٦٨ حيث كان حافظ الأسد

٣ سعيد يقطين، الكلام والخبر، مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي المغربي، الدار البيضاء، ص ٢٢





وزيراً للدفاع. والفترة الثانية: الوضع الحالي في سورية حتى العام ٢٠١٢ [٥].

قرر الكاتب أن يبدأ بأحداث حماه، وينتهي بالوضع الراهن في سورية مسقطاً البداية على النهاية بطريقة انتقامية مرتبطة بأيديولوجيا سياسية وعقائدية راسخة في ذهنه بأن هذه السلطة عصية على التعديل أو التغيير. والإشكالية الثانية في الرواية هي التلاعب بشخصيات سجن تدمر- الذي أخذ الجزء الأكبر من الرواية- عن طريق السارد الورقي المتحدث بالنيابة عنها مما منع الشخصيات من التعبير عن أنفسها وإظهار ملامحها، لم يتكلم الطبيب عدنان عن معاناته (جُرَّ الطبيب عدنان إلى ساحة السجن) (عُذِّب حسان)٦، ورواية خالد خليفة «مديح الكراهية» الصادرة عن دار العين في القاهرة ما قبل الأزمة، وما أظهرته الرواية من جدلية اجتماعية، تقوم على التسامح والتعايش السلمي بين الطوائف والمذاهب، بينما تختلف نظرة خليفة في روايته «لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة» الذي كتبها أثناء الأزمة - وإن كانت تتحدث عن زمن مضى وانقضى- إلا أنها خرجت من كاتب مهاجر في زمن الحرب، يعكس روحه الموجوعة على النص، يتحدث

٥السوريون الأعداء، فواز حداد، دار رياض الريّس للتوزيع والنشر، ٢٠١٢
٦ أنجيل الشاعر، بلاد الخلود والموت، دراسة في رواية فواز حداد "السوريون الأعداء" مجلة صور.

القمع الذي تعرض له الإنسان السوري، جعل ذاكرة الكاتب تتفلت في بلد اللجوء لتطرح خيبات الوطن والإنسان وتبكيهما معاً

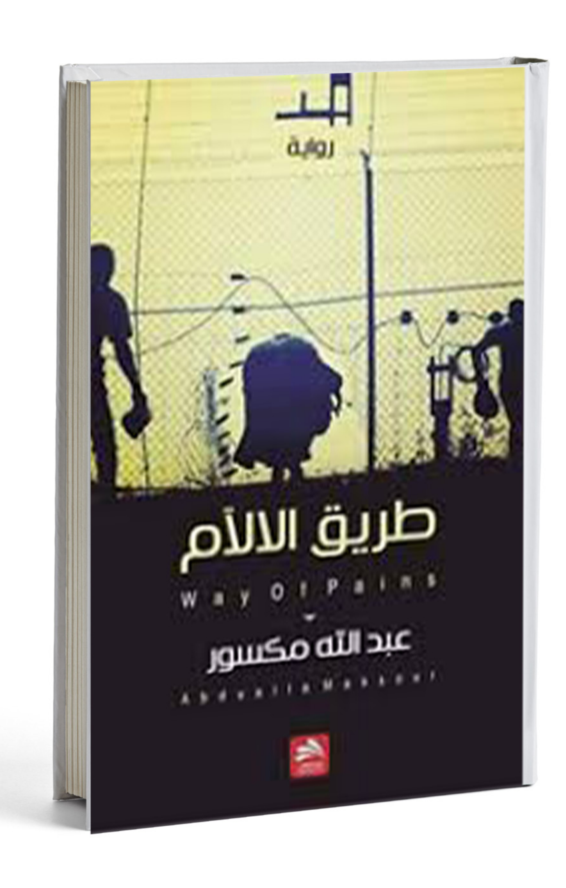
عن القهر الجارف المولود من رحم الخوف، عن شخصيات قسا عليها إلى حد الإفراط، تتمنى الموت من دون أن تجد له أداة، عن تحارب الطوائف من دون سلاح، وعن الأيديولوجيا السياسية وبطش السلطة، وإهدار إنسانية الفرد السوري بشكل عام، رغم التفاضل بين أفراد المجتمع في نسبة الولاء للسلطان، أو البعد والقرب من مركز القرار.

وغالباً ما نرى هيمنة السارد على النص في استعمال ضمير المتكلم، كما في رواية «نزوح مريم»، للكاتب محمود «حسن الجاسم» الصادرة عن دار التنوير لعام ٢٠١٢، من خلال الأحداث التي جرت في الرواية ومع شخصياتها، التي تبدو لك حقيقية، هي بالطبع حقيقية مهما اختلفت الأسماء والأديان، والألوان، فنرى ما يخفيه الكاتب خلف سطوره بدلالة لغوية تفسر الظواهر الاجتماعية والسياسية في المجتمع السوري، ينقلها الكاتب بصورة مصغرة وشخصيات مختلفة، يرصد أفعالها وردات فعلها، يصور آلامها وآمالها، في أسرة الأم «خديجة» المسلمة المحتفظة بإسلامها الذي لم يكن حائلاً بينها وبين مسيحية» سارة» المحتفظة أيضاً بدينها، متنقلاً بزمن الحدث بين زمنين مختلفين يضيقان في كل الأحيان، وذلك على لسان «سارة» البطلة السطحية للنص، والتي هيمنت عليه بسردها لـ «مريم» البطلة العميقة، قصة الحب والحرب غير المنتهية. فالزمن الضيق مستمر للوقت الحالي بشراسته وعنفه.

أما الحديث عن البيئة المكانية للرواية، فهو مكان واحد «سوريا» وإن اختلفت أسماء المدن، ليس بغيةً لاكتشافها بقدر الحديث عما حصل فيها من آثار الحرب المدمرة. مما جعل لغة السرد موازية لزمن الحدث واللغة متواترة وسريعة، سيطرت عليها مفردات العنف كالدم والقتل والتدمير والاعتقال واللجوء. هذا الشحن العاطفي واللاهث غيّب الجانب الفكري من



إن التغيرات التي طرأت على الشعب السوري خلال الأزمة السورية، هي تغيرات جوهرية، خفيةً وظاهرة، جعلت من الرواية تبحث في الزمن المفقود عن بطل مفقود



النص، ورغم تعدد النهايات إلا أن أيديولوجيا الخلاص بقيت مسيطرة عليه.

أما روايات عبدالله مكسور الثلاث: «أيام في بابا عمر»، و«عائد إلى حلب»، و«طريق الآلام» الصادرة جميعها عن دار فضاءات، من عام ٢٠١٢ إلى عام ٢٠١٦، روايات تنتسب إلى الرواية السيرية، تسجل وتسوق الحدث كما حدث، توثق وتؤرخ، أما الرواية الثالثة «طريق الآلام» فقد تجاوزت الروايتين السابقتين والرواية السورية الراهنة في موضوعيتها وانتقاد جميع الأطراف دون الانحياز إلى طرف محدد من أطراف النزاع. كما كتبت سوسن جميل حسن في جريدة الحياة المنشورة بتاريخ ٢٠١٥/٤/١٣: «يبدأ السرد من حيث تنتهي المغامرة والنجاة من الموت الأخير أثناء غرق قارب الموت المحمل بالهاربين من الجحيم السوري قبالة شواطئ اليونان»، يبرز الكاتب الكارثة الإنسانية التي حلّت بالإنسان السوري في الهرب من موت معلوم إلى موت مجهول. ثم يبدأ السرد، «وتبدأ التداعيات والذاكرة واستحضار مشاهد الأمس أمام قرائن الواقع لسوري بقي الموت يخطئه، ليكون شاهداً على فواجع ومآسي شعبه الواقع بين أحجار رحى القتل والعنف السؤال يصرخ من قلب الفجيعة: ما هي حكمتك يا الله في ما يحدث لنا»؟ لم يبق للسوريين إلاّ التوسل والابتهال والصلاة للخلاص من الفاجعة، ثم تتوالى القصص على درب الآلام في الهروب اللاهث من القتل، ليتلقفها سماسرة التهريب، فيُبرز الكاتب اغتراب الإنسان السوري في بلده وتهتك المجتمع وضياعه، بين ماضٍ يتسم بالقمع والخوف، وحاضر دمّر الإنسان وهتك إنسانيته وهدرها، وأقصى به إلى بلاد الهجرة واللجوء.

«ربما من يعرف عبدالله مكسور ويعرف أن أخاه حمزة هو المفقود الحقيقي سيفهم تلك العاطفة الحارقة المتفجرة من بركان صدره، ذلك الجرح المفتوح لأملاح الزمن يلهبها فيأكل من شغاف قلبه».

القمع الذي تعرض له الإنسان السوري، جعل ذاكرة الكاتب تنفلت في بلد اللجوء لتطرح خيبات الوطن والإنسان وتبكيهما معاً، فيتلعثم الجواب على لسان البطل حين سأله مواطن تركي «لماذا فعلتم ذلك بوطنكم»؟. ثم ينتقد رجال الدين محملاً إياهم مسؤولية ما يجري «رجال الدين أحد أهم وأبرز مشاكل المجتمع، إسقاطهم يعني نهوض المجتمع بالمجمل» حاملاً رسالة إلى العالم عن طريق ورقة تركها خلفه في جيب مقعد الطائرة قبل وصوله إلى بلد اللجوء الأخير: «أنا السوري كنت أضع ديوان شعر نزار قباني «أحبك والبقية تأتي» إلى جانب كتاب الديانة في حقيبتي المدرسية... أنا لست إرهابياً»٧.

طريق الآلام، طريق الوجع السوري والموت السوري والضياع السوري.

٧ ما بين مزدوجين هو على لسان الكاتبة سوسن جميل حسن، عن مقالة نشرت في جريدة الحياة، تاريخ النشر في متن النص.

إشكالية المتلقي

إن التغـيرات الـتي طـرأت عـلى الشـعب السـوري خـلال الأزمـة السـورية، هـي تغـيرات جوهريـة، خفيـةً وظاهـرة، جعلـت مـن الروايـة تبحث في الزمـن المفقود عن بطـل مفقـود، مـا اضطرهـا للبحـث عـن أبطـال حقيقيـن قُتلـوا وقَتلـوا، خُطفـوا واختُطفـوا، هاجـروا وتهجّـروا، أو قبعـوا تحـت خيـام اللجـوء أو الـنزوح إلى بيـوت الأقـارب والمعـارف في المناطـق الآمنـة. هـذا الانتقـال مـن السـرد الـذي يقـوم عـلى التخييـل في الروايـة السـابقة، إلى سرديـات جافـة تتنافـس ضمنـاً عـلى نقـل حـدث مغـرق في واقعيـة الاحـتراب السـوري، جعلـت هـذه السرديـات مـن المتلقـي يفقـد عنـصر المتعـة في القـراءة، وعنـصر المفاجـأة في الحـدث، لأن مـا يقـرأه المتلقـي هـو معـروف لديـه مسـبقاً ومعيـش فعليـاً، ومقارنـةً بـالأدب السـوري المهاجـر أو المنفـي مـا قبـل الأزمـة، والـذي يسـتجدي اللجـوء في مخيمـات دور النـشر الخارجيـة، نـرى التصـدع واضحـاً في عنـاصر الروايـة الراهنـة مـن تشـويق وترميـز وإبهـام في ظـرف واقعـي جعـل مـن الروايـة روايـة توثيقيـة، تهتـم بالحـدث اليومـي وتتابعـه، أو روايـة سـيرية تهتـم بأحـداث جـرت مـع الكاتـب ذاتـه، كروايـة عبـدالله مكسـور «أيـام في بابـا عمـر» وفي كتـاب سمـر يزبـك «بوابـات أرض العـدم» إذ تقـارن الكاتبـة بـين الوطـن والمنفـى: «... حـين نظـرتُ في تلـك اللحظـة، عرفـت معـنى المنفـى، وفي والوطـن، رغـم أنـي أتسـلل هاربـة وبطريقـة غـير قانونيـة عـبر حـدود بلـدي. الوطـن هـو أن أحـدق الآن في طائـرة سـتلقي قذائفهـا علينـا، أحـدق إليهـا بثبـات ودقـة ومـن دون خـوف، وأتابـع أيـن سـترمي المـوت. والمنفـى هـو أن أكـون جالسـة في سـاحة الباسـتيل وسـط باريـس أرتشـف قهـوتي تحـت شـمس لطيفـة، وعـلى يسـاري عاشـقان يتبـادلان القُبـل، ويحـط عصفـور عـلى ركبـتي، فأقفـز مـن الفـزع والخـوف» (ص ٣٧).

أغلـب الروايـات السـورية الـتي اسـتطعت إحصاءهـا حـتى الآن وتبلـغ اثنـين وعشريـن روايـة، تـبرز الكارثـة الإنسـانية في الأزمـة السـورية، مـن خـلال القتـل والتدمـير واللجـوء والاعتقـال والخطـف، ومـن خـلال حنـين الكاتـب المهاجـر إلى وطنـه وأهلـه وناسـه٨.

أدّت الثورة السورية بتداعياتها المتنوعة – وبوجه خاص في إطار الجانبِ المُرتبط بالحرب– إلى ظهور مَحاوِر سيميائية ودلالية جديدة في إبداعات السوريين

إن أي قـارئ مهمـا اختلفـت خلفيتـه الثقافيـة هـو ناقـد بالـضرورة، وكاتـب ثـانٍ للنـص، وأي نـص أدبي هـو قابـل للتأويـل والتحديـث في مخيلـة المتلقـي، هـذه التشـاركية هـي عمليـة تبادليـة بـين الكاتـب والمتلقـي، إذ تقـع المسـؤولية الأكـبر عـلى عاتـق الكاتـب في تقديـم صـورة تدهـش المتلقـي، تختلـف عمـا تعرضـه شاشـات التلفـاز والصحـف المتابعـة للحـدث.

هنـا لا يسـتطيع المتلقـي أن يكـون حياديـاً أو موضوعيـاً؛ فالسـير التتابعـي للأحـداث اليوميـة جعلـت المتلقـي يطـرح أسـئلة كثـيرة: مـا الفـرق بـين النـص الـروائي والخـبر الصحفـي، أو الخـبر الإعلامـي عـلى شاشـة التلفـاز أو شـبكة التواصـل الاجتماعـي؟ والسـؤال الأهـم، هـل سـينتهي الأدب بانتهـاء الحـدث (الأزمـة السـورية) أم سـيكون مـادة غنيـة لأدب قـادم يفتـح البـاب للتخييـل وفـق إعـادة بنـاء الواقـع تخييليـاً؟

إشكالية الكاتب

لـم يتعـرض الإنسـان منـذ الحـرب العالميـة الأولى، إلى العنـف والاضطهـاد والتنكيـل، بالقـدر الـذي تعـرض لـه الإنسـان السـوري منـذ خمـس سـنوات وحـتى الآن. بالطبـع الكاتـب السـوري إنسـان قبـل أن يكـون كاتبـاً، إنسـان يخضـع لجملـة الظـروف والعوامـل الـتي خضـع لهـا السـوريون وإن تفاوتـت بالكـم والنـوع، وهـو بهـذا لـم ينـأ بنفسـه عمـا حـدث أو يحـدث ولكـن تبقـى زاويـة الـسرد مرهونـة بمسـاحة واتجـاه انفتاحـه عـلى الحـدث.

٨ من أبرز هذه الروايات: طبول الحب للكاتبة مها حسن، عن دار الكوكب للتوزيع والنشر لعام ٢٠١٢، وهي أول رواية تتحدث عن الأزمة السورية----->

مبتعث إلى سوريا، عبد المجيد الفياض، دار مدارك ٢٠١٢، ترصد أحداث الرواية الأزمة السورية من منظور الكاتب في فترة ما قبل ظهور تنظيم "داعش"، كما تتناول بالوصف الدقيق الجغرافية السورية قبل ٢٠١١

مترو باريس، مها حسن دار التنوير ٢٠١٦، تبحث الكاتبة عن سوريا هنا وهناك، ومترو باريس يعبر في مخيلتها أحياء حلب وضواحيها

عطار القلوب، محمد برهان، دار فضاءات، ٢٠١٤

وأغلب الروايات قد تعرضت لذكرها في المتن.



عكسَت الأعمال الإبداعية تفاصيلَ الأحداث السورية في الداخل، وتلاقحَتْ مع تجارب النزوح واللجوء في الخارج

منذ بداية الأزمة السورية، توالت الانشقاقات في صفوف الحياة العامة، سياسية واجتماعية ودينية، ولم ينجُ الكاتب السوري من هذه الانشقاقات. بعض الكتّاب انحازوا إلى الجهة المعارضة في طرفيّ النزاع، مثل؛ «فواز حداد، في روايته «السوريون الأعداء» وابتسام التريسي «جبل السمّاق»، وهيفاء بيطار، عبدالله مكسور، خالد خليفة، نبيل سليمان، ممدوح عزام هؤلاء الكتاب المعارضون لم يكتفوا بالنشاط الأدبي فقد قاموا بالمشاركة أو الانضمام إلى رابطة كتّاب مستقلة عن اتحاد الكتّاب العرب التابع للنظام، تدعى «رابطة الكتّاب السوريين الأحرار» في دلالة واضحة على أن العمل الأدبي هو مجال أيضاً للتعبير عن الموقف السياسي والمدني، وأصدرت هذه الرابطة مجلة بعنوان «أوراق» يترأس تحريرها الدكتور صادق جلال العظم، ورغم اعتقاد الكثير من الكتاب المعارضين بعدم جدوى وفاعلية العمل الأدبي في خلق وعي مضاد، إلّا أنه يتبدى كخيار «سيزيفي» في الإعلاء من شأن الحياة عبر إعادة اعتبار عبثي لمنظومة قيم انقلبت رأساً على عقب في زمن «السوريون الأعداء»، حيث تحدث صاحبها في مقالة بعنوان «في أزمنة الثورة والحرب يُصنع الأدب» ضمن ملف خاص لمجلة «جدلية» حول التناول السردي للحرب والعنف في سوريا: «المؤسف أن الأدب بشكل عام لا يغير موازين القوى على الأرض، ولا يشكل مركز ثقل في الثورة والحرب، ومن نافل القول أنه بلا جدوى، مع أن الأدب سلاح، لكنه غير قاتل.... فالحرية أدت إلى المعتقلات والعدالة إلى الظلم»[٩] وفي الملف ذاته تحدثت هيفاء بيطار: «لم يعد بإمكاني على الإطلاق أن أكون ذاتي، منذ بداية الثورة السورية، صار وجودي نفسه يربكني، كما لو أنني كنت امرأة من ضباب، وحين تفجرت الثورة السورية فرض عليّ أن أتجسد، وأصير إنسانة واضحة الملامح والشخصية، وبدأت عملية البحث عن ذاتي شاعرةً أنني مفصومة عن كل كتبي السابقة التي كتبتها»[١٠]. وبعض الكتّاب القدامى اختاروا النأي بالنفس متخذين موقف الحياد، حفاظاً على أنفسهم من المساءلة أو الاعتقال، أما البعض القليل من الكتّاب، ظل منخرطاً في صف السلطة والنظام السوري، مثل «اتحاد الكتاب»، وقد عقد مؤتمره السنوي بحضور «نجاح العطار» وزيرة الثقافة سابقاً، وقد كتبت ناديا خوست مقالة بعنوان: «الحرب على سورية تجربة كبرى.. محنة دامية وموجعة تقدم للكاتب مواجهة تتحدى المواهب، تتحدث فيها عن الصعوبات والتحديات التي تواجه الكاتب السوري في الفترة الراهنة، نشرتها جريدة الوطن» بتاريخ ٢٠١٦/٢/٢٩ تقول الكاتبة: «.. من خلال الحرب على سوريا، حمى الاتحاد وحدته، على الرغم من سعي جديّ إلى «الانشقاق» وتلفيق منظمة كتّاب مغتربة».[١١]

حسب العلاقة التبادلية بين الكاتب والمتلقي، يتوجب على الكاتب أن يصقل جميع أدواته الروائية والقصصية والشعرية، كي ينال إعجاب المتلقي، وعليه أن يبذل قصارى جهده في الموضوعية وعدم الانحياز، وبما أن الرأي العام السوري غير موحد (المعارض، والموالي، الحيادي والرمادي) سيكون رأي الكاتب بالضرورة انحيازياً وقد يكون متطرفاً حسب موقفه من الأزمة.

ومن اللافت للنظر أيضاً، ظهور ثلة من الأسماء الجديدة على الساحة الأدبية، بزغت أثناء الأزمة السورية، تفجرت مواهبها من رحم الألم والظلم الواقع على الإنسان في سوريا، وقد كانت معظم هذه الأسماء تعمل في المجال الإعلامي كالصحافة، ودار الإذاعة والتلفزيون، مما أثرت مهنتهم السابقة على الناحية التقنية في الرواية.

شهادة الشاعر والناقد السوري الدُّكتور مازن أكثم سليمان

وقد قدم الشاعر والناقد السوري الدُّكتور مازن أكثم سليمان من خلال الحديث معه شهادة خص بها مجلة «ذوات» حول «أثر الأزمة السورية في الأدب» قال فيها: «تُشكِّل التحولات التاريخية الكبرى أحداثاً خصبة تفتح الأبواب عريضةً أمام المبدعين لتناولها



٩ فواز حداد، روائيون يتحدثون، مجلة جدلية

١٠ هيفاء بيطار، المصدر السابق

١١ افتح الرابط http://alwatan.sy/archives/٤٣٢٠٣



في أعمالهم الفنية المختلفة، لكنها تضعهم في الوقت نفسه أمام تحديات جمالية بالغة الدقة والحساسية تتعلّق بمدى قدرتهم على تمثُّل تلك الأحداث والإحاطة بها قدر المُستطاع، وتقديمها في نتاجهم الإبداعي من دون أن يخسر هذا النتاج طاقاته الفنية الخلّاقة، والتي قد تتعرّض لخطر السقوط تحت سطوة الأحداث الخارجية الصاخبة، وكبح الإمكانيّات الإبداعية والتخييلية أمام إلحاح الراهن المُباشر وطغيانه.

ما من شكّ أن الثورة السورية تنتمي إلى تلك الأحداث التي توصَف بالكبيرة، وتجمَع في أحداثها البُعد الجمالي المنطوي على أحلام الحرية والعدالة والديمقراطية، إلى جانب البُعد التراجيدي القاسي الذي أُشبِعَ بالموت والدّمار والخراب والنزوح واللجوء.. إلخ، حيث وجد عدد هائل من المبدعين السوريين أنفسَهُم وجهاً لوجه أمام تحدّيات حياتية ووجودية ومعيشية يومية جمّة من ناحية أُولى، وأمام تحدّيات فنية إبداعية عظيمة من ناحية ثانية، ولا سيما بعد أن انتشرَتْ نسبة كبيرة منهم في أصقاع العالم بين نازح ولاجئ، فضلاً عن ظهور مبدعين جدُد انبثقَتْ أعمالهم من صميم الأحداث، وكانت مُتجذّرة في خضمّ التجارب الاستثنائية التي عايشوها في الداخل السوري وفي الخارج.

أدّت الثورة السورية بتداعياتها المتنوعة - وبوجهٍ خاص في إطار الجانب المُرتبط بالحرب- إلى ظهور مَحاوِر سيميائية ودلالية جديدة في إبداعات السوريين، وهيَ مَحاوِر مرتبطة بطبيعة الحال بالأحداث والصراعات والآلام والأحلام والمُفارَقات الوجودية الهائلة التي واجهَها المبدعون وعائلاتهم والشعب السوري بشكل عام. وفي هذا الإطار، انفتحَتْ الدلالات على آفاق رحبة إن في الكتابة أو في المسرح والسينما أو في الفن التشكيلي أو أو...إلخ، لكنَّ الحديث عن ولادة تيارات مدرسية فنية مُفارِقة لما سبق هذه الحقبة ما زالَ مُبكِّراً، وما زالَ يحتاج إلى مزيد من الدربة والخبرات والتراكُمات الزمنية كي يتمكّنَ المبدعون من تمثُّل فنِّي أعمَق للأحداث، وكي يتمكَّنَ النُّقّاد في المُقابل من سبر مَعالِم النتاجات الجديدة، وتلمُّس مدى تحقيقها لانزياحات أصيلة.

وفي جميع الأحوال، عكسَت الأعمال الإبداعية تفاصيلَ الأحداث السورية في الداخل كما ذكرْتُ من قبل، وتلاقحَتْ مع تجارب النزوح واللجوء في الخارج، وتسرَّبَتْ إلى تلك الأعمال التفاعُلات الناجمة عن الاختلاط بمجتمعات جديدة، ويبدو أنَّ هذا الجانب سيمثِّلُ دوراً كبيراً على المدى المتوسِّط والبعيد في إغناء التجارب الإبداعية السورية، ولا سيما ونحنُ نلاحِظ الآن مدى التلقِّي والاحتفاء اللافت الذي تُلاقيه أعمال السوريين في بلدان اللجوء، إذ لا تكاد تمرُّ فترة قصيرة إلّا ونسمع عن منح جائزة إبداعية لسوري إن في الشعر أو القصة أو الرواية أو المسرح أو غيرها من الحقول الإبداعية.

ومن المؤكَّد أن أحد العوامل المُهمّة لانبثاق هذه النتاجات الغزيرة لا يتعلَّقُ فقط بمسألة حجم الصدمة المعيشة، وعُمق تأثير الحدَث السوري ومخاضاتِهِ الكثيفة، وتأثيراته العقلية والانفعالية والتخييلية العميقة على المبدعين؛ إنَّما يتعلَّقُ الأمرُ أيضاً في انفكاك عُقدة الاستعصاء النفسي والاجتماعي التي سبَّبَها الاستبداد طوال عقود سابقة، وانفتاح الآفاق أمام حُرِّيّة التعبير، فضلاً عن رغبة هؤلاء المبدعين في تأكيد هُويّاتهم الذاتيّة والوطنية القلِقة والجريحة، وهوَ تحدٍّ محفوف بمَخاطِر السقوط في المُباشَر والسطحيّ، إن لم يتمرَّس هؤلاء المبدعون في تخليق مسافات زمنية ومكانية عبر الدِّربة والتَّجريب لبلوغ إبداعات أصيلة ما زالتْ جعبة السوريين واعِدةً بها كما أعتقد».

وفي المآل لا يخفى ما تركته الأزمة السورية من أثر على الإنتاج الأدبي السوري بكل تنويعاته، إلا أنه قد يكون من المبكر إطلاق الأحكام على تلك الأعمال، فالأزمة مازالت مستمرة، والتجربة الأدبية المرافقة لها والواقعة تحت ظلالها لم تكتمل.



بعض تجليات الهجرة واللجوء في الفن التشكيلي السوري الراهن

بقلم : بنيونس عميروش
فنان تشكيلي وناقد - المغرب



بَعْدَ أن قطـع الفـن التشـكيلي السـوري أشـواطا إبداعيـة مثمرة ضمن فسيفساء الفن العـربي المعـاصر، عـرف انعطافا مؤثـرا منـذ عـام ٢٠١١ مـع أحـداث ثـورات «الربيـع العـربي» الـتي وجهتـه نحـو تجـارب جديـدة، منبعثـة مـن رحـم السـياقات والأوضـاع المشـوبة بالاضطرابـات والتوتـرات وعـدم الاسـتقرار؛ إذ وجـد العديـد مـن الفنانين أنفسـهم في حالـة قطيعـة قصـوى مـع محترفاتهـم وصالاتهـم ومـع علاقاتهـم بالأوسـاط الـتي تُيـسِّر لهـم مجمـل أشـكال التواصـل مـع محيـط تحركاتهـم الموصولـة بمختلـف أنشـطتهم الإبداعيـة. لذلـك، وبعـد تفاقـم الأزمة، شـكَّلت البلـدان الإقليميـة المجـاورة، مثـل لبنـان والأردن ومـصر وتركيـا ودول الخليـج العـربي، وجهـة الرحيـل الأساسـية لقربهـا الجغـرافي والثقـافي مـن سـوريا، لكـن، توضـح جمانـة اليـاسري، «سرعـان مـا تحولـت بـيروت وعمـان والقاهـرة وغيرهـا مـن المـدن العربيـة، إلى محطـات أولى اضطـروا في أغلـب الأحيـان إلى تركهـا مـن جديـد للحـاق بالذيـن مضـوا منـذ خروجهـم الأول مـن سـوريا إلى أوروبـا أو إلى أماكـن أخـرى مـن العالـم. ومـع الوقـت، نشـأت سلسـلة كبـيرة ومعقـدة مـن التحديـات النفسـية والمهنيـة الـتي يعـاني منهـا اللاجئ السـوري عمومـاً: البعـد الجغـرافي عـن سـوريا وعمـا يجـري فيهـا اليـوم ومـا يتولَّـد عنـه مـن إحسـاس بالعجـز أمـام الكارثـة، تغيـير المحيـط الاجتماعـي والمهـني، إجـراءات إداريـة صعبـة وطويلـة مـن أجـل الحصـول عـلى إقامـات وتراخيـص عمـل، مشـكلة عائـق اللغـة واختـلاف المرجعيـات الثقافيـة في بعـض الأحيـان»[١].

١- جمانة الياسري، "العالم كساحة معركة: هجرة الفن السوري اليوم وآفاق الاستمرارية في البلدان التي يتواجد فيها"، اتجاهات، ٢٠١٦، http://www.ettijahat.org/page/١٩٠



> عرف الفن التشكيلي السوري انعطافا مؤثرا منذ عام ٢٠١١ مع أحداث ثورات «الربيع العربي» التي وجهته نحو تجارب جديدة، منبعثة من رحم السياقات والأوضاع المشوبة بالاضطرابات والتوترات وعدم الاستقرار

من ثمة، أمسى الفن السوري موسوما بمخلفات الشتات واللجوء، بناءً على عدة تمثلات تمس هجرة الفنانين، ومن خلالهم هجرة الفن السوري في حد ذاته، فيما تمس طبيعة الإبداع التشكيلي السوري الذي صار يحمل في طياته مختلف صور اللجوء ومشاعر الدمار المتداخلة بمحاكاة رمزية وبتصورات الأفق والأمل الذي ما فتئ يتخذ عديد التجليات المرئية، في الوقت الذي يتموضع فيه الفنان داخل وضع يُجْبِره على رفع صوته وسط الناس ومن داخل مجتمعه، في ديمومة مقاومة تروم تجاوز العراقيل ومحاربة عوامل سلب الحريات الخاصة والعامة. وفي ظل هذه الأجواء الباعثة على التضييق، بعد أن عملت وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة على اندلاع «الثورة السورية»، تحولت إلى ميدان إجرائي وعملي لدى عدد من الفنانين، وخاصة منهم أولاء الذين ظلوا صامدين تحت وقع الحرب، إذ نقلوا صور وآثار الأحداث والمواقف من خلال معارض افتراضية تعكس مختلف أشكالهم التعبيرية، مُحَوِّلين أعمالهم إلى أسناد جمالية سائرة ورحالة عبر الفضاء الأزرق.

الفن والحرية

في هذا السياق، تم تصميم صفحة خاصة بالفن التشكيلي تحت عنوان «الفن والحرية» من لدن جماعة من الفنانين السوريين منذ ٢٠١١ ضمن مواكبة أحداث وانعكاسات «الثورة السورية»، وهي الصفحة التي تشترط مشاركة الفنانين بأسمائهم الحقيقية. من ثمة، تشير الفنانة التشكيلية السورية ريم يسوف (٣٥ عاما، تقيم في فرنسا منذ بداية ٢٠١٥) إلى أن «صفحة الفن والحرية، تعد من أولى الصفحات التي كانت جزءا من صوت الفنان السوري والعربي، خصوصا عند تراجع إمكانية التعبير في سوريا في ظل ما تمر به البلاد من تغيرات وتصاعد الصوت السياسي وتأثيره السلبي على



الوضع الإنساني والثقافي»، مضيفة بكون وسائل التواصل الاجتماعي «ساهمت في تحرير الفنانين والفن من أي شروط تفرضها صالات العرض الخاصة، وجعلت عرض الأعمال يتم بطريقة متواضعة وبسيطة، كما لعبت دوراً أساسيا في التأثير على الرأي العام. لكن في المقابل نجد سلبيات كانعدام معايير تحديد مستوى العمل الجيد أو السيء (...) مواقع التواصل الاجتماعي تعد بمثابة صالة عرض دائمة ومتنقلة ومتاحة لكل العالم. ولكن لها سلبيات كالحرمان من متعة مشاهدة اللوحات على الواقع»، وعن تفاعلها مع توترات الحرب في بلدها، تقول: « كمواطنة، أنا جزء من الشارع السوري قبل أن أكون فنانة معنية بيوميات شعبي وألمه. وأمام العنف بتفاصيله، وخاصة أن الحرب ولدت من جديد صرخة طفل في داخلي بعد أن كانت أول ضحية من الأطفال ومن ثم بدأت ترجمتها في أعمالي، وكانت بداية رحلتي خارج سوريا عام ٢٠١٢». فيما تؤكد الفنانة السورية









الشابة ليلى العواد (٢٥ عاما، ولدت في ألمانيا وانتقلت بعد ذلك إلى سوريا لدراسة الفنون الجميلة بدمشق) على أن الحزن البادي على سحناتها النسائية المتعلقة بمجموعة لوحاتها الموسومة بـ «أيقونات سورية»، يعد في الأصل انعكاسا تعبيريا لحالة الحرب التي عايشتها على امتداد أكثر من ثلاث سنوات، معلنة أن «الحرب هي أبشع شيء يمكن للإنسان معايشته، فهي تعني الموت والحزن والتوتر والخوف». بينما يشير الفنان التشكيلي السوري منيف عجاج (عمل أستاذا في معاهد فنية بسوريا) إلى أن مواقع التواصل الاجتماعي ظلت ممنوعة إلى حين «انطلاق الثورة حيث سمح النظام بها لمراقبة الناس لاستخدامها ضد الثورة أيضا»، مضيفا أن «هذه الوسائل ساعدت في نقل ما يحدث بشكل مباشر، وكان لها فعل تحريضي وخاصة في مجال الأغنية الثورية ومن ثم بقية الفنون»[٢].

سوريا الفن والهروب

في المقابل، يتمسك الفنانون المهاجرون بإصرارهم على إعلان تواجدهم أينما حلوا وارتحلوا، هناك

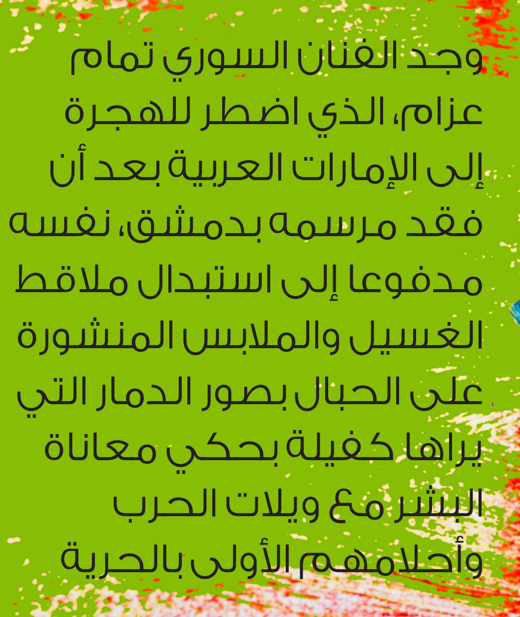
٢- المعطيات وتصريحات الفنانين باعتماد: إيمان ملوك، "الفن التشكيلي.. معارض افتراضية تواكب الحدث السوري"، ١٦ يناير/كانون الثاني ٢٠١٦ DW، www.dw.Com

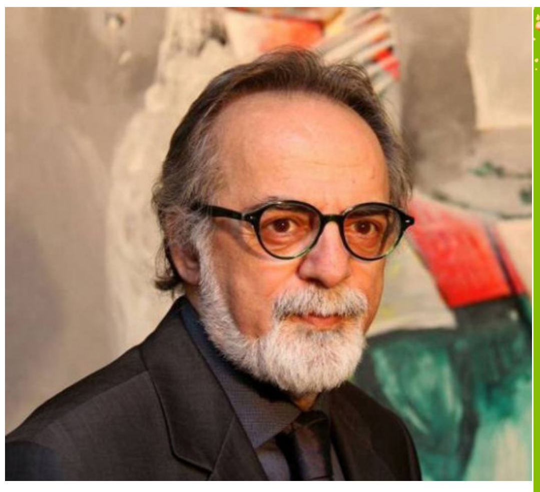


باستمرار حلولا للحضور والتجمع والحوار، ولو من خلال أعمالهم المنذورة للسفر والانطلاق. دليل ذلك يتشكل في المعرض الجماعي المنظم في مدينة كولونيا بألمانيا بين ٠٥ و٢٢ مايو / أيار ٢٠١٦ تحت شعار «سوريا الفن والهروب». وانسجاما مع الشعار، عمل المنظمون على إقامة هذا الملتقى الفني في بناية مصفحة استخدمت كملجأ للحماية إبان الحرب العالمية الثانية، وقد تم اعتماد هذا الموقع «لما فيه من ذكريات حملت الحرب والهروب والمأوى»، كما جاء في تصريح جبار عبد الله بوصفه أحد المنظمين الأساسيين رفقة زهران العقيل المقيم في ميونيخ. ضَمَّت البناية ما يفوق عشرين تشكيليا توزعت أعمالهم بين التصوير La peinture والنحت وهم على التوالي: خولة عبد الله، أحمد نفوري، لورين علي، ساري كيوان، زهران العقيل، ليالي العواد، نادر حمزة، محمد لبش، ريما مردم بيك، عمر زلق، بهزاد سليمان، شيفان خليل، حسام علّوم، سمى القطيفان، ذو الفقار شعراني، وائل السكري، مصطفى القطيفان، عمر مروان، ورزان صباغ، سيلكه فورستمايا (الألمانية الوحيدة باعتبارها من المدعمين، وقد شاركت بعملين أنجزتهما بالمناسبة). عرف المعرض إقبالا كبيرا مُدعما بصدى إعلامي جيد «وهذا عامل مشجع للفنانين وللقضية السورية التي حاولنا إيصالها للشعب الألماني عن طريق الفن، كان بث الراديو مباشرًا ومسجلاً، وحضرت صحف عديدة وكتبت مقالات عديدة عن المعرض» كما جاء في تصريح جبار عبد الله. وبخصوص المشاركة، تقول الفنانة التشكيلية السورية رزان صباغ (مواليد ١٩٨٨، خريجة كلية الفنون الجميلة بدمشق): «عبّرت أعمالي التي شاركت بها عن شعوري بالعجز أمام ما يحدث في بلدي، العجز عن إنقاذ من تبقى، وما تبقى، العجز عن الهروب، وعن البقاء، العجز عن إيقاف كل ذلك الضجيج العالي اللامبالي، المشابه للصمت، واستبداله بعناق أبديّ مع المحبة، وأحتفظ بعجزي الجميل.. عن فقدان الأمل». بالنسبة إلى الفنان السوري بهزار سليمان (مواليد ١٩٨٦، خريج المعهد العالي للفنون المسرحية وكلية الفنون الجميلة ومعهد الفنون التطبيقية) يقول: «شاركت بثلاثية تحكي عن وجوه وتعابير وقصص من ملامح الإنسان السوري بشكل غير مباشر، بعيدًا عن الطرح الواقعي، وإنما محاكاة التعبير بالخط الأسود عندما يبدأ ويتلاشى في عمق الخلفية، كل وجه من هذه الوجوه يمتلك قصة، يروي هذه القصة من خلال اللون ونظرة العين وتشكيل البورتريه. الثلاثية تتكون من ثلاث لوحات بتقنية الكولاج وألوان الأكريلك على الكرتون، وكل عمل يكمل الآخر في الأطروحة وفي اللون، كل الألوان المستخدمة هي عبارة عن لغة ذات دلالات غير مباشرة، وينبغي على المتلقي التمعن باللون والكولاج المستخدم، هذه التفاصيل تعرّف بالعمل الفني». وعن مشاركته علق الفنان التشكيلي السوري عمر زلق (٣١ سنة، خريج معهد الفنون الجميلة، قسم نحت) بالقول: «أول مشاركة لي اسمها الهجرة، تعبّر عن المهاجر الذي ترك بلده بسبب الحرب ليأتي للمجهول، العمل الثاني اسمه «لماذا؟» وهو على هيئة إشارة استفهام مع وجه حزين، مع عدة أسئلة أصبحت هوية الذين تأذوا من الحرب والهجرة. الثالث هو أنا، مكسورًا ومطويًا دون عائلتي ودون وطني! ». فيما عبر الفنان التشكيلي السوري حسام علُّوم الذي لم يحضر المعرض (مقيم في تركيا، خريج كلية الفنون الجميلة في ٢٠١١) عن يُتم العمل في غياب صاحبه الذي يعيش فيما نعته بـ «عصر الرماد»، موضحا: «حتى مشاهدنا أصبحت رمادًا، حتى أفراحنا وأحزاننا لم تعد تأخذ حقها من الانفعال والمشاعر». بينما عبر الفنان السوري أحمد نفوري (مواليد ١٩٨٩، خريج كلية الفنون سنة ٢٠١١ وكونسرفاتوار بيروت الوطني في ٢٠١٥) عن حزنه الناتج عن عدم تحقيق حضوره بالقدوم من النمسا بسبب تعذر استكمال وثائقه، وعن مشاركته يقول: «شاركت بأربعة أعمال من قياسات مختلفة ومواضيع متنوعة، تتعلق بالغربة والهجرة والحرب، بطريقة تجريدية موسيقيّة، وبالتأكيد هذا متعلق بتجربتي الموسيقية التي لا تنفصل عن التشكيل أبدًا، لأن الأشكال تسمع الموسيقا، والعكس صحيح». وعن انطباعه حول المعرض يضيف: «المعرض جميل والمبادرة جميلة، فهو يعكس نشاط الشعب الذي رغم الحرب واللجوء والهجرة، مازال ينجز ويصدر فنًا»[٣].

يتمسك الفنانون المهاجرون بإصرارهم على إعلان تواجدهم أينما حلوا وارتحلوا، هناك باستمرار حلول للحضور والتجمع والحوار، ولو من خلال أعمالهم المنذورة للسفر والانطلاق

٣- المعطيات وتصريحات الفنانين المشاركين في معرض كولونيا باعتماد: "أكثر من عشرين فنان سوري في معرض سوريا الفن والهروب في كولونيا"، خاص أبواب- كولونيا، أبواب، ٠٦ يونيو/ حزيران ٢٠١٦ http://www.abwab.eu/





© Monif Ajaj



الفن والهجرة

علـى هـذه الشـاكلة الشـعورية المتوجسـة، نرصـد فئـات أخـرى مـن الفنانـين السـوريين المنتشريـن عـبر البقـاع محملـين بـذات الضيـق وذات الألـم الـذي غـير مساراتهم وحول أساليبهم تحت إكراهات واقع الحال. فهـذا الفنـان السـوري تمـام عـزام الـذي اضطـر للهجرة إلى الإمـارات العربيـة بعـد أن فقـد مرسـمه بدمشـق، وجـد نفسـه مدفوعـا إلى اسـتبدال ملاقـط الغسـيل والملابـس المنشـورة عـلى الحبـال بصـور الدمـار الـتي يراهـا كفيلـة بحـكي معانـاة البـشر مـع ويـلات الحـرب وأحلامهـم الأولى بالحريـة، في هـذا الصـدد يوضـح: «كلّ منـا لديـه أدواتـه في التعبـير عـن موقفـه إزاء مـا يجـري. حاولـت أن أعـود للاشـتغال عـلى أفـكار الذاكـرة، والرحيـل، وبقايـا القصـص المعلقـة، الـتي اشـتغلت عليهـا سـنواتِ مـا قبـل الثـورة، صابغـاً الأقمشـة بمزيـد مـن الأسـود والأحمـر؛ لكنـني لـم أسـتطع إنجـاز عمـل واحـد. ربمـا لأنـي هنـا في دبي، حيـث لا شـارع دمشـقياً يـدسّ نفسـه في أعمـالي، ولا حكايـا نـاس أسـمعها في الطريـق فتفـرض نفسـها علـيّ». وهـذه الفنانـة السـورية هبـة الأنصـاري المقيمـة في ميونيـخ، المشـدودة للتعابـير المعـاصرة باعتمـاد المنشـآت Les installations تُقِـرُّ بـأن هجرتهـا والتغـيرات الـتي طـرأت عـلى حياتهـا الجديـدة، لا بـد وأن تحـول رؤيتهـا للأشـياء وتؤثـر عـلى مجـرى ممارسـتها الإبداعيـة، موضحـة: «أنـا دائمـاً في حالـة بحـث عـن نفسـي، في المـاضي والحـاضر. تقاطعـات الزمـن والمـكان مـن حـولي تبـني العمـل في مخيلـتي، وتضيـف أبعـاداً مختلفـة لهـذا العمـل. مـع اختـلاف الظـروف والمعطيـات المحيطـة بالفنـان، تختلـف مادتـه، وكذلـك علاقتـه بهـذه المـادة. هـذا، عـلى الأقـل، مـا ينطبـق عـلى تجربـتي الشـخصية»، وتسترسـل: «الواقـع سـورياليٌ بمجملـه، لـذا أحـاول اختيـار عنـاصر تعـبّر عنـه، وعـن كل الخـراب الـذي يحيـط بنـا، مـن خـلال التقـاط مـواد متوحشـة وقابلـة للتلـف، حالهـا كحـال العالـم تمامـاً. وحـده العـدم مَـن يعيـش الآن. هـذا ليـس عبثـاً مـع الواقـع، بقـدر مـا هـو تجربـة شخصية يشترك فيها كل أبناء مجتمعي الذين تطحنهم آلات الحـرب يوميـاً، وتطحنـني معهـم. أحـس، أحيانـاً، بعلاقـة أو معادلـة بـين حالنـا مـع الحـرب، وحـال اللحـم في العمـل الفـني: مـادة، مثلنـا تمامـا، قابلـة للتلـف، وغـير قابلـة للتكـرار». تجاوزا مع البعـد اللحمي في تركيبات هبـة الأنصـاري، يهتـم الفنـان السـوري أنـس حمـصي المقيـم في لبنـان بالوجـوه، سـحنات معدمـة مـن الملامـح، كتلـك الـتي تتداخـل وتتماهـى مـع الفنـاء، فتمـسي متماثلـة، خاليـة مـن المعـنى، تحـت صخـب الخـراب، بشـأن هـذا التصـور يـشرح حمـصي: «تختفـي العيـون في أغلـب الوجـوه في اللوحـات والاسكتشـات الـتي أنجزهـا، ذلـك أنّ هـذه الوجـوه والشـخوص لا تريـد ملامسـة الواقـع. فعندمـا يكـون الإنسـان نائمـاً أو ميتـاً، يكـون في عالـم آخـر تمامـاً، ليـس لـه علاقـة بالواقـع»، ويسـتطرد: «الحـرب والمـوت والتهجير والقصـف والعنـف هـي أمـور تقتطـع جانبـاً كبيراً مـن حياتنـا، لكـن يبقـى ثمـة جانـب آخـر. الطفـل الـذي فقـد أسرتـه في الحـرب، لـن نسـتطيع حرمانـه مـن اللعـب والضحـك في مخيمـات اللاجئـين. هـذا حـال الفنـان أيضـاً»[4].

إن حديثـا كهـذا الـذي أحالنـا عـلى الوجـوه، يجـرني للوقـوف عنـد أحـد أقطـاب الفـن السـوري المعـاصر، الفنـان والناقـد طـلال معـلا، الـذي ظلـت البورتريهـات الخياليـة عنـده بـدوره تمثـل قطـب الرحـى في أعمالـه الأخـيرة الـتي احتضنتهـا صالـة «تجليـات» في بـيروت (أكتوبر

٤- المعطيات وتصريحات الفنانين باعتماد: عمر الأسعد، "التشكيل السوري: سجلات بصرية لجرح مفتوح"، العربي الجديد، ١٩ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠١٤، https://www.alaraby.co.uk





٢٠١٥)، تحت عنوان «رأيت الناس»، كشعار يؤكد ضرورة التفكير بصوت عال من داخل الوسط البشري الذي صار محكوما بانحطاط الحضارة الإنسانية الحديثة، الموَجَّهَة بآلة الصراعات والحروب تحت جبروت العولمة وقيمها الاستهلاكية المادية. بالمناسبة، جاء في كلمة الصالة أن الفنان طلال معلا يعد «من بين أفضل ما يمثل علاقة الإيقاع البصري وتوترات الحضارة المعاصرة في اللوحة، وكل ما ينعكس على أسلوب الفنان الذي يتفاعل مع القضايا الإنسانية الراهنة، باعتبار الإنسان مركز الحياة، وباعتبار وعيه مركز التحولات. وما بين الوجه والجسد، تكمن هذه الانعكاسات الحادة لذلك القلق اليومي الذي يعيشه. وما لغات الأفكار التي يسعى معلا لترميزها إلا تكثيفا لتناقضات الذات من جهة، وتطلعاتها للخلاص من جهة أخرى»[٥]. هكذا جاءت سحنات طلال معلا مسلوبة من تقاسيمها الواقعية، ميالة إلى النبر التكعيبي الموصول بالتبسيط والمبالغة أحيانا، بوضعيات جسدية متحركة بقدر ثقلها وتباثها كنبتة الصبار على الأرض، في دلالة رمزية على التشبث بالحياة والعيش. لعل هذه الوجوه، كما قرأها الناقد الفني إبراهيم الحيسن في نصه التقديمي، هي «وجوه تسكنها الملامح من الداخل، وترى بعيون مغمضة، بجغرافية بصرية أخرى خاضعة للتعبير النفسي. هي ليست أقنعة محنطة لموتى، أو أيقونات أنجزت لتعيين فرد/جماعة ما. إنها لوحات ملونة تقدم طوبوغرافيا جمالية للوجه بعيدا عن المديح والمغالاة والوصف المجاني»[٦]. من ثمة، تصير مرئية المـُـحَيًّا استغوارا للكائن الإنساني الذي أضحى هنا موسوما بمادية ترابية، تتماهى وتتسامى مع طبيعة البيئة ومؤثراتها النفسية إلى أن تصبح شفافة ومعدنية، كأن الأمر يتعلق بسيرة الإنسان وتوقه لصلابة روحية تجاه تبدلات الحياة الموصولة بصور التشرد والضياع.

٥- كاتالوغ: طلال معلا، رأيت الناس، رواق تجليات، بيروت، لبنان، من ٠٥ إلى ٣١ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠١٥

٦- Ibid

الفن وروح القضية والالتزام

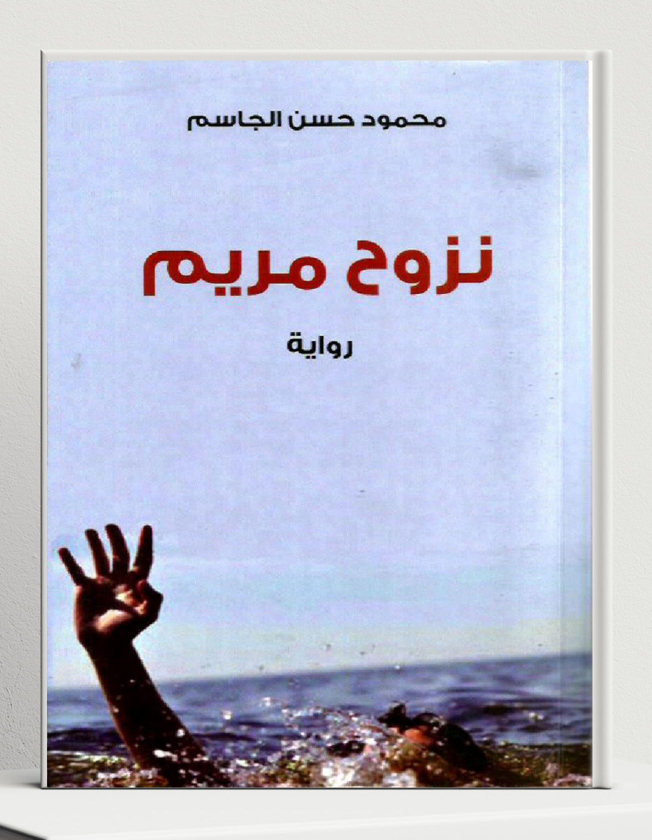
بناء على ما سبق، في محاولة إعداد إطلالة لامة وملخصة على الفن السوري الراهن، يبدو جليا أن الفن التشكيلي السوري، لدى مختلف فئات وأجيال التشكيليين، أضحى مرتبطا بروح القضية والالتزام، ضمن مشهدية موكولة لأوجاع وتقرحات ذات صلة وطيدة بالثورة والحرب والموت، كأحاسيس عابرة للقارات، توحد وتُشرك الرؤى بين المبدعين السوريين في العالم. وكخلاصة تستند إلى التقصي والمتابعة الحثيثة، يمكن الارتكاز على ما خلصت إليه جمانة الياسري في دراستها بكون «تناول موضوع هجرة الفن السوري اليوم وآفاق استمراريته في أماكن تواجده، يبرز مجموعة من القضايا المتعلقة بتحولات مكانية وجمالية وإنتاجية يمكن تشبيهها هنا بعملية الانزياح، ليس فقط عن المركز (دمشق)، وإنما أيضاً عن طبيعة الممارسات الفنية والثقافية نفسها، توجهاتها، الهدف منها، وكيفية تلقيها على المستويين السوري والعالمي. بالتالي، يبدو لنا من الضروري رسم خارطة جديدة للثقافة السورية تكون حدودها العالم. ومن المؤكد أن مسحا إقليميا ودوليا من هذا النوع، سيسمح لنا برصد احتياجات الحقل الثقافي السوري في واقعه الجديد كعملية خلق تحدث شئنا أم أبينا في الشتات، وتعاني من خطر القطيعة مع داخل باتت العودة إليه بمثابة حلم مستحيل. هذا لا يعني أن الفن الملتزم والمستقل توقف داخل سوريا، وإن كان لا يحظى بالتسليط الإعلامي نفسه المتاح لمن هم في الخارج، ربما أيضاً بسبب علاقته مع المؤسسات الحكومية التي قد تبدو إشكالية»[٧].

٧- جمانة الياسري، Op-Cit



اللجوء- التبشير - تيمة كتابية في الرواية السورية...

قراءة في رواية «نزوح مريم» لمحمود حسن الجاسم*





بقلم : جادالله الجباعي

كاتب وروائي سوري

* محمود حسن الجاسم (١٩٦٦) أستاذ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة حلب سابقاً، وفي جامعة قطر في العام ٢٠١٢. صدرت له ثلاث روايات "غفرانك يا أمي" ٢٠١٤، و"نظرات لا تعرف الحياء" ٢٠١٥، و"نزوح مريم" ٢٠١٥

«نزوح مريـم» جديلـة مـن الألـم والأمـل وخيـط واحـد تنسـجه «سـارة» مـن عـروق الذاكـرة وحمـى الجسـد. تضفره عـلى سنين «مريـم» وترسـله مـع ريـح الشـمال حبـل خـلاص يشـدها مـن عجرفـة اليقـين الثقيـل وبـرودة المنفـى نحـو الاحتمـال المكنـون في أغـوار النفـس وغياهـب الرغبـة. هـذا الاحتمـال المرغـوب معـززاً بالأمـل والإرادة كصيغـة ترجيـح تجـبُّ غـيره مـن الاحتمـالات هـو مـا ينشـده الـراوي ومـا يبـشّر بـه في روايتـه، وهـو مـا أراد تحقيقـه وتحقّقـه منـذ البـدء كإعـادة تشـكيل للوجـود وللـذات والهويـة.

«سـتعودين يـا مريـم تركـت لـك مفتـاح البيـت» «سـتعودين بمفتـاح البيـت وتغتسـلين بياسـمين الوطـن، لتدفـني ذل الـنزوح والضيـاع» ولعلـه اختـار ضمـير المخاطـب في سرد الحكايـة بلسـان «سـارة طـوني جبّـور» بطلـة الروايـة في الشـكل الظاهـري لبنـاء النـص، إمعانـاً في التأكيـد. واختـار مفـردة التدويـن ابتـداءً هروبـاً مـن اللايقـين ورائحـة العـدم، وتمسـكاً بالوجـود. وانتقـالاً مـن الحـرب إلى الحـبر أداةً لتثبيـت أركان هـذا الوجـود وتعيـين حدوده.»إليـك - مريـم- أدون الحكايـة، حـتى تعـرفي وتـروي مـا جـرى لنـا بصـدق».

مرثيـة طويلـة لـدم السـوريين المسـتباح وشـجن آخـر مـن أشـجان فواجعـه. «موليّـة» دامعـة وشـجية تطفـر مـن أحزانهـم وقهرهـم، و«تغريبـة» أخـرى لنزوحهـم وتهجيرهـم وهجرتهـم. تمتـد عـلى أربعـة فصـول ١- عـود الخـيزران، ٢- أيـام المُوليَّـة، ٣- كتـف العـاصي ٤- أسـماك القـرش، تشـكل فواصـل ذات تراتـب زمـني وسـببي لسـير الحـدث، مقسـمة بتناسـق وتقـارب في الطـول تحـت عناويـن رمزيـة متناسـبة مـع حمولتهـا الفكريـة والبيئيـة «وتـشي بعلاقـة عضويـة فنيـة بـين الفصـل وعنوانـه، وبـين مجمـوع فصـول الروايـة».[1]

وقـد اختـار محمـود حسـن الجاسـم في روايتـه «نـزوح مريـم»، أن يرسـم هيكليـة بنـاء الروايـة وتحديـد التخـوم البيئيـة والزمنيـة لهـا من الصفحـة الأولى بعد الإهـداء الموظف لنفـس الغايـة، ببيـان لا لبـس فيـه، وكأنـه يـبرم اتفاقـاً ضمنيـاً مـع القـارئ الـذي مـازال يراقـب الحـدث عـلى عـدم الدهشـة أو المخاتلـة في تغـير الجهـة المرسـومة لسـيره.»تراقـب الرقّـة تلـك الأيـام بعـين خائفـة». «تنهمـر الأمطـار عـلى سـوريا وتبـشر بخـير غـير مسـبوق»، «الشـوارع تغـلي بالتظاهـرات.

«نزوح مريم» جديلة من الألم والأمل وخيط واحد تنسجه «سارة» من عروق الذاكرة وحمى الجسد

تتفجـر ملتهبـة في سـماء سـوريا». تسـيل مثـل الحمـم البركانيـة في معظـم المـدن والبلـدات» «تفـور وتغـذى بالدمـاء والبـارود»، «يتوافـد النازحـون إلى الرقّـة والمدينـة تـزداد ازدحامـا»، «فـروع الأمـن والحـزب مسـتنفرة طيلـة الوقـت»، وبلغـة طليقـة رشـيقة، سلسـة وعميقـة مفعمـة بالمشـاعر في آن، يقـرأ الحكايـة مـن دفـتر «سـارة»، وصيتهـا الأخـيرة، ومـن ذاكـرة تفيـض بتواتـر سريـع لاهـث هربـاً مـن هذيـان الحمـى لتحافـظ عـلى اتسـاقها الزمـني وتوازنهـا، وتسـابق الأجـل عـلى إنهـاء حكايتهـا. «سـارة» الـتي وصلـت مـع وحيدتهـا الصغـيرة «مريـم» (البطـل الـذي يحمـل ألـف وجـه)، كمـا هـو عنـوان روايـة جوزيـف كامبـل، هـذا الأخـير الـذي اكتشـف أنـه، وفي جميـع الأسـاطير والثقافـات، منـذ الأوديسـية، وحـتى الزمـن المعـاصر، يسـير البطـل عـلى الـدرب نفسـه، ويسـعى إلى الهـدف ذاتـه، وهـو يخـوض رحلتـه ومغامرتـه، ويواجـه كل مـا يعـترض سـبيله حـتى النهايـة، ولا يكـترث إن انتهـت الحكايـة بالحيـاة، أو المـوت دونـه.)[2] وصلـت بضربـة قـدر أعمـى إلى مخيمـات اللجـوء السـوري في مدينـة «غـازي عنتـاب» عـلى الحـدود التركيـة السـورية، بعـد تغريبـة نـزوح مـرٍّ، وهـول معانـاة مـن الخـوف والرعـب والعـذاب وهـدر الكرامـة الـذي طـال إنسـانيتها وجسـدها عـلى أيـدي أمـراء الحـرب السـورية ومليشـياتها «الشرعيـة» و«غـير الشرعيـة» وتجارهـا. في رحلـة نـزوح تبـدأ مـن مدينـة الرقّـة شـمال سـورية إلى محـردة مسـقط رأسـها وبيتهـا الأليـف الـذي خـرج عـن «جماليـات المـكان»[3] بمـا حـال عليـه مـن الزمـن المـرّ، ثـم إلى بـيروت وإلى قـوارب المـوت ومافيـا الرقيـق الأبيـض وحـرس الحـدود الـترك؛ فالخيمـة الـتي تجمعهـا مـع أسرة سـورية أخـرى تشـبهها في الفقـد والمعانـاة في معسـكرات الـنزوح التركيـة شـأنها شـأن أقرانهـا مـن السـوريين في المهجـر وفي الوطـن، والرقّـة الـتي تشـكل أحداثهـا ومصائـر أهلهـا بـؤرة الحـدث في النـص، منطلـق الحكايـة.

١- محمد عبدو فلفل"بوح اللغة ودلالة البنية": قراءة في رواية «نزوح مريم» لمحمود الجاسم(الفداء: يومية سياسية تصدر عن مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع - حماة - العدد: (١٥٢٤٦) الخميس (٣١آذار ٢٠١٦).

٢- نزوح مريم: وصف القيامة السورية- مخلص الصغير- صحيفة العرب: (نُشر في ٢٠١٦/٠٢/٢١، العدد: ١٠١٩٢، ص(١٢))

٣- "غاستون باشلار- جماليات المكان (في حياة الإنسان ينحّي البيت عوامل المفاجأة ويخلق استمرارية، ولهذا فبدون البيت يصبح الإنسان كائنًا مفتتًا. إنه -البيت- من يحفظه عبر عواصف السماء وأهوال الأرض)



ألف موت وموت أهون ألماً وأخف أثراً في النفس من ألم الفقد والذل والجوع والمهانة والخوف من المجهول

تحكي «سارة» بما يشبه المونولوج الداخلي من ذاكرتها المعافاة؛ لأنها ذاكرة القهر التي لا تنسى، تحكي الحكاية لابنتها «مريم» بطلة الرواية في البنية العميقة للنص من البداية، فتجدل الزمن جدل ضفيرة يتناوب فيها الحاضر والماضي، والماضي الأبعد قليلاً في الظهور والتخفي فتأتلف الأزمان الثلاثة دونما تراخ أو نشوز في استرسال إيقاعي رتيب لا انقطاع فيه ولا تكسّر، وكلما اشتد وقع الألم في وصف المشهد المأساوي على المتكلم والمتلقي في آن، وتسارع إيقاع الكلام المشحون بالشجن، وأثقلت الكلمات القاسية المنفّرة المعبرة عن الخوف والرعب والقتل والسحل على النفس. يلجأ الراوي لتقنية المفارقة لإعادة «شحن مستشعرات التذوق للمتلقي» بقلب جديلة الزمن نحو الماضي بصورته القارّة في الذهن والذاكرة، صورة السكينة والجمال وأيام الحب والبيت الدافئ في ذاكرة محب يتعلل بوصال بعد شوق ولهفة. تستريح اللغة ويتناغم إيقاعها مع دفء المشهد وغاية الوصف. تتغير المفردات وسمات الوجوه والمعالم، تَلبس أوصافاً أخرى ويبدو على الزمن صفات الاسترخاء والتباطؤ ويتهادى الإيقاع. كأنما هي محاولة من السارد أن يبقى في مجال الجمال ويحاول عبثاً الهروب من عالم الحرب والعنف والبشاعة. فتقفز أيام «سارة» الأولى أمامها، «مزرعة النجاة» ومديرها هاشم «عود الخيزران» وبريق الحب في عيونه حين استقبلها في مكتبه مع زميلتها الحلبية «هدى» في أول يوم قدمت فيه إلى المزرعة كمعلمة للغة الإنجليزية، موظفة حديثاً تمضي خدمة الريف بلباقة وكياسة رجل مثقف، عارف، واثق مع دماثة فُراتية، ويعود للرقة وجه الطيبة والبساطة، رغم قسوة المناخ وبعض الجلافة البدوية التي يتميز بها هذا الشمال المهمل، لكنها لا تقلل من طيبة ناسه وكرمهم، تسامحهم الديني وحسن طويتهم وتمسكهم بالحياة وقدرتهم على الفرح. يعود لها وجه العمة «خديجة « أم هاشم وبشير التي تحمل هذه الصفات. وجعلتها المخيلة الفنية «عمتي خديجة» دوماً كشخصية تحمل حمولة فكرية تشي بعلاقة حميمة وتعايش مريح دافئ مع «سارة» المسيحية. والتمزق الداخلي الذي تعيشه في الخلاف المستمر بين ابنيها وحوارهما الذي لا يترسم نتيجة تُرتجى أبداً، ولا يعدو كونه إطلاقاً متبادلاً للكلام، وما يحمله اسمها من دلالة رمزية ودينية كمثال للتعايش مع الجميع بكل محبة وطيبة قلب، رغم الاختلاف.

ثم تسحبها الصور نحو «محردة» كأنها تجري مقارنة غير مقصودة، فتأخذها الذكرى نحو طفولتها وبيتها، نحو العاصي وجماله، وصديقة العمر «رنا شلهوب» المهاجرة، والتي ستصبح ملهمتها في رحلة الهجرة المتعثرة التي أوصلتها إلى خيمتها تلك. نحو ذكرى أمها المتوفاة مذ كانت هي في الثامنة من العمر وأبيها الذي انقطع التواصل معه بسبب معارضته لزواجها من هاشم المسلم السني المختلف عنها بانتمائها الديني كمسيحية محردوية، وكذلك عمها الطبيب «جورج» الشخصية النافذة اجتماعياً وسياسياً من غير سياسة، كحال الكثيرين مثله في «سورية البعث»، والذي كانت تراهن على اتصالاته لنقل وظيفتها من الريف ومن ثم تناست الأمر بعد غرقها في حب «عود الخيزران» الذي غير وجهتها، فتغير في نفسها وفي عينيها وجه المكان.

إلا أن الزمن لا يرحم، والذكريات لا تتناسل كما نشتهي، فما تلبث ضفيرة الزمن حتى تنقلب ليعود زمن الوجل والخوف ثانية إلى السطح، أنها تشبه أيام الهدوء بين أيام الجمعة من كل أسبوع، حيث يميل الناس لتجاهل ما يحدث أحياناً، إلا أنه يعود بشكل «مخاتل وعنيد» «يتوارى خلف الواقع ويقهر التجاهل» من جديد. هكذا ستظهر مصيبة ذاك الخميس ١٥ مارس/ آذار ٢٠١٢ والجمعة التالية الدامية التي غيرت وجه الرقّة ومصائر ناسها مع مقتل الشاب «البابنسي» في التظاهرة وتشييعه الدامي في اليوم التالي، لتفتح تساؤلات تركت أجوبتها معلقة حتى اليوم. «هل مصيبتنا كبيرة! أكبر من مظاهرة وثورة؟»، و«هل البلد مقبل على مستقبل مجهول؟»، و«لماذا كل هذا العنف؟»، و«إلى متى؟ وكيف؟».

السؤال يبقى معلقاً لكن العنف يزداد والحقد يكبر، يتدحرج ككرة الثلج إلى كل الأماكن والبيوت، يدخل في النفوس، ويعيد الإنسان نحو البشري الأول ونحو الوحشية والبريّة، ونار الحرب تتأجج، تتغذى من اللحم والدم والشجر والحجر، ومن المواقف والمنافع، الفاعلة منها والسلبية، ومن الداخل والخارج،



من التاريخ، ومن الماضي والحاضر. ويستمر سيل الزمن ونزف الذاكرة وتمسح سنة من عمرها وعمر «مريم»، أي من عمر سورية، تجدل الألم على الأمل والحزن على الفرح فتسحب القارئ من تلابيبه بيد خفية لتبقيه مع الحدث الموجع الذي سئم قراءته ومشاهدته ومعايشته كأنها تبتكر بجدل الزمن وتضفيره تقنية تشويق للاستمرار بقراءة حدث غير مشوق. فكلما بدا على القارئ التململ والألم من وقع اللغة الصاخب وصور الموت والوحشة والدوي والهتاف الهائج والضرب والصراخ والسحل والقتل والقنص وفرقعة الرصاص والتنكيل بالجثث وأصوات الاستغاثة والتهليل والتكبير والسب والشتم ورائحة الموت وطعم الدم المالح كما في وصف تظاهرة التشيع في الجمعة الدامية وممارسات العسكر وقوى الأمن ومحازبيهم والوحشية في تفريق المتظاهرين، والتي كان «لسارة» منها نصيب مماثل بمصادفة الوجود في نفس المكان والزمان لتكمل شهادتها. وكذلك اقتحام المنزل، منزل سارة وعائلتها، على اعتباره بيت «الشبيح بشير» بعد سقوط الرقّة بأيدي المعارضة المسلحة وداعش، والإسهاب في وصف مظاهر العنف والوحشية والكره والحقد ورائحة الأجساد ومظاهر الوجوه المنفرة.. حتى تنقلب جديلة الزمن من جديد فتعيد السكينة والهدوء والتشويق لمتابعة الحدث. وبالرغم من أن التقنية ليست جديدة في البناء الروائي لكن يُحسب للجاسم إتقان مداخلها ومخارجها بشكل لافت.»رفعت وجهي إلى يسوع. كانت السماء شاحبة، ثم تحولت إلى ظلام حالك اختلط فيه وجه هاشم بوجهك يا- مريم- ووجه عمتي ووجه أمي!».

هكذا بتناوب مستمر، يقلب الراوي جديلة الزمن موحياً في كل مرة وكأن حدث الفجيعة والموت والعذاب قد انتهى. لكن جحيم الأسئلة المكنونة في النفس لا يهدأ ولا يبرد، والمصائر مازالت معلقة. وما انتهى ليس إلا فصلاً أول من فصول العذاب يجر خلفه فصولاً قد لا تنتهي، ولعل صور الموت والقتل والسحل وطعم الدم المالح في الحلق، تغدو أقل وقعاً في النفس من عذاب القهر والفقد والعجز التي يعجز الكلام العادي عن حمل مشاعرها، فيتولى الرثاء الموزون الموقّع على وقع «المُوليّة» نسجه نشيجا ممزوجاً بالأنين يستنطق حتى البيئة المحيطة من شجر وحجر وحيوان بلغة الفقد والحسرة في الفصل الذي اختار له عنواناً يحمل حمولته «أيام المُوليّة». فالصور تصبح أكثر ألماً. «كان غياب هاشم قاسياً. الفجيعة غير متوقعة. تركت جروحاً عميقة وناراً تكوي كالجحيم. بقي مكانه في البيت مثل محجر العين الفارغ. انطفأ النور في عيوننا. تتخبط

وحده تمسكها بالحياة، والأمل بالنجاة ولقاء الأحبة، والشعور بالمسؤولية تجاه «مريم» وحياتها يبث في نفسها شعور التحدي والتوازن ومغالبة المخاوف

في ظلام الوحشة مثل السبايا». «الحمام يتصارع غاضباً، يهدل طيلة الوقت. بقايا الأشجار في البيت كأنها مفجوعة تندب عزيزاً. حين يهزها الهواء تنوح وتنوح، لها حفيف متواصل، مثل عويل لا يرحل» «مواء القطط صراخاً شيطانياً حاقداً».

ألف موت وموت أهون ألماً وأخف أثراً في النفس من ألم الفقد والذل والجوع والمهانة والخوف من المجهول و»الغربان السود» التي غزت أرض الرقّة وسماءها، وكأنهما في تواطؤ مكشوف يستهدف حرق الرقّة وأهلها وناسها. فلا فرق بين الطلقة الشرعية وغير الشرعية مادام الصدر أو الظهر المتلقي واحدا، ولا فرق بين التفجير والبرميل المتفجر عندما يعجن الخبز بالدم، ومادام المستهَدف واحدا، ولا فرق بين العَلم والراية، والحاجز والحاجز ما دام الموت واحدا، ولا فرق بين الخيمة والخيمة، والمناصر والرافض، والفاعل والسلبي مادام النازح واحدا والمنفي واحدا والمهجّر واحدا.

لكن «سارة» تجهد من جديد لتمسك بحبل النجاة. تغالب الوجع المتسرّي بشغاف القلب، وتشد الخاصرة الرخوة لتوقف نزف الجرح، وتبصق علقة الدم، وتقلب جديلة الزمن الدامية إلى حين وتبسط خصلة الحياة. تفتح عينيها فتلفحها شمس الرقّة، تدفئ عظامها المقرورة من برد الثلج وبرودة الخيمة. فتمتد «مزرعة النجاة» أمامها كأنها «أرض الحويلة» ويد المخلص على بعد شهقات من مرمى النَفَس. يصير للمخلص وجه هاشم، يستقبلها في مكتبه بعد أن قَبِلتْ رسالته من «مريم أم حميدي» يعود لفمها طعم «حلويات ابن الوليد» الحقيقي، هدية هاشم مع «أم حميدي» آنذاك وليس طعمها الملتبس حين جلبتها «نوريّة» أخت هاشم وزوجها «وائل» في أيام المحنة. وكأن الروائح والطعوم جغرافيا وتاريخ، وللمطابخ نصيب من صفات الحضارة. ويعود



رواية «نزوح مريم» واحدة من الروايات السورية المنتجة في السنوات الخمس الأخيرة التي شكل الحدث السوري ثيمة لها

أمامها «عود الخيزران » بكامل هيبته، ونظراته التي تفضح مكنون أسراره وتخترق غرورها وغنج البنات ومكمن أسرارها وأحلامها. لكن يد سارة المرتعشة الواهنة تفلت حبل النجاة، تغرق في بحر العدم فتنقلب الجديلة وتتشوش صورة «عود الخيزران» تتلقفها، وتحاول رسم ملامحها في وجه «العمة خديجة أم هاشم » الذي أوهنه الفقد والمهانة. أما وجه «العمة خديجة»، فقد هوّم في البعيد، يتقصى أخبار هاشم ، يتذلل للمسلحين والمتعاملين معهم. يسأل ويتوسل ويكتوي من جديد بالخيبة ومرارة الواقع. «فتعود للجلوس على الأرض أمام باب الحوش، تبكي بصمتها المهيب، ويصير الباب جليساً حياً» يشاركها النشيج. والسواد يغطي الرقّة يغير وجهها وملامحها. تستعيد كلماته: «يا سارة أمي تتعلق بي، لأني أشبهها. كأني نسخة منها، الفرق أنها بيضاء، ظهر فيها لون جدتي الأرمنية». لكن سر تعلق الأم بابنها أكبر من موضوع الشبه، سر يدفعها لقبول الموت الصامت في انتظار هاشم ، وتفضيله على النزوح من جانب قبر أبيه. «يا ابنتي ذرية هاشم ما تطلع من بيتي! وهاشم يا سارة نتركه؟» وبهذا تقرر الانطفاء كما «انطفأ الفرح ونشوة النصر المدوية التي استحوذت على قلوب المعارضين». ولم تترك لسارة ومريم إلا خيار الرحيل. فالرقّة «أصبحت مرعبة قاحلة مجدبة، تهجس بمخاوفها الليلية، وقد وقعت فريسة لمخلوقات جديدة! تذوي وتموت الأزهار فيها، ويتجمد الدم في العروق، ويفسد الهواء». فوجوه الأحبة غيبها السواد والبيت الحميم فقد جمالياته بفقد المسامرين، والوحدة في عالم الخوف والوحشة قاتلة، ومرض مريم وازدياد نوبات التشنج بفعل ما شاهدته من عنف وما تعرضت له من ضغط ورض نفسي لا تعي أسبابه، وفقدها لمن تعلقت بهم من الأهل إضافة لما استحال إليه واقع الحياة في المدينة تحت سيطرة المتشددين وتنظيم « داعش» وما يتوارد من أخبار عن ممارساتهم بحق السكان من سلب ونهب واغتصاب للعقول والأجساد وانتهاك لكرامة الإنسان، مع التشجيع الذي لاقته من الأهل في «محردة» جعل النزوح خياراً وحيداً لا يقبل التأجيل.

وهكذا تنهي «سارة» فصلاً من الرواية وفصلاً من تاريخ الرقّة، توقف فيض مشاعر الألم الذي تدفق من الذاكرة كما تتدفق مياه الفرات تحت جسر الرقّة وتلطم جدرانه بعنف وكأنها تفيض من سد تصدعت حواجزه. تلقي نظرتها الأخيرة على الرقّة، على جنتها التي طردت منها بخطيئة الحب، وكأنها تعيد تاريخ الخلق من على كتف الفرات النهر الأخير من أنهار الجنة من فوق جسر العبور، وتيمم شطر نهر آخر، نحو نهر العاصي، لتقف على كتفه في رحلة عذاب جديدة، رحلة البحث عن الذات والهوية. باسم مستعار وهيئة مزورة وسجلات مزورة، ودون هاشم ، إنما مع ما بقي منه في إرثه وموروثاته ورائحة دمه، مع «مريم» والذكريات تكتب «سفر خروج» جديد، وتبحث في التيه عن معالم كانت تعرفها، لكنها تغيرت، وتشوشت صورها بفعل ما استُحدث فيها من مسالك ومساكن وخيم ووجوه تشبه الجروح والدمامل المتقيحة الدامية تحت سماء غشاها الدخان الأسود من محارق تكرير النفط، ودموعها المنهمرة، وسواد الخمار الذي أحال الكون إلى لون واحد، هو اللون الأسود. وأحال الأبيض لوناً عدمياً، فصار لباقي الألوان في العين طعم الانطفاء.

وحده تمسكها بالحياة، والأمل بالنجاة ولقاء الأحبة، والشعور بالمسؤولية تجاه «مريم» وحياتها يبث في نفسها شعور التحدي والتوازن ومغالبة المخاوف والإصرار على الوصول. ويبقيها على قيد الوعي، معززاً بتشجيع وألفة رفاق الطريق» الجار سالم وأمه» وطيبتهم وتضامنهم مع مصيبتها، ويدفعها لمتابعة السفر وتخطي عقبات الطريق وحواجزها، وتحمل رؤية وجوه الحراس المنفرة والمخيفة التي يلوح من محاجرها شبح الموت «كأنها صور آدمية لوحوش بأنياب سامة». فالمحن الكبيرة تشد أزر الناس وتوحدهم مثلما تفرقهم. وما أن تلوح في الأفق معالم «مزرعة النجاة » حتى تعيد السكينة للنفس، فتنقلب جديلة الموت والرعب لتظهر جديلة الذكريات الجميلة «هناك لحظات في حياة الإنسان تختلط فيها مشاعر الألم والمتعة والحب والبغض والاستسلام والتحدي! تختلط الشهوة العنيفة للحياة بالشعور الحاد بالخيبة». رغم أنها ستودعها هي الأخرى كما ودعت الرقّة وفي الذاكرة صور يختلط فيها الجمال بالقبح والطيبة بالقسوة والحب بالبغض وهديل الحمام بنعيق الغربان. وتختلط صور الولائم في بيت «أبو سلطان وزوجته» رفاق الرحلة الجدد - والأهل



الجدد بعد تعديل طفيف في الهوية - ورقص الفتيات يتناوبن على الدبكة والرقص مع «هاشم» ويثرن نار الغيرة في قلبها تختلط مع صور النازحات والقدور حول الخيم، «نساء غاطسات في الوحل، يخنقهن حطب مبتل بالرطوبة الموحلة». يجللهن السواد من الداخل والخارج. واللايقين والتكهن حول المصائر وأسباب الفجائع ومن سبّبها يبقى جرحاً طرياً مفتوحاً، سؤال معلق برسم الإجابة؛ فالفاعل عبث بمسرح الجريمة، حرق الأدوات وبعثر الأدلة، وكل شيء تغير وتزور. الأسماء تغيرت والطرق تغيرت ومعالم البلدات تغيرت والوجوه تغيرت والرايات والأعلام والغايات تغيرت، والأصوات وكلمات اللغة تغيرت، وصفات الإنسان تغيرت، ورائحة الياسمين والليمون والجوري والعنب في محردة تغيرت، ولون الدم تغير وتزور، وجه الأب ورائحة البيت وأسماء الجيران تغيرت، الروائح والطعوم تغيرت والأدعية والصلوات تغيرت، حتى وجه الله تغير. وحده صوت «رنا شلهوب» الذي يحث على الهجرة وتوديع المكان لم يتغير. وشكل الوجوه المتوعدة بالموت والحرق والخراب لم تتغير، ووجه المغتصِب لم يتغير والجزمة السوداء ذات الساق لم تتغير ولعل أسماك القرش لم تتغير.

ملاحظات ختامية:

١- تركيز الرواية في رصدها للحدث السوري على الطبقة المتوسطة عموماً «أسرة هاشم» الرقاوية بعد تغييب الأب -رمز السلطة البطريركية في المجتمع المتخلف- و«أسرة مريم» المحردوية بعد تغييب الأم رمز الارتباط العاطفي فتجاوزت بذلك عقبات الزواج من خارج المعتقد الديني «زواج هاشم من سارة» من جهة، لكنها أبرزت درجة الاختلاف في الثقافة والوعي الاجتماعي بين الجنسين، رغم أن كليهما من الفئة المتعلمة و«سارة» قد درست آداب حضارة متقدمة «الأدب الإنكليزي» ومن بيئة اجتماعية منفتحة نسبياً.

٢- في الرؤية الأيديولوجية أبرزت الرواية موقف الأسرتين السلبي الصامت من مجريات الحدث السوري والتوجس منه أصلاً، فرغم تفهم «هاشم» لضرورة التغيير ونقده لسلوك السلطة السياسية والأمنية وممارساتها الوحشية بحق المتظاهرين ممثلة بالخلاف مع «بشير» الأخ البعثي ونقد سلوكه ومواقفه الأنانية والنفعية، اتخذ موقف الحياد والنأي بالنفس منذ اللحظة الأولى، ولم يخفِ توجسه في تعبيره عن وصول المظاهرات إلى الرقّة «وصل البلاء إلى الرقّة»، وهو الخيار الذي انتهى بهذه الأسر إلى تجرع المعاناة والتفكك والهجرة.

٣- الصورة التي رسمت فيها «سارة» سوريا قبل ٢٠١١ و٢٠١٢ والرقّة خاصة من الذاكرة هي صورة زاهية ناصعة مريحة ودافئة في العيش والتسامح بين مختلف مكوناتها الاجتماعية وعقائدها الدينية، ومثل هذه الصورة لا تشكل إلا من مخيلة تمتح من حنين مهاجر.

٤- لم يتفرع عن الحدث الرئيس في النص أي حدث فرعي يعود بالزمن إلى الخلف ويشي بماضي أي من شخصيات الرواية ليستكمل رسمها وتحديد معالمها الكيانية.

٥ - بمغامرة جريئة يقحم الجاسم الرواية في منافسة علنية مع القصيدة والصورة والخبر في رصد اليومي الواقعي فنياً قبل أن تتكشف مآلاته، وفي حقلٍ لم يكن حقلها من قبل، وزمن ليس زمنها، إنما زمن الصورة بكل المقاييس. هل هو أثر التحولات الشاملة للربيع العربي على الفكر والأدب؟ وهل تتوفر الرواية على هذا القدر من الحيوية والمرونة الكافية لكسب الرهان على تلك المنافسة؟ ربما من المبكر الحكم على ذلك، فالحدث لم تلح تباشير انتهائه بعد، وحبر الرواية لم يجف.

فرواية «نزوح مريم» واحدة من الروايات السورية المنتجة في السنوات الخمس الأخيرة التي شكل الحدث السوري ثيمة لها، «فلجأت إلى اليومي والإنساني منسجمة مع الحدث هاربة من الحسم الأيديولوجي ومكتوية بناره في آن»[٤] فقد جعل هاجس القرب والمصداقية والشعور بالهّم العام لدى الكتاب من الكتابة الروائية توثيقاً لليومي والآني وشهادة حية له، فغاب التخييل في كثير من الحالات وتراجع الاحتفاء بالشكل الفني في بناء الرواية والعمق في رسم الشخصيات وتحليلها إلى هذا الحد أو ذاك، وتقلص الزخم المعرفي والثقافي وحل الوصف الدقيق للمشهد محل التحليل. رغم ما قدمته تلك النصوص من جماليات على صعيد التنويع السردي واللغة والصور المشهدية التي تتفاوت بين نص وآخر.

٤- أحمد جاسم الحسين: المدونة العربية الراهنة- الجديد، نُشر في ٢٠١٦/٠٤/٠١، العدد: ١٥، ص(٣)



السينما واللجوء... الجماليات المتلاشية





بقلم : محمد اشويكة

كاتب وناقد فني من المغرب

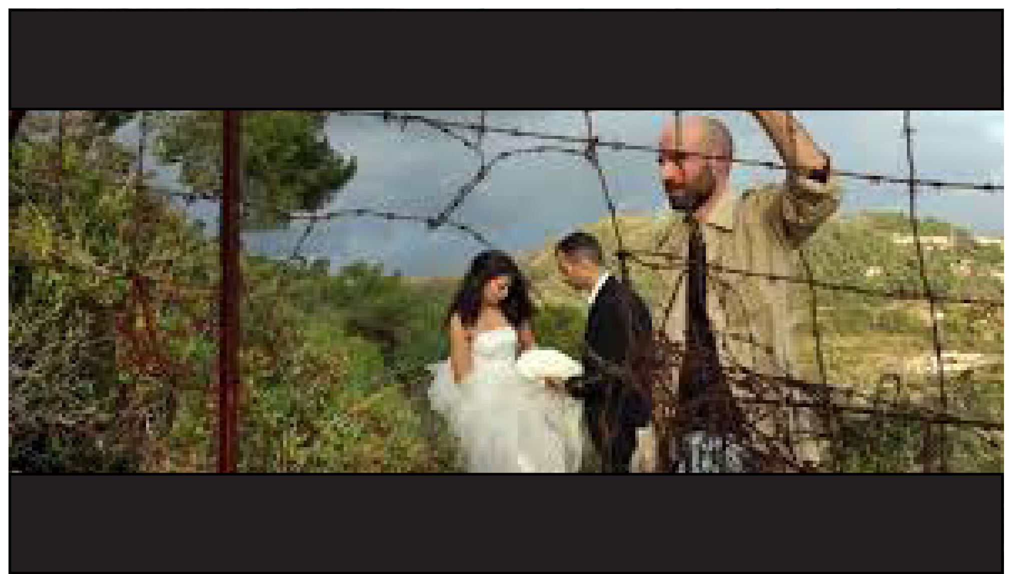
-أ-

تتناول السينما موضوع اللجوء بطرق مختلفة، ولا تصوره إلا في ارتباطه بقضايا أخرى أهمها الهجرة وعمليات النزوح الجماعي الذي يضطر إليه بعض الأفراد والجماعات بسبب اضطهادهم وقساوة الأوضاع التي تُرْغِمُهم على مغادرة أوطانهم ومساكنهم التي لم تعد آمنة، وإحساسهم بالخوف على أرواحهم وعائلاتهم نتيجة عدم تمكينهم من الحماية، وقد جرت العادة على تسمية هؤلاء بالنازحين حين انتقالهم داخل حدود بلدهم. أما خروجهم منه، فقد يتحول إلى لجوء، وتتعامل معهم «مفوضية الأمم المتحدة السامية لشؤون اللاجئين» وكذا بعض المنظمات المماثلة على أساس واحد يهدف إلى توفير الحد الأدنى من الظروف الملائمة للاستقرار في انتظار حدوث العودة أو انفراج الأزمة التي ساهمت في ترحيلهم، ويمكن الحديث عن اللجوء السياسي والترابي الذي يحدد بموجبه القانون الدولي كل شخص يبحث عن الحماية خارج حدود وطنه الأصلي، وهو حق من حقوق الإنسان[١].

تتناول السينما موضوع اللجوء بطرق مختلفة، ولا تصوره إلا في ارتباطه بقضايا أخرى أهمها الهجرة وعمليات النزوح الجماعي



تحفل السينما العالمية بكل أنواعها، وخاصة الروائية والوثائقية، بعدد كبير من المعالجات السينمائية لقضايا اللجوء والفرار بشكل عام. ومن أشهر القضايا التي عالجتها الأفلام لجوء اليهود في زمن هتلر، وما واكبه من روايات وحكايات سينمائية لا يوازيها في تاريخ الإنسانية إلا حكاية النزوح والتهجير القسري الذي قامت به إسرائيل في حق الفلسطينيين، وكأنها تعيد الانتقام من التاريخ بشكل يضاعف العنف والقسوة والشر.. وهناك أفلام النزوح اليوغسلافي التي ظهرت أثناء وبعد مذابح البوسنة والهرسك وخاصة مذبحة «سربرنيتشا» كما أعاد روايتها المخرج «سمير ميهاينوفيك» في فيلمه الوثائقي «ضباب سربرنيتشا» (٢٠١٥).. وجدير بالإشارة إلى هجرة الأرمن التي



١- تضمنت المادة ١٤ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان منذ سنة ١٩٤٨ ما ينص على أن الحق في اللجوء حق من حقوق الإنسان، وهو ما شرحته اتفاقية جنيف المتعلقة بحقوق اللاجئين منذ ١٩٥١



راكمت السينما الفلسطينية عبر مختلف أجيالها كَمّا مهمّا من الأفلام المضادة للسينما الصهيونية

عالجها المخرج «فاتح أكين» في فيلمه الروائي «القَطْعُ» (٢٠١٤).. فضلا عن مآسي اللجوء في دول إفريقية كثيرة منها إثيوبيا والصومال وجنوب السودان ورواندا التي اقترح المخرج الكندي «روبير فاڤرو» رؤية خاصة لها في فيلم «يومُ أَحَدٍ في كيغالي» (٢٠٠٦).

تُجْمِعُ هذه الأفلام على صور واحدة للمأساة الإنسانية، فلو كانت الأفلام الروائية تعيد إنتاج الأحداث وتتخيلها بناء على ما وقع بغرض الفضح والتجاوز لبناء عالم أكثر سلاما، فإن الأفلام الوثائقية تؤرخ للوقائع، وتسجل شهادات حية للضحايا والناجين من هذه التراجيديا البشرية المعاصرة والمخيفة، ففي الوقت الذي يسير فيه العَالَم نحو التقدم، وينشد التحرر والتآخي والتآزر، تزداد الوحشية، وتتباين الفوارق، ويغلق الإنسان الحدود في وجه أخيه الإنسان تحت ادعاءات، بعضها واه، وآخر تغذيه إيديولوجيا العنف والقتل والتطرف والتعصب بكل التوابل القادرة على استنساخ ما يُضَادُّه من ممارسات وأفعال لن تزيد الإنسانية إلا غرقا في البشاعة مثلما يغرق آلاف اللاجئين في مياه البحر الأبيض المتوسط التي تحولت من مهد لأعرق الحضارات إلى قبر عائم للبشر.

-II-

لم يعرف العَالَم العربي تدفقا للاجئين أكثر من الفترة الحالية، والسبب يعود إلى ما بعد «الربيع العربي» الذي خلف الحرب والصراع الطائفي والدمار والتشتت والرحيل والإبادة في أكثر من بلد عربي، وجعل منطقة الشرق الأوسط ومحيطها بؤرة ساخنة تشهد أفظع الإساءات لما راكمته الإنسانية من مبادئ وقيم عليا، وقد انخرطت السينما، شأنها شأن بقية الفنون المتفاعلة مع محيطها القريب والبعيد، في إنتاج أعمال فنية راصدة لظاهرة اللجوء ومحللة لها، وذلك بالاستناد على ما بادر إلى إنجازه بعض أبناء المنطقة وغيرهم من الأجانب مما أسهم في إغناء الرؤى وتطوير المقترحات السينمائية؛ وهكذا، تصدرت قضية اللجوء والهجرة المهرجانات الدولية الكبرى؛ إذ فاز الفيلم الوثائقي «نار في البحر» (Fuocoammare) [٢٠١٦] للمخرج الإيطالي «جيانفرانكو روسي» بجائزة الدب الذهبي في مهرجان برلين السينمائي، وهو العمل الذي يتناول قصة طفل يعيش في جزيرة لامبيدوزا المعزولة وسط البحر الأبيض المتوسط، والتي صارت ملاذا يقصده المهاجرون الأفارقة وغيرهم. وفي نفس السياق حاز الفيلم الوثائقي القصير «رجل يعود» للمخرج الفلسطيني، المقيم بالدانمارك، مهدي فليفل على جائزة الدب الفضي للجنة التحكيم الخاصة، والذي يتناول بدوره حكاية «رضا» الذي يعود إلى مخيم عين الحلوة في لبنان بعد فشله في الحصول على صفة لاجئ بأوروبا، ليكتشف أوضاعا مختلفة وغامضة بانتظاره، ويندرج هذا العمل ضمن مجموع أعمال المخرج

الوثائقية الأخرى حول اللاجئين، ومن بينها «عالم ليس لنا» (٢٠١٢) الذي يرصد قضايا عائلية مرتبطة بالأمومة والأبوة والأخوة والصداقة من داخل مخيم عين الحلوة بجنوب لبنان، وذلك عبر تسليط الضوء على حياة ثلاثة أجيال عاشت في المنفى بعيدًا عن دفء الوطن المسلوب، وقد اعتمد المخرج في فيلمه على تسجيلات خاصة ونادرة، وهو الأمر الذي جعل منه وثيقة تاريخية تحفظ ما اندثر، وتُذَكِّرُ بما فات...

ويتناول المخرجان الأمريكيان «كريس تمبل» و«زاك انجراشي» في فيلمهما الوثائقي «سلام يا جار» (٢٠١٥)، مآسي اللاجئين السوريين بمخيم الزعتري الذي تحتضنه مدينة المفرق الأردنية بعد أن عايش المخرجان خمسة وثمانين ألف لاجئ سوري كعينة من النازحين المتفرقين بدول الجوار منذ اندلاع الأزمة سنة ٢٠١١، والذين باتوا عرضة لشتى أنواع الاستغلال والاتجار في البشر مما يكرس استفحال قيم الجشع الرأسمالي والاقتصاد غير المهيكل الذي ينتعش في الأزمات، والذي تُدَبِّرُه مافيات محمية ومتواطئة مع الأنظمة وغيرها من الوسطاء المتاجرين في السلاح والمخدرات والعملات والأعضاء البشرية...

راكمت السينما الفلسطينية عبر مختلف أجيالها كَمًّا مهمًّا من الأفلام المضادة للسينما الصهيونية؛ إذ أَرَّخَت للنكبة التي طالت الفلسطينيين منذ ١٩٤٨، ومنها ما ارتبط بالثورة والقبول بالحل السلمي ومنها ما التصق بالانتفاضة والاستشهاد.. ونذكر فيلم «يوم الأرض» الذي أنجزه المخرج غالب شعث سنة ١٩٧٨ للإشارة إلى اهتمامات الجيل الأول من المخرجين الذين اهتموا في غالبيتهم بأحداث الانتفاضة الشعبية

تُصَوِّرُ بعض الأفلام وخاصة منها وثائقيات الويب (Web Documentries) اللاجئين كأناس غير مرغوب فيهم، وذلك ضمن رؤية مشابهة لما تزودنا به جل وسائل الإعلام



ضد المحتل، وتصدت لسياسة مصادرة الأراضي التي كانت تتم بحجج وذرائع مختلفة منذ عام ١٩٧٦، ويقدم الفيلم العديد من الشهادات والحوارات مع فلسطينيين من مختلف المواقع الفلسطينية ذات الصلة بالأحداث ليقدم الفيلم نفسه إثر ذلك كوثيقة سينمائية عَمَدَ مخرجها إلى توليف بصري لجملة من الوثائق السمعية البصرية التي أنجزها مصورون أجانب على مستوى التصوير والتسجيل والحوار.

ومن النماذج الفيلمية الجديدة نجد المثال الأبرز، والأكثر عمقا وجاذبية، ذلك الذي أبدعه المخرج إيليا سليمان من خلال أفلامه الروائية الطويلة الثلاثة التي ذاع صيتها عبر مختلف بقاع الأرض، والتي لم تتعامل مع القضية الفلسطينية بشكل مباشر كما كان يحدث في الأفلام الأولى، وإنما بنوع من الذكاء الإبداعي الذي يرفعها إلى مستوى إنساني أرق وأنبل لا يمكن إلا أن يعمق الحرج في النفوس، ويضاعف الإحساس بالألم، ويدفع بالمتفرج نحو التعاطف، وتلك الأفلام هي: «سجل اختفاء» (١٩٩٦)، و«يد إلهية» (٢٠٠١)، و«الزمن الباقي: تاريخ الحاضر الغائب» (٢٠٠٩).. تعكس أفلام هذا المخرج حالة الشخص اللاجئ، سيما ذاك الذي وجد نفسه في وضعية غير مريحة، فلا هو بالفلسطيني الذي تسمح له دولة الاستيطان بالتعبير عن وطنيته والتعبير بحرية عن مشاعره ومشاريعه المتعلقة به، ولا هو بالمواطن الذي يثق بسياسات ذلك الكيان الذي وجد أجداده وآباءه يتصارعون معه...

لا تختلف المأساة الفلسطينية[٢]، ولا الفلسطينيون أيضا، عن فظاعات إنسانية أخرى تتضمنها أفلام مشابهة تضاعف من إحساس المتلقي بما يقاسيه اللاجئ من اغتراب واضطهاد وهشاشة نتيجة الخوف والجوع والموت الذي يتهدده في كل حين، ومن بين تلك الأعمال نشير إلى ما يلي: «المُهَرِّبُون» (٢٠٠٤) للمخرجة لاَيْتِيتْيَا مورو، و«المَعْبَر السري» (٢٠٠٥) لصاحبيه «گريغوار دونيو» و«گيوم مارتان»، و«السراب» (٢٠٠٨) للمخرج أوليڤي ديري، و«لغة زهرة» (٢٠١١) للمخرجة الفرنسية الجزائرية فاطمة سيساني، و«بطل بلا وجه» (٢٠١٤) لماري خيمينيز...

-III-

تركز الأعمال الفنية المكرسة للجوء على عدة خصائص مشتركة منها:

- ثنائية المهاجر/اللاجئ:

تلتصق موضوعة الهجرة باللجوء إلى أن أضحت من أهم المتلازمات المصاحبة لهذه النوعية من

٢- لتعميق البحث في قضية اللجوء ومتاهاتها في السينما الفلسطينية وما تضمره من أبعاد إيديولوجية وتاريخية نقترح العودة إلى هذه المراجع (على سبيل المثال لا الحصر)، والتي لا يسمح لنا المجال بعرضها هنا، وهي:

- بشار إبراهيم؛ السينما الفلسطينية في القرن العشرين؛ سلسلة الفن السابع؛ وزارة الثقافة السورية؛ دمشق ٢٠٠١
- أمير العمري؛ سينما الهلاك: اتجاهات وأشكال السينما الصهيونية؛ الطبعة الأولى؛ دار سينا للنشر؛ القاهرة ١٩٩٣
- قيس الزبيدي؛ فلسطين في السينما؛ مؤسسة الدراسات الفلسطينية؛ ٢٠٠٦
- علاء الدين عياش؛ ملامح الأفلام التسجيلية الفلسطينية؛ دار العين للنشر؛ القاهرة ٢٠١١

الأفلام، فنَفْسِيَّة الشخوص تكون محكومة بشروخ داخلية عميقة يعكسها الإحساس باللااطمأنينة، ويحكمها الانتظار ولو كان طويلا، فلا تستطيع الأعوام مهما طالت، ولا الأمكنة مهما كانت جميلة ومريحة، من أن تمحو شريط الذكريات العالقة بمخيلة اللاجئ المهاجر الذي غالبا ما نجده يتشبث بأمل العودة، واسترجاع ما فقده فضلا عن حمله لبعض الشواهد المادية، ولو كانت بسيطة، أينما حل وارتحل لتظل ذات رمزية كبيرة في حياته كمفاتيح الأبواب والصور والعقود والتراب كما أنه يحافظ على عاداته وتقاليده وثقافته داخل بلد الاستقبال، ويحرص غاية الحرص على أن تظل مرجعيته الحاكمة لسلوكه وتميزه، وهو لا يدخر جهدا لتمريرها إلى ذريته.

- السفر نحو المجهول:

متعة السفر من حرية اختياره، والتحكم في وجهته، والتمتع بكشوفاته.. أما الاضطرار إليه، فيحوله إلى مشقة ورحلة صوب المجهول. فهناك شبه إجماع على خضوع اللاجئين، أطفالا ونساء ورجالا، لشتى صنوف الاستغلال، واجتيازهم لمحن وأهوال صورتها كاميرات الأفلام الوثائقية والروائية بشكل طارئ، فكانت صادمة ومروعة لأن الناس مدفوعين إلى الموت دفعا، ولم يعد لهم من خيار! ففي الهروب بارقة أمل للنجاة من الموت بالرغم من تربصه الدائم بالمغادرين الراغبين في اللجوء.

- أشياءُ المهاجر (اللاجئ) ومُدَّخَرَاتُهُ:

قد لا ينتبه المشاهد إلى رمزية وقيمة ما يحمله المهاجر (اللاجئ) أثناء سفره، وما يحتفظ به من أشياء تعني له الشيء الكثير أثناء مسيرته، فإذا تجاوزنا المبالغ النقدية التي يخفيها هؤلاء بكافة الطرق، وفي شتى المواضع الحميمة، فإن قيمة بعض الصور والأيقونات تتجاوز الطابع المادي إلى كل ما له صلة بالذاكرة الفردية والجماعية وكذا بما يقيه ويحميه من شرور السفر ومفاجآته غير المنتظرة.

- جمالية الواقع:

تفرض الوقائع نفسها على مخرجي الأفلام الوثائقية لأن إعادة تشكيل الأحداث لا تسمح بها ظروف اللاجئين، ولا المهاجرين، فوضعية الخوف والتوجس تكون طاغية مما يدفع المخرجين إلى

أفلحت الكاميرا التي استمدت ديناميتها من تحركات اللاجئين؛ إذ اخترقت معهم كل الحواجز والحدود ليتحول الفيلم إلى مغامرة إنسانية وفنية تعبر عن هشاشة الحدود أمام إصرار الناس على العيش بكرامة

تركيز كفاءاتهم والاشتغال وفق تصور ينبع من صميم اللحظة ويتفاعل معها للقبض على الأهم مما يسمح بالارتجال وتوظيف العابر والطارئ وما قد يقع صدفة أو دون تخطيط مسبق شريطة أن يكون أعضاء الفريق متوجسا وفي حالة تأهب قصوى للظفر ببعض المَشَاهِد واللقطات التي تقلب المأساة إلى فيلم يتغيا الجمال كهدف يسعى كل مخرج لبلوغه مهما كان حجم الشناعات التي يراها المخرج وفريقه؛ إذ يتجاوز الأمر مجرد التعاطف أو المساعدة، خاصة أن عملية التصوير قد تُعَرِّضُ الفريق برمته إلى جملة من المخاطر التي تتجاوز الطابع الفني لأن التفكير فيما هو جمالي يصير متلاشيا، ولا يمكن التفكير فيه بنفس الطريقة التي يتم التعامل فيها مع موضوعات يتمتع أهلها بالاستقرار وتسمح ظروفهم بالتحدث إليهم دون ضغط أو خوف كما يمكن إعادة ترتيب بعض الأمور المتعلقة بالتصوير قبل أو أثناء الشروع في العمل أو العودة في وقت آخر؛ فالرهان الإستيتيقي للفيلم الوثائقي يختلف عن الواقعية التي تراهن على بناء الخيال المعقول كما أن الواقعي ليس مؤثرا يجب إنتاجه، وإنما هو معطى ينبغي فهمه على حد تعبير الفيلسوف الفرنسي جاك رونسيير[٣].

عموما، تُصَوِّرُ بعض الأفلام وخاصة منها وثائقيات الويب[٤] (Web documentaires) اللاجئين كأناس غير مرغوب فيهم، وذلك ضمن رؤية مشابهة لما تزودنا به جل وسائل الإعلام التي تقدم خطابات متناقضة حول هذه الظاهرة الخطيرة التي تسم الحضارة الإنسانية الراهنة، ولا تكتفي بالرصد والكشف لتتعداها إلى تمرير خطابات إيديولوجية غير بريئة ولا محايدة، إلا أن بعض الأعمال السينمائية تسعى لتجاوزها في نقل الوقائع وإعادة تقديمها عبر تطوير رؤى إنسانية ترتكز على المزج بين الغضب والأمل، والتشاؤم والتفاؤل، واعتماد بعض المَشَاهِدِ الدالة عن التمزق الإنساني المُحْرِجِ لكل من يشاهد تلك الأفلام. وباستعراضنا لبعض عناوين الأفلام نقف على الأوصاف التي تخص هذه العينة الخاصة من الناس، والتي لا تخرج في مجملها عما يلي: «العابرون»، «المختفون»، «الباقون على قيد الحياة»، «اللامرئيون»، «المضطرون»، «طالبو اللجوء».. وبالتدقيق فيها يتضح بجلاء صعوبة فصل السياسي والأخلاقي عن الفني مما يطرح على الناقد والباحث الانتباه إلى جهات التمويل، وتوجهات المخرجين، واختيار التيمات، وطرائق المعالجة البصرية، ورواج الأفلام كنقط أساسية لتعميق فهم هذه العينة الخاصة من الأفلام التي تجمع بين تقنيات السينما والمسرح والفيديو والأداء الفني (Performance)...

٣- للمزيد من التفاصيل، يمكن العودة إلى كتاب:
- Jacques Rancière; La Fable cinématographique; Seuil; Collection Librairie du XXIe siècle; ٢٠٠١

٤- يدخل هذا النوع من الأفلام ضمن السرود الإلكترونية الجديدة التي يرتبط الاطلاع عليها باستعمال تقنيات الوسائط المتعددة، وقد صار لها رواج كبير بالنظر إلى سهولة الولوج إليها، وانتشار أجيال جديدة من الألواح الإلكترونية والهواتف النقالة، ونشير منها إلى: دراما الويب، الألعاب إلكترونية.. فضلا عن ظهور تلفزيونات الويب التي تنشر هذه الأنواع من الإنتاجات السمعية البصرية.

-١٧-

تناولت عدة أفلام الأسباب المباشرة التي أدت إلى تصاعد عدد الهاربين السوريين من ويلات الحرب والدمار والقتل والرعب، والتي تفسر طلبَ غالبيتهم اللجوء كحل أخير، ومن تلك العلل والدواعي ما رصده، مثلا، فيلم «ذهب الفضة» (٢٠١٦) لصاحبيه أسامة محمد ووئام بدر خان التي كانت محاصرة في مدينة حمص فضلا عن اعتمادهما عن مقاطع تَـمَّ تجميعها عن طريق الهواتف المحمولة لبعض المتظاهرين وفق توليف توثيقي لما يقع من خروقات إنسانية في سوريا عموما، وهو العمل الذي عُـرِضَ في عدة مهرجانات دولية من ضمنها مهرجاني «كان» و«لندن»، فبالرغم من الحمولة السياسية التي تطبع الفيلم يظل وثيقة تضيء بطريقتها السينمائية الخاصة التي تعكسها عفوية ومباشرية وانتقائية المقاطع المُصَوَّرَة لبعض الجوانب المرتبطة بالحرب في سوريا كبؤرة للصراع بين عدة أطراف محلية وإقليمية ودولية، فإن مآسي الحرب تطال البشر والحجر بشكل رهيب.

ويُعَـدُّ فيلم «أنا مع العروسة» الذي اشترك في كتابته وإنتاجه وإخراجه كل من خالد سليمان الناصري و«أنتونيو أوغوليارو» و«غابرييل دل غرانده» من أهم الأفلام التي قدمت فكرة متميزة عن اللجوء باعتمادها على معالجة سينمائية تتخذ من السفر مع العروسة ذريعة لها، ومن الطريق محورا للإيقاع والحركة الفيلمية، فجاء الفيلم دامجا بين المكونين الوثائقي والدرامي وفق مقاربة تخلط المأساة بالفرح، والأمل بالتشاؤم. وقد انطلقت رحلة العروس «تسنيم» (تسنيم فارد) نحو جنة اللاجئين المنشودة من إسبانيا إلى إيطاليا التي سينطلق منها الموكب الذي جاء المشاركون فيه من جزيرة «لامبيدوزا» إلى مدينة «ميلانو»، ومنها إلى مدن «مرسيليا» و«نانسي» و«ميتز» الفرنسية، ثم من «اللوكسمبورغ» إلى مدينة «بخم» بألمانيا، فالدانمارك، لتكون «استوكهولم»، عاصمة السويد، المحطة النهائية التي ستحدد مصير طالبي اللجوء، وهم: الفلسطيني الأردني «أبو نوار»، وزوجته السوريّة «منى»، والفلسطيني السوري «عبد الله» الذي كان يدرس الأدب الإنكليزي في كلية الآداب بدمشق»، والفلسطيني السوري «أبو منار»، المرفوق - من بين أولاده الثلاثة - بابنه «منار» ذي الاثني عشر عاماً، والذي يحلم بأن يكون مغني راب مشهور في السويد.. والمُلاَحـظُ أن هاته التشكيلة تعكس مناطق تصدير المهاجرين الطالبين للجوء، وتبين أن مدى تداخل العلاقات فيما بين مواطني الدول المُصَدِّرَة والمُسْتَقْبِلَة ليصبح الهم واحدا.

تتبني وحدة الفيلم على التباين الحاصل بين طموحات المشاركين فيه، والتي تعكس قيمتها بعض العلاقات الثنائية خاصة تلك التي تجمع بين الأب وابنه الطامح إلى احتراف «الرَّاب» كوسيلة فنية تعبيرية للتعريف بمأساة شعبه وتجاوز ما يعيشه فضلا عن رغبة الزوجين في تحقيق نوع من الاستقرار الذي يضمن لهما عيشا آمنا للأيام المتبقية من حياتهم، وهو الأمر الذي نحسه من التوجس البائن في الأعين، واضطراب النفوس، والتصريحات المستهجنة لضياع البلد، والغصة العالقة في الخواطر، وأمل العودة المنشودة الذي دفعهم نحو التغلب على كل العقبات التي واجهتهم أثناء اختراقهم لحدود عدة دول أوروبية فضلا عما عانوه من ألم مغادرة سوريا وما بعدها.

أفلحت الكاميرا التي استمدت ديناميتها من تحركات اللاجئين؛ إذ اخترقت معهم كل الحواجز والحدود ليتحول الفيلم إلى مغامرة إنسانية وفنية تعبر عن هشاشة الحدود أمام إصرار الناس على العيش بكرامة، وإلى كاشف عن سهولة التنقل النسبي بين بعض الدول التي لا تثقل حدودها بالجيوش وكاميرات المراقبة وشتى أشكال الإيقاع بالناس وكأنها مصائد للحيوانات، وإن دل ذلك فإنما ليؤشر على درجة احترام الإنسان العالية ما دام التنقل حقا مشروعا، والسفر دافعا للاكتشاف الذي تغتني به الحضارات والثقافات وينتفع به الناس جراء علاقات التبادل التي يدخلون فيها.



من صور الموت في قصائد «الموت كما لو كان خردة» لوداد نبي

بقلم : عبد الله المتقي
شاعر وكاتب مغربي


وداد نبي

«تعد موضوعة الموت لصيقة بالشعر، حيث تعددت أشكالها وتصوراتها من زمن إلى زمن، ومن شاعرة إلى شاعر، إلا أن تجربة الموت في الحرب تنطوي على قدر كبير من الرعب والشراسة والهمجية، وفائض قيمة الأسى والوجع.

في هذا السياق، يمكن القول إن المدونة الشعرية العربية حفلت بالموت وتجلياته ومعانيه وفضاءاته، بسبب ما كابده الشاعر مع الموت بكل أشكاله، ولعل التجربة الشعرية الفلسطينية نموذج ساطع لهذا الحضور الكثيف لتيمة الموت إلى درجة التوحد معه.

والمقبل على الشعرية السورية لا يكاد يجد ديوانا شعريا يخلو من موضوعة الموت بفواجعه وروائحه، ويكاد صوته يتعالى في أغلبية قصائده، لوعي الشعراء بصورة هذا الموت وصيغه وألوانه، بسبب معايشتهم لتفاصيله المخيفة، وبسبب حساسيتهم العميقة.

ولا شك في أن ديوان «الموت كما لو كان خردة» للشاعرة الكردية السورية وداد نبي، الصادر أخيرا عن «دار بيت المواطن» في ١٢٠ صفحة من الحجم المتوسط، ضمن سلسلة - شهادات سورية - التي تصدرها الدار، وهي المجموعة الثانية للشاعرة بعد مجموعتها «ظهيرة حب، ظهيرة حرب» عام ٢٠١٣، نموذجا لهذه الموت.

يتكون ديوان «الموت كما لو كان خردة» من تسع وثلاثين قصيدة مختلفة الطول والبناء، وتحمل كل قصيدة عنوانا يغري بالقراءة من قبيل: «المجزرة تبتسم، حين نرجم قلوبنا بحجارة «كوباني»، خمس قصائد لحزن قديم، المكان مضاء بالذكرى...، وغيرها



المقبل على الشعرية السورية لا يكاد يجد ديوانا شعريا يخلو من موضوعة الموت بفواجعه وروائحه

من أسماء القصائد، كما تلجأ في البعض إلى النص ذي المقاطع المرقمة أو النص ذي المقاطع المفصولة ببياض.

ويمكن القول عموما إن تجربة وداد نبي تجربة شعرية أخرى، لفرط حضور الموت والحرب حتى في قصائد الحب، والذي ظل مرافقا لقصائدها بسبب حساسية الموت السوري بوصفها شاعرة سورية كردية من جهة، ثم تجربتها الهتشكوكية والمرعبة مع الموت.

ديوان «الموت كما لو كان خردة»، يقترح على القارئ منذ عتبته الجوهرية الموت علامة أولى، لكنه موت استثنائي ومستفز، ذلك أن المسند - الخراب لا يلائم المسند إليه - الموت، مادام الموت غير قابل للتشيؤ كأن تتحول إلى أشياء قديمة فقدت صلاحيَتها ويمكن استعمالها من جديد.

وعليه، فالعنوان بهذه الصيغة يربك القارئ ويواجهه مع أشراك جمالية في هذه العتبة المركزية، بقصد إزعاجه وإمتاعه، قلقه وفتح شهية فضوله، حيث يضع ذهنه مباشرة أمام موت مفارق وليس كالموت، وكذلك العنوان من طبيعته التشويش على القارئ كما يراه أمبرتو إيكو، كما تسند هذا العنوان كلمة ظهر الغلاف باستعادتها للموت ويومياته وأمكنته، نقرأ منها: «يصبح الموت خردةً، عندما تتحوّل صور الحياة من حولنا، فتنمو أزهار الصبار في أحواض المدن المهجورة، وتسقط طرود البؤس على رأس هذا العالم، وينمو العشب في قفل الباب».

كذلك عتبة الإهداء باعتبارها ممارسة اجتماعية وعلامة دالة، ساهمت بدورها في الإفشاء بسر النص الذي سيسكن الموت القصائد وتسكنه؛ فالشاعرة تهدي ديوانها إلى «جيفارا» وبهذه الصيغة: «إلى جيفارا مالفا نبي في خرابها الأخير»، وجملة «خرابها الأخير»، تعمق من حضور الخراب، الذي تسبب الحرب والمعاناة القاسية للموت، ولعل من شأن هذا الحضور السلطوي للموت في عتبات الديوان، إغراء القارئ وإثارة فضوله ومن ثمة تحمسه والإيقاع به للدخول إلى عالم الديوان الذي يبدو من عتباته عالما ملبدا بالسحب السوداء، إنه موت بطراز آخر وبصور أخرى، وملتقى عميق للشاعرة بالموت كحالة شعرية كبرى.

إجمالا، للشاعرة وداد نبي في هذه العتبات، عدة مقاصد، منها أنها وضعت على طاولة مداخل الديوان فضولا جماليا وقلقا في ذهن القارئ من شأنه إثارة تساؤلات عدة حول هذا الموت الذي يستقبله في العنوان والإهداء وظهر الغلاف، والذي لا يستطيع الإجابة عنه ما لم يقتحم أغوار النص.

بهذا المعنى، ينتشر الموت في قصائد الديوان حتى تلك التي تتناول اللحظات السعيدة، فهو محتشد ومكتظ بالتفاصيل، بل وتحفل برائحته وشكله ولونه كل القصائد، ولا نستغرب أن يحتل مثل هذه المكانة، لأن الشاعرة وكما لمحنا إلى ذلك سلفا، من الشعراء الذين عاشوا مخاوف الحرب وجرحه العميق، كما شكل لديها الموت محورا رئيسا بدءا من ديوانها الأول «»ظهيرة حب .. ظهيرة حرب»، الذي صدر تحت القصف و»الألم على المدن التي كانت تدمر أمامها، البراميل التي سرقت حياة السوريين»، كما تقول الشاعرة في إحدى حواراتها، وبذلك يغدو الموت قضية كبرى لا يمكن القفز عليها؛ لأن الشاعرة عايشت أشواكها وتفاصيلها المفجعة على نحو لا يحتمل الشك.

تقترح الشاعرة منذ قصيدتها الأولى صورة الحزن، وهي تشتغل على تأسيس صورة إنسانية له:

«لم يكن للحزن بيت
فاستقبلناه بحفاوة في بيوتنا
كفرد من العائلة» ص ٧

إن معنى الحزن هنا وبهذه الأنسنة، هو في الحقيقة تجسيد للموت الذي أصبح مألوفا وغدا شبيها بأي شخص ما، يتقمص دور واحد من العائلة، وبذلك تزاوج الشاعرة بين الحزن والموت، في سعي حثيث للكشف عن دائرته وعلاقاته اليومية بالإنسان والمكان، وتتعزز هذه الصورة التي تعكس شكل هذا الذي أمسى مألوفا ومتداولا:



الشاعرة من الشعراء الذين عاشوا مخاوف الحرب وجرحه العميق، وقد شكل لديها الموت محورا رئيسا بدءا من ديوانها الأول

«أتصدق الحياة
أن الموت سهل هكذا
كتكرار لا حقة «je t' aime»
في أغنية فرنسية» ص ٣٢

أما في قصيدة «الأرقام كما لو كانت ثمانين عاما من الحب»، فتسعى الذات الشاعرة إلى تصوير كثافة هذا الموت والمندلع بشراهة وبلا حدود:

«أيتها الرياضيات البليدة
كيف سأحب رقما
وكل رقيم يضيف روحا قتيلة في بلادي» ص ٥٨

في هذا المقطع تتجلى غزارة الموت وكثافته وقد ملأت رائحته فضاء هذا المقطع وبلا حدود؛ وتعاضدت مع شبكة من الدوال العاملة على مضاعفة معنى الموت وشبحه: «الرياضيات، رقم، روح، قتيلة» كأنما زمن أسطوري يتأسس على أرقام فوق قياسية في عدد الموتى، هذه الكثافة تقود بالنتيجة إلى إحساس جارح ويومي بتراكم القتلى جراء فداحة الموت، بل جراء فداحة الحرب، حتى أنه لم يعد هناك أيا كان يهتم بشكل وصيغة موته وميتات الآخرين:

«فمن يعبأ لإكسسوارات الموت
مادام سيموت الحب في قلبي ككلب عجوز؟» ص ٣٥

وتذهب في قصيدة « المجزرة تبتسم» إلى مقاربة فكرة اشتهاء الموت إلى أقصى حدود الألم، حيث كل شيء يوحي بفاجعة النهايات:

«كل قتيل له اسم يدون على شاهد قبره
بيروين ..محمد..هوشنك
كلستان ..عمر ..أفين ..نارين
مصطفى ..ريبر ..خليل ..أزدشير ..وإسماعيل
وقائمة الأسماء تطول وتطول» ص٩٦

ولو شئنا حشد أسماء الأعلام الضاغطة على هذا المقطع الشعري، لتحصلنا على أسماء من جنسيات وثقافات مختلفة، أنتجت وحدة وتعاضدا في أحضان الموت، كما لو أن الشاعرة تغمز «ماذا لو كانت المقبرة بهذا الالتحام وبهذا المشهد الجمعي، وبهكذا شواهد متراصة على قيد الحياة؟

ثمة مكونات تجتمع عندما يتعلق الأمر بموضوعة الموت، وهي: الأزهار، الماء، شجرة الزان، عشب نيسان، كناري..»، عناصر تؤثث ما يشبه مقبرة تشكيلية، اجتهدت الشاعرة في جعلها صورا تعكس شبح الموت:

«أزهار الصبار
تنمو في أحواض المدن التي هجرناها» ص ٩



أمام هذه الأشكال من الموت المادي الذي يستهدف محو الإنسان أو اقتلاعه من جذوره، لا تملك الشاعرة سوى النزوح واللجوء

في خضم هذه الحرب العاهرة التي تنتج ألوانا وصيغا من الموت للإنسان والمكان، لا تملك الشاعرة سوى أن تسخر وبلون أسود من الجنود باعتبارهم أدوات آدمية ومسخرة لإنتاج الموت ليس إلا:

«الجنود
الذين يقصفون ليل نهار رافعين شارة
النصر
بعد كل مجزرة
هل شاهدوا يوما
الغروب القرمزي لتلك القرى؟» ص ٢٣

وفي محاولة لتذكير هؤلاء الجنود المسخرين بضمائرهم الميتة، لا تلبث الشاعرة أن تستبق الزمن وتبرع في وصف ندمهم عن كل المجاز الموت التي ساهموا فيها:

«الجنود
الذين يخوضون الحروب
بلا ذاكرة
هل سيكبرون يوما
يصبحون عجائز وحيدين
تسقط منهم دمعة كبير
تدعى الندم» ص ٢٤

أمام هذه الأشكال من الموت المادي الذي يستهدف محو الإنسان أو اقتلاعه من جذوره، لا تملك الشاعرة سوى النزوح واللجوء:

«تركت أرضي وبيتي
وحمولة القلب الثقيلة
في مكان بعيد تتقاذفه الحروب
وأمراء السلاح
والحاكمون بأمر الرب» ص٤٨
لكنه نزوح جارح وجريح:
«هربت بقلب جريح ومهجور
من كل ما أحببته هناك» ص ٦٥

وعلى الرغم من هاجس الموت المادي الذي يتراءى من خلال الدوال والإشارات المحتشدة في قصائد الديوان «المجزرة، شاهدة قبر، قتيل، الضحايا، الغياب، الحرب، القصف، فالشاعرة تتشبث بالحياة، كأن تحصي النرجس البري النابت في أحضان الموت:

«خمسون زهرة نرجس برية
مررت بها لأحصيها
برقة الغبار المتناثر في الهواء» ص ٥٠

وكأن تتشبث بذاكرة الأمكنة التي غادرتها باستعادة صور مفجعة، مما يعمق الأسى:

«وراء النافذة القديمة
صورتك تراقب تساقط المطر
شجرة الزان المبللة تبكي
ولا أحد» ص١٢

وقد تتشبث بماء الشعر ملاذا وخلاصا من خرائب الموت:

«ربما يكون الشعر
تعويضا عادلا عن الخراب
الذي سيجل بالأرض
حين يموت الشعراء جميعا» ص٧٣

وقد تجد الشاعرة نفسها في مأزق، يتطلب تدخلا عاجلا لإنقاذ ما يمكنه إنقاذه، وينجح الحب ودعوة الحبيب في تبديد هذا التسلط للموت الذي تنتجه الحرب، إذ «لا أحد ينجو من قذارة الحرب إلا بالحب» كما تقول الشاعرة في أحد حواراتها:

«هيا تعال
المزيد من القبلات في انتظارك
قبل أن تذوي الحديقة» ص٤٣

هذا المقطع كما هو واضح يشير إلى الحاجة إلى الحب، إذ يتكفل الدال «تعال، المزيد، القبلات»

بتشكيل حالة غرامية مجنونة وبكل ما هو متاح وممكن، قبل أن يقطع الموت هذا الاندغام، والذي تشير إليه في السطر الأخير «قبل أن تذوي الحديقة».

هكذا تجد الشاعرة في الحب ما يعينها ويبث في قصائدها روح الأمل وحالات اليأس، رغم أنف الألم والخوف والحرب والموت.

وتتكرر الرغبة في تبديد الحرب المتسلطة، وما تخلفه من رعب:

«أبكي في الليل
وأستيقظ بابتسامة حارة كشمس إفريقيا
غير مكترثة بالأشياء الرهيبة التي حدثت معي
فقط لأنك معي أيها الحب» ص٢٨

وعلى الرغم من هذه اللحظات السعيدة التي تخلقها الشاعرة ضدا على تراجيديا الحرب والموت، فريثما تنسل وتحضر تراجيديا، لتتحول هذه الطقوس السعيدة إلى حياة ناصعة بهاجس الموت وشبحه:

«في غرفتنا الداخلية الصغيرة،
تطعمها جلودنا، قهرنا، ندوبنا
كي لا تؤذينا أكثر
ورغم ذلك نستيقظ كل مرة
وقد نقص من قلوبنا «قطعة» ص ٦٨

هذا الموت القذر اجترح له أمكنة شعرية في أراضي الديوان تتراوح بين أمكنة خبرت فيها الشاعرة تفاصيل الموت وأشجانه، وأعادت إخراجها في ورشة مخيلتها الخلاقة: «الرقة، كوباني، البلاد، مدن الحرب، الغوطة الشرقية...»، وأمكنة قصية نجبر على العيش فيها بعد الحرمان من العيش في المكان الأول «برلين». ثم أمكنة مفتوحة ومغلقة «الطريق، المدارس، الحدائق، الأحياء السكنية، المشافي، البيت، المقبرة الجماعية...»، وأخرى متحركة «السيارة والطائرة»:

«الجنود الذين يضغطون
على أزرار الطائرة
لترمي البراميل على الأحياء السكنية
والحدائق والمشافي؟» ص ٢٣

وعموما يمكن القول، إن كل هذه الأمكنة تشترك في فواجعها ومواجعها، وتخلع على جسدها تراجيديا النهايات، كما تنتج نوعا من الصور التي تتطابق وهذه التراجيديا.

كذا هو الموت الذي تصفه وداد نبي في «الموت كما لو كان خردة» عالما مشوشا ومهزوزا، إلا أن الشاعرة توفقت في صياغته جماليا بالانفتاح على مجموعة من التقنيات، بهذا نجد قصائد الديوان حافلة بالانزياح الذي يعني في قواميس اللغة ومناجدها، نزح الشيء، ينزح نزوحا: أي بُعد الشيء عن موقعه، ونزحنا عن الدار بعدنا عنها، ونزحنا عن هذا الحي أي بعدنا عنه وتخلينا عنه. أما اصطلاحا، فيعني الانتهاك المعقلن والممنهج لقواعد الاستعمال اللغوي المتواضع عليه داخل عشيرة لغوية ما.

من مظاهر هذا الانزياح انتهاك الشاعرة لقدسية اللغة وانسجامها باعتماد دائرة التدمير واللعب في ممارستها النصية، عبر تكسير التركيب اللغوي بمعطيات لسانية أجنبية بطريقة تندغم فيها دلالة اللسانين في النص القصصي الواحد، وهذا من شأنه الإجهاز على صفاء اللغة الرسمية التي تعلي من نقاء اللغة وطهارتها، ومن نماذج هذا اللون من اللساني الذي ينتهك منطق الصفاء، نقرأ:

«يتبول كسكير على جراحنا القديمة

فلا نعود قادرين على الإصغاء لصوت «لويس أرمسترونغ»

وهو يغني

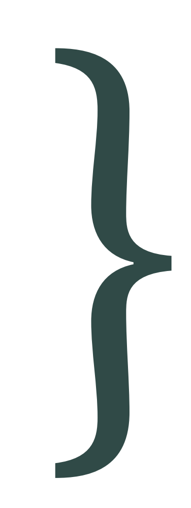
What A Wonderful World

ومن قصاصة الورقة التي كتب عليها مرة:

ورميتها في فوهة المدفأة"Ez u tu"
همهماتك غير المسموعة
كلها تعوي الآن» ص ٥٢

يتمثل هذا الانزياح اللساني في دس الشاعرة لمتتاليات أجنبية «إنجليزية، كردية» بالمحافظة على طبيعتها اللغوية،من شأنه المساهمة في انفتاح قصائد وداد نبي وتفاعلها لسانيا بغاية نكهة النص وشعرنته، منتجة بذلك تعددا لسانيا وسننا جديدة للتلقي، عبر المنافرة لغوية، وفارضة بذلك شذوذا على المتلقي،





قصائد الديوان تشبه كونا شعريا حافلا بالشهادة والاستشهاد، حيث الكتابة مأتما جنائزيا للعين والأذن والذاكرة والباطن

وقد حرصت الشاعرة على إعطاء قصائدها أبعادا فنية ولغوية ومضمونية مبتكرة، فضلا عن كثافة هذه القصائد التي منحت شعر وداد روحا محلية ومنفتحة على آفاق إنسانية شاسعة، علها تدرك قذارة الحرب.

لكنها تهيئ لولادة جمالية شعرية بتوريط القارئ ومساهمته في إنتاج معنى للنص الذي يعني سوى اجتثاث الإنسان من جذور أرضه، ثم تهجيره وتشتيته وتمزيق كيانه.

ووعيا من الشاعرة بممارستها الشعرية المختلفة عن ديوانها الأول، دفعتها إلى إنتاج نص مغاير أصبح عبارة عن مقاطع، حيث عمدت الشاعرة في مجموعة من قصائدها إلى تركيب قصائدها من مقاطع متنوعة، كالقصائد ذات المقاطع المرقمة كما في قصيدة «رسائل اثنا عشرة غزالا قنصهم الحزن» ثم القصائد المفصولة ببياض كما هو الحال في قصيدة «الجنود طرائد لا تنام»، ولعل هذا الخرق ليس جديدا في الشعرية العربية الحديثة، وهذا لا يعني خلو قصائد «الموت كما لو أنه خردة » من أي ربط يصل بين مقاطعه، بل إن الشاعرة قد رامت انتهاك رتابة التجانس الذي يراعي قواعد الربط بين المقاطع والوحدات، واستبدالها بتواصل من طبيعة نفسية.

وعلى سبيل الختم ، إن قصائد ديوان «الموت كما لو كان خردة »، إنجاز إبداعي متميز وجزء من الإنجاز الشعري للشاعرة السورية الكردية المقيمة في ألمانيا، يستحق القراءة، والاهتمام النقدي لما فيه من تجديد وابتكار وكفاءة.

قصائد تشبه كونا شعريا حافلا بالشهادة والاستشهاد، حيث الكتابة مأتما جنائزيا للعين والأذن والذاكرة والباطن، لأن الشاعرة عاشت الحرب واحتكت بالموت، وبذلك انضمت إلى نظيراتها من القصائد التي اتخذت منحى تراجيديا الموت، وهو منحى مستمد هذه الحرب التي أصبحت من فرط تداولها واستعمالها وقدامتها كما لو أنها خردة من كثرة استعمالها المفرط.


صدر حديثا

الباحث الليبي مسعود حسين التائب لمجلة «ذوات»:

على العالم أن يبحث عن حلول حقيقية للاجئين



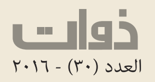
حاورته: د. عبد السلام شرماط

أستاذ باحث مغربي

اللجوء حالة استثنائية يتعرض لها البشر تحت ضغوط متعددة الأبعاد، وتفضي إلى واقع مؤلم

في خضم مجموعة من الأحداث والتحولات التي يشهدها العالم بصورة عامة والعالم العربي بصورة خاصة، برزت على الساحة الدولية ظاهرة قديمة جديدة، هي ظاهرة اللجوء بأنواعه، سيما بعد أحداث الربيع العربي وتطوراته، حيث شهدت بعض المناطق العربية (ليبيا – سوريا – العراق) صراعات طائفية ومذهبية، أدت إلى اندلاع حروب دفعت بالمواطن إلى طلب اللجوء إلى بلدٍ آخر بحثا عن الأمن والأمان لنفسه أو لنفسه ولأسرته. ولأن اللجوء أنواع عدة منه السياسي والإنساني، فإن هذا الأخير أخذ أهمية بالغة في الآونة الأخيرة؛ بسبب اندلاع الحروب وانفلات الأمن في بعض المناطق العربية، مثل العراق ليبيا وسوريا، حيث وجد الإنسان الذي يعيش في هذه المناطق نفسه مضطرا إلى الهرب بحثا عن الأمان في أقرب منطقة هادئة وآمنة.

ولملامسة مسألة اللجوء واللاجئين، وما تعيشه بعض الشعوب اليوم من مآسٍ وأزمات وظروف صعبة خرجت عن الحالة الإنسانية، آثرنا طرح مجموعة من الأسئلة على الأستاذ الدكتور مسعود حسين التائب أستاذ الإعلام بجامعة الزاوية – ليبيا، ورئيس قسم الإعلام بالأكاديمية الليبية للدراسات العليا – طرابلس ورئيس تحرير سابق لمجلة كلية الآداب – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزاوية، ورئيس تحرير سابق للمجلة الليبية للدراسات – تصدر عن دار الزاوية للكتاب – ليبيا. عضو اللجنة الاستشارية لمجلة البحوث الإعلامية. عضو لجنة التحرير لمجلة الأكاديمية للعلوم الإنسانية.



*** أمام ما يشهده الوطن العربي من تحولات في بعض المناطق وتوترات في مناطق أخرى، برزت ظاهرة اللجوء، حيث بدأ الناس يغادرون أوطانهم بحثا عن الأمن والأمان في مناطق أخرى، سواء المجاورة لأوطانهم أو في بلدان أخرى سيما القارة الأوروبية؛ فما معنى اللجوء؟**

** اللجوء هو حالة استثنائية يعيشها الإنسان عندما تجبره ظروف قاهرة، غالبا ما تكون ظروفا سياسية أو اقتصادية أو أمنية عن الفرار من بلده أو مدينته إلى بلد آخر أو منطقة أخرى... مما يجعله يعيش وسط ظروف استثنائية صعبة وقاسية على مختلف الأصعدة. وقد شهدت البشرية عبر التاريخ حالات نزوح وتهجير ولجوء كثيرة، لعل أبرزها وأهمها وأكثرها مأساوية، ما عاناه الشعب الفلسطيني المهجر من أرضه منذ عام ١٩٤٨، وعلى الصعيد العربي

أنا شخصيا، لا أستطيع أن أتصور أن هناك من هم أكثر حزنا وتعاسة ومعاناة في هذا الكون من اللاجئين، وذلك مهما قدم لهم الآخرون من مساعدات وإعانات، إذ إن اللاجئ لا يحتاج إلى الأكل والمأوى فقط، إنه يحتاج إلى كل ما يشعر أنه قد افتقده، وهناك أشياء لا يمكن تعويضها بأي حال من الأحوال وتحت أية ظروف كانت.

*** يواجه اللاجئون في الآونة الأخيرة محنة اجتماعية تجاوزت شروط الإنسانية؛ كيف ترون ذلك؟**

** نظرا لازدياد حالات اللجوء بسبب حالات الحروب والصراعات المسلحة؛ فقد ازدادت أعداد اللاجئين وتعددت أسباب اللجوء، ولم تتحمل الكثير من الدول مسؤولياتها الإنسانية والتاريخية أمام ما يحدث، خاصة تلك التي كان لها دور في تلك النزاعات.

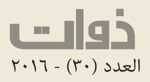
موقف مؤسسة «مؤمنون بلا حدود» يعكس حالة إنسانية راقية، وهو أمر يحسب لها

أيضا شهدت العديد من البلدان حالات نزوح ولجوء متعددة منها ما شهده لبنان خلال الحرب الأهلية التي استمرت حوالي ١٥ سنة خلال حقبة ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي، وما شهده العراق بعد الاحتلال الأمريكي وما نتج عن ذلك من نزوح لأعداد كبيرة من الشعب العراقي، لازالت تداعياتها وآثارها قائمة ومستمرة حتى الآن، كما عاشت سوريا بعد ما سمي بالربيع العربي، حالة الحرب منذ عام ٢٠١١، ما أفرز حالات نزوح ضخمة لملايين السوريين، الذين قطع الكثير منهم آلاف الكيلومترات برا وبحرا وتعرضوا لمآسي ومواقف إنسانية صعبة ..

إذن، اللجوء هو حالة استثنائية يتعرض لها البشر تحت ضغوط متعددة الأبعاد، وتفضي إلى واقع مؤلم، فأن تكون لاجئا يعني تترك وطنك وبلدتك وشارعك، تترك بيتك وأشياءك وذكرياتك تترك أصدقاءك وجيرانك، تترك كل شيء وتذهب بعيدا لا رفيق لك إلا الذكريات. هل هناك ما هو أشد ألما من هذا؟

وفي الحقيقة إن ما يعيشه اللاجئون يشكل وضعا إنسانيا مؤلما، حيث الافتقار إلى أبسط مقومات الحياة الكريمة، ناهيك عما يتعرضون له من إهانات وتجريح، وما يعيشونه من حالات تشتت وبعد عن الأهل والديار، وما يشكله ذلك من معاناة اجتماعية وقهر وإذلال وخوف من المجهول والمستقبل، لذا، فإنه على العالم أن يدرك حجم المأساة التي يعانيها هؤلاء، وأن يسارع في إيجاد الحلول المناسبة، وأن يتحمل مسؤوليته أمام ما يحدث. وفي تقديري إن الحلول الحقيقية يجب أن تتجه إلى توفير الظروف المناسبة التي تسمح للاجئين بالعودة إلى أوطانهم وعدم توطينهم في المناطق التي نزحوا إليها، ويتطلب ذلك القيام بجهود كبيرة تدعم جهود السلم والمصالحات الوطنية، وتدعم الاستقرار وجهود الوساطة بين المتصارعين حتى تتوفر الظروف الملائمة لعودة هؤلاء إلى أوطانهم، ذلك هو الحل الطبيعي والمنطقي في تقديري، وهو حل جذري يضمن صيانة الحقوق للأفراد واحترام الذات البشرية.

وبذلك، فإن الجهود الدولية والإقليمية التي تبذل للتخفيف عن اللاجئين، يجب أن تتجه إلى معالجة



المشكلة من جذورها، وعلى العالم أن يبحث عن حلول حقيقية لهذه الحالة، وألا يكتفي بتركيز جهوده في توفير الحاجات الأساسية للاجئين من أكل ومأوى وكساء، بل عليه أن يركز على كيفية إعادة هؤلاء اللاجئين إلى أوطانهم وبلدانهم وقراهم ومدنهم وأحيائهم التي جاؤوا منها. صحيح أن الأمر يحتاج إلى إمكانيات وإلى وقت ربما طويل، لكن هذا هو الهدف البعيد الذي يجب أن يسعى العالم للوصول إليه.

إن اللجوء نكبة وعار في حق الإنسانية، وعلى العالم أن يتخذ كافة الإجراءات التي يمكن أن تنهي هذه القضية وإلى الأبد أو تحد منها على الأقل، ويحتاج ذلك بالطبع إلى تكاثف الجهود الدولية، والعمل على حل كافة النزاعات والخلافات في العالم، ودون ذلك، فإن المشكلة سوف تستمر وستتفاقم، وسنشهد اللاجئين في مثل هذه الدول، وبالتالي فلا حقوق لهم، ذلك أن الحقوق تكفلها التشريعات، وتلك التشريعات غير موجودة أصلا، لذا فإنه صار من الضروري الانتباه إلى هذه المسألة خاصة في ظل انتشار الحروب والأزمات الدولية، وعلى المنظومة الدولية ممثلة في الأمم المتحدة بهيئاتها المتعددة ومجلس الأمن أن يتولوا إثارة هذه القضية على المستوى العالمي، وأن تتم دعوة كافة الدول لتتبنى قوانين خاصة باللجوء والنزوح الإنساني، وأن توفر التشريعات التي تؤمن حقوق اللاجئين والنازحين.

وفي المقابل، فإنه يجب العمل على جعل قضية اللاجئين بمثابة قضية رأي عام عالمي، وأن تنظم اللقاءات الدولية التي تبحث في وضع تشريعات تضمن حقوق اللاجئين، وتوفر لهم الحماية الكافية في كل

إن اللجوء نكبة وعار في حق الإنسانية، وعلى العالم أن يتخذ كافة الإجراءات التي يمكن أن تنهي هذه القضية وإلى الأبد أو تحد منها على الأقل

حالات أخرى ربما أشد بؤسا وتعاسة، وفي أماكن وبقاع متعددة من العالم. لا أحد ربما سيكون خارج الدائرة، إن المأساة ستطال الجميع بشكل مباشر أو غير مباشر، وبالتالي وكما سبق الذكر، فإن الحلول الجذرية والحقيقية لإنهاء هذه الحالة الإنسانية المؤلمة يجب أن تتركز في الجهود التي تتجه نحو إعادة كافة اللاجئين إلى مواطنهم الأصلية، وأن تحفظ كرامتهم وأدميتهم وإنسانيتهم، أما موضوع التوطين والوطن البديل، فإنه إجراء تعسفي ومهين وحل تلفيقي للأزمة.

*** ما الآليات والضوابط القانونية التي تسري على اللاجئين؟**

** للأسف، فإن الكثير من الدول لا توجد في تشريعاتها أية معالجات لقضية اللاجئين، بل إن العديد من تلك الدول لم يسبق لها أن ضمنت قضية اللاجئين ضمن منظومتها القانونية، وبالتالي فإن أية حالات لجوء إلى هذه الدول كثيرا ما تعامل خارج القانون، حيث لا توجد أية ضمانات لأولئك بقاع الأرض، ولعلي هنا أجد نفسي مطالبا مؤسسات المجتمع المدني الدولية أن تضغط هي الأخرى بما تملكه من إمكانيات وقوة معنوية في اتجاه دفع الأمم المتحدة إلى إصدار قرارات ملزمة لكل دول العالم تتعلق بحماية اللاجئين وتوفير الملاذ الآمن لهم والظروف المناسبة لهم. إن صدور ذلك القرار من شأنه أن يشكل أداة ضغط على كل حكومات العالم، لكي تتعامل مع القضية بجدية ومسؤولية أكبر، ولعله من المناسب أيضا العمل على إصدار مواثيق وتشريعات دولية ملزمة تحت رعاية وإشراف ومتابعة الأمم المتحدة تنظم حقوق اللاجئين وتحدد مسؤولية الدول والمجتمعات تجاه أوضاع اللاجئين.

وكذلك، فإنه يجب التعامل مع اللاجئ على أنه شخص أجبرته قسوة الظروف على مغادرة وطنه، وأنه بالتالي يعيش في وضع استثنائي، وبالتالي فإنه في حاجة إلى التشريعات التي توفر له الحماية من التعرض للانتهاكات والاضطهاد والعنف، على أن تضمن تلك التشريعات التي يجب أن تأخذ الطابع الدولي، التمتع بحق الإقامة في البلد الذي يلجأ إليه

حتى تتوفر ظروف العودة المناسبة، وأن تتوفر له الخدمات ذات الطابع الإنساني التي تحفظ له كرامته وإنسانيته، كالخدمات الصحية والخدمات التعليمية المجانية والسكن المناسب. وغيرها من الخدمات التي من حق الإنسان أن يحصل عليها ويتمتع بها، وألا يتم ترحيله بالقوة، وأن يتولى المجتمع الدولي متكافلا عملية الإنفاق على اللاجئين دون إذلال وإهانة، وأن يضمن له المحافظة على ثقافته وقيمه الاجتماعية، وحق ممارسة شعائره الدينية، والحفاظ على عاداته وخصوصياته. أعتقد أن هذا أهم ما يجب أن تتضمنه التشريعات التي يجب أن تكون ذات طابع دولي، والتي تتعلق بحماية اللاجئين.

***هل تعتقدون أن الإعلام العربي أولى مسألة اللاجئين العناية اللازمة؟**

الإعلام العربي الراهن غير قادر على الخوض في كثير من القضايا المهمة، فهو أسير الحكومات والتنظيمات التي تسيطر عليه، والتي تولي قضايا هامشية أهمية أكبر، في حين يخضع ما يسمى بالإعلام المستقل أو الخاص لضغوط السوق والمال والإعلان، ما يجعله يخصص جل وقته للقضايا الهامشية والمسابقات والبرامج السطحية والتافهة.

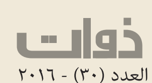
لذا، فإنني أحمل وسائل الإعلام العربية مسؤولية الإهمال الواضح وشبه المتعمد لقضايا اللاجئين، وما يترتب عن ذلك من مواقف سلبية من قبل السلطات الحاكمة في الدول العربية؛ ففي ظل الإهمال المتعمد من قبل هذه الوسائل لهذه القضية يجد الحاكم العربي وضعا مناسبا لتجنب الخوض في هذه القضية وإهمالها، وهو ما يعد هروبا من المسؤولية الأخلاقية

إن المعالجات السطحية والمحدودة لقضايا اللاجئين من جانب الإعلام العربي تعكس قصورا كبيرا في تعامله مع هذه القضية التي تطال ملايين العرب

** في تصوري، إن الإعلام العربي تعامل مع قضية اللاجئين بكثير من البرود وعدم الاهتمام والإهمال، ولم تتجاوز عملية المعالجة الإعلامية في كثير من الأحيان نقل الأخبار المتعلقة بعبور اللاجئين وتنقلاتهم وأعدادهم، ولم يحاول الاقتراب من أصل المشكلة، وما يتعرض له هؤلاء اللاجئون من معاناة كبيرة على مختلف الصعد منذ لحظة خروجهم من مناطقهم وبلدانهم وعلى طول رحلة النزوح واللجوء، ولم يعمل الإعلام العربي على تحويل القضية إلى قضية رأي عام عالمي، حيث يحمل العالم مسؤولية ما يحدث، ويضع كذلك الأنظمة العربية أمام مسؤوليتها الإنسانية إزاء ما يحدث، ولعل من أهمها فتح الحدود العربية أمام اللاجئين العرب بدون قيد أو شروط، وتوفير الحماية اللازمة لهم. وفي الحقيقة، فإن الإعلام العربي لايزال يقف متفرجا أمام ما يتعرض له الكثير من اللاجئين العرب في أوروبا وفي غيرها، من معاناة بصورها المتعددة، لذا، فإن المعالجات السطحية والمحدودة لقضايا اللاجئين من جانب الإعلام العربي تعكس قصورا كبيرا في تعامله مع هذه القضية التي تطال ملايين العرب. وفي تصوري إن والإنسانية، والوطنية أيضا من جانب كل من وسائل الإعلام العربية والحاكم العربي على السواء.

*** إضافة إلى ما تقدم، كيف تقيمون دور وسائل الإعلام تجاه قضية اللاجئين؟**

** كما هو معروف، فإن للإعلام دورا كبيرا في المجتمع؛ وذلك على مختلف الصعد السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وغيرها، ولا أحد يستطيع إنكار ما يمكن أن يؤديه الإعلام من أدوار مهمة، وهي أمور لم تعد محل جدل أو خلاف، ولسنا هنا بصدد مناقشة ذلك، بعد أن أكدت الكثير من الدراسات والبحوث، والنظريات الإعلامية على القوة الهائلة التي تتمتع بها بعض وسائل الإعلام في تحريك وتوجيه وصناعة الرأي العام تجاه مختلف القضايا، إلا أن المهم في الأمر هو كيف يتم توظيف هذه الإمكانيات الكبيرة والسلطة النافذة التي تتمتع بها وسائل الإعلام لمصلحة اللاجئين ؟ وكيف بالإمكان أن نجعل من هذه الوسائل أدوات ضغط على الحكومات والأنظمة من أجل حماية اللاجئين وتوفير الظروف



اللائقة بهم؟ وكيف يمكن أن تتحول وسائل الإعلام إلى قنوات للتعريف بقضايا اللاجئين وحقوقهم ؟ وكيف تتحول هذه الوسائل إلى مدافع يدافع عن حقوق هؤلاء الناس؟

أعتقد أن كل هذه الأسئلة على قدر كبير من الأهمية، حيث إنني أرى أن القوة الفاعلة لوسائل الإعلام من الممكن استغلالها وتوظيفها في القضايا الإنسانية على اختلاف تنوعها وتعددها، وبالتالي فإن الدور المنوط بالإعلام تجاه قضايا اللاجئين يمكن تحديده في النقاط التالية:

١ - أن تتضمن التشريعات الإعلامية في كل دول العالم مواد من شأنها أن تلزم وسائل الإعلام بتناول وبإبراز قضايا اللاجئين في إطار اهتمامها بقضايا حقوق قضايا اللاجئين من أولويات القضايا التي تتصدر اهتمامات الرأي العام على مختلف مستوياته وأطيافه.

٣ - أن تلتزم وسائل الإعلام بتسليط الضوء وبالصورة والحجم المناسبين على قضايا اللاجئين وما يتعرضون له، ونشر مآسيهم وظروفهم وقصص لجوئهم وما يتعرضون له من مضايقات وحرمان وانتهاكات؛ وذلك بهدف خلق وتحشيد رأي عام مؤيد لحقوق اللاجئين ومناصر لقضاياهم.

٤ - أن تتولى وسائل الإعلام متابعة حياة اللاجئين ورصد المواقف التي يتعرضون لها، وتوثيق أي انتهاكات ضدهم من أي طرف كان، والانتقال إلى أماكن إقامتهم والتعرف عن قرب على ظروف معيشتهم، وأن تعمل على نقل همومهم ومشاكلهم للرأي العام، وأن تكشف

شهدت سوريا في السنوات الأخيرة أكبر حالة نزوح عبر التاريخ، حيث وصل عدد النازحين السوريين إلى حوالي عشرة ملايين شخص فروا إلى مناطق متعددة

الإنسان، وأن يتم ذلك في إطار المسؤولية المهنية والاجتماعية لتلك الوسائل، كما أنه من المهم والمناسب جدا أن تكون مواثيق الشرف الإعلامي في المستوى الذي يليق بها تجاه هذه القضية، وذلك من خلال انتباه الإعلاميين إلى ضرورة تبني مواثيق الشرف، تلك مواد وبنود تدعو إلى الانحياز إلى القيم الإنسانية، واحترام حقوق الإنسان، والدفاع عن حق الأفراد في حياة كريمة خاصة في الظروف الاستثنائية كحالات اللجوء مثلا والنزوح في أي مكان في العالم؟

٢ - أن تتبنى منظمة اليونيسكو لما تتمتع به هذه المنظمة من مكانة أدبية إشاعة الوعي بضرورة أن تتحمل وسائل الإعلام مسؤولياتها الإنسانية تجاه قضايا اللاجئين في كل مكان من العالم، وأن تعمل المنظمة على عقد اللقاءات، وتنظيم المؤتمرات والحلقات العلمية، وإجراء الدراسات، وإصدار التقارير الدورية التي تدفع جميعها في اتجاه أن تقوم وسائل الإعلام في كل مكان من العالم بتخصيص المساحات المناسبة للتعريف بقضايا اللاجئين وبحقوقهم ونشر المعلومات والأخبار والبيانات التي من شأنها أن تجعل وبصورة مستمرة الانتهاكات التي تمارس ضدهم، والممارسات التي يتعرضون لها، وأحوالهم المعيشية وما يفتقرون إليه من إمكانيات في حياتهم اليومية.

إن من شأن هذه التغطيات الإعلامية لأحوال اللاجئين وظروفهم، وتتبع أخبارهم ونقلها عبر وسائل الإعلام المختلفة أن تسهم وبشكل كبير في التعريف بقضايا اللاجئين، وأن تحشد الرأي العام محليا وإقليميا ودوليا في اتجاه ضرورة توفير الحياة الكريمة للاجئين، والعمل على إيجاد حلول جذرية لمعاناتهم، وأن تجعل العالم يدرك حجم المأساة، وبالتالي الاتجاه وبقوة لحل كافة ما يتعلق بها من مشكلات إنسانية، وإيجاد حلول وبدائل حقيقية .. والأهم من كل ذلك هو تحسيس العالم بخطورة وكارثية ما يجري في مناطق عديدة من العالم من حروب وصراعات واقتتال، وضرورة الإسراع في إيجاد الحلول المناسبة لها، حتى يتم القضاء على ظاهرة اللجوء أو الحد منها على الأقل في الوقت الحالي، حتى يتم إيجاد الحلول اللائقة والإنسانية لهذه المشكلة التي هي في الأساس قضية مرتبطة بالكرامة الإنسانية، ومتصلة

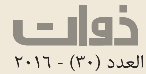
اتصالا مباشرا وقويا بشيوع ثقافة السلام والتسامح ونبذ الحروب والصراعات في العالم، وهي جميعها قضايا بإمكان وسائل الإعلام أن تؤدي فيها أدوارا مهمة وحاسمة إذا ما أديرت بالطريقة الصحيحة والسليمة والمناسبة، واستندت في ذلك على القيم الأخلاقية والإنسانية والدينية التي تعكس جميعها رغبة قوية في حياة آمنة لكل شعوب الأرض.

*** ماذا عن لجوء السوريين اليوم؟**

** في الحقيقة، إن الموضوع السوري فيما يتعلق باللاجئين شائك ومعقد، حيث تشهد البلاد منذ عام ٢٠١١ حربا بين مجموعات مسلحة مدعومة من الخارج من جهة والجيش النظامي من جهة أخرى، نتج عنه تدخل تنظيمات متطرفة، مثل تنظيم داعش وتنظيم القاعدة وغيرها من التنظيمات المسلحة مما أدى إلى تفاقم المعارك، وهو ما دفع إلى فرار ملايين السوريين من قراهم ومناطقهم التي دمرتها الحرب، حيث تفيد التقارير أن سوريا شهدت في هذه الأثناء أكبر حالة نزوح عبر التاريخ، وتضيف تلك التقارير أن عدد النازحين السوريين وصل حوالي عشرة ملايين شخص فروا إلى مناطق متعددة، ووصلوا إلى لبنان والأردن وتركيا، بالإضافة إلى عدد من دول الاتحاد الأوروبي، ويعيش أغلب هؤلاء وسط ظروف قاسية. بعضهم يقيم في الخيام وبعضهم في أكواخ لا تصلح للإقامة البشرية وبعضهم في العراء، ويتعرض الكثير منهم لمعاملة سيئة في المعسكرات التي يعيشون فيها، هذا طبعا غير معاناة الطريق خلال رحلة الفرار من الجحيم، حيث اعتلى بعضهم مراكب الموت عبر البحر، في حين فضل البعض التحرك برا عبر طرق وعرة، وفي ظل شتاء قارس. لقد شاهدنا جميعا عبر الفضائيات معاناة أولئك اللاجئين طوال رحلة اللجوء، وهم يقرعون أبواب أوروبا بحثا عن حياة آمنة وعن رعاية ينشدونها بعيدا عن وطنهم الذي أكلته ودمرته الحرب، وشاهدناهم عبر ذات الفضائيات كيف طوردوا من قبل رجال الشرطة في العديد من بلدان العبور، وكيف عوملوا بامتهان، وكيف ذاقوا شدة البرد في بلاد الصقيع، وكيف أوقفوا في طوابير طويلة للحصول على بقايا رغيف خبز، وكيف تمت إهانتهم على الحدود. لقد جرى كل ذلك تحت أنظار العالم الذي ظل يدعم الحرب والخارجين عن النظام والقانون في سوريا، ويسمح بوصول السلاح والعتاد للجماعات المتطرفة بما يزيد من درجة الاشتعال في البلاد، وبالتالي المزيد من الدمار والمزيد من التهجير والمزيد من اللجوء.

*** جرت العادة أن تنظم مؤسسة «مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث» مؤتمرا سنويا غير أن هذا العام ألغت مؤتمرها السنوي الرابع تضامنا مع معاناة اللاجئين السوريين، وحولت كل مخصصات المؤتمر المالية لفائدتهم، كيف تقيمون هذا الموقف؟**

** أعتقد أن هذا الموقف يعكس حالة إنسانية راقية للقائمين على مؤسسة «مؤمنون بلا حدود»، وهو أمر يحسب لهم، وبهذه المناسبة أتوجه بالتحية للمؤسسة على هذا الموقف النبيل، وأتمنى أن تعزز رسالتها الفكرية بالتوفيق في إنتاج خطاب ديني واع ووسطي وغير متعصب، وأن تسهم في خلق حراك ثقافي في المنطقة العربية يتيح المجال للمثقفين والمبدعين والمفكرين أن يتحركوا بحرية تحت مظلة هذه المؤسسة، وبدعم منها بعيدا عن سيطرة وتوجيه وهيمنة سلطة الحكومات البائسة في البلدان العربية.



الخبير الألماني مروان أبو طعم لمجلة «ذوات»:

مشكلة اللاجئين في ألمانيا جزء من نقاش عام حول المسلمين



حاورته: هشام الدريوش
إعلامي مغربي مقيم بألمانيا

المشكل الحالي في ألمانيا بالنسبة إلى اللاجئين السوريين هو أن مجيئهم جاء متزامنا مع نقاش عام حول مستقبل المسلمين في ألمانيا

بَعْدَ مضي أزيد من عام على قدوم اللاجئين إلى ألمانيا، لازالت قضية اللجوء تشغل الرأي العام الألماني خاصة والدولي عامة، حيث اتخذ موضوع اللاجئين في ألمانيا أبعادا مختلفة، سواء على الصعيد السياسي والاجتماعي والأمني أيضا. وتشهد ألمانيا انقساما بين من يساند مقولة المستشارة الألمانية أنغيلا ميركل الشهيرة «سننجح في ذلك»، وبين منتقدي سياسة اللجوء، كما أن الوضع في ألمانيا فيما يخص علاقة الألمان باللاجئين قد تغير، إذ أثارت اعتداءات نهاية رأس السنة في كولونيا وهجمات أنسباخ وفورتسوبرغ ذات الخلفية الإسلاموية مخاوف لدى الألمان من الإرهاب الإسلاموي، وذلك على الرغم من دخول مرتكبي هجمات ألمانيا قبل وقت طويل من فتح الحدود في سبتمبر (أيلول) ٢٠١٥، وأيضا على الرغم من أن عددا قليلا من اللاجئين كانوا من بين مرتكبي اعتداءات كولونيا. وقد سمح هذا الوضع أيضا لأحزاب يمينية شعبوية بتحقيق مكاسب كبيرة مستغلة في ذلك قلق البعض من موجة اللجوء التي شهدتها ألمانيا.

ولتسليط الضوء على المشهد العام في ألمانيا فيما يخص موضوع اللجوء ومدى تأثير ذلك على اللاجئين أنفسهم؛ أجرت مجلة «ذوات» هذا الحوار مع مروان أبو طعم، الدكتور والأستاذ الجامعي الألماني (من أصل لبناني)، في جامعة برلين، والخبير الاستشاري في قضايا الإسلام والاندماج ومكافحة الإرهاب والتطرف في ألمانيا.

والدكتور مروان أبو طعم هو من مواليد بيروت عام ١٩٧٥، حاصل على شهادة الماجستير في العلوم السياسية والاقتصادية، وشهادة الدكتوراه من جامعة «غوتينغن» الألمانية في الدراسات الإسلامية والسياسية عن موضوع «الإرهاب الإسلاموي»، يعمل كمستشار في مكتب مكافحة الجريمة التابع لولاية راينلاند بفالس (غرب ألمانيا)، وهو مختص في قضايا التطرف الإسلامي والسلفية والأمن الداخلي، كما يدرس الأمن القومي في جامعة برلين، وهو مؤسس منتدى حوار الثقافات

مروان أبو طعم عضو مشارك في معهد الاندماج والهجرة التابع لجامعة هومبولت في برلين، يعمل أيضا أستاذا محاضرا في جامعة مونستر منذ عام ٢٠١٤، كما سبق له أن عمل كمستشار في قضايا الإسلام والحوار والأمن الداخلي في الكثير من المؤسسات، منها مؤسسة كونراد أديناور، والمؤسسة الألمانية للتعاون التقني. سبق له أن نظم دورات تكوينية للجيش الألماني حول فهم الثقافات الأخرى وخاصة الإسلامية. ولمروان أبو طعم مجموعة من المؤلفات منها: «الإسلام والإسلاموية»، «بين المواجهة والحوار: الإسلام كقوة سياسية».



*** مـا هـو الحجـم الحقيقـي لمشـكلة اللاجئـين في ألمانيـا، هـل نحـن فعـلا أمـام مشـكلة حقيقيـة أم أنـه يتـم تضخيمهـا؟**

** للتذكـير، فـإن هـذه ليسـت هـي المـرة الأولى الـتي تواجـه فيهـا ألمانيـا مسـألة اللجـوء؛ فقـد سـبق لألمانيـا أن شـهدت عـلى الأقـل ثـلاث أو أربـع موجـات للجـوء في تاريخهـا الحديـث. المشـكل الحـالي في ألمانيـا بالنسـبة إلى اللاجئـين السـوريين هـو أن مجيئهـم جـاء متزامنـا مـع نقـاش عـام حـول مسـتقبل المسـلمين في ألمانيـا، وربـط الموضوعـين مـع بعـض هـو الـذي أدى في نظـري إلى تضخيـم مشـكلة اللاجئـين. والأمـر هنـا أكـثر مـن مجـرد لاجئـين وصلـوا إلى ألمانيـا، وإنمـا المسـألة هـي إعـادة نقـاش ثقـافي يخـص المسـلمين في ألمانيـا، وهـو مـا يفسر والتعاطـف الكبـير مـع اللاجئـين، ترجـع إلى تركيبـة الفكـر والشـخصية الألمانيـة، كمـا أن للأمـر أيضـا علاقـة بالتاريـخ الألمـاني. الألمـان بدورهـم ذاقـوا ويـلات الحـروب وعـلى رأسـها الحربـين العالميتـين الأولى والثانيـة، وهنـاك بعـض الألمـان الذيـن لايزالـون عـلى قيـد الحيـاة حـتى الآن اضطـروا بدورهـم للجـوء في الحـرب العالميـة الثانيـة. أمـر آخـر سـاهم في التعاطـف الكبـير للألمـان مـع اللاجئـين، وهـو الصـور الـتي تداولتهـا وسـائل الإعـلام الألمانيـة حـول اللاجئـين، خصوصـا عندمـا كانـوا عالقـين في أوروبـا الشرقيـة. كل هـذا عـزز تعاطـف شريحـة واسـعة مـن الألمـان مـع اللاجئـين. لكـن في الوقـت ذاتـه، كان هنـاك انقسـام كبـير في ألمانيـا حـول كيفيـة دمـج هـؤلاء اللاجئـين ومعظمهـم مـن المسـلمين في المجتمـع الألمـاني، وهـو مـا ولـد فيمـا بعـد نقاشـا بـين الأحـزاب السياسـية، وامتـد أيضـا

> لما وصل اللاجئون إلى ألمانيا كان هناك حماس كبير لاستقبالهم والترحيب بهم، لكن بالمقابل لم تكن هناك خطة سياسية واضحة لكيفية التعامل مع هذا الكم الكبير من اللاجئين

ظهـور أحـزاب يمينيـة شـعبوية، مثـل حـزب البديـل مـن أجـل ألمانيـا الـذي تـم تأسيسـه في البدايـة لمعارضـة سياسـة إنقـاذ اليـورو، ليتحـول الآن إلى حـزب معـاد للإسـلام وللمهاجريـن، أصبـح يطالـب بمنـع الحجـاب في الجامعـات والمؤسسـات العامـة ومنـع ختـان الأطفـال المسـلمين واليهـود. وقـد سـمح للانقسـام الـذي يعيشـه المجتمـع الألمـاني بخصـوص موضـوع اللاجئـين في بـروز هـذا الحـزب الـذي اسـتطاع في ظـرف وجـيز أن يحقـق نتائـج جيـدة للغايـة في انتخابـات الولايـات. وكمـا قلـت؛ فـإن النقـاش الحـالي حـول اللاجئـين مـا هـو إلا تكملـة للنقـاش العـام في ألمانيـا حـول المسـلمين ككل، والذيـن بـدأ عددهـم في الارتفـاع تدريجيـا ليصـل في السـنوات الأخـيرة إلى حـوالي خمسـة ملايـين مسـلم يعيشـون في ألمانيـا.

*** هـل يعـني ذلـك أن ثقافـة الترحيـب الـتي اسـتقبلت بهـا ألمانيـا اللاجئـين في طريقهـا إلى الـزوال أمـام ضغـط الأحـزاب اليمينيـة الشـعبوية؟**

** يمكـن القـول، إن مظاهـر الترحيـب الكبـيرة الـتي شـهدناها في البدايـة، وخاصـة في محطـات القطـار إلى الـرأي العـام، وسـمح بظهـور أصـوات ترفـض اسـتقبال مزيـد مـن اللاجئـين، وتلقـي باللـوم عـلى المستشـارة الألمانيـة أنغيـلا مـيركل وتحملهـا مسـؤولية ذلـك.

*** ظلـت المستشـارة الألمانيـة أنغيـلا مـيركل في البدايـة متشـبثة بعبارتهـا الشـهيرة «سـننجح في ذلـك» رغـم الانتقـادات، فهـل يمكـن القـول إن الإجـراءات الـتي اتخذتهـا السـلطات الألمانيـة لحـد الآن، كانـت كافيـة لتسـهيل اندمـاج اللاجئـين في ألمانيـا؟**

** لمـا وصـل اللاجئـون إلى ألمانيـا كان هنـاك حمـاس كبـير لاسـتقبالهم والترحيـب بهـم هنـاك، لكـن بالمقابـل لـم تكـن هنـاك خطـة سياسـية واضحـة لكيفيـة التعامـل مـع هـذا الكـم الكبـير مـن اللاجئـين. وبصراحـة، حـتى الآن لا توجـد هنـاك سياسـية واضحـة تجـاه اللاجئـين. عندمـا فتحـت ألمانيـا حدودهـا، واسـتقبلت اللاجئـين لـم تكـن لديهـا اسـتراتيجية أو خطـة مدروسـة، وإنمـا كان ذلـك فقـط كـرد فعـل وتفاعـل مـع وضـع معـين كان موجـودا في أوروبـا الشرقيـة، وهـو مـا دفـع بمـيركل لتقـرر فتـح الحـدود لمـدة معينـة، دون أن تتوقـع أن عـدد اللاجئـين الذيـن دخلـوا إلى ألمانيـا سـيصل إلى هـذا الحـد.

*** هناك من يقول إن فتح ألمانيا لأبوابها أمام اللاجئين لم يكن لأسباب إنسانية فقط، وإنما أيضا للاستفادة من اليد العاملة السورية في ظل ارتفاع معدل الشيخوخة في البلاد؟**

** إذا سلمنا بصحة هذا الكلام، فإن ذلك يعني وجود تخطيط مسبق لقيام الحرب في سوريا حتى يهاجر اللاجئون إلى ألمانيا، وحتى تستفيد منهم لتعويض النقص في اليد العاملة لديها. هذا الطرح غير صحيح، فألمانيا إذا كانت فعلا ترغب في جلب اليد العاملة لقامت بذلك عبر فتح سفاراتها أمام من يرغب بالهجرة، وبهذه الطريقة كان بإمكانها أن تجلب أكثر من مليون شخص للعمل بطريقة قانونية، مثل ما حصل في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي. لذلك، فكما قلت ليس السبب من فتح ألمانيا لحدودها هو الاستفادة من اللاجئين لمواجهة الهرم السكاني الذي

الشخص المرتكب لها والبيئة التي نشأ فيها. فعلى سبيل المثال قام شخص لاجئ مؤخرا بحرق زوجته بولاية «هيسن» غرب ألمانيا، فمثل هذه الجرائم نادرة الحدوث في ألمانيا.

*** ول هناك خطورة للهجرة غير المنظمة على الأمن في ألمانيا، خصوصا أن احتمال تسلل إرهابيين ومجرمين مع اللاجئين يبقى واردا؟**

** هذا النوع من الهجرة غير المنظمة قد تستفيد منه أيضا حركات إرهابية من خلال إرسال أشخاص تابعين لها إلى دول معينة، وفي ظل غياب المراقبة الكبيرة عبر الحدود يصعب التحقق من هوية هؤلاء الأشخاص، الذين قد يقدمون أنفسهم على أنهم أيضا لاجئين ويطلبون الحماية. المشكلة الكبيرة في الهجرة غير المنظمة هي صعوبة التأكد من الهوية

> إعلان ألمانيا من طرف الجماعات الإرهابية كهدف محتمل للاعتداءات، باعتبارها جزءا من الغرب، يولد بطبيعة الحال خوفا لدى المجتمع

تغلب عليه الشيخوخة، وإنما هو تقديم حماية لهؤلاء اللاجئين الفارين من جحيم الحرب الأهلية في سوريا. لكن غياب استراتيجية بهذا الخصوص، جعل موضوع اللاجئين يتحول إلى مشكلة سياسية في ألمانيا.

*** وما مدى صحة ارتفاع نسبة الجرائم بين اللاجئين؟**

** لا يمكن القول إن نسبة الجرائم بين اللاجئين مرتفعة، بل هي نسبة عادية، فكما نعلم الجريمة هي رد فعل على مجموعة من العوامل المتداخلة، وقد تكون هناك عوامل خاصة باللاجئ تدفعه لارتكاب الجريمة، إلا أن ذلك لا يعني أن نسبة الجريمة بين اللاجئين مرتفعة مقارنة بالأشخاص العاديين.

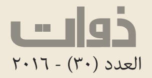
هذا فيما يخص نسبة الجريمة، أما فيما يتعلق بنوعيتها، فيمكن القول إن هناك أنواعا أخرى من الجرائم دخلت إلى ألمانيا مع اللاجئين، ولم تكن موجودة من قبل، وهذه الجرائم ترتبط غالبا بثقافة

الحقيقية للأشخاص الذين دخلوا إلى البلاد وما هي طبيعتهم وخلفيتهم.

لا توجد هناك أرقام دقيقة ومعروفة عن عدد هؤلاء الأشخاص، لكن المعروف أن نسبة كبيرة من أشخاص مجهولين دخلوا إلى ألمانيا مع موجة اللجوء، وجزء كبير منهم اختفى ولم يعد له أثر، وهو ما يصعب تتبع هؤلاء الأشخاص ومعرفة مكان وجودهم ومدى خطورتهم. والأمر ينطبق حتى على القاصرين، حيث أعلنت وزارة الداخلية الألمانية أن ثلاثة آلاف شخص قاصر مختفي في ألمانيا ولا يعرف مكانهم، ومن ضمن هؤلاء الأشخاص قد يوجد أيضا أشخاص يهددون الأمن.

*** هل المخاوف القائمة حاليا في المجتمع من خطر اللاجئين هي مخاوف حقيقية أم مبالغ فيها؟**

** إعلان ألمانيا من طرف الجماعات الإرهابية كهدف محتمل للاعتداءات، باعتبارها جزءا من



الغـرب، يولـد بطبيعـة الحـال خوفـا لـدى المجتمـع، وهـذا الخـوف ينتـج مزاجـا معينـا داخـل المجتمـع ويجعلـه يشـك في الأجنـبي واللاجـئ، خاصـة إذا ثبـت تـورط أحـد اللاجئين في جريمـة مـا. وحتى على المستوى السياسي، يسمح هـذا الخـوف لأحزاب سياسية شعبوية لتحقيـق انتصـارات كبـيرة، مثـل حـزب البديـل مـن أجـل ألمانيا الـذي حصـل على المركز الثاني في انتخابات ولاية «مكلنبـورغ- فوربومـرن» وتمكـن مـن دخـول برلمـان ولايـة برلـين.

*** مـا هـي عوائـق الاندمـاج في نظركـم ومـن يتحمـل الجـزء الكبـير في ذلـك، هـل اللاجـئ أم الدولـة الألمانيـة؟**

** الاندمـاج في المجتمـع لا يمكـن أن ينجـح إلا إذا قـام كل طـرف بـدوره؛ فالوافـد الجديـد عـلى المجتمـع مطالـب بالتفاعـل مـع محيطـه الجديـد والانفتـاح عـلى ثقافتـه مـن خـلال تعلـم اللغـة ودخـول عالـم الشـغل ومساعدة أبنائـه عـلى الاندمـاج في المجتمـع. أمـا الدولـة، فهـي مطالبـة مـن جهتهـا بتوفـير الظـروف المسـاعدة عـلى الاندمـاج، مثـل توفـير فـرص التعليـم والعمـل للاجئـين ومسـاعدة أبنائهـم عـلى الالتحـاق بالمـدارس في أقـرب وقـت وغيرهـا مـن السياسيات العامـة؛ فاللاجئ ليـس هـو مـن يوظـف المعلـم الـذي يـدرس اللغـة، وإنمـا الدولـة هـي الـتي تقـوم بأمـور مـن قبيـل فتـح المـدارس، وتوفـير مدرسـين لتعليـم اللغـة الألمانـة للوافديـن الجـدد. واللاجـئ هـو اسـتثمار، والدولـة عليهـا الاسـتفادة مـن هـذا الاسـتثمار مـن خـلال إيجـاد فضـاء لتطويـر قدراتـه والاسـتفادة مـن طاقتـه.

*** إلى أي حـد يمكـن اعتبـار اللاجئـين مـن شـمال إفريقيـا حقـا لاجئـين؟**

** هنـاك فـرق بـين لاجـئ سـياسي ولاجـئ حـرب؛ فالأشـخاص الذيـن يتعرضـون لمضايقـات سياسـية في بلدانهـم، لديهـم الحـق في التقـدم بطلـب اللجـوء السـياسي، حـتى وإن كانـوا مـن دول تصنفهـا ألمانيـا دولا آمنـة، مثـل المغـرب والجزائـر. لكـن الوضـع بالنسـبة إلى اللاجـئ السـوري مختلـف، فهـو شـخص فـار مـن الحـرب وحياتـه باتـت مهـددة بشـكل كبـير، ويبحـث عـن الأمـان في ألمانيـا، لذلـك فهـو لاجـئ حـرب والمواثيـق الدوليـة تفـرض عـلى الـدول الـتي لجـأ إليهـا تقديـم الحمايـة لـه في انتظـار انتهـاء الحـرب في بـلاده ورجوعـه إليهـا.

وفي الحقيقـة، فـإن اللاجئـين القادمـين مـن شـمال إفريقيـا، باسـتثناء ليبيـا، لـم يلجـؤوا إلى ألمانيـا بسـبب الحـرب، وإنمـا بسـبب المشـاكل الاجتماعيـة والاقتصاديـة، في ظـل غيـاب ظـروف عيـش ملائمـة في بلدانهـم تغنيهـم عـن فكـرة الهجرة. لذلـك، فهؤلاء هـم لاجئـون اقتصاديون يبحثـون عـن تحسـين ظروفهـم المعيشـية؛ فالشـاب المغـربي أو الجزائـري أو المـصري هنـا في ألمانيـا، لـم يهـرب مـن الحـرب، ولكنـه يبحـث عـن مسـتقبل أفضـل. هـؤلاء الشـباب يعتـبرون أن مسـتقبلهم هـو أفضـل في أوروبـا حـتى وإن كان المجتمـع الـذي سيعيشـون فيـه غريبـا عنهـم.



بقلم : هشام الدريوش

إعلامي مغربي مقيم بألمانيا

الفنان مؤنس بخاري جامع الشتات السوري بألمانيا



ارتبط مشروع «البيت السوري» وحملة «شكرا ألمانيا» باسم الفنان الفوتوغرافي والناشط السوري، اللاجئ في ألمانيا مؤنس بخاري. هذا الشاب المولود في دمشق عام ١٩٧٨ نجح بأفكاره المبدعة في تقديم الكثير من الخدمات للاجئين السوريين في ألمانيا.

لم يأت مؤنس بخاري في البداية إلى ألمانيا لاجئا، وإنما جاءها بعقد عمل للمساهمة في مشروع تشرف عليه وزارة الخارجية الألمانية. ففي أغسطس/ آب من عام ٢٠١٣ تم تكليف بخاري من ألمانيا بالإشراف على تأسيس «شبكة إ ف م» عن بعد، تقدم خدمات بث مجانية لإذاعات سورية مستقلة تبث في مناطق مختلفة من سوريا وتركيا والأردن، وبعد انتهاء المشروع اضطر بخاري للبقاء في ألمانيا، وطلب اللجوء فيها بعد أن تعذرت عليه العودة إلى بلده.

مشروع البيت السوري

منذ بداية مقامه في برلين، لمس بخاري غياب أي تنسيق أو تعاون منظم بين اللاجئين السوريين. فعلى غرار الكثير من أبناء بلده، وخاصة الجدد منهم، وجد بخاري أيضا صعوبات في البداية، واحتاج لمساعدة من سبقوه إلى ألمانيا من اللاجئين، لذلك لجأ إلى «الفايسبوك» للبحث عن سوريين منظمين في شكل مجموعات، لكنه لم يعثر عما كان يبحث عنه، ليقرر بعدها تشكيل مجموعة «البيت السوري» بألمانيا، والتي وصل عدد المنخرطين فيها حاليا ١٥٠ ألف شخص، ٩٠ في المئة منهم من داخل ألمانيا، و١٠ في المئة مقسمين بين سوريا والاتحاد الأوروبي.

وعن هذا المشروع، يقول مؤنس: «مجموعة البيت السوري قدمت للاجئ السوري مساعدة يحتاجها أي شخص كيف ما كان، ترك بلده وذهب للعيش في بلد آخر. فهو يكون دائما بحاجة إلى شخص من نفس البلد التي أتى منها، يدله ويعلمه وينقل له التجربة التي مر بها للتغلب على مشاكله».

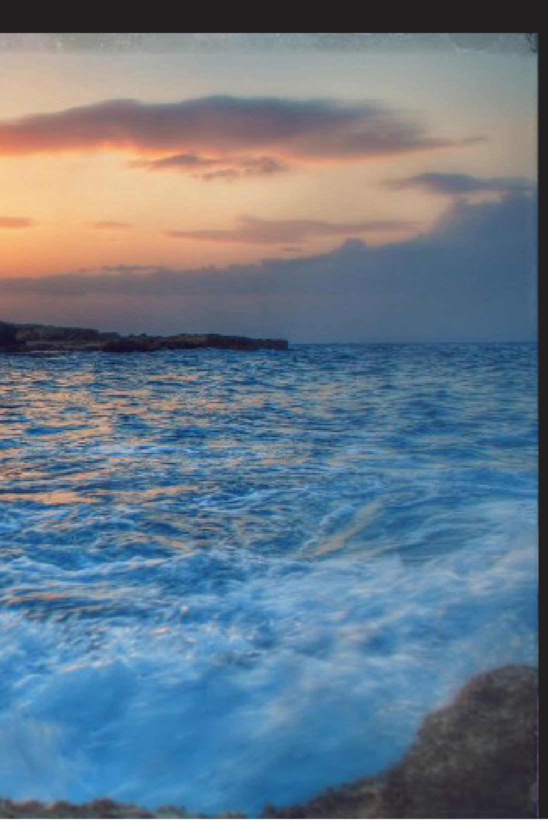
«البيت السوري» Syrisches Haus in Deutschland مؤسسة اجتماعية ثقافية تختصّ بالشتات السوري في ألمانيا، مهمتها مد جسور التواصل ما بين السوريين المتواجدين على جميع أراضي جمهورية ألمانيا الاتحادية، كما أنها تقوم بأنشطة رياضية وفنية وثقافية واجتماعية تساعد على اندماج السوري في المجتمع الألماني.

ويضيف بخاري في دردشة خاصة مع مجلة «ذوات»: «في الحقيقة أخذنا دور الحكومة الألمانية التي فشلت في الأعوام الماضية في إيصال المعلومة الصحيحة للسوريين، لأنهم لم يشتغلوا في البداية على اللغة أو تبسيط المعلومة، أو حتى على الأدوات التي تساعد على إيصال هذه المعلومات، بينما في البيت السوري أصبح الشخص السوري الذي يعيش مدة طويلة في ألمانيا، هو الذي يساعد ابن بلده الجديد».

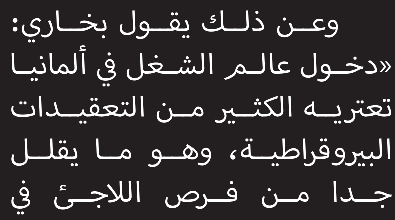
اعتمد الناشط السوري على وسائل الدعم الذاتية في تأسيس مجموعة البيت السوري في ألمانيا، فهو لم يحصل على مساعدة من الحكومة الألمانية بحجة أن منح المساعدة «يشترط مرور ثلاث سنوات على تسجيل الجمعية في الدوائر الرسمية المحلية».

مساعدة اللاجئين على العمل

لا يقتصر بخاري على العمل الاجتماعي وربط السوريين مع بعضهم البعض في مجموعات عبر وسائل التواصل الاجتماعي، بل يمتد نشاطه أيضا إلى المجال الاقتصادي. ولإيمانه الكبير بدور العمل في تحسين ظروف اللاجئين واندماجهم في المجتمع، نجح بخاري في تنظيم لقاء جمعه بأكثر من أربعين شركة في ألمانيا، وناقش معهم كيفية مساعدة اللاجئين السوريين للحصول على فرصة عمل في تلك الشركات. وأسفرت هذه الجلسات، التي تكررت ثلاث مرات، عن تعهد الشركات بتخصيص نسبة من فرص التدريب والتأهيل المهني للاجئين.






وعن ذلك يقول بخاري: «دخول عالم الشغل في ألمانيا تعتريه الكثير من التعقيدات البيروقراطية، وهو ما يقلل جدا من فرص اللاجئ في





> لا يقتصر بخاري على العمل الاجتماعي وربط السوريين مع بعضهم البعض في مجموعات، عبر وسائل التواصل الاجتماعي، بل يمتد نشاطه أيضا إلى المجال الاقتصادي

الالتحاق بالعمل. لذلك اتفقنا مع الشركات على تيسير تلك الشروط وفق رؤيتها الخاصة وأن لا تبقى ملتزمة بالقوانين الصارمة».

وبذلك تعهدت مجموعة من الشركات بتوفير مناصب عمل للاجئين، فمثلا وفرت شركة «دويتشه بوست» (بريد ألمانيا) ألف فرصة للاجئين وشركة السيارات «BMW» ٢٥ فرصة عمل بكل مدينة يوجد بها فرع للشركة. كما تعهدت شركة «بورشه» بتوفير ٨٠ فرصة تدريب وعمل للاجئين، وشركة تليكوم (الاتصالات الألمانية) أيضا وفرت ٣٠٠ فرصة. ويضيف بهذا الخصوص «طلبنا من هذه الشركات الدمج بين التدريب والعمل حتى يحصل اللاجئون على أجر مقابل عملهم هناك».

حملة شكرا ألمانيا

ولرد الجميل ولو رمزيا للشعب الألماني على ترحيبه باللاجئين السوريين ومساعدتهم، أطلق بخاري العام الماضي حملة سماها «شكرا ألمانيا»، واختار بخاري وزملاؤه الذين أشرفوا على هذه الفكرة، توزيع ورود على الشعب الألماني في مدن مختلفة اعترافا لهم بالجميل وبوقوفهم إلى جانب السوريين في محنتهم. ويوضح بخاري الهدف من هذه الحملة بقوله: «أردت من خلال ذلك التوجه بالشكر للشعب الألماني ومفاجأته بإهدائه وردة في الشارع. وأيضا أردت أن أظهر للجميع الفرق بين ردود الفعل هنا في ألمانيا عندما نهدي للناس وردا، وبين رد الفعل الذي تعرضنا له في سوريا حين أهدينا للجيش والأمن وردا في إحدى المناطق السورية على أمل أن يحمينا، لكنه رد بإطلاق النار علينا».

وحظيت حملة «شكرا ألمانيا» بردود فعل كبيرة في ألمانيا، وتحدثت عنها الكثير من وسائل الإعلام، التي تناقلت صور توزيع اللاجئين السوريين لورود على الألمان في جل محطات القطار في ألمانيا. ويرى بخاري أن أحد أسباب نجاح حملته يكمن في رفضه تمويل المشروع من جهة ألمانية، واكتفائه بمطالبة كل سوري بشراء وردة أو وردتين، وهو ما جعله في الأخير ينجح في جمع آلاف الورود، وتمت العملية بعفوية كبيرة دون تدخل أية جهة من الجهات، كما يؤكد ابن الثامنة والثلاثين عاما.

البيت السوري بديلا لمنظمة الميثاق السوري

قبل قدومه إلى ألمانيا عاش بخاري لفترة في الأردن، حيث كان يشرف على محطة إذاعية هناك تحمل اسم «راديو بلدنا»، لكن وبسبب الحرب في سوريا وتحول «الحراك الثوري إلى صراع عسكري»، اضطر فريق العمل لمغادرة سوريا ولم يعد للمحطة مراسلين من داخل سوريا، مما أدى إلى توقف عمل المحطة. وعن هجرتة أو هروبه من سوريا إلى عمان، يوضح بخاري قائلا: «كان هناك عميل في المجموعة التي كنت أشتغل فيها بسوريا. وقد بعث بمعلومات وصور ومقاطع فيديو لصحيفة «لوس أنجلوس تايمز» حول ما يحدث في دمشق. وهذا العميل يسكن في نفس المبنى، الذي يقيم فيه النشطاء في دمشق. ونقل كل شيء عني وعن أصدقائي لقوى الأمن، الذين حاولوا الإمساك بي وقتلي».

و كان بخاري ناشطا أيضا في منظمة «ميثاق سوريا»، وهي منظمة تأسست عام ٢٠١١، وضمت مجموعة من الأشخاص صاغوا ميثاق الثورة السورية، ومؤنس بخاري واحد منهم. وكان الناشطون في هذه المنظمة «يقومون بترجمة الفيديوهات ويرسلونها لمنظمات حقوق الإنسان»، كما يوضح بخاري. وقبل سنتين تحولت المنظمة إلى مؤسسة غير حكومية NGO مسجلة في هولندا، إلا أن نشاطها توقف منذ بداية ٢٠١٥ بسبب غياب الحراك السياسي بسوريا، وانتشار آلة الحرب في كل مكان.

ويرى بخاري أن البيت السوري قد يكون بديلا لمنظمة «ميثاق سوريا» من خلال التركيز على المجموعة السورية الموجودة في ألمانيا، حيث إذا نجحت تجربتها هناك «فقد تكون هي النموذج الذي يمكن أن ينتقل مع السوريين لأي مكان بل يمكنه أيضا أن يتحول لنموذج صالح للتكرار في سوريا».

ويحلم بخاري في أن ينجح السوريون المتواجدون في ألمانيا في تكوين جيل جديد قوي قادر على العودة إلى بلاده من أجل إعادة إحيائها، ونقل إيجابيات الثقافة الألمانية لسوريا، كما يأمل الناشط الحقوقي والفنان السوري، في أن يتحول اللاجئون السوريون إلى نواة قادرة على نقل مفاهيم الحرية والديمقراطية بشكل صحيح من ألمانيا واحترام الاختلافات في سوريا.



من مدونة مؤنس بخاري

قمّة الوجع!

هل تعرف أين هي قمّة الوجع؟

نعم ستخطر في بالك الكثير من الإجابات، لكن أيّاً منها لا يماثل وجعي.

قمّة الوجع، حين تعرف مثلاً أنّ محطّة شتوتغارت الرئيسة للقطارات افتُتحت عام ١٩١٧ بينما سبقتها مثيلتها الدمشقيّة بخمس سنوات.

حين تعرف أنّ خطوط الترام في دمشق كانت تعمل بالكهرباء عام ١٩٠٧ قبل ثلاث سنوات من كهربة خطوط ترام برلين.

حين تسمع أنّ مستوى دخل الفرد في سوريا كان يعادل ثلاثة أضعاف مثيله الألماني حتى ستينيات القرن العشرين، مثلاً.

هل يؤثر بك قرار ١٩٦٧ بإيقاف شركة الخطوط الحديديّة السوريّة، وإطفاء القطارات؟ ربّما أزعجك قليلاً قرار بشار الأسد بتكليف شركة رامي مخلوف باقتلاع الخطوط الحديديّة من شوارع دمشق... فلا لزوم لها، حيث وجودها دليل على حضارة اندثرت بتوقيع من أبيه، دليل تراه الأجيال اللاحقة فتتساءل.

قمّة الوجع، أن تكتشف أنّ بلدك المهانة إعلامياً اليوم، كانت تنافس في ساحتها الأوروبية قبل أن تولد أنت تماماً. أن تكتشف ذلك متأخّراً بعينيك، مصادقاً لخواطر الجدود في عشق الماضي.

قمّة الوجع، أن توجعك سنوات الاغتراب ...

للكتابة دور في إيجاد علاقات صحية مع الشعوب خارج المظلوميات والصورة النمطية للجوء وعُقَدِ النقص تجاه الآخر

بقلم : هشام الدريوش
إعلامي مغربي مقيم بألمانيا

الشاعر محمد المطرود... التغيير بالكتابة والفن

«لأن القصيدة ممكنة، فالحياة ممكنة»، كان هذا هو شعار مهرجان القصيدة السورية الأول الذي نظمه الشاعر والناقد السوري اللاجئ في ألمانيا محمد المطرود في مدينة «كولونيا» في شهر مارس (آذار) من العام الجاري.

اختيار المطرود لهذا الشعار كما يوضح، هو تأكيد على «انتصار الفكرة والمعنى ومواجهة آلة الحرب»، ويضيف ابن القامشلي في دردشة مع مجلة «ذوات» قائلا: «نريد التأكيد على دور الكتابة في إيجاد علاقات صحية مع الشعوب خارج المظلوميات والصورة النمطية للجوء وعُقَدِ النقص تجاه الآخر».

لم يأت المطرود إلى ألمانيا في البداية كلاجئ، وإنما وصلها في إطار منحة من مؤسسة «هاينريش بول» Heinrich Boll الألمانية، وتستضيف هذه المؤسسة كل سنة كاتبين أو ثلاثة كتاب خاصة من المناطق المضطربة في العالم، لتشجيعهم على الإبداع. وشاءت الأقدار أن يكون المطرود في بداية ٢٠١٣ ضمن الأسماء التي رشحتها مؤسسة «هاينرش بول» للاستفادة من المنحة، وهو ما اعتبره الشاعر السوري فرصة للخروج من المضايقات التي عاشها في سوريا. وبعد انتهاء مدة المنحة اختار الشاعر المطرود تقديم طلب اللجوء في ألمانيا، وتأجيل عودته إلى بلده الأم إلى غاية أن تهدأ الأوضاع في سوريا وتضع الحرب أوزارها، لكنه بالمقابل أخذ على عاتقه خدمة القضية السورية عبر أعماله الفنية.

يشبه الشاعر المطرود نفسه بالعصفور الذي يستلقي على ظهره ويمد رجليه إلى السماء، وعندما يسأله الناس لماذا تفعل ذلك يرد بالقول: «أريد أن أمنع انطباق السماء على الأرض». والرسالة التي يريد الشاعر السوري أن يمررها من خلال هذا التشبيه هو أن المثقف، وإن لم يملك سلاحا أو مسدسا في يديه، فإنه قادر على التغيير بكلمته متى كان مؤمنا بالقضية التي يدافع عنها. «فأن تكون مؤمنا يعني أن تعمل»، يؤكد محمد المطرود الذي اختار الكتابة والفن سلاحا للدفاع عن القضية السورية بطريقة أدبية وغير مباشرة. ويرى المطرود أن المثقف قد يجد تقبلا أكثر لدى الناس بالمقارنة مع السياسي الذي ينظر إليه الكثيرون نظرة تتسم بالريبة والشك، ويتهمونه بالسعي وراء المصالح الخاصة.

أحمد وظله النار

كان أول كتاب يؤلفه الشاعر محمد المطرود في ألمانيا هو كتاب «أحمد وظله النار»، وهذا الكتاب هو المؤلف الشعري الخامس له في مسيرته الأدبية. تعمد الشاعر السوري الانتظار ثمانية أشهر منذ





> يسعى المطرود إلى تقديم صورة جيدة عن السوريين في البلدان التي يقيمون فيها، ويتجلى ذلك في تنظيم أنشطة فنية مشتركة

وصوله إلى ألمانيا حتى يؤلف هذا الكتاب، فهو كان يرفض أن يكون كتابه مجرد ردة فعل عما عاشه في سوريا، خصوصا أنه انتقل إلى بيئة جديدة تختلف كليا عماعاشه من قبل، لذلك يوضح المطرود «كنت أنتظر صوتا أعلى من الصوت الذي بداخلي. أنا خرجت من مكان جد مضطرب، يوميا تنزل فيه القذائف والصواريخ، فيه الاعتقال..كنت في حاجة إلى صوت أكثر من الصوت الذي في داخلي حتى أقدر أن أنظر في نفسي». واختار المطرود أن يكون الكتاب مزيجا بين نصوص شعرية وأخرى نثرية حتى يلم بالحالة التي مر بها. ويقول: «عندما كتبت هذا الكتاب أصبحت أنظر للدائرة من خارج الدائرة». ومن خلال ترجمة نصوص من هذا الكتاب إلى اللغة الألمانية أيضا، تمكن المطرود من إيصال رسالته عن الواقع السوري المر لأبناء البلد الذي يعيش فيه الآن.

لم يرغب المطرود أن يكون الكتاب رد فعل مباشر على الحرب والثورة المشتعلة في بلاده، وإنما أراده أن يكون شيئا مغايرا، تعبيرا عن أحاسيس متراكمة تولدت لديه طوال الفترة التي قضاها في سوريا في ظل الحرب، واختار أن يعيد إنتاج ما عاشه بطريقة أدبية.

ويرى المطرود أن التحديات التي تواجه المثقف الذي لجأ للعيش في بلد آخر، من قبيل تعلم اللغة الأجنبية، والتعود على بيئة جديدة، وربط علاقات مع أشخاص جدد، كل ذلك يخلق لديه تحديا مقابلا، يدفعه لتقديم «فعل ثقافي بدل من تقديم فعل تعريفي».

تحسين صورة اللاجئ السوري

بالإضافة إلى الأعمال الفردية الفنية للشاعر محمد المطرود الممتدة طيلة عشرين عاما، والتي توجها بتأليف ستة كتب، يتعاون الشاعر السوري أيضا مع كتاب ونشطاء آخرين في ألمانيا وفي بلدان أوروبية أخرى، لخدمة القضية السورية، وتقديم صورة جيدة عن السوريين في البلدان التي يقيمون فيها، ويتجلى ذلك في تنظيم أنشطة فنية مشتركة.

وجاء تنظيم «مهرجان القصيدة السورية الأول» في مدينة كولونيا كتتويج للتعاون بين مختلف المثقفين السوريين، وشارك في هذا المهرجان الذي ينظم لأول مرة في ألمانيا وفي أوروبا ككل، ٢٢ شاعرا سوريا من مختلف المدن الألمانية. وحظي المهرجان بتغطية إعلامية مهمة مما ساعد على تحقيق الهدف الذي أقيم المهرجان من أجله، وهو التعريف بالشعر السوري في ألمانيا، وكسر الصورة النمطية التي ترافق اللاجئين السوريين.





ويأمل المطرود أن تساهم مثل هذه المهرجانات، والتي تشكل جهدا جماعيا يجمع مبدعين في المهجر، في إبراز إبداع وتفوق اللاجئ، وما يستطيع أن يقدمه من ثقافة في المهجر.

وتم تنظيم مهرجان القصيدة السورية في ألمانيا بالتزامن مع الذكرى السادسة للثورة السورية، «وبذلك يكون الاحتفال دليلا على وجود السوري، والثقافة السورية»، و«محاولة لدحر الموت عن طريق الأدب من أجل تبيان السوري بأنه صاحب ثقافة، وليس لاجئا فقط، كما تصوره وسائل الإعلام».

مبادرة التعليم عن بعد

ويحرص المطرود على ألا يقتصر التعاون بين المثقفين السوريين في ألمانيا على الجانب الثقافي فحسب، بل يرغب في أن يشمل مجالات أخرى أيضا. ويساهم المطرود في الإشراف على مجموعة من الأنشطة الاجتماعية، وأخرى في مجال الإغاثة. ويقدم الشاعر السوري مثالا على ذلك بمبادرة «التعليم عن بعد» التي أطلقها مثقفون سوريون من النرويج لفائدة أبناء المخيمات الذين اضطرتهم الحرب للانقطاع عن الدراسة لسنوات طويلة. وساعد المطرود في هذا البرنامج من خلال تقديمه الاستشارة للمشرفين على هذا المشروع.

وإيمانا منه بالدور المهم للجمعيات في تأطير اللاجئين السوريين، ظل المطرود يشجع على إقامة مثل هذه الجمعيات في جل المدن والولايات الألمانية، وكان لذلك انعكاسا جيدا على اللاجئين السوريين الذين أصبح حضورهم إيجابيا على الساحة الفنية الألمانية، من خلال تنظيمهم لتظاهرات فنية، مثل معارض تشكيلية وأمسيات شعرية وندوات، وهو ما يرى فيه المتتبعون إثراء للمشهد الثقافي الألماني.

كتاب سوريون ضد البشاعة

أثمر تعاون المطرود مع مثقفين آخرين كتابا جديدا سيرى النور قريبا، منحه المطرود عنوان «كتاب سوريون ضد البشاعة»، ساهم عشرون كاتبا في إعداد هذا الكتاب الذي يركز على تفاصيل الحياة في سوريا وعلى الهوامش المغيبة في وسائل الإعلام. ويوضح المطرود ذلك بالقول: «رغم الحرب في سوريا، فإن الحياة مستمرة وهناك أناس تتحدى البشاعة والموت، وتحاول

> **«يتحمل اللاجئ المثقف جزءاً من مسؤولية إنجاح الاندماج من خلال التغلب على التحديات التي تواجهه وعلى رأسها عائق اللغة»**

أن تعيش حياتها الطبيعية. ونحن أردنا تسليط الضوء على هذه التفاصيل والهوامش». وستتم ترجمة هذا الكتاب إلى اللغتين: الهولندية والإنجليزية. وقد أعلن مترجمين كبار سبق لهم أن ترجموا لكتاب كبار مثل أدونيس ومحمود درويش ومحمد عابد الجابري والمهدي المنجرة...استعدادهم لترجمة هذا الكتاب.

كما انتهى الشاعر المطرود مؤخرا من تأليف كتاب جديد، وهو عبارة عن مقالات، أسماه «أرباب أرضيون»، ويتطرق هذا الكتاب إلى المواضيع الراهنة، سواء الدينية أو الثقافية أو السياسية. ويتوقع المطرود أن يصدر هذا الكتاب أيضا في لبنان، إذا لم تمنعه أجهزة الرقابة على حد قوله. ويصف المطرود هذا الكتاب بأنه مقالات ثقافية تحمل في طياتها «مشاكسة سياسية».

وفي رأي محمد المطرود، فإن المثقفين السوريين الموجودين حاليا في ألمانيا يمكنهم أن يتحولوا إلى طرف شريك مع المؤسسات الألمانية في المساعدة على إنجاح اندماج المهاجرين واللاجئين من خلال معرفتهم بالخصوصية الثقافية لأبناء بلدهم، وهو ما يجعلهم قادرين على التواصل معهم بشكل أفضل.

ويرى أن اللاجئ المثقف يتحمل جزءاً من مسؤولية إنجاح الاندماج من خلال التغلب على التحديات التي تواجهه وعلى رأسها عائق اللغة، وأيضا من خلال انتقاء مواضيعه والإشكاليات التي يمكنه التطرق إليها في إبداعاته. أما الجزء الآخر، فتتحمله دول الاستقبال، والتي عليها أن تخلق «مساحة أمان بينها وبين المثقف وتشجعه على لعب دور الوسيط والشريك بينها وبين عامة اللاجئين».


منكوبو
الحروب بين
أزمة فقدان
الوطن
والهوية
وتحديات
اللجوء



تُعد قضية اللاجئين إحدى القضايا الكبرى التي أفرزتها الحروب المشتعلة في المنطقة بعد أحداث ما أطلق عليه «الربيع العربي»، حيث ما زالت انعكاساتها تتواصل على المستويين؛ العربي والعالمي، لتتسع معاناة المهجَّرين قهراً وغربة.

وللعالم العربي «نصيب وافر» من اللجوء والتهجير، بدءا من نكبة فلسطين، مروراً بالعراق، وليس انتهاء بما جرى في سورية واليمن، لتغدو «اللاجئ.. الخيمة.. الوطن المستلب» من أبرز مفردات الفكر العربي.

وبحسب إحصائيات المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين (UNCHR)، فقد وصل عدد اللاجئين والنازحين إلى ٦٥ مليوناً في ٢٦ بلداً[١].

ويعرف اللاجئ، وفق المادة الأولى من اتفاقية الأمم المتحدة الخاصة بوضع اللاجئين لعام ١٩٥١، بأنه «شخص يوجد خارج بلد جنسيته أو بلد إقامته المعتادة، بسبب خوف له ما يبرره من التعرض للاضطهاد بسبب العنصر، أو الدين، أو القومية، أو الانتماء إلى طائفة اجتماعية معينة، أو إلى رأي سياسي، ولا يستطيع بسبب ذلك الخوف أو لا يريد أن يستظل/ تستظل بحماية ذلك البلد أو العودة إليه خشية التعرض للاضطهاد»[٢].

وعلى الرغم من جسامة محنة فقدان الوطن، إلا أن الحرب الدامية تدفع الفارين للبحث عن ملجأ يوفر لهم حماية، لتعترض اللاجئين تحدياتٌ شتى أثناء رحلة اللجوء وفي البلد المستضيف.

مجلة «ذوات» في عددها الثلاثين، الذي أفردته للحديث عن «اللجوء»، خصصت سؤاليها، اللذين طرحتهما على عدد من الكتاب والباحثين والمثقفين العرب، للحديث حول «أزمة الهوية» و«مسؤولية المجتمع الدولي» حيال اللاجئين.

واعتبر باحثون وكتاب عرب، أزمة الهوية من أعقد الأزمات،

---

١ راجع الرابط goo.gl/erX٨mX

٢- http://www.unhcr.org/ar/pages/٤be٧cc٢٧٢٠١.html



في معرض إجابتهم عن سؤال المجلة الأول المتمثل في «يُواجه اللاجئون والمُهجَّرون ما يُمكن تسميته بـ «أزمة هُوية»، ما أبرز المخاطر المتوارية خلف هذه الإشكالية؟»؛ إذ يعاني «المهجّر» و«اللاجئ» من اختلاف جذري عمّا ألفه، من حيث المكان والثقافة واللغة.

وحذر مثقفون عرب من الأخطار المتناسلة عما سبق، والمتمثلة في انضوائهم تحت مصطلح «الأقلية»، بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من محمولات دلالية مؤلمة.

ومن أخطار «أزمة الهوية» التي يعيشها اللاجئ والمهجر، وفق الباحثين، فقدان الانتماء تدريجياً إلى الوطن الأصلي، وما يعانيه من ألم وقلق دائمين، إلى جانب رغبة البعض بحكم الانبهار بتسريع الانصهار في المجتمع الجديد، والذوبان في قيمه، وليس هذا الانصهار، والذوبان سوى انسلاخ عن كلّ ما نشأ عليه، تمهيداً لتحسين نظرة الآخرين إليه.

ونبه الكتّاب من المخاطر التي تحيق باللاجئ وتتمثل في: محو الهوية، وتبلبل الألسنة، ونشوء أجيال مقطوعة الصلة بكلّ ما مضى، تدين بالولاء لوطنها الجديد، وهويّتها المستحدثة!

وتزداد الأمور خطورة إذا ما عرفنا أن أزمة اللاجئ ليست «أزمة هوية» بل هي «أزمة وجود»، وفق توصيف الباحثين الذين يرون أن شعور اللاجئ بالاستلاب بدأ داخل وطنه؛ حيث نشأ في دول أرادتهم أن يكونوا تابعين، مُفَرّغين من ذواتهم، مسلوبي الإرادة والمبادرة والقدرة على التفكير والإبداع.

وأكد مثقفون أن إحساس المواطن العربي بأنه يعيش داخل «سجن» كبير، وأنه مهمّش وملاحق ومنبوذ ومطرود، ومحروم من أبسط حقوقه المدنيّة في التعليم والأمن والطّبابة والخبز والحرية، جعلته يعاني من أزمة وجود جراء ولادته في مجتمعات «اعتنقَت الماضي المحنَّط والمنغلق على نفسه كالقبر، وفاتها أن تأخذ قطار الزمن المعاصر».

وأرجع مختصون ما يعيشه اللاجئون من أزمة هوية إلى تصعيد الأصوليات الدينية والقبلية والأيدولوجية؛ إذ

أصبح هؤلاء اللاجئون، فريسة سهلة لأزمة هوية تتجلى في رفض البلد المضيف لهم وخوفهم من المهاجرين المسلمين أو العرب بشكل عام، ضمن ما هو معروف بظاهرة الإسلاموفوبيا.

وعلى الرغم من أن بعض الدول المضيفة تشترك مع هؤلاء المهاجرين واللاجئين في الدين أو اللغة أو حتى التاريخ، مثل الأردن ولبنان وتركيا، إلا أن أزمة الهوية تتجلى في صور كثيرة، منها امتعاض عام لكثير من هذه الدول من الضغط الاقتصادي والاجتماعي الذي يشكله هؤلاء اللاجئون.

ونوه كتاب إلى خطورة الصدمة التي يعيشها اللاجئ والمهاجر مع المجتمعات الجديدة التي تخلق حالة يمكن تسميتها بـ «فصام» الهوية، الذي يتمثل في انفصامين الأول؛ «عصاب نكران الماضي» حيث يعيش اللاجئ حالة قطيعة مع ثقافته وتاريخه ورفض ماضيه وتقمص لغة وثقافة البلد بعد وقت قصير من وجوده فيه، إذ يبدأ بعدها بالحديث عن أبناء بلده كجزء منفصل عنه ويطعم لغته بالكلمات الأجنبية ويرخي لسانه ظناً منه بأنه أصبح أوروبياً.

«المتقوقع» هو النوع الفصامي الثاني، حيث يرفض اللاجئ فيه ثقافة البلد الجديد وتحارب ميكانيزماته الدفاعية بكل قوة الاندماج فيه، وبهذا نكون أمام حالة تقوقع مخيفة ومريبة؛ لأن هؤلاء الفصاميين لا يرتدون إلى بيئتهم وثقافتهم الوطنية، بل يتقوقعون على أنفسهم على أساس التعصبات الدينية والعرقية.

وتتجلى خطورة هذا النوع في أن أصحابه يعتبرون أن دول اللجوء تستهدف ثقافتهم ودينهم، فيبدؤون بالعيش في مجتمعات مغلقة تربي فيهم كائنات فصامية انتقامية معزولة عن الواقع، ليصبح شخصية انتقامية عنيفة تريد هدم هذه المجتمعات بسلوكيات وأدوات مختلفة، وبعضهم قد يعيش تناقضاً مرعباً بين عالم الحشيش والمخدرات والسكر والجريمة وعالم الإيمان الأعمى الذي يقودهم للتطرف، وهذه الظاهرة تزداد اليوم بشكل لا يبشر بالخير في المستقبل!



مسؤولية المجتمع الدولي إزاء اللاجئين

ولما كانت مسؤولية حماية اللاجئين تقع على عاتق الحكومات المضيفة بصفة أساسية بحكم التوقيع على اتفاقية الأمم المتحدة الخاصة بوضع اللاجئين لعام ١٩٥١، والتي وقع عليها ١٣٩ بلداً على نطاق العالم، فهي بذلك ملزمة بتنفيذ أحكامها. وتحتفظ المفوضية العليا لشؤون اللاجئين بالتزام رقابي على هذه العملية، حيث تتدخل حسب الاقتضاء لضمان منح اللاجئين الصادقين اللجوء وعدم إرغامهم على العودة إلى بلدان يخشى أن تتعرض فيها حياتهم للخطر. وتلتمس الوكالة السبل من أجل مساعدة اللاجئين على بدء حياتهم مجدداً، من خلال العودة الطوعية إلى أوطانهم إذا كانت ممكنة، أو من خلال توطينهم في دول مضيفة أو بلدان «ثالثة» أخرى[٣].

وتكفل اتفاقية الأمم المتحدة الخاصة بوضع اللاجئين، حقوق اللاجئ، والمتمثلة في حرية العقيدة والتنقل من مكان إلى آخر، والحق في الحصول على التعليم، ووثائق السفر، وإتاحة الفرصة للعمل، كما أنها تشدد على أهمية التزاماته تجاه الحكومة المضيفة. وينص أحد الأحكام الرئيسة في هذه الاتفاقية على عدم جواز إعادة اللاجئين إلى بلد يخشى فيه من تعرضهم للاضطهاد، فضلاً عن أنها تحدد الأشخاص أو مجموعات الأشخاص الذين لا تشملهم هذه الاتفاقية٤.

وعلى الرغم من المسؤولية التي يجدر بالمجتمع الدولي أن يحملها على عاتقه لحماية اللاجئين والحصول على حقوقهم، إلا أن المجتمع الدولي «أخفق» في احترام ما آمن به تطبيقاً إزاء الصكوك القانونية وشبه القانونية المتعلقة باللاجئين والنازحين والأشخاص المهجّرين، وفق مختصين عرب استطلعت «ذوات» آراءهم في سؤالها الثاني «ماذا قدم المجتمع الدولي والعربي والمنظمات الإنسانية لحل مشكلة اللاجئين والحد من معاناتهم؟».

٣- المصدر نفسه.

٤- المصدر نفسه.

ورأى الكتّاب أن الفضاء الجيوسياسي الذي لوثته الأنظمة السياسيّة الشمولية دفع إلى موجات تشرد فرديّ وجماعيّ، فضلاً عن دخول لاعبين على الخط، مع غياب مواقف سياسيّة صادقة ومؤثرة غرضها الأساس صيانة كرامة الفرد وشرعنة حقوقه المدنية، مع محاولات التخفيف من المشاكل لا خلق الأزمات وبؤر التوتر هنا وهناك؛ حيث الحروب والفساد والإرهاب.

وأكد باحثون أن المجتمع الدولي يتحمل المسؤولية كاملة أمام أعداد اللاجئين الذين يتزايدون يوماً بعد يوم في اليمن وسوريا وليبيا، داعين إلى ضرورة القيام بمراجعات نقدية للسياسات الدولية في أفقها العام، لحماية اللاجئين، سياسات لا تتلطخ أيديها بدماء الأبرياء، مشددين على أن العمل الإنساني مهما كبُر حجمه لا يمكن أن يكون بديلاً عن العمل السياسي في حلّ أزمات المستقبل واجتنابها. من ثم تأتي ضرورة الإسراع بإنهاء الحروب أولاً وآخراً، ومساعدة المواطنين في بلادهم بشكل جدي وعملي.

وأعرب مختصون عن أسفهم من الظروف البائسة والعصيبة التي يعيشها اللاجئون في دول الشتات مثل؛ نقص التغذية والإحاطة الصحية والتمدرس والعمل والاندماج الاجتماعيّ، علاوة على تعرّضهم إلى الميز والاستغلال الجنسيّ والاقتصاديّ والتهميش، مؤكدين أن مجهودات المنظّمات الدوليّة مثل؛ المفوّضيّة العليا للأمم المتّحدة لشؤون اللاجئين أو المنظّمات غير الحكوميّة على غرار أطبّاء بلا حدود لم تفلح في الاستجابة لاحتياجات اللاجئين والإحاطة بهم، رغم ضخامة الاعتمادات الماليّة الممنوحة وتضافر التدخّلات الإقليميّة والدوليّة.

إعداد:

منى شكري

إعلامية من الأردن

عيسى جابلي

كاتب وإعلامي من تونس



وليد محمود خالص: يواجه المهجرون الذين سيصبحون لاجئين فيما بعد، أزمة هي من "أعقد" الأزمات، وهي أزمة "الهوية"

للوطن العربي نصيب وافر من التهجير

يبين الأكاديمي والباحث العراقي الدكتور وليد محمود خالص، أن العالم ينشغل برمّته بإشكالية، لعلّها لم تمرّ عليه سابقاً، في العصر الحديث في الأقلّ، وهي إشكالية المهجّرين الذين سيصبحون فيما بعد، لاجئين، منوهاً إلى ضرورة التفرقة بين «المهاجرين»، و«المهجّرين»، فهذه التفرقة ذات دلالة؛ فالمهاجرون، في أغلبهم، تركوا ديارهم إلى أرض أخرى، بمحض إرادتهم، طلباً للرزق، ولشيء من الضغط عليهم في موطنهم الأصلي، ورافق هجرتهم نوعٌ من التدبير، والتنظيم، أمّا المهجّرون، وفق خالص، فهم الذين أُجبروا قسراً على ترك أراضيهم، بما يقترب من الاقتلاع؛ لأسباب سياسية أو دينية أو طائفية، تارة بالتهديد، وأخرى بالتعذيب، وثالثة بالقتل، ممّا يضطر الناجي إلى الهجرة بلا تنظيم، أو تدبير، فراراً بحشاشة نفسه، وأهله.

ويفرق الدكتور خالص بين نوعين من هذا «التهجير»؛ أولهما: داخلي، وهو انتقال فئة معينة من الناس إلى مكان آخر داخل الوطن نفسه، وثانيهما خارجي؛ أي ترك الوطن، والتوجّه إلى مكان آخر، وكلتا الفئتين تنشدان النجاة، والأمان بهذا الانتقال.

وقد نال الوطنَ العربي نصيبٌ وافر من هذا التهجير، بحسب الباحث العراقي، وهو ما نراه واضحاً في سورية والعراق، ولا ننسى هنا ما حصل بفلسطين سنة النكبة، وما قبلها، وما بعدها، حيث أصبح اللاجئ، والخيمة، والوطن المستلب معالم بارزة في الفكر العربي الحديث، ناهيك عن الأدب العربي في أجناسه المعروفة.

ويتابع خالص حديثه، أنّ المهجّرين الذين سيصبحون لاجئين فيما بعد، يواجهون، بلا ريب، أزمة هي من «أعقد» الأزمات، وهي أزمة «الهوية»، ويمكن تشخيص هذه الأزمة بكلمة واحدة، تتفرّع عنها أربعة جداول. أما الكلمة، فهي «الاختلاف»، وأما الجداول فهي: المكان، والثقافة، والدين، واللغة؛ إذ يعاني «المهجّر» فـ«اللاجئ» اختلافاً جذرياً عمّا درج عليه، فلا المكان مكانه، ولا الثقافة ثقافته، ولا الدين دينه. أمّا اللغة، فهي مشكلة المشاكل، فهي التي توجّه ذاك الذي سبق، وتمنحه معنى جديدا، أو تفرّغه من أيّ معنى.

ويحذر الباحث بأن مجموعة من الأخطار تتناسل عمّا سبق، وهي واقعة فعلاً، يمكن تلمّسها اليوم، وأوّل هذه الأخطار هو انضواء هؤلاء المهجّرين تحت مصطلح «الأقلية»، بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من محمولات دلالية مؤلمة، يشعر بها مَن هو منضوٍ تحتها، ويزداد الموقف حرجاً حين ينتقل هذا «المهجّر» من وضع «الأكثرية» إلى وضع «الأقلّية»، والنظرة الجديدة التي لم يَعتد عليها من لدن الآخرين.

وثاني الأخطار، بحسب خالص، هو فقدان الانتماء تدريجياً إلى الوطن الأصلي، بحكم الاختلاف المارّ ذكره ومعه جداوله، وعليه بعد هذا، أن

يتلاءم مع الانتماء الجديد الذي قد يكون مختلفاً أشدّ الاختلاف عن انتمائه القديم، وهذا فيه ما فيه من ألم، وقلق.

أما ثالث الأخطار، فهو انبهار كثير من المهجرين بهذا «الوطن» الجديد، ممّا يدعوهم إلى تسريع الانصهار فيه، والذوبان في قيمه، ومواضعاته، من خلال القيام بموازنة، قد تكون منصفة في بعض الأحيان، بين وضعهم السابق ووضعهم الحالي، وليس هذا الانصهار، والذوبان سوى انسلاخ عن كلّ ما نشأ عليه، تمهيداً لتحسين نظرة الآخرين إليه.

في حين يتمثل رابع الأخطار، وفق قول خالص، بما يختزنه هذا المهجّر من حقد، وضغائن، لعلّها غير موجّهة إلى أحد بعينه، فهذا هو «القانون» الذي تتقاسمه «الأقليات» مهما اختلفت أديانها وأعراقها، وسرعان ما تطفو تلك الضغائن على السطح حين تجد المناخ المناسب لها، فتعبّر عن هذا «الطَفْو» بشتى الوسائل، من بينها «الإرهاب» الذي تجد ملاذها فيه، ومن المؤكد أنّ لها مصطلحاً غير «الإرهاب» هي مقتنعة به، ومن هذه اللحظة الحرجة يبدأ ما نعيش لحظاته اليوم من قتل وتدمير وانتهاك الحرمات والقائمة تطول.

ولعلّ ما يضمّ ذاك الذي سبق، ويضعه في سلّة واحدة، بحسب الباحث العراقي، هو محو الهوية، وتبلبل الألسنة، ونشوء أجيال مقطوعة الصلة بكلّ ما مضى، تدين بالولاء لوطنها الجديد، وهويّتها المستحدثة!

الإسلامفوبيا وشيطنة اللاجئ!



تيسير أبو عودة: السقوط في فخ القوميات المتفوقة والشوفينية الأوروبية جعل اللاجئين في مواجهة مزدوجة مع فقدانهم لأطاونهم وأقربائهم

بدوره، يعتبر الكاتب والباحث الأردني د. تيسير أبو عودة، الحديث عن الهجرات الطوعية منها والقسرية في شمال أفريقيا وسوريا واليمن والعراق وغيرها من البلاد العربية والإسلامية من المواضيع الراهنة والملحة جداً في مثل هذه الحقبة من القرن الواحد والعشرين من تصعيد للأصوليات الدينية والقبلية والأيدولوجية، وذلك لما يتمخض عن هذه الهجرات من أزمات هوياتية واجتماعية وسياسية واقتصادية لا يمكن لأي مراقب أن يغفل عنها.

والحديث في هذا السياق، يشمل ملايين البشر الذين لاذوا بالفرار من بلدانهم بسبب ظروف الحرب والمذابح الجماعية التي ارتكبت في سوريا واليمن وغيرها، حيث ينوه عودة إلى أننا لا نستطيع هنا أن نتجاوز الطروحات المعرفية والأيديولوجية والإعلامية التي سبقت الإسلاموفوبيا في الغرب وفي أمريكا من المد الاستشراقي في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر بل منذ الحروب الصليبية، والذي تجلى في صورة معاينة الغرب للشرق ومحاولة الهيمنة عليه معرفياً وأدبياً وسياسياً واقتصادياً وتنميطه في صور دوغمائية وأرثوذوكسية تجلت من خلال اختزال الإسلام في صراعه المزعوم مع الغرب، وهذا ما روج له المستشرق برنارد لويس وصامويل هنتغتون ومن بعدهما سام هاريس وغيرهم من كارهي الإسلام والمسلمين وعلى رأسهم المرشح الأمريكي دونالد ترامب، وهذا ما نجده جلياً في السينما الأمريكية هوليود من شيطنة للإسلام والمسلمين. وبالطبع، فقد مهد فشل حركات التحرر ما بعد الاستعمار والحلم الناصري وفشل مشروع القوميات في الوطن العربي لمثل هذه الدعوات الأوروبية المركزية.

وهكذا أصبح هؤلاء اللاجئون، برأي عودة، فريسة سهلة لأزمة هوية تتجلى في رفض البلد المضيف لهؤلاء اللاجئين، وخوفهم من المهاجرين المسلمين أو العرب بشكل عام، ضمن ما هو معروف بظاهرة الإسلاموفوبيا. وفي الوقت الذي تشترك فيه الدول المضيفة مع هؤلاء المهاجرين واللاجئين في الدين أو اللغة أو حتى التاريخ، مثل الأردن ولبنان وتركيا، إلا أن أزمة الهوية تتجلى في صور كثيرة من خلال الامتعاض العام لكثير من هذه الدول من الضغط الاقتصادي والاجتماعي الذي يشكله هؤلاء اللاجئون.

ويتابع الباحث: عند الحديث عن اللاجئين في أمريكا - رغم قلة عددهم بالمقارنة مع اللاجئين في الأردن وتركيا وأوروبا- إلا أنه من المعروف أن تصعيد قوى اليمين والحزب الجمهوري المحافظ في أمريكا خصوصاً بعد أحداث سبتمبر (أيلول)، وبعد التفجيرات التي حدثت في فرنسا وبروكسل وما قام به تنظيم «داعش» من تغول في العراق واليمن وليبيا وسوريا وارتكاب جرائم حرب مرعبة قد شكل حجر عثرة أمام اللاجئين في أمريكا. ولا شك أن السقوط في فخ القوميات المتفوقة والشوفينية الأوروبية قد زاد الطين بلة، وجعل اللاجئين في مواجهة مزدوجة مع فقدانهم لأوطانهم وأقربائهم، وفي مواجهة مع الغرب الذي يختزلهم في صورة «الآخر الإرهابي» أو طيف العدو المدجج بالخطر والعنف.



ليست أزمة هوية.. إنها أزمة وجود!

أما الكاتب والشاعر اللبناني عيسى مخلوف، فيشير إلى أن قضية اللاجئين إحدى القضايا الكبرى التي أفرزتها الحروب المشتعلة الآن في المنطقة، وهي تترك آثاراً وانعكاسات على المستوى العالمي ككلّ، وبالأخصّ على الدول الأوروبية. من قضية اللاجئين الفلسطينيين التي بدأت في القرن الماضي، إلى اللاجئين العرب في كلّ مكان اليوم، وفي مقدّمتهم اللاجئون السوريون، تتسّع رقعة القهر والغربة.



عيسى مخلوف: قضية اللاجئين إحدى القضايا الكبرى التي أفرزتها الحروب المشتعلة الآن في المنطقة، وهي تترك آثاراً وانعكاسات على المستوى العالمي ككلّ

ويرى مخلوف أن ما يطالعنا في بعض الصور للحشود الهاربة من أوطانها، براً وبحراً، يشبه الأساطير، متابعاً أننا لم نكن نظنّ يوماً أنّ الواقع سيكون أكثر وَقعاً من الأسطورة، لا سيّما بعد أن تحوّل البحر الأبيض المتوسّط مقبرة كبيرة للغرقى الذين كانوا يبحثون عن خشبة خلاص. الغرقى الذين لفظتهم أوطانهم كما يلفظ البحر أسماكه الميتة.

ويلفت الكاتب إلى أن شعور اللاجئ بالاستلاب بدأ داخل تلك الأوطان، وقبل أن تشتعل الجبهات، الأوطان التي لم تبنِ لمواطنيها مدرسة واحدة بالمعنى الحديث والعلمي للكلمة، ولا مكتبة ولا جامعة ولا مركز بحوث، بل أرادتهم أن يكونوا تابعين، مُفَرّغين من ذواتهم، مسلوبي الإرادة والمبادرة والقدرة على التفكير والإبداع. من هنا، يمكن القول إنّ هذا المناخ السائد هو أحد الأسباب التي عبّدت الطريق نحو التطرّف والإرهاب، وأوصلت شعوبنا إلى ما وصلت إليه. في غياب دولة القانون من جهة والتدخّلات الأجنبية من جهة ثانية، أصبحت الأرض العربية مفتوحة على كلّ الاحتمالات.

ويقول مخلوف، إن الذين خرجوا من بلادهم هرباً من الأهوال، تشتّتوا بين عوالم عدّة، الدول العربية، تركيا وأوروبا حيث بدأت رحلة اقتلاع جديدة تمثّلت في سلوك بعض تجّار الحروب والموت. في الدول العربية، هجمَ المهووسون، المصابون بالبؤس الجنسي، للزواج «الشرعي» من القاصرات واستغلال حاجات أُسَرهنّ المادية.

وفي الدول الأوروبية، يواجه اللاجئ، وفق الكاتب، تحديات أخرى منها الاندماج في مجتمع جديد مختلف من حيث الثقافة والعادات والتقاليد، ومنها أيضاً ردود الفعل السلبية الناتجة عن العمليات الإرهابية المعَولَمة.

«أزمة الهوية» لم تبدأ مع خروج اللاجئين من أوطانهم، بل بدأت حتى وهم داخل تلك الأوطان، حيث يشعر المواطن العربي أنه يعيش داخل سجن كبير، وأنه مهمّش وملاحق ومنبوذ ومطرود، وحيث هو محروم من أبسط حقوقه المدنيّة في التعليم والأمن والطّبابة والخبز والحرية.

ما يعاني منه الإنسان العربي، ومنذ أن يولد في تلك المجتمعات التي اعتنقَت الماضي المحنَّط والمنغلق على نفسه كالقبر وفاتها أن تأخذ قطار الزمن المعاصر، هو أكثر من أزمة هويّة... إنّها فعلاً أزمة وجود!، وفق وصف الكاتب مخلوف.





عروب العابد:

موقع تواجد اللاجئ وقدراته المالية لهما دور أساسي في تشكيل هويته

اللاجئون وتحدي إثبات الذات

ترى الدكتورة الفلسطينية عروب العابد، أن الهوية لا تتشكل بسهولة؛ فيرث الفرد العادات والتقاليد التي تناقلها عن الآباء والأجداد ويعكس إيمانه في وطنه دون أي خوف وتردد. أما الواقع في حالة اللجوء وأثناء الاغتراب فأعقد من ذلك. لتواجه الهوية بتحد؛ حيث تضرب العوامل الداخلية بالمحك وهي تتمثل بالشعور الوطني، الإيمان بالهوية القومية، الانتماء الإثني والوطني، إضافة إلى التقاليد الثقافية والاجتماعية.

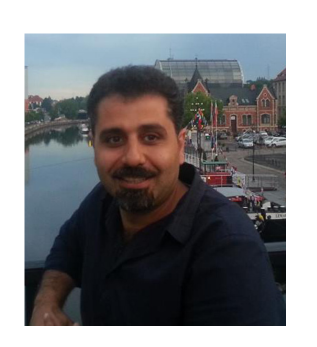
أما البيئة الخارجية، فتلعب، بحسب دكتورة الاقتصاد السياسي للتنمية المتخصصة في الهجرة القسرية، الدور الأكبر في قولبة الهوية والمقدرة على إظهارها والتعبير عنها بثقة وأمان؛ فسياسات الدولة المضيفة والظروف الاجتماعية والاقتصادية والقانونية التي تؤمنها دولة المهجر تساعد الفرد على نيل حقوقه الأساسية كإنسان ولاجئ، وبذلك تكون لديه الثقة بالتعبير عن هويته بأصله وعاداته ومعتقداته.

في العديد من الدول العربية لا يأخذ اللاجئ حقوقه الأساسية، فيسعى أن يطالب بحقوقه بطرق مختلفة؛ قانونية وغير قانونية حتى يتمكن أن يؤمن حياة كريمة له ولعائلته. هذا الأمر يفقد اللاجئ هويته، فيجعل منه أحياناً عاملاً غير قانوني أو وافداً بلا أوراق رسمية فتخلط الحقوق الأساسية كونه لاجئاً غير قادر على العودة إلى وطنه بأن يصبح مجرماً أو فاسداً أو غير قانوني.

موقع تواجد اللاجئ وقدراته المالية لهما دور أساسي أيضاً في تشكيل الهوية للاجئ. فإن عاش في المخيم فقد كيانه كمواطن لدولة مجاورة وأصبح اللاجئ يشكل عبئاً على الدولة المضيفة وعلى سكان الدولة المضيفة كما يسعى الإعلام والمسؤولون السياسيون إلى تصويره. إذا أقام في المدن الكبيرة ضمن المساحات الصغيرة التي تحوي متوسطي الحال والفقراء، وأصبح من الفئة المهمشة التي تشكل خطراً أمنياً واجتماعياً على أفراد الدولة المضيفة. في هذه الحالات يفقد اللاجئ حق اختيار هويته، فيصبح بلا هوية وبلا كيان قانوني من الطبقة المهمشة في إطار الدولة المضيفة كما صورهم الفيلسوف الإيطالي أجامبن Agamben.

أما اللاجئ الذي لديه المال، فيمتلك حرية أخرى، فهو قادر أن يشتريها بماله: حرية الوجود وحرية أخذ الحقوق الأساسية بالمال، فتصبح الحقوق الأساسية في مذكره حقوق الإنسان سلعة يحتاج أن يشتريها اللاجئ؛ لأنه خارج وطنه الأم. في هذه المعطيات تتشكل العوامل الداخلية للهوية بخوف وعدم ثقة؛ فالصورة التي رسمتها البيئة الخارجية، لتجعل من اللاجئ شخصاً غير مرغوب فيه في العديد من الأحياء مجبرة إياه أن يخفي حقيقته وهويته وإيمانه حتى يحصل على بعض الحقوق ليحقق إنسانيته.

اللاجئون .. واقع غير مبشر



جورج كدر: إن المتابع لآثار صدمة الهويات في دول اللجوء يشاهد كيف تتفكك الأسر، وكيف تضرب أمراض لا حصر لها اللاجئين والمهاجرين

من جانبه يقول الكاتب والصحفي السوري المقيم في أمستردام جورج كدر، إن حالة الصدمة التي يعيشها اللاجئ والمهاجر مع المجتمعات الجديدة تخلق حالة يمكن تسميتها بـ «فصام» الهوية، حيث تتقسم مستويات الفصام إلى قسمين؛ قطيعة مع ثقافته وتاريخه ورفض ماضيه وتقمص لغة وثقافة البلد بعد وقت قصير من وجوده فيه، إذ يبدأ بعدها بالحديث عن أبناء بلده كجزء منفصل عنه ويطعم لغته بالكلمات الأجنبية، ويرخي لسانه ظناً منه بأنه أصبح أوروبياً.

ويتابع كدر حديثه، بل إن بعضهم يبدأ بالحديث عن شعوب الشرق المتخلفة والمتطرفة ويجاهر بموقفه الرافض لوجودهم في الغرب خشية أن يدمروه؛ هذا النوع الفصامي بما يعيشه من «عصاب نكران الماضي» لا يقل خطورة عن الفصامي الآخر «المتقوقع»، فهذا الأخير يرفض ثقافة البلد الجديد وتحارب ميكانيزماته الدفاعية بكل قوة الاندماج فيه، وبهذا نكون أمام حالة تقوقع مخيفة ومريبة؛ لأن هؤلاء الفصاميين لا يرتدون إلى بيئتهم وثقافتهم الوطنية، بل يتقوقعون على أنفسهم على أساس التعصبات الدينية والعرقية.

ويضيف كدر أن النوع المتقوقع يعتبر أن دول اللجوء تستهدف ثقافتهم ودينهم فيبدؤون بالعيش في مجتمعات مغلقة تربي فيهم كائنات فصامية انتقامية معزولة عن الواقع، بل ما أسهل أن يصبح شخصية انتقامية عنيفة تريد هدم هذه المجتمعات بسلوكيات وأدوات مختلفة، منوهاً إلى أن أغلب هؤلاء الشباب يعيشون تناقضاً مرعباً بين عالم الحشيش والمخدرات والسكر والجريمة وعالم الإيمان الأعمى الذي يقودهم للتطرف، وهذه الظاهرة تزداد اليوم بشكل لا يبشر بالخير في المستقبل!

ويشير كدر إلى أن فئة قليلة من اللاجئين والمهاجرين هم من يستفيد من هذه البلاد المضيفة في إطلاق مواهبه وإبداعاته، ويتمكن من تحقيق ما لم يكن يحلم به في بلدهم، وقسم لا بأس به من هؤلاء متصالح مع نفسه ومع تاريخه وواقعه ويدين لكل هؤلاء بما حققه من منجزات دون نكران أي منهم.

يضاف إلى ذلك، وفق كدر، أن المتابع لآثار صدمة الهويات في دول اللجوء يشاهد كيف تتفكك الأسر، وكيف تضرب أمراض لا حصر لها اللاجئين والمهاجرين من انفصال الأولاد عن أسرهم إلى حالات الطلاق والعنف الأسري وحتى الجريمة، فضلاً عن أن عدم إيلاء الحكومات الأوروبية الأهمية لتحقيق برامج اندماج خلاقة تتمكن من استيعاب اللاجئين على اختلاف تحصيلهم العلمي ومنبتهم الطبقي والمجتمعي يزيد الأمر سوءاً.

اندماج كلي أو انغلاق متعمد

بدوره يبين الباحث والإعلامي المصري أحمد مجدي يوسف، أن «أزمة الهُوية» التي يتعرّض لها اللاجئون والمُهجّرون تتعلّق في الأساس بالمجتمعات التي تأوي هؤلاء وتوفّر لهم «ملاذًا آمنًا» - إذا جاز التعبير- من ويْلات الحروب التي مُنيت بها أوطانهم أو أزمات اقتصادية صعبة دفعتهم نحو إيجاد فرص عَيش أفضل في مجتمعات أخرى، أو غيرها من الأسباب الأخرى.

وفي هذا السياق، فإن الأمر أكثر تعقيدًا في المجتمعات الغربية ومع اللاجئين المسلمين تحديدًا الذين نَزحوا من الشرق الأوسط الذي يرزح تحت وطأة الحروب والصراعات منذ سنوات ليست بالقليلة، حيث يرى الباحث الحاصل على ماجستير في الصحافة الدولية من جامعة أوريبرو بالسويد، أنه وفي الآونة الأخيرة، هناك شعور متنامٍ بالكُره تجاه الإسلام الراديكالي أو ما يُطلق عليه اصطلاحًا اسم «الإسلاموفوبيا» في المجتمعات الغربية، تجلّى هذا التيار المتصاعد عقب أحداث ١١ سبتمبر/ أيلول في الولايات المتحدة الأمريكية، واستمر مرورًا بمذبحة «شارل إيبدو» وصولاً إلى هجمات «داعش» الأخيرة في فرنسا وألمانيا، وغيرها من البلدان الأوروبية، تزامناً مع استقبال القارة الأوروبية العجوز آلاف اللاجئين السوريين.

ويتابع يوسف أن مشاعر «الخوف من الإسلام» باتت تتنامى باطّراد في المجتمعات الغربية، مع تصاعُد الخوف من «الآخر»، وهو اللاجئ أو المُهجّر المسلم النازح من منطقة الشرق الأوسط؛ إذ باتت العديد من الدول الأوروبية تُبدي قلقها من أن يجتاحها الإسلام ثقافيّاً وسكانيّاً، لاسيما أن معظم هذه الدول تعاني انخفاضًا كبيرًا في أعداد السكان، وهو ما يعني تآكل القيم الغربية على يد هؤلاء اللاجئين والمُهجّرين، الأمر الذي دفع العديد من دول وسط أوروبا شأن المجر وبولندا وسلوفاكيا وجمهورية التشيك إلى عدم إيواء لاجئين من منطقة الشرق الأوسط سوى من المسيحيين فقط، ناهيك عن ظهور جماعات مثل «بيديغا» Pediga في أوروبا مؤخرًا تعني اختصارًا «الأوروبيون الوطنيون ضد أسلمة الغرب»!

كل تلك المشاعر انعكست على اللاجئ أو المُهجّر نفسه داخل المجتمعات الغربية، الذي بات مضطرًا إلى «الاندماج» كليةً مع الثقافة الغربية وتقبّل قيمهم «المتحضّرة»، وإلا تعرّض للطرد من «جنتهم»، لاسيما أن الدين قد حلّت محله النّزعة الفَردية في المجتمعات الغربية!

وعلى الرغم من ذلك، فإن هناك العديد من اللاجئين والمُهجّرين المسلمين الذين يبدون العداء للثقافة الغربية العصرية من خلال الحرص على الانغلاق المتعمّد، وتكوين أحياء أشبه بالـ «غِيتو» لإحياء قيمهم التي تربّوا عليها، بعيدًا عن القيم الغربية «المنحلّة» و«العدائية» و«الماجنة». وعادةً ما ينتهي هذا الصراع إلى تعرّض اللاجئين والمُهجّرين أو أبنائهم إلى الإصابة بمرض الـ «شيزوفرينيا»؛ إذ إن أبناء المهاجرين أو اللاجئين هم ثالث أكثر فئات تتعرض للإصابة بهذا المرض وفقاً لإحدى الدراسات، مع معدّل حدوث يبلغ ٤،٥ مرة أعلى من المعدلات الطبيعية!



أحمد مجدي يوسف: تتعلق "أزمة الهُوية" التي يتعرّض لها اللاجئون والمُهجّرون في الأساس بالمجتمعات التي تأوي هؤلاء وتوفّر لهم "ملاذًا آمنًا"

أما في المجتمعات العربية أو الإسلامية، فإن هؤلاء اللاجئين أو المُهجّرين أنفسهم، باتوا يعانون «أزمة هُوية» بشكل آخر؛ إذ ظلّ أهل المجتمعات العربية والإسلامية ينظرون إليهم نظرة «الآخر» الغريب الذي يشكّل تهديدًا مستمرًّا، رغم العوامل المشتركة المتمثّلة أحياناً في الدين واللغة والبَشرة العِرقية نفسها، علمًا بأن أشكال هذا التهديد قد تتمثّل في الوظيفة والبُعد الاقتصادي أو النّزعة الطائفية (سُنةً وشيعةً)، أو غيرها من الأسباب التي تصعّب من مهمة اللاجئ أو المُهجّر في تحقيق نوع من أنواع النجاح في ذلك المجتمع الجديد. والنتيجة، انغلاق اللاجئين أو المُهجّرين على أنفسهم من خلال تكوين مجتمعات صغيرة داخل المجتمع الكبير، في محاولة للهروب من الاضّطهاد الواقع عليهم!



تقى هلال: الانغلاق على الذات وكبح جماح التعرف على الآخر لا يصب إلا في مآسي نهايتها الانفتاح على الآخر وتقبله

العولمة والهوية جدلية ومعقدة

تستغرب الإعلامية والكاتبة الأردنية تقى هلال، من اتهام كثيرين للاجئين إبان الحروب المتناثرة في أطراف الشرق الأوسط بما يدعى «بأزمة الهوية»، وكأن ذلك مقتصراً عليهم، مبينة أنه ربما يجدر التذكير بداية بأنه لا بد من وجود «هوية» أولاً حتى تتأزم.

مفهوم «الهوية» كمصطلح نفسي له تعريفات متعددة، وانطلاقاً من دعم الجهود العربية النادرة لتوفير مراجع علمية يؤخذ بها، اختارت هلال تعريف الموسوعة الفلسفية العربية، وهو «الهوية مصطلح فلسفي يدل على ما به يكون الشيء نفسه»؛ أي ما يجعل المرء نفسه.

أما مفهوم «تأزم الهوية»، بحسب الكاتبة، فصاغه عالم النفس ألماني المولد وأمريكي الجنسية إريك إريكسون بعد هروبه من النازيين ليهوديته، وتعني «أزمة الهوية»، وفق إريكسون، «الفشل في تحقيق الأنا أثناء المراهقة (١٢-١٨)».

وتتمثل هذه الأزمة تبعاً له بصراع مستمر بين الهوية والارتباك في الأدوار تسوده تساؤلات حول من يكون وما دوره وملاءمته ووجهته في الحياة. نظراً للنمو الجسدي والنضوج الجنسي وتطويره لأفكاره حول ذاته وغيره خلال هذه المرحلة، ويشير إريكسون إلى أهمية منح الآباء أطفالهم في هذه المرحلة بالذات الحق في استكشاف العالم لاستخلاص هويتهم؛ أي إن إجبار الآباء لصغارهم على اتباع آرائهم سيحدث ارتباكاً وتشوشاً للهوية. وعليه، فلأزمة الهوية جانب نفسي يؤدي إلى شعور الفرد بالضياع، وبالتالي اختلال الانتماء- والذي هو حاجة أكد عليها أبراهام ماسلو في هرمه- واختلال الاستقرار النفسي.

وتنوه هلال إلى أن العولمة، في عصر الإنترنت، تلعب دوراً كبيراً في هويتنا، ولا شك في أن العلاقة بين العولمة والهوية جدلية ومعقدة؛ فالعولمة اليوم ضرورة حياتية لابد منها لتعميم الثقافة واستسقاء العلم واستثماره كله في خير الإنسانية جمعاء، فالانغلاق على الذات وكبح جماح التعرف على الآخر لا يصب إلا في مآسي نهايتها الانفتاح على الآخر وتقبله. لكنها، في التطبيق الحالي لها على الأقل، مستمالة لجانب على حساب الآخر أحياناً. وتأخذ هلال من الإعلام مثالاً، حيث أشار رئيس قسم الإعلام والتواصل بجامعة إيرفورت الألمانية، كاي حافظ، في نظريته إلى أن تيار الإعلام القادم من الغرب أقوى من ذلك القادم من الشرق؛ أي إن هوية البعض مهمشة إعلامياً على الأقل.

كما أن غالبية دول الشرق الأوسط، بحسب قول حافظ، ما زالت تعاني من مشكلة الهوية الوطنية بعد الدولة العثمانية ورسم حدود للبلاد وفقاً لمستعمر تأكد قبل فلوله من تسميد توتر سياسي أو طائفي أو ديني أو عرقي فيما سماه بلداً، ليضمن اعتماد الحاكم الشكلي عليه، هذا فيما يتعلق بمرحلة ما بعد الاستعمار ومرحلة الهويات الانتقالية.

أما بالنسبة إلى الهوية الدينية؛ فالخلافات بين الطوائف الإسلامية ساعدت،

كما تقول هلال، في طفو ما طاب لرواة الحديث رويه، وهو ما أدى إلى ارتباك الجيل دينياً وتخليه عن هذه الهوية أو تطرفه طائفياً واستماتته دفاعاً عن طائفة لن يدمع عين شيخها عليه بعد موته، وتتساءل الكاتبة هنا، عن استغراب البعض من تأزم هوية لاجئة شاهدت الموت بأم عينيها، وفقدت عائلتها في السجون «الأسدية» أو تحت ركام البراميل المتفجرة أو على يد سياف داعش؟!

وتابعت هلال: ما الهوية التي سمح أولياء الأمور من حكام وأئمة دينيين لهذه الطفلة بها؟ مشيرة إلى أن الحل الوحيد أمامها هو اعتناق هويتها الأولى: إنسانيتها، ما إن تنفتح على تقبل اختلاف الهويات الإنسانية التي تنتمي إليها، ستتمكن من استنباط جزئيات هويتها الواحدة تلو الأخرى، بلا اعتداء من أحد ودون تعدٍّ على أحد. تجاوزها عن ظلم الإنسانية واعتناقها للأخيرة أولاً، هما أولى خطواتها في طريقها الجبلي لتعديل هوية رزقها الله بها وسرقها الإنسان منها.

الوضع محبط جدّا

يعتبر الكاتب والإعلامي العُماني سليمان المعمري، ما قدمه المجتمع الدولي والعربي ومؤسسات المجتمع المدني للاجئين والنازحين ليس كافياً ولا يحد من معاناتهم، بدليل الأرقام الهائلة التي وصل إليها عدد اللاجئين والنازحين في العالم (٦٥ مليون لاجئ ونازح حسب مسؤول في الأمم المتحدة).

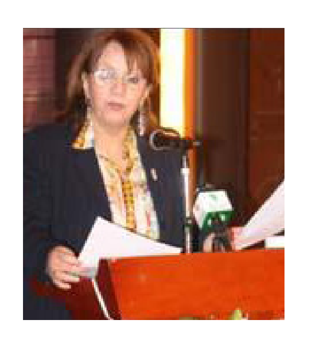
ولقد كانت قمة اللاجئين والمهاجرين التي نظمتها الأمم المتحدة في نيويورك مؤخراً، بحسب رأي المعمري، دليلاً فاضحاً على تعامل المجتمع الدولي المخزي مع هذه القضية الشائكة. يتبدى ذلك من الصياغة الفضفاضة للبيان الختامي التي لا تلزم أية دولة بأي من قرارات القمة، بل إنهم مختلفون حتى على نسبة الـ١٠٪ المفترض توطينها من مجموع اللاجئين في العالم، وغير متفقين على إنهاء احتجاز الأطفال. مع العلم، أن كثيراً من الدول الكبيرة القادرة على استيعاب عدد هائل من اللاجئين هي السبب في تشريد هؤلاء من أوطانهم، بتغذية النزاعات في بلدانهم من أجل رواج تجارة السلاح لديها. وهذا يقودنا إلى نقطة مهمة لا أظنها بعيدة عن المجتمع الدولي الذي يتباكى على اللاجئين والمهاجرين ليل نهار، وهو أن حل مشكلة هؤلاء من جذورها يتطلب وقف الحروب غير المبررة، وحظر تجارة السلاح ومنع تأجيج النزاعات من أجل السيطرة على الشعوب والإثراء من آلامها.

أما عن اللاجئين السوريين فحدث ولا حرج، فهم يعانون، وفق المعمري، الجوع والعطش والبرد، ويبيتون في العراء وكأن محنة خسارتهم لوطنهم غير كافية، ورغم أن كثيراً من دول العالم تكالبت على سوريا في الداخل بحماس شديد، فقتّلت من أبنائها مئات الآلاف، وأرغمت الملايين على الهجرة والنزوح، إلا أننا لا نجد هذا الحماس نفسه (ولا حتى بنسبة ١٠٪ منه) في استقبال هؤلاء اللاجئين وتخفيف معاناتهم. حتى تركيا التي كانت ظاهرياً أكبر دولة مستقبلة للاجئين السوريين اتضح مع الوقت أنها تتعامل معهم كمجرد ورقة سياسية يمكن أن تضغط بها في الوقت المناسب لتجني بها مكاسب سياسية، وتتخلى عنهم بشكل لا أخلاقي، واصفاً الوضع الحالي بـ«المحبط جداً» للأسف!



سليمان المعمري: يعاني كثير من اللاجئين الجوع والعطش والبرد، ويبيتون في العراء وكأن محنة خسارتهم لوطنهم غير كافية!

موسم الهجرة إلى الشمال والكيل بمكيالين



د. فاطمة الحاجي:

على المجتمع الدولي أن يتحمل المسؤولية كاملة أمام عدد اللاجئين الذين يتزايدون يوماً بعد يوم في اليمن وسوريا وليبيا

وفي خصوصية البحث في الدعم الدولي للاجئين العرب عموماً والسوريين خصوصاً تقول الكاتبة والناقدة الليبية د. فاطمة الحاجي، إنه يصعب الحديث عن هذا الموضوع المهم جداً المتعلق بالدعم بصفة عامة؛ لأن كل جهة لها خصائص معينة في درجة التمويل والمساعدة، ولكل بلد مشاكل واحتياجات تختلف عن الآخر، كما أن هناك مشاكل للاجئين وأخرى للنازحين داخل البلد الواحد. ولا يمكن تقييم حجم الدعم إلا بالرجوع إلى إحصائيات تحصر الدعم.

وتتابع الكاتبة أنه عند تأمل حالة اللاجئين الليبيين مثلاً نلاحظ أنهم الفئة «الأكثر تجاهلاً» من المؤسسات الدولية، فبينما نجد الأمم المتحدة وغيرها من المنظمات الدولية تدعم اللاجئين السوريين بطرق مختلفة نجد أنها لا تعطي نفس الأهمية للاجئين الليبيين، وهذا حسب ما يصرح به من عاش التجربة شخصياً. كدليل على صحة هذا الرأي أن اللاجئ السوري يقبل على الفور في حالة طلب اللجوء إلى البلدان الأوروبية، «ولا أعني كلها»، بينما لا يقبل طلب اللاجئ الليبي بحجة أن ليبيا بلد «غير مصنف بلد حرب»، والحقيقة مخالفة لذلك، فكيف لا تكون ليبيا بلد حرب وأمريكا تتدخل لتقصف «داعش» في سرت، والميليشيات تحكم قبضتها على طرابلس وعصابات الإرهاب تحاربها قوى الجيش الوطني في بنغازي!

وتشدد الحاجي على أن المجتمع الدولي يتحمل المسؤولية كاملة إزاء القضية الليبية؛ لأنه هو من ساهم في إسقاط الدولة بتدخل حلف «الناتو» وترك الليبيين في أيدي المليشيات، مما أدخل البلد في فوضى عارمة، والآن نلاحظ السياسيين، مثل أوباما الذي يعلن أنه ندم على التدخل العسكري في ليبيا والبرلمان البريطاني وفرنسا. على كل هؤلاء أن يقدموا الدعم للاجئين الليبيين دون قيد أو شرط، وليس تفضلاً، وإنما تعويضاً عما لحق بهم من ضياع في دول الجوار دون مأوى ولا معين.

وترى الكاتبة أنه مثلما تعوض ألمانيا «إسرائيل» حسب اتفاقية لوكسمبرج على غرار ما ألحقته من ضرر باليهود إبان الحكم النازي في ما يسمى بـ «الهولوكست»، فعلى المجتمع الدولي أن يتحمل المسؤولية كاملة أمام عدد اللاجئين الذين يتزايدون يوماً بعد يوم في اليمن وسوريا وليبيا، وأن لا يكيل بمكيالين أمام هؤلاء الذين أجبروا على مغادرة أوطانهم عنوة تحت صراع دولي ليس لهم فيه مصلحة ولا ناقة ولا جمل.





ناهد الزبيدي:

أخفق المجتمع الدولي في احترام ما آمن به تطبيقاً إزاء الصكوك القانونية وشبه القانونية المتعلقة باللاجئين والنازحين والأشخاص المهجّرين

ضرورة المراجعات النقدية للسياسات الدولية

من جانبها، ترى الإعلامية المغربية ناهد الزيدي، أن المجتمع الدولي لم يفشل في تعزيز المعارف بقيمة الفعل الإنساني في جزء منه، لكنه أخفق في احترام ما آمن به «تطبيقاً» إزاء الصكوك القانونية وشبه القانونية المتعلقة باللاجئين والنازحين والأشخاص المهجّرين، فضاء جيوسياسي لوثته أنظمة سياسيّة شمولية تدفع إلى موجات تشرد فرديّ وجماعيّ، ولاعبون دخلوا على الخط، مع غياب مواقف سياسيّة صادقة ومؤثرة غرضها الأساس صيانة كرامة الفرد وشرعنة حقوقه المدنية، مع محاولات التخفيف من المشاكل لا خلق الأزمات وبؤر التوتر هنا وهناك؛ حيث الحروب والفساد والإرهاب، وغض الطرف عن أسباب العلل المباشرة وغير المباشرة، دون الأخذ بعين الاعتبار المطلوب الاستجابة لمعايير حقوق البشر.

وتشير الزيدي إلى أنّ حماية اللاجئين اليوم تطرح تحديات عديدة على مستوى المعنى العام للحماية مع مراجعات نقدية للسياسات الدولية في أفقها العام، دون أن نلغي تأثيرات الآلة الإعلامية ويدها المضرجة بالدم كما السياسية ـ لا فرق ـ مع حساب الاختلاف، منوهة إلى أنّ العمل الإنساني مهما كبُر حجمه لا يمكن أن يكون بديلاً عن العمل السياسي في حلّ أزمات المستقبل واجتنابها. من ثم تأتي ضرورة الإسراع بإنهاء الحروب أولاً وآخراً، ومساعدة المواطنين في بلادهم بشكل جدي وعملي.

وتشدد الكاتبة على أهمية قيام أوروبا بتغيير أسلوب عملها وتفرض تغييراً سياسياً على المستوى الدولي العام المتعلق أساساً بالمصالح التجارية الدولية وتجارة السلاح، وعلى البلدان العربية أيضاً أن تكون أكثر لحمة وديمقراطية لا أكثر هشاشة.

تقصير دوائر المال والسياسة



محمد السويلمي: أسهم العامل السياسيّ في تعقيد أزمة اللاجئين التي تحوّلت إلى مجال للمماحكة السياسيّة وورقة ضغط تتلاعب بها الدول الفاعلة

أما الباحث التونسي محمّد السّويلمي، فيبين أن عدد اللاجئين في العالم وفق مصادر دوليّة يقدر بـــ ٤٣ مليوناً يتوزّع أغلبهم في الدول الفقيرة أو النامية، ولا تعنى هذه المنظّمات إلّا بقرابة ٣٧ مليوناً ينتشرون في أشهر بؤر التوتّر مثل؛ سوريا والعراق وأفغانستان والسودان والصومال واليمن، ففي سوريا يقدّر عدد النازحين بنصف السكّان تقريباً منهم ٦ ملايين لاجئ خارج سوريا وتحديداً في دول الجوار مثل؛ تركيا والأردن ولبنان وأوروبا.

بيد أنّ اللاجئين يعيشون، بحسب السّويلمي أوضاعاً بائسة وظروفاً عصيبة في دول الشتات مثل؛ نقص التغذية والإحاطة الصحية والتمدرس والعمل والاندماج الاجتماعيّ، علاوة على تعرّضهم إلى الميز والاستغلال الجنسيّ والاقتصاديّ والتهميش. ولم تفلح مجهودات المنظّمات الدوليّة، مثل المفوّضيّة العليا للأمم المتّحدة لشؤون اللاجئين أو المنظّمات غير الحكوميّة على غرار أطبّاء بلا حدود في الاستجابة لاحتياجات اللاجئين والإحاطة بهم، رغم ضخامة الاعتمادات الماليّة الممنوحة وتضافر التدخّلات الإقليميّة والدوليّة.

ولهذا التقصير والعجز بواعثه المتعدّدة، كما يقول الباحث، منها تقاعس الدول المتنفّذة ماليّاً وسياسيّاً عن تحمّل الأعباء وخاصّة القوى العالميّة الفاعلة مثل الولايات المتّحدة الأمريكيّة والاتّحاد الأوروبيّ واليابان والصين وروسيا بوصفها الدول الأكثر إسهاماً في الأنشطة الأمميّة، وتقديم الهبات والمساعدات؛ فدول الاتّحاد الأوروبيّ باستثناء ألمانيا والسويد لم تقم إلّا بتوطين ٣٠٩٠٣ لاجئا سوريّا حتّى ٢٠١٥ بينما امتنعت دول مثل؛ روسيا واليابان وكوريا الجنوبيّة وسنغافورة عن توطين أيّ لاجئ سوريّ.

إلى ذلك، فغياب استراتيجيّة دوليّة مشتركة لها ثوابتها ومنوالها وأهدافها قد أضعف جهود احتواء أزمة اللاجئين، فقد رفضت الدول الأعضاء في الأمم المتّحدة مشروع قرار ينصّ على توطين ١٠٪ من اللاجئين في العالم. وقد أسهم العامل السياسيّ في تعقيد أزمة اللاجئين التي تحوّلت إلى مجال للمماحكة السياسيّة وورقة ضغط تتلاعب بها الدول الفاعلة مثلما تكشف عنها الاتّفاقيّة الأوروبيّة التركيّة.

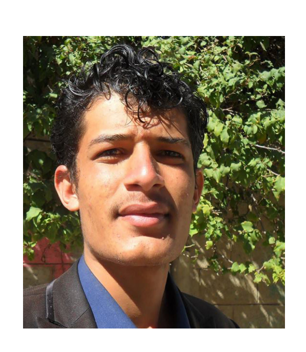


البحث الجاد عن الأسباب أوّلاً

يشير الكاتب والصحفي اليمني زكريا الشرعي، إلى أن معاناة اللاجئ لا تكمن في افتقاره للأكل والشرب والمأوى، أو في افتقار أبنائه للدواء والتعليم بقدر ما تكمن في استعصاء بلده عنه وتشرده مرغماً خارج حدودها نحو خيمة ليس له الحق حتى في اختيار مواصفاتها.

ويعتبر الكاتب سؤال: ماذا قدم المجتمع الدولي والعربي والمنظمات الإنسانية لحل مشكلة اللاجئين والحد من معاناتهم؟، مشكلة كبرى؛ فالأهم الاستفسار عن: ماذا عمل المجتمع الدولي والعربي والمنظمات الإنسانية لحلها. إن مشكلة اللاجئ، بنظر الشرعي، هي كونه لاجئاً في الأساس وليس ما تبقى سوى آثار جانبية، وستبقى الخدمات الغذائية والصحية والتعليمية التي يقدمها المجتمع الدولي والمنظمات الإنسانية جهوداً تصب في معالجة الآثار الجانبية وليس الجذور الحقيقية للمشكلة، وستظل السياسات المتخذة في شأن تخفيف معاناة اللاجئين كذلك.

على المجتمع الدولي والمنظمات الإنسانية، إذا ما أرادوا حل مشكلة اللاجئين أن ينظروا إلى الأسباب التي أدت إلى تشردهم عن أوطانهم، وأن يتحركوا بنية جادة لمعالجتها، غير هذا فهم لم ولن يقدموا شيئاً للاجئين؛ إذ تبقى الخيمة مهما اختلفت مسمياتها أو طالت الإقامة فيها خيمة، ويبقى اللاجئ مهما قدم له من الخدمات لاجئاً، أما إذا ما أصروا على إغفال معالجة الأسباب الحقيقة والالتفات إلى الأعراض الجانبية، فإن المشكلة لن تقف، برأي الشرعي، عند حد معين، بل لربما يتحول العالم كله إلى عالم من الخيام.



زكريا الشرعي: على المجتمع الدولي والمنظمات الإنسانية، إذا ما أرادوا حل مشكلة اللاجئين أن ينظروا إلى الأسباب التي أدت إلى تشردهم عن أوطانهم، وأن يتحركوا بنية جادة لمعالجتها



غسان علي عثمان:

لم يكن للمجهودات التي بذلت إزاء اللاجئين أثر حقيقي في التخفيف من حدة المعاناة

معاناة اللاجئين.. التعاطف المجاني وزيف العولمة

يستعيد الباحث السوداني غسان علي عثمان، صورة إيلان الكردي الغريق التي كانت بمثابة (المؤكسد) للفعل الأوروبي المدني والسياسي، ومحفزاً لما شاهدناه من الاحتجاجات المتعاطفة مع الأزمة. ودون الدخول في تعريفات ذات بعد قانوني، فإن الأمر بات «مستفزاً» لقوى المجتمع المدني الغربية وأدخلها في مأزق أخلاقي، لتأتي المواقف مستبطنة السياسي والديني والأيديولوجي. أما الرأي العام العالمي تجاه قضية اللاجئين، فقد تفاعل معها كمسألة إنسانية في بعدها الجوهري.

والمجهودات التي بذلت إزاء اللاجئين لم يكن لها أثر حقيقي في تخفيف حدة المعاناة، والسبب في لا جدواها يعود، بحسب عثمان، إلى وقوعها داخل شبكة معقدة وشديدة التداخل مع السياسي الغربي، ونوعية المصالح المتحققة في آنها.

وينوه الكاتب إلى أن مواقف برزت تعلل بالوضعية القانونية، وكأن المسألة تخضع للقانون! ولفهم سلبية موقف أوروبا لا يمكن إغفال عاملين: (الإسلاموفوبيا) و(رُهاب الآخر) الذي تعاني منه القارة العجوز. أما الحالة العربية، فإنها مرهونة بالكامل إلى مصالح الغرب في المنطقة، إذن فإن الذي قدمه المجتمع الدولي والعربي يقبع حتى الآن، تحت ما يمكن تسميته «التعاطف المجاني». وواقع الحال، فإن الأدوار التي لعبها المجتمع الدولي والعربي ومنظمات المجتمع المدني هنا وهناك لم تسهم بشكل حقيقي في تخفيف حدة الظاهرة، بل عظم منها. والنتيجة لهذه الأزمة كشف زيف ما يسمى بـ(العولمة)، فإذ بها تمتنع عن القيام بدورها تماماً.



صدر حديثا



محمد شوقي الزين
الصورة واللغز
التأويل الصوفي للقرآن
عند محيي الدين بن عربي
مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث

الأطفال السوريون في دول الجوار وأثر اللجوء على حقهم في التعليم

«التنمية تحصل كل يوم، فكل مرة نعلم فيها طفلا سوريا، بغض النظر عن مكان وجوده، تكون قد ساعدنا في بناء مستقبل سوريا.»

آنتوني ليك، المدير التنفيذي لليونيسف



بقلم : علياء أحمد

كاتبة وباحثة سورية ومدربة في قضايا المرأة والطفل



خلفية عامة

في ظل التواطؤ العالمي تجاه الكارثة السورية، تكبر مأساة السوريين، في داخل سوريا وخارجها. قلة من نجوا أو ظنوا أنهم كذلك، فلا نجاة لأحد من طوفان الدم.

بعد زيارته إلى سوريا، في مارس/ آذار ٢٠١٦، وحضوره محاولة إنقاذ أحد الضحايا، أدلى السيد آنتوني ليك المدير التنفيذي لليونيسف ببيان صحفي قال فيه: «لقد عبر الأطباء والممرضون، ووالد الضحية بشكل خاص، عن غضبهم ليس فقط من الحكومة التي تستمر في منع وصول اللوازم الجراحية والطبية لهذه المناطق، وعبروا أيضا عن غضبهم من الأمم المتحدة والعالم أجمع. لا نستطيع أن نلومهم بعد أن سمح العالم بأن تستمر هذه المعاناة لخمس سنوات»[١].

كل عام يزيد عمر الكارثة السورية وتتضاعف آثارها، متجاوزة الحدود الجغرافية السورية، لتطال كل أرض يطؤها سوريون هاربون من الموت. خمسة أعوام ولا شيء يتغير سوى تحديث البيانات، فالوضع في الداخل السوري يزداد سوء يوماً بعد يوم، ويدفع بالكثيرين للهرب بأية طريقة كانت.

بحلول أكتوبر/تشرين الأول ٢٠١٥ ارتفع عدد الضحايا في سوريا إلى أكثر من ٢٥٠ ألف شخص بينهم أكثر من ١٠٠ ألف مدني، ويعيش أكثر من ٦٤٠ ألف شخص تحت حصار طويل الأمد.[٢] ١١٫٥٪ من سكّان سوريا إمّا قتل أو جرحى، وتشير التقديرات إلى أن معدل الفقر الإجمالي بلغ ٨٥٫٢ ٪ مع نهاية العام ٢٠١٥، وارتفعت نسبة الفقر المُدقع إلى ٣٥٫١ ٪. وقدرت خسارة الناتج المحلي الإجمالي لسوريا حتى نهاية العام ٢٠١٥، بـ٤١٥٩ مليار ليرة سورية[٣]. وهناك ١٣٫٥ مليون إنسان في الداخل السوري هم في حاجة للمساعدة، منهم ٦ ملايين طفل و٦٫٥ مليون شخص نزحوا داخلياً[٤].

بلغ الدمار المادي والمعنوي حجماً هائلاً لا يمكن تقديره بسهولة، وإن انتهجت كثير من مراكز



> كل عام يزيد عمر الكارثة السورية وتتضاعف آثارها، متجاوزة الحدود الجغرافية السورية، لتطال كل أرض يطؤها سوريون هاربون من الموت

الأبحاث والدراسات، أو هيئات حقوق الإنسان الدولية أحدث الأساليب العلمية لقياس آثار الكارثة، إلا أن هناك دوماً ما هو عصي على القياس، وهو ما عبر عنه المركز السوري لبحوث السياسات بعنوان تقريره «هدر الإنسانية»[٥]، فآثار الأزمة التي انفجرت، كشفت عن بنية سياسية، واجتماعية، واقتصادية، وثقافية، وتعليمية، هشة وهزيلة تفشى الفساد فيها، وتراكمت الأخطاء وتشابكت، حتى وصلت حداً يستحيل حلّه وسط استمرار القتال وتنازع الأطراف المسلحة والسياسية على حد سواء، وفي ظل ارتكاب المزيد من الجرائم ضد الإنسانية، لم يجد كثير من السوريين بداً من القبول بوضعية اللجوء وتبعاتها مقابل الأسوأ الذي قد يحدث لهم في الوطن.

توزع اللاجئون السوريون في كثير من دول العالم بشكل شرعي وغير شرعي أيضاً، فصدّهم وسدّ الأبواب في وجوههم، سياسة تمارسها منذ بدء الأزمة جميع الدول بلا استثناء، وإن كان هذا على درجات ارتفعت شدتها أو انخفضت أو تواترت وفق فترات زمنية مختلفة. إلا أنه لم تفتح أية دولة أبوابها لاستقبالهم بدون قيد أو شرط، بل على العكس، فرضت عدة دول تأشيرة الدخول (الفيزا) على السوريين الراغبين بدخول أراضيها، بالرغم من أن دخولهم كان متاحاً سابقاً بكل سهولة ويسر[٦].

١- بيان صادر عن مدير اليونيسف التنفيذي آنتوني ليك بعد زيارته لسوريا
http://www.unicef.org/arabic/media/٩٠٣٦٢_٢٤٣٢٧.html

٢- تقرير هيومن رايتس: التقرير العالمي ٢٠١٦ سوريا
https://www.hrw.org/ar/world-report/٢٠١٦/country-chapters/٢٨٥٦٦٩

٣- تقرير مواجهة التشظي- المركز السوري لبحوث السياسات
http://scpr-syria.org/publications

٤- http://www.٣rpsyriacrisis.org/crisis/

٥- للاطلاع على التقرير
http://scpr-syria.org/att/SCPR_Squandering_Humanity_Ar.pdf

٦- من الدول التي فرضت فيزا على السوريين بعد ٢٠١١: ليبيا (حزيران/ يوليو ٢٠١٢)، مصر (حزيران/ يوليو ٢٠١٣)، الجزائر (تشرين ٢/ نوفمبر ٢٠١٤)، الأردن (كانون١/ ديسمبر ٢٠١٤)،



وإن رضخت هذه الدول لتواجد السوريين (الشرعي وغير الشرعي) على أراضيها، وتعاملت معه كأمر واقع لا مفر منه، بفضل دعم المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين[٧]، إلا أنها صعّبت واقع هذا التواجد وضيقت عليهم، مما زاد من كارثية أوضاعهم، وفي الوقت نفسه استخدمتهم كورقة ضغط سياسي في المحافل الدولية، وإن كانت لهذه الدول حججها القوية حيناً، والباهتة حيناً آخر، إلا أنها تبقى تبريرات واهية، هشّة، في ميزان حقوق الإنسان الذي يُتلاعب به حسب المصالح السياسية.

أهمية البحث

نظراً لتفاقم تعقيد الوضع السوري، وانعكاس هذا الوضع على أوضاع السوريين في مختلف المجالات، ومنها أوضاع تعلّم الأطفال السوريين اللاجئين، ولأن التعليم والتعلّم، شرط أساسي للتنمية البشرية وتطور المجتمعات، وعنصر أساسي لتحقيق السلام الدائم والتنمية المستدامة، يتناول هذا البحث التحديات التي تواجه الطلاب السوريين اللاجئين عند سعيهم للحصول على حقهم في التعليم، ويحاول الإجابة عن السؤالين التاليين:

١- ما مدى تأثير وضعية اللجوء على حق التعليم عند الأطفال السوريين في دول الجوار؟

٢- هل تؤثر مصادقة الدول على اتفاقية الأمم المتحدة المتعلقة باللاجئين[٨] إيجاباً على أوضاع اللاجئين السوريين؟

لبنان (كانون٢/ يناير ٢٠١٥)، جزر القمر (شباط/ فبراير ٢٠١٥)، الصومال (آذار/ مارس ٢٠١٥)، وتركيا (كانون٢/ يناير ٢٠١٦).

٧- أسس مكتب مفوض الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين في ١٤ ديسمبر \ كانون الأول عام ١٩٥٠ من قبل الجمعية العامة للأمم المتحدة، بهدف مساعدة الأوروبيين النازحين بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد أقل من عام تم اعتماد اتفاقية اللاجئين التي تعتبر الأساس القانوني الناظم لعمل المفوضية. ورغم تحديد ولايتها ب ثلاث سنوات إلا أن أعمال المفوضية لا تزال مستمرة حتى الأن، للاطلاع على المزيد حول المفوضية
http://www.unhcr.org/ar/٤be٧cc٢٧١fb.htm l

٨- اعتمدت الاتفاقية الخاصة بوضع اللاجئين يوم ٢٨ تموز/يوليو ١٩٥١ في مؤتمر الأمم المتحدة للمفوضين بشأن اللاجئين وعديمي الجنسية، المنعقد بمقتضى قرارها ٤٢٩ (د-٥) المؤرخ في ١٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٠ - تاريخ بدء النفاذ: ٢٢ نيسان/أبريل ١٩٥٤م، وفقا لأحكام المادة ٤٣
http://www.ohchr.org/AR/ProfessionalInterest/Pages/StatusOfRefugees.aspx





في ظل ارتكاب المزيد من الجرائم ضد الإنسانية، لم يجد كثير من السوريين بداً من القبول بوضعية اللجوء وتبعاتها مقابل الأسوأ الذي قد يحدث لهم في الوطن

منهجية البحث

يستعرض البحث أوضاع الطلاب اللاجئين وتحديات العملية التعليمية عندهم، حسب وجودهم في دولة مصادقة على اتفاقية اللاجئين أو غير مصادقة، للنظر في تأثير الاتفاقية على حياتهم عموماً وعلى الواقع التعليمي للأطفال خصوصاً.

ويعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي، للإضاءة على أحوال الطلاب اللاجئين في دول الجوار، اعتماداً على الدراسات السابقة وخاصة الميدانية منها، وعلى التقارير الدولية والإحصائيات لاستنتاج الوضع العام للطلاب السوريين، وتبيان مدى حصولهم على حق التعليم، وماهية المشكلات التي يواجهونها كعثرة أمام حصولهم على هذا الحق.

تعريفات أساسية:

من هو اللاجئ وما هي حقوقه:

استناداً إلى اتفاقية اللاجئين والبروتوكول الخاص بها[٩]؛ فاللاجئ هو كل شخص متواجد خارج بلد جنسيته، نتيجة أحداث تسبب له الخوف من التعرض



للاضطهاد بسبب عرقه، أو دينه، أو جنسيته، أو انتمائه إلى فئة اجتماعية معينة، أو آرائه السياسية، ولا يستطيع بسبب ذلك الخوف، أن يستظل بحماية ذلك البلد، أو كل شخص لا يملك جنسية ويوجد خارج بلد إقامته المعتادة السابق بنتيجة مثل تلك الأحداث ولا يريد بسبب ذلك الخوف، أن يعود إلى ذلك البلد.

وتضمن الاتفاقية للاجئين الحق في السكن والعمل والتعليم العام وحرية التنقل والإغاثة والمساعدة العامة، وتحظر طردهم إلا لأسباب تتعلق بالنظام العام.

أهمية التعليم في الاتفاقيات الدولية:

نكاد نجزم بأنه لم تخلُ اتفاقية أو إعلان أو ميثاق دولي خاص بحقوق الإنسان من ذكر حق التعليم، والتأكيد على ضرورة تمتع كل إنسان به، وعدم التميز في منح فرص التعليم للجميع، بغض النظر عن اللون أو الجنس أو الانتماء القومي أو العرقي أو الديني ..إلخ، فمنذ اعتماد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، أقر

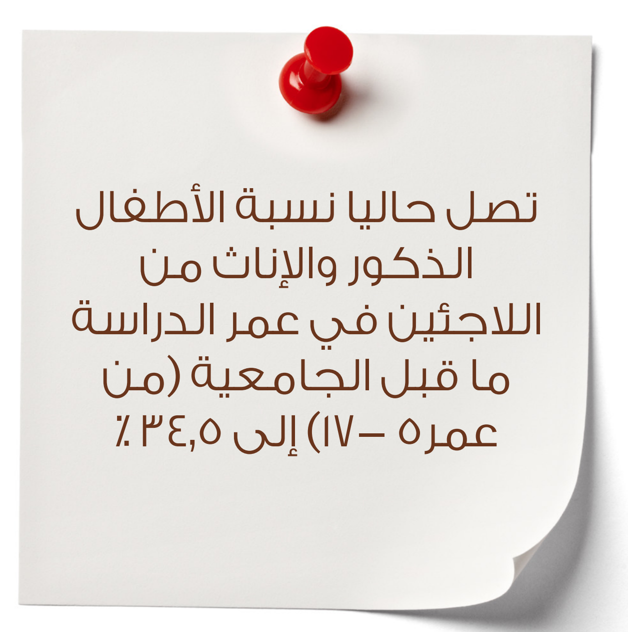
٩ أخذت الجمعية العامة بعين الاعتبار أن الاتفاقية الخاصة باللاجئين لا تشمل سوى الأشخاص الذين أصبحوا لاجئين نتيجة أحداث وقعت قبل كانون الثاني \يناير عام ١٩٥١ وأن هناك حالات لجوء جديدة ظهرت بعد ذلك، فتم اعتماد البروتوكول لتشمل الاتفاقية جميع اللاجئين الجدد، ولينالوا حقوقهم وفقها. http://hrlibrary.umn.edu/arab/b٠٨٣.html





الحق في التعليم في عدد كبير من الاتفاقيات الدولية والإقليمية[١٠].

وعلى الرغم من كل هذا الاهتمام، إلا أن الأرقام تدل على ارتفاع هائل في عدد الأطفال المحرومين من حق التعليم في العالم، حيث وصلت النسبة إلى ٤٠٪ من الأطفال لا يتلقّون تعليماً أساسياً في ١٠ بلدان سجلت فيها أعلى معدلات للتخلف عن الدراسة - لم تُصنف سوريا من ضمنهم رغم الأزمة- وذلك لأن التعليم هو أحد أقل القطاعات تمويلاً من خلال النداءات الإنسانية. ففي عام ٢٠١٥، تلقّت الوكالات الإنسانية ٣١٪ فقط من احتياجاتها التمويلية الخاصة بالتعليم،



بانخفاض قدرت نسبته ٦٦٪ قبل عشر سنوات. ورغم زيادة قدرها ١٢٦٪ في متطلبات التعليم منذ عام ٢٠٠٥، فقد زاد التمويل بنسبة ٤٪ فقط[١١].

الطلاب السوريون اللاجئون في دول الجوار في مرحلة التعليم ما قبل الجامعي

وصل عدد اللاجئين السوريين إلى ٤،٨٠٨،٢٢٩ في دول الجوار، يعيش ٤٩٢،٨٧٠ منهم في مخيمات، ويشمل هذا الرقم ٢،١ مليون سوري مسجل من قبل المفوضية السامية لشؤون اللاجئين في مصر والعراق والأردن ولبنان، و٢،٧ مليون سوري مسجل من قبل الحكومة التركية، فضلا عن أكثر من ٢٩،٠٠٠ لاجئ سوري مسجل في شمال أفريقيا[١٢].

إناث (٤٩،٧٪)	الفئة العمرية	ذكور (٥٠،٣٪)
٨،٨٪	٠ – ٤	٩،٥٪
١٠،٢٪	٥ – ١١	١٠،٨٪
٦،٦٪	١٢ – ١٧	٦،٩٪
٢٢،٥٪	١٨ – ٥٩	٢١،٦٪
١،٧٪	٦٠ +	١،٥٪

جدول رقم ١ توزع الفئات العمرية حسب الجنس[١٣]

١٠ على سبيل المثال لا الحصر: تنص المادة ٢٦ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام ١٩٤٨ على أن: "لكل شخص الحق في التعليم". وكذلك اتفاقية اليونسكو لمكافحة التمييز في مجال التعليم (١٩٦٠)، الاتفاقية الخاصة بمكافحة التمييز في مجال التعليم (١٩٦٢) العهد الدولي الخاص بالقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري (١٩٦٥)، العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية الثقافية (١٩٦٦)، واتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة (١٩٧٩)، واتفاقية حقوق الطفل (١٩٨٩)، واتفاقية حماية حقوق جميع العمال المهاجرين وأفراد أسرهم (١٩٩٠)، واتفاقية حقوق الأشخاص ذوي الإعاقة (٢٠٠٦)، كما تم الاعتراف بالحق في التعليم في اتفاقيات منظمة العمل الدولية والقانون الإنساني الدولي وكذلك في المعاهدات الإقليمية.

١١ http://www.unicef.org/arabic/media/٢٤٣٢٧_٩٢٧٠٥.html

١٢ http://data.unhcr.org/syrianrefugees/regional.php

١٣ المرجع السابق.



> يلتحق أقل من ثلث الأطفال السوريين بالدراسة في تركيا، وذلك لوجود موانع متعددة، من أبرزها الموانع اللغوية للطلاب الذين يدرسون في المدارس التركية، والعُسر الاقتصادي

يبدو من الجدول أعلاه، أن نسبة الأطفال الذكور والإناث في عمر الدراسة ما قبل الجامعية (من عمر٥ -١٧) تصل حالياً إلى ٣٤،٥ ٪ أي أن هناك ١٦٥٨٨٣٩ طفل سوري لاجئ في الدول المذكورة يجب أن يكون مسجلا في المدرسة قبل التعليم الجامعي[١٤].

سنبحث في الواقع التعليمي للأطفال السوريين اللاجئين في ثلاث دول أساسية، هي تركيا ولبنان والأردن؛ وذلك لارتفاع نسبة تواجدهم فيها عن بقية الدول، مع الإشارة إلى وضع الدولة في المصادقة على اتفاقية اللاجئين، الأمر الذي يعني ضرورة وجود قوانين خاصة ناظمة لحقوق اللاجئين فيها استناداً إلى هذه الاتفاقية.

- تركيا:

على الرغم من توقيع تركيا على اتفاقية اللاجئين الصادرة عام ١٩٥١، إلا أنها الدولة الوحيدة في العالم التي تطبق تلك الاتفاقية وفق قيود جغرافية، حيث لا يضمن اللجوء هناك سوى للأوروبيين فقط حالياً، ويحصل السوريون على حق الحماية الدولية في تركيا، ولكن الاتفاقية التي وقعتها تركيا مع الاتحاد الأوروبي مؤخراً[١٥] بهدف ردع اللاجئين السوريني من السعي للوصول إلى القارة الأوروبية بصورة غير شرعية انطلاقا من الشواطئ التركية، أثرت سلباً على حقوق اللاجئين السوريين الذين لم يتمتعوا في تركيا أساساً بحقوق



اللاجئين وفق ما تنص عليه الاتفاقية، وسعوا بكافة الطرق للهروب منها إلى دول الاتحاد الأوروبي.

يشير تقرير منظمة هيومان رايتس ووتش بعنوان «موانع تعليم أطفال اللاجئين السوريين في تركيا»[١٦] أن الحكومة التركية توفر التعليم الابتدائي الإلزامي والمجاني لجميع الأطفال في تركيا، وتعمل على إتاحة وصولهم إلى التعليم الثانوي بموجب القانون الدولي، وقد اتخذت الحكومة التركية عدة خطوات إيجابية لتلبية التزاماتها، من خلال رفع الموانع القانونية التي تحول دون وصول الأطفال السوريين إلى التعليم النظامي. فقد قامت عام ٢٠١٤ على سبيل المثال، برفع القيود التي تلزم السوريين بإبراز تصريح إقامة تركي لإلحاق أطفالهم بالمدارس العامة التركية، وأتاحت نظام المدارس العامة التركية لجميع الأطفال السوريين الحاملين لبطاقة هوية من إصدار الحكومة المؤقتة[١٧]. واعتمدت نظاما موازيا من «مراكز التعليم المؤقتة» التي تقدم المناهج السورية المصدق عليها من قبل وزارة التعليم في الحكومة.

١٤ حسب المعادلة (العدد الكلي * النسبة)/١٠٠

١٥- http://www.bbc.com/arabic/worldnews/١٥١١٢٩/١١/٢٠١٥_turkey_europe_migrant_

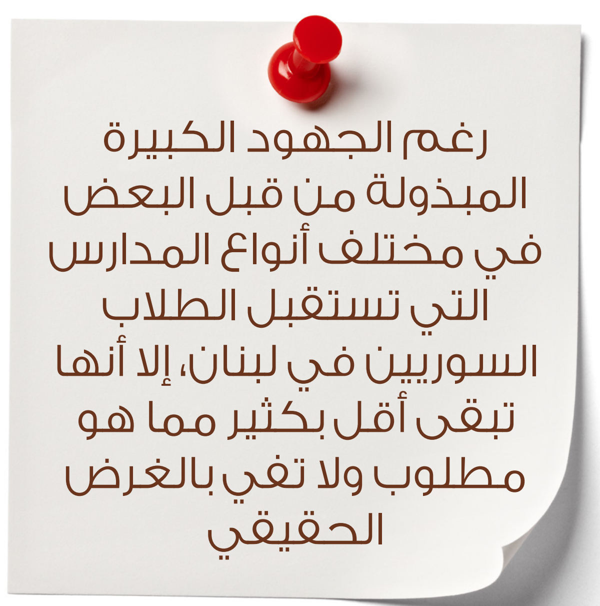
١٦- للاطلاع على التقرير كاملًا https://www.hrw.org/ar/report/٢٠١٥/١١/٠٩/٢٨٣٢٦٠

١٧- الحكومة السورية المؤقتة، وهي مجلس وزراء في المنفى شكلته المعارضة السورية في تركيا. للمزيد عنه http://syriaig.org/syr١٤/



وبالرغم من جميع هذه التسهيلات، إلا أن أقل من ثلث الأطفال السوريين يلتحقون بالدراسة في تركيا وذلك لوجود موانع متعددة من أبرزها كما أشار التقرير: الموانع اللغوية للطلاب الذين يدرسون في المدارس التركية، والعُسر الاقتصادي، حيث انتشرت عمالة الأطفال وسط اللاجئين السوريين، والقلق من التنمر ومصاعب الاندماج مع زملاء الفصول الأتراك، وصعوبة الاندماج الاجتماعي. كذلك يشير التقرير إلى أن بعض المدارس التركية قد رفضت التحاق أطفال اللاجئين بها، أو واصلت المطالبة بإبراز وثائق لم تعد مشترَطة للالتحاق بها، وأن «مراكز التعليم المؤقتة» تتسم في أكثر الأحيان بالاكتظاظ.

هذا وغيره من أسباب، دعا إلى وجود ٦٦٥٠٠٠ طفل سوري في تركيا خارج المنظومة التعليمية، وذلك حسب دراسة حديثة نشرتها وحدة البحوث الاجتماعية في مركز حرمون، أجراها الباحث محمد نور النمر تحت عنوان «الواقع التعليمي للاجئين السوريين في تركيا في المرحلة ما قبل الجامعية»[18]، حيث يذكر الباحث،



وفقاً لأرقام حصل عليها من وزارة التربية التركية، أنه من أصل ٢٫٧ مليون سوري هناك ٩٩٥٠٠٠ طالب ممن هم في سن التعليم ما قبل الجامعي، ولكن ٣٣٠٠٠٠ طالب فقط يلتحقون بالمدارس على اختلافها (المدارس الرسمية التركية والمدارس الخاصة ومدارس الحكومة المؤقتة.. إلخ). ويتعمق الباحث في الأسباب الداعية لهذا التسرب، رغم كل التسهيلات الظاهرية، وينتقد تجربة مراكز التعليم المؤقتة التي لا تتطابق حسب استنتاجاته مع الحد الأدنى لمعايير التعليم، الذي وضعته الشبكة الدولية لوكالات التعليم في حالات الطوارئ.

في قراءتنا لدراستي هيومان رايتس ووتش ومركز حرمون، نجد أن إطلاق الشعارات أسهل بكثير من تطبيقها إجرائياً، وأن التحديات كثيرة في وجه الأطفال الذين طالما دفعوا ويدفعون ثمن النزاعات السياسية والمسلحة على حد سواء، وأحد الأدلة على ذلك (مراكز التعليم المؤقتة) التي أسسها كيان سياسي لم يلق اعترافاً دولياً حقيقياً، وبالتالي لم تلق الشهادات والوثائق الصادرة عنه الاعتراف المطلوب، وقد لا نبالغ في القول أن هذه التجربة أضرت بالأطفال السوريين في تركيا أكثر مما أفادتهم على أرض الواقع.

إضافة إلى أن استخدام تركيا للاجئين السوريين كأداة ضغط لابتزاز الاتحاد الأوروبي وتزلف الأخير لها في سبيل وقف تدفق اللاجئين عبر تركيا مقابل منحها أموالا وعلاقات أوثق مع الاتحاد، يجعل من توقيع تركيا على اتفاقية اللاجئين، أمراً لا جدوى منه فيما

١٨- دراسة الواقع التعليمي للاجئني السوريني يف تركيا يف المرحلة ما قبل الجامعية، محمد نور النمر، http://harmoon.org/archives/٢٠٠٤





يخص اللاجئين السوريين، ويمكن التحايل عليه بشتى الوسائل، لتحقيق أغراض سياسية.

- لبنان:

لبنان ليس طرفاً في اتفاقية ١٩٥١ الخاصة باللاجئين، ولكن في سبتمبر/أيلول ٢٠٠٣ صدرت مذكرة التفاهم بين الأمن العام اللبناني ومفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، مبنية على أساس أن لبنان ليس بلداً للجوء الدائم، وأن على المفوضية العثور على أماكن لإعادة توطين اللاجئين الذين تعترف بوضعهم كلاجئين في أماكن أخرى. وتخول مذكرة التفاهم الأمن العام اللبناني إصدار «تصاريح تنقل» للساعين للجوء واللاجئين لفترة أقصاها ١٢ شهراً، وأثناء هذه الفترة تتولى المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين توطين الأشخاص الذين تعترف بهم كلاجئين في دول ثالثة[١٩].

بلغ عدد اللاجئين السوريين في لبنان تقريبا خمس عدد سكان البلاد، البالغ ٤٫٥ مليون نسمة. سجّلت المفوضية ١٫١ مليون سوري منذ بداية الأزمة السورية في ٢٠١١[٢٠]، بما يعادل حوالي واحد من كل خمسة أشخاص موجودين في البلاد. وتشير بعض الإحصائيات غير الرسمية إلى تجاوز عدد السوريين في لبنان ١٫٨ مليون لاجئ، وغني عن الذكر مدى تأثيرات هذا العدد على البنية التحتية في بلد مثل لبنان، يعاني من اضطرابات سياسية واقتصادية واجتماعية.

في دراسة نشرها مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية بعنوان «بحث في أحوال التلامذة السوريّين اللاجئين في لبنان»[٢١]، أشار الباحث صبر درويش إلى أن عدد الأطفال السوريّين في لبنان، الذين في سن التعليم (٥-١٧ عاماً) بلغ عددهم نحوَ ٤٠٠ ألف تلميذ، وأن نسبة المستوعبين منهم في المدارس الرسميّة اللبنانيّة تبلغ ١٥-٢٠٪ فقط أي نحو ٨٠-٩٠ ألف طالبٍ حتى نهاية عام ٢٠١٤، وينوه الباحث إلى عدم دقة الأرقام والإحصائيات المطروحة، معتمداً على مصادر مختلفة، ولكن بغض النظر عن التشويش في الأرقام إلا أن دلائل كثيرة تشير إلى حرمان النسبة الأكبر من الأطفال السوريين في لبنان من حقهم في التعليم[٢٢].

وركّزت الدراسة على الصعوبات التي يعانيها الأطفال السوريون الذين انخرطوا فعلاً بالعملية التعليمية في لبنان، والتي دفعت بالكثير منهم فيما بعد إلى التخلي عن التعليم والانخراط في عمالة الأطفال، ومن أبرزها كانت مشكلة اللغة الأجنبية؛ فالطلاب السوريون يدرسون المنهاج الرسمي اللبناني، وهو منهاج باللغتين العربية والفرنسية غالباً، وفي بعض المدارس هو باللغة الإنجليزية، الأمر الذي لم يعتده الطلاب السوريون في المنهاج السوري المعتمد كلياً على اللغة العربية، ويطرح البحث مشكلة عدم تحديد فترة انتقالية لتهيئة الطلاب من أجل تقبل المنهاج اللبناني المختلف كلياً، ورفع مستواهم في اللغة الأجنبية، وإنما تُرك الأمر على عاتق المدرسين اللبنانيين الذين تحملوا أعباء حل المشكلة كلٌّ حسب أسلوبه، وحسب تقبله لوجود الطلاب اللاجئين أساساً

١٩- https://www.hrw.org/ar/report/٢٠٠٧/١٢/٠٣/٢٥٥٢٩٤

٢٠- goo.gl/ip٠٢AE/

٢١- للاطلاع على البحث كاملًا

goo.gl/czBzMT

٢٢ يشير تقرير اليونيسيف "لا لضياع جيل بأكمله" أن ٨٠٪ من الأطفال السورينن اللاجئين في لبنان هم خارج العملية التعليمية، التقرير كاملاً

http://www.unicef.org/arabic/media/٢٤٣٢٧_٦٨١٤٨.html





في المدارس اللبنانية، فإلى جانب وجود معلمين لبنانين عززوا الدافعية للتعليم عند الطلاب السوريين، فقد اشتكى الأطفال من عنصرية فئة أخرى من الأساتذة والطلاب على حد سواء، ووصول هذه العنصرية إلى عنف مختلف الأشكال، عدا عن مشاكل لوجستية كالأعداد المزدحمة في الفصول الدراسية، وعدم توفر مياه صالحة للشرب، وانتشار الأمراض المعدية في بعض المناطق.

ويخلص الباحث إلى استنتاج أنه، رغم الجهود الكبيرة المبذولة من قبل البعض في مختلف أنواع المدارس التي تستقبل الطلاب السوريين في لبنان، إلا أنها تبقى أقل بكثير مما هو مطلوب ولا تفي بالغرض الحقيقي؛ فكثير من الأطفال يشعرون بالعزلة وانعدام الأمان.

يتقاطع تقرير هيومان رايتس ووتش مع دراسة مركز الجمهورية الديمقراطية، حيث أوضح تقرير صادر عن المنظمة بعنوان «يكبرون بلا تعليم»[٢٣] حواجز تعليم الأطفال السوريين اللاجئين في لبنان، مشيراً بشكل كبير لقضايا العنف المدرسي التي يتعرض لها الأطفال، والتي تدفع الكثير منهم لترك الدراسة، وحسب التقرير فإن وزارة التربية والتعليم العالي اللبنانية اتخذت عددا من الإجراءات الإيجابية لتسجيل الأطفال السوريين في التعليم الرسمي، ولكن المنظومة التعليمية واجهت صعوبات في معالجة هذا الوضع.

استناداً إلى المعطيات السابقة وغيرها من دراسات وتقارير، يتوجب القول إن إمكانيات الدولة اللبنانية، أقل بكثير من قدرتها على احتمال وجود هذا العدد الهائل من اللاجئين السوريين وبالشكل المفاجئ الذي حدث، وأن الطلاب السوريين هم من يدفعون ثمن هذا العجز، وخاصة في ظل نقص التمويل، ويعني العجز في التمويل أن معظم اللاجئين السوريين الأسوأ حالاً في لبنان لا يتلقون سوى ما يعادل ٦٠ دولارا أمريكيا للفرد الواحد شهرياً، أو نحو ٧٠ سنتاً أمريكياً في اليوم كمعونة غذائية[٢٤]، في ظل الخلل بالمنظومة التعليمية التي تتعاطى مع اللاجئين السوريين بدون مراعاة ظروفهم، الأمر الذي يدفع بالمزيد منهم للتسرب المدرسي، والانسياق وراء عمالة الأطفال، أو الزواج المبكر بالنسبة إلى الطفلات، وتراكم المزيد من الآثار السلبية على أوضاع اللاجئين.

ولكن تجدر الإشارة إلى أن لبنان طرف في «اتفاقية مكافحة التميز في مجال التعليم»[٢٥]، وبالتالي عليه أن يلتزم بمنح المواطنين الأجانب المتواجدين على أراضيه نفس الفرص الممنوحة لمواطنيه للوصول إلى التعليم، وإلغاء أي أحكام قانونية وإنهاء الممارسات الإدارية التي تنطوي على تميز في مجال التعليم. ولكن هذا لا يحدث.

- الأردن:

الأردن ليس طرفاً في اتفاقية عام ١٩٥١ الخاصة بوضع اللاجئين، ولكنه وقع في عام ١٩٩٨ مذكرة التفاهم مع المفوضية السامية لشؤون اللاجئين في إطار سياسة اللاجئين في الأردن تجاه غير الفلسطينيين، وقد عُدلت هذه الاتفاقية جزئياً عام ٢٠١٤، وتعتبر مرجعية نشاطات المفوضية في الأردن.

٢٣- للاطلاع على التقرير goo.gl/lXIDCo

٢٤- goo.gl/mPzSZ٨

٢٥- goo.gl/XLdOr٦





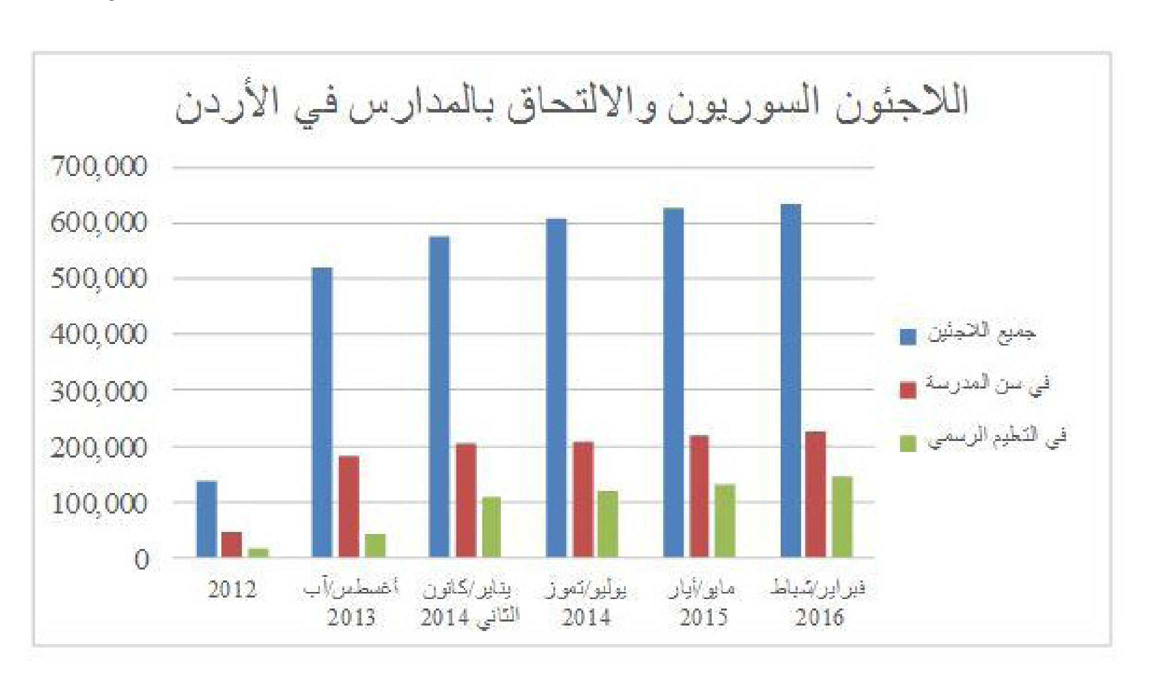
ينفق الأردن أكثر من ١٢ بالمئة من إجمالي الناتج القومي على التعليم لكن نظام التعليم الحكومي، يحتاج إلى المزيد من الدعم المالي نتيجة ضغط الطلاب السوريين في المدارس

يستضيف الأردن قرابة ٦٦٠٠٠٠ لاجئ من سوريا، بما يعادل حوالي ١٠٪ من السكان، ويقدر عدد الأطفال في سن المدرسة (بين ٥ و١٧ عاماً) بنحو٢٢٦٠٠٠ طفل، ويشرح تقرير هيومان رايتس ووتش بعنوان «نخاف على مستقبلهم»[٢٦] حواجز تعليم الأطفال السورين اللاجئين في الأردن، مؤكداً أن أكثر من ثلثهم تقريبا (أكثر من ٨٠ ألف) لم يحصلوا على تعليم رسمي العام الفائت.

وقد اتخذت وزارة التربية والتعليم الأردنية عدة خطوات لاستيعاب احتياجات الطلاب اللاجئين التعليمية، من هذه الخطوات توظيف معلمين جُدد، والسماح بالتحاق الأطفال السوريين بالمدارس الحكومية المجانية، وفتح فترات مسائية في نحو ١٠٠ مدرسة ابتدائية، لتهيئة المزيد من الفصول في خريف ٢٠١٦، وقد خططت الوزارة لتهيئة ٥٠ ألف مكان جديد في المدارس العامة لصالح الأطفال السوريين، مع استهداف ٢٥ ألف طفل خارج المدرسة بـ «دروس تعويضية»، إلا أن كل هذه الجهود لم تكن كافية.

من أبرز التحديات الرئيسة لتعليم الطلبة السوريين، والتي يتناولها تقرير هيومان رايتس، الجزء الاقتصادي من المشكلة؛ فالأردن ينفق أكثر من ١٢ بالمئة من إجمالي الناتج القومي على التعليم لكن نظام التعليم الحكومي، يحتاج إلى المزيد من الدعم المالي نتيجة ضغط الطلاب السوريين في المدارس.

كذلك أعاقت سياسات تسجيل اللاجئين التحاق الآلاف من الأطفال بالتعليم، حيث تطالب المدارس باستصدار أوراق هوية أو «وثائق خدمة» من أجل الالتحاق بمدارس حكومية. من الصعب جدا تحصيل هذه الوثائق بالنسبة إلى عشرات الآلاف من السوريين



الجدول رقم ٢ [٢٧]

٢٦- https://www.hrw.org/ar/report/٢٩٣١٧٥/١٦/٠٨/٢٠١٦

٢٧- المرجع السابق.

الذين خرجوا من مخيمات اللاجئين دون أن «يكفلهم» كفيل، والكفيل قد يكون مواطنا أردنيا أو قريبا من الدرجة الأولى، وأكبر من ٣٥ عاما، رغم أن المدارس سمحت للأطفال بالالتحاق بالوثائق القديمة لكن حتى أبريل/نيسان ٢٠١٦ كان نحو ٢٠٠ ألف سوري خارج مخيمات اللاجئين لم يستصدروا الوثائق الجديدة. ويذكر التقرير أن حوالي ٤٠ بالمئة من الأطفال السوريين اللاجئين في الأردن يفتقرون لشهادات الميلاد، وهي مطلوبة لاستصدار وثائق الخدمة. إضافة إلى أنظمة وزارة التربية والتعليم التي تفرض عائقا إضافيا لالتحاق الأطفال السوريين بالمدارس - أردنيون وسوريون - حسب «قاعدة الثلاث سنوات» التي تمنع من تزيد أعمارهم بثلاث سنوات عن متوسط أعمار أقرانهم الانخراط في الفصل الدراسي. وبحسب تقديرات مفوضية الأمم المتحدة للاجئين لسنة ٢٠١٤ فقد حرمت هذه القاعدة نحو ٧٧ ألف طفل سوري من التعليم الرسمي.

وعلى الرغم من توفر بعض فرص التعليم للأطفال غير الملتحقين بالمدارس، بمن فيهم غير المستحقين للالتحاق بالمدارس لعدم حيازتهم الأوراق المطلوبة عن طريق المنظمات المجتمعية والدينية الخيرية في المناطق المضيفة للاجئين التي تقدم جملة من البرامج غير الرسمية، إلا أن أغلب هذه البرامج غير النظامية لا تقدم شهادات معتمدة من وزارة التربية، والأطفال الذين ينتهون من هذه البرامج لا يستحقون الالتحاق بالمدارس الرسمية العامة.

وكما هو الحال في الدول المجاورة، يعاني الطلاب من الازدحام الكبير في الفصول الدراسية، ومن العنف بمختلف أشكاله في المدارس والمجتمع على حد سواء، ومن التمييز ضد اللاجئين الذين يصب عليهم قسم من المجتمع المحلي جام غضبه ويحمله مسؤولية تردي الأوضاع في البلد.

يعيش ٨٦٪ من اللاجئين السوريين في المناطق الحضرية في الأردن تحت خط الفقر بالمعايير المحلية[٢٨]، الأمر الذي يحول دون إمكانية تحمل الأهل اللاجئين التكاليف المرتبطة بالتعليم، إذ حظرت الأردن عمل السوريين بشكل قانوني، وعاقبت كل شخص يعمل بدون تصريح بإعادته إلى أحد المخيمات، وذلك في محاولة لإرضاء الرأي

٢٨- goo.gl/٨٢bIPl

أعاقت سياسات تسجيل اللاجئين التحاق الآلاف من الأطفال بالتعليم، حيث تطالب المدارس باستصدار أوراق هوية أو «وثائق خدمة» من أجل الالتحاق بمدارس حكومية

العام الأردني الذي تعاني فئاته من ارتفاع معدلات البطالة والفقر[٢٩]. وعلى الرغم من افتتاح مدارس في المخيمات، إلا أنه في عام ٢٠١٥ التحقت نسبة أقل من الأطفال السوريين بالمدارس في هذه المخيمات، مقارنة بالمناطق المضيفة للاجئين[٣٠].

في قراءتنا لواقع التعليم عند الأطفال اللاجئين، لابد من الانتباه إلى أن الأردن بلد يعتمد أساساً على المساعدات الدولية، وقد زاد تدفق عدد كبير من اللاجئين السوريين إلى الأردن من سوء أوضاع المواطن الأردني.

وعلى الرغم من توقيع الاتفاقية مع المفوضية العليا لشؤون اللاجئين، إلا أن الأردن يقوم بتقييد نطاق حماية اللاجئين السوريين، فقد ألغى تقديم الرعاية الصحية لهم، وحدّ من حرية تنقلهم، وانعكس ذلك على إمكانية حصولهم على حقوقهم ومن ضمنها حق التعليم.

خلاصة وتوصيات

نستنتج مما سبق، التأثير السلبي لوضعية اللجوء على الأطفال السوريين في دول الجوار، وانعكاس ذلك

٢٩- goo.gl/UXXlyz

٣٠- يعد مخيم الزعتري أكبر مخيمات في الاردن، به ٩ مدارس، ولكن حسب التقرير المذكور فإن بعضها يفتقر للماء والكهرباء والنوافذ، ما يعني أن تبقى الفصول عرضة لحرارة الصحراء في أواخر الربيع ومطلع الخريف، وللطقس شديد البرودة في الشتاء. إضافة إلى ضعف تأهيل المعلمين في مدارس بمخيمات اللاجئين، لم يحصلوا على أي تدريب على التدريس، ولم يكن عليهم إلا إثبات تخرجهم في الجامعة. بشكل عام،





> يجب على الدول الالتزام بالاتفاقيات الدولية التي وقعتها أو صادقت عليها، من خلال سن قوانين تسهل حصول الأطفال السوريين اللاجئين على حقهم في التعليم بدون قيد أو شرط

على فقدانهم حقهم بالتعليم وارتفاع عدد الأطفال الخارجين عن المنظومة التعليمية في دول اللجوء. وأن مصادقة الدول على اتفاقية الأمم المتحدة المتعلقة باللاجئين لم تؤثر إيجاباً كما يجب على أوضاع اللاجئين السوريين وتلعب المصالح السياسية دوراً كبيراً في منح اللاجئين حقوقهم، كذلك يؤثر نقص التمويل سلباً على إمكانية الدول بتطبيق التزاماتها، مما يعكس تقصيراً دولياً تجاه القضايا الإنسانية، وضعف تأثير منظومة الأمم المتحدة واتفاقياتها في تحسين شروط الحياة عند اللاجئين.

إن ما يؤسس لاستمرار الكارثة السورية واستدامتها، ليس استمرار القتال فحسب، ولا تحول سوريا بأكملها لساحة صراع إقليمية تتنازع فيها الدول الكبرى مصالحها، وإنما الأطفال السوريون الذين يكبرون وتكبر معهم مأساتهم، سواء في الداخل أو في الشتات. بحسب أحد بيانات اليونيسف، فإن واحدا من بين ثلاثة أطفال سوريين، لا يعرفون إلا الأزمة مع وصول النزاع عامه الخامس[٣١]، وتشير التقارير إلى أن (٢،٦) مليون طفل سوري هم الآن خارج المدرسة في سوريا والبلاد المجاورة.

قبل انطلاق الثورة السورية في مارس/ آذار عام ٢٠١١ وتحولها لكارثة إنسانية فيما بعد، لم يتمتع غالبية الأطفال السوريين في المرحلة قبل الجامعية بجودة عالية في التعليم، وإن كانت إلزاميته (غير المطبقة فعلياً) ومجانيته الأكيدة نعمة يحسدون عليها من الجوار. وغني عن البيان أن ضحالة الواقع التعليمي والتربوي في سوريا ليس حديث العهد، ولا يزال الطلاب الموجودون داخل سوريا يعانون من صعوبات جمة أيضاً[٣٢]، وإن المشكلات التعليمية الموجودة في بلدان اللجوء المجاورة، ليست في غالبيتها جديدة على الطلاب السوريين الذين خبروا في بلدهم ضخامة المناهج المدرسية، وازدحام الفصول الدراسية، والعنف المدرسي.. إلخ، وغير ذلك من أخطاء متراكمة في السياسة التعليمية المُكرسة لخدمة الإيديولوجية السياسية للنظام الحاكم. ولكن قد تأخذ هذه المشكلات، إلى جانب وضعية اللجوء وضعاً أكثر مأساوية، وتؤثر سلباً على دافعية التعليم التي تراجعت عند كثيرين منهم، هذا مع ضرورة الإشارة لانتهاكات إنسانية مثل قضية زواج الطفلات، والدعارة والاستغلال الجنسي، وتهميش ذوي الاحتياجات الخاصة، وغيرها من مشكلات لا يتسع المجال لذكرها وتحتاج لإفراد بحث خاص فيها.

يجب على الدول الالتزام بالاتفاقيات الدولية التي وقعتها أو صادقت عليها، من خلال سن قوانين تسهل حصول الأطفال السوريين اللاجئين على حقهم في التعليم بدون قيد أو شرط. ولا بد من تعزيز آليات حماية الطفل في المدارس والمجتمعات المحلية وضمان حمايته من جميع أنواع العنف، كما يجب التأكد على ضرورة وجود مرشدين اجتماعيين وأخصائيين نفسيين لمتابعة حالات الأطفال المعرضين لرضوض نفسية وآثار ما بعد الصدمة.

الخاتمة:

إن العمل على إنقاذ أطفال سوريا ليست مسألة أخلاقية، يتوجب على دول العالم الالتزام بها من منظور إنساني فحسب، بل هي قضية استشرافية للأمن العالمي مستقبلاً، فالعالم الذي صمت وساهم بشكل مباشر أو غير مباشر في انتهاك حقوق ملايين أطفال العالم ومن ضمنهم أطفال سوريا، وسمح بضياع طفولتهم، وسرقة مستقبلهم، دون أن يعمل بشكل حقيقي وفعال على ترميم الخراب الذي دمر نفسياتهم وحطم أحلامهم، سيدفع ثمن فعلته حين

٣١- goo.gl/٠aop١j

٣٢- للمزيد اقرأ: تأثير الأزمة السورية على الوضع النفسي للأطفال في الداخل السوري / علياء أحمد، مجلة دلتا نون، على الرابط: goo.gl/QrisgG



يكـبر هـؤلاء الأطفـال، مهمشـين، مهزومـين، مقهوريـن، إذ لا يخفـى عـلى أحـد أثـر الانتهـاكات عـلى الصحـة النفسـية للإنسـان، وتوازنـه العاطفـي واتزانـه العقـلي، أو عـلى مقدرتـه بـأن يكـون فاعـلاً إيجابيـاً ومنتجـاً مثمـراً، ولا يتضمـن هـذا الطـرح التعميـم والإطـلاق، بـل يـضيء نقاطـاً، وإن كانـت واضحة كالشـمس إلا أن الآليـات الفاعلة عالميـاً تتجاهلهـا بدلالـة تضخـم عـدد الأطفـال الفاقديـن لفـرص عادلـة في الحيـاة، فاقديـن «فرصـة البقـاء، فرصـة الحلـم، فرصـة التعلـم».[٣٣]

٣٣ تقرير اليونيسف وضع أطفال العالم٢٠١٦ /http://www.unicef.org/arabic/sowc٢٠١٦



بقلم: بوشعيب الساوري
كاتب مغربي متخصص في الرحلة والسرد العربي



«هاربون من الموت»

رحلة صحفي ألماني مع لاجئين سوريين

١. مغامرة استطلاعية

يُعدُّ كتاب «هاربون من الموت»[١] ثمرة مغامرة وتحد رفعهما صحفي ألماني للاقتراب أكثر من تجربة اللجوء؛ عنْدما قرر في رحلة مغامرة استطلاعية الانضمام إلى مجموعة من اللاجئين السوريين الهاربين من الجحيم السوري، بعد أن قرروا التسلّل إلى شمال المتوسّط من مصر، طمعاً في الحصول على حق اللجوء، إسوة بمن سبقوهم، ضاربين عرض الحائط كل ما قد يعترضهم من مخاطر ومتحملين كل أشكال التعنيف التي فرضها عليهم المهربون الجشعون وابتزازاتهم وحيلهم. ويتابع الكاتب بحسّه الصحفي والأدبي ونفحته الإنسانية مصائرهم، مبتدئاً بحكاياتهم من سوريا بعد اندلاع ثورتها وتبعاتها، ومحاولتهم الهرب من نيرانها والعبور إلى أوربا، ملقين بأنفسهم في أحضان مغامرات خطرة علهم يعانقون حق اللجوء الذي صار حلماً صعب المنال بالنسبة إليهم.

كل هذه الاعتبارات تجعل من هذا النص «وثيقة مهمة ومناشدة حقيقية من أجل سياسات لجوء أكثر إنسانية..»(ص.٩.) لأنه كُتب بحس صحفي توثيقي، تحليلاً وتقريراً وصورة فوطوغرافية، يروم إنصاف اللاجئين والدفاع عن حقهم في اللجوء، رغم قالبه الرحلي السردي، وقد تأتى له ذلك بحكم كون صاحبه يتمتع بتجربة صحفية مهمة تمثلت في عمله لسنوات في مناطق ساخنة كما أن له خبرة بالشأن السوري.

رافق باور مجموعة من اللاجئين السوريين في رحلتهم نحو اللجوء عبر التنكر، هو والمصور التشيكي ستانيسلاف كروبر، في رحلتهم المجهولة تلك. فأخفيا شخصيتهما وقدما نفسيهما كشخصين هاربين من بلاد القوقاز. وكان هدفهما أن يوثقا «بالحس والخبرة والتجربة القريبة الملامسة للواقع؛ ماذا يعني بالضبط الهروب واللجوء.» (ص.٧.) وتنكرا باسمين وهميين. لكن حين تم القبض على اللاجئين الهاربين على متن مركب مصري في عرض السواحل المصرية ألقي القبض عليهما وأودعا بسجن الإسكندرية وكُشف أمرهما بعد أن اعترفا بحقيقتهما، فتم ترحيلهما إلى تركيا بعد تدخل السفارتين الألمانية والتشيكية. وعلى الرغم من عودتهما إلى بلديهما بقيا على اتصال باللاجئين السوريين الحالمين بالوصول إلى أوروبا وظلا يتابعان مصيرهم، خصوصاً وأنهما كانا قد ذاقا جحيم الهروب رفقتهم، وصار مصيرهم يهمهما أكثر من أي وقت مضى، وبشكل خاص الكاتب بحسه الإنساني العالي وتأثره بأوضاع اللاجئين بعد أن اكتوى بمعاناتهم أثناء الاستعداد والتهريب والهروب بالبحر المتوسط وخلال الاعتقال. فقرر أن يساعدهم ما أمكنه على الدخول إلى أوروبا المنيعة بإجراءاتها اللاإنسانية حتى يحصلوا على حقهم في اللجوء، بل يتحول إلى مهرب حينما حاول التسلل بالأخوين حسان وعلاء إلى النمسا. يقول: «وهكذا سأصبح أنا الصحفي الذي يكتب عن مهربي

١- فولفجانج باور، هاربون من الموت السوريون والطريق إلى أوروبا، ترجمة جمال خليل صبيح، منشورات العربي، القاهرة، ٢٠١٦

* جلبرت هايت، جبروت العقل، ترجمة فؤاد صروف، القاهرة، المركز القومي للترجمة، سلسلة ميراث الترجمة، العدد ٢٥٤٣، ٢٠١٥





يُعدّ كتاب «هاربون من الموت» ثمرة مغامرة وتحد رفعهما صحفي ألماني للاقتراب أكثر من تجربة اللجوء

البشر أحد هؤلاء المهربين قريبا أيضا.» (ص.١٥٨.) فتعرض للاعتقال مرة أخرى بالنمسا. لكن ذلك لم يثن عزيمته، وظل متابعا لمصائر اللاجئين. وبناء عليه عاش الكاتب تجربتين مختلفتين؛ الأولى حين تنكر كلاجئ والثانية حين حاول مساعدة اللاجئين أو مهرب بلغة شرطة الحدود النمساوية كلاهما كللت بالفشل.

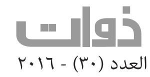
٢. إيقاظ الضمير الأوروبي

يقوم الكاتب على طول صفحات كتابه، وهو يتابع مصائر بعض اللاجئين السوريين، بفضح السياسات اللاإنسانية لبعض الدول الأوربية المتعلقة باللاجئين كإيطاليا والنمسا. ويحاسب أوروبا على لامبالاتها بما يجري في سوريا من حرب مدمرة وعواقبها، وتجاهلها للمأساة السورية يقول: «عندما كان الناس يموتون كانت أوروبا وخاصة ألمانيا مشغولة بسياستها في التجاهل والانتظار وأخذ المسافات مما يجري هناك..» (ص.٢٠٤.) ويحمّل الغرب مسؤولية تنامي التطرف في سوريا وما ترتب عنه من تدفق اللاجئين الحالمين بالعبور إلى أوروبا: «ولأن الغرب لم يفعل شيئا، أخذت داعش تتمدد في المنطقة[...] لقد استطاع هؤلاء المتطرفون أن يخلقوا موجة جديدة من اللاجئين الذين يريدون أن يتوجهوا صوب أوروبا لينشدوا خلاصهم، وذلك عبر البحر، الذي يبتلع الكثير منهم موتا وغرقا..» (ص.٢٠٥.) ولا يفوت الفرصة للوم الذات الأوروبية الجمعية وتأنيبها على تخاذلها تجاه الوضع السوري، ويدعوها إلى مواجهة المشكلة بدل الاكتفاء بالتفرج عليها. يقول: «ليس جديرا بنا ولا يمكن أن نسمح لأنفسنا بأن نواصل هذه الفرجة بعد الآن. يمكننا أن نمنع موتهم ونحافظ على حياتهم، ولكننا لا نقوم بأي شيء في سبيل ذلك، لأننا نعتقد بأن ذلك سوف يكلفنا ثمنا غاليا مقابل السماح لهم بالعيش بيننا». (ص.٢٠٦.)

وقد استعان الكاتب بأسئلة استنكارية علها توقظ الضمير الأوروبي من سباته العميق: «إلى متى يجب علينا الانتظار ونحن نشاهد هؤلاء البشر يغرقون ويموتون في أعالي البحار؟» (ص.٢٠٦.) وينتقد سياسة الغرب التحقيرية للسوريين حين يقول: «ولكن هؤلاء لم يبحث عنهم أحد بجدية. لم يكن هؤلاء ركابا غربيين على متن طائرة بوينج غرقت في المحيط الأطلسي.» (ص.٢٠٩.) كما يبرز الوجه الآخر لأوربا وانقسامها: «هذه القارة التي تقدم نفسها كجسم واحد متماسك، تنقسم في الداخل، من وجهة نظر أمنية، إلى نصفين مختلفين: الشمال والجنوب...» (ص.١٥٩.) ويفضح الأدوار السلبية للحدود، وصعوبات العبور بسبب إجراءات أوروبا المبتكرة لحماية حدودها التي صارت شرائط موت. ويحمل تلك الإجراءات الاحترازية اللاإنسانية مسؤولية ما يقع من كوارث على البحر الأبيض المتوسط الذي كان مهد أوربا وشهد مولدها صار المسرح الأكبر للخذلان.» (ص.١٩.) دون أن يغفل الحديث عن كيفية تعامل الأوروبيين مع اللاجئين المطبوعة بالتحفظ والتخوف. ويكشف عن أشكال استغلال اللاجئين كسائق الطاكسي وموظف التذاكر بألمانيا.

ويدعو الدول الأوروبية إلى فتح حدودها أمام اللاجئين ووضع حد لقوارب الموت: «لا تجبروا النساء والأطفال والرجال على الاحتماء بقوارب اللجوء والموت. فلتفتحوا الحدود الآن. ليكن في قلوبكم رحمة وشفقة.» (ص.٢٠٧.)

كما يبرز المفارقة بين التعامل معه كلاجئ والتعامل معه كمواطن أوربي وكيف تغير التعامل معه حين كشفت هويته الحقيقية بعد إلقاء القبض عليه رفقة اللاجئين. يقول: «كل الأنظمة والهياكل البيروقراطية التي واجهتنا ومنعتنا من اجتياز الحواجز في الفترة الأخيرة، تظهر دعمها لنا الآن.» (ص.٩٤.) مما يجعله يشعر بالعار والخيبة حين تم ترحيله على متن طائرة: «البحر الأبيض المتوسط الذي يبدو صعب العبور، هذا البحر يعني موتا مؤكدا للكثيرين، نجتازه الآن بسلاسة وبدون جهد. بالنسبة إلي شعرت هذه الليلة شعورا عميقا بالفحش الممزوج بالعار والذنب..» (ص.٩٤.)





يعد الكتاب، أيضا، مخاطبة لما تبقى من الضمير الإنساني، وذلك بالانطلاق من تجربة اللجوء كتجربة إنسانية عرفتها أوربا وعانت منها: «تجربة اللجوء تجربة إنسانية عامة وشاملة، لم تفلت منها قارة على وجه الأرض، ولا ثقافة من الثقافات أبدا، لم ترحم ظاهرة اللجوء أي مجتمع على وجه البسيطة؛ من آسيا إلى أوروبا، انتهاء بأمريكا.» (ص.٥.) وإن الدور الآن أتى على العالم العربي عله يوقظ، بذلك، الضمير الغربي الذي تناسى ماضيه القريب.

يفضح الكتاب الأدوار السلبية للحدود، وصعوبات العبور بسبب إجراءات أوروبا المبتكرة لحماية حدودها التي صارت شرائط موت

٣. بين التوثيقي والسردي

تقوم الرحلة عادة على نمطين من الخطاب، في علاقة بالمعيش والمرئي في فعل الارتحال المفتوح على كل التجارب الإنسانية، وهُما التقرير والسرد؛ الأول متعلق بالحس التوثيقي والثاني مرتبط بالكتابة السيرذاتية المميزة للكتابة الرحلية، باعتبار فعل الارتحال جزء من سيرة الكاتب. مما يجعلها تتراوح ما بين الذاتي والموضوعي، بين طابعها الإخباري والمغامراتي، بين التوثيقي والانفعالي. وكتاب هاربون من الموت لا يشذ عن هذه الخصوصية المزدوجة. فهو في المقام الأول تقرير صحفي عن أوضاع فئة من اللاجئين السوريين، لكن الكاتب أفرغ ذلك التقرير في قالب محكي لرحلة ذاتية وغيرية في الآن ذاته، باعتبار أن الكاتب كان جزءا من رحلة لاجئين سوريين في مرحلة من مراحلها، إذ كتبها آنذاك بضمير المتكلم، لكن حينما ألقي القبض عليه رفقة اللاجئين في محاولتهم الهرب إلى أوروبا من مصر، سيتابع أحداث الرحلة من خلال ما كان يصله من أخبار بعض اللاجئين ممن كانوا برفقته في محاولتهم الأولى، كالأخوين علاء وحسان، وعمار الذي تم ترحيله إلى تركيا، تتخلّلها الكثير من التقارير الصحفية التشديدة الصلة بموضوع اللاجئين.

٣. ١. التوثيقي

حاول الكاتب أن يحيط معرفيا بمشكلة اللاجئين، انسجاما مع الحس الإخباري للرحلة، ساعيا أن ينقل للقارئ الألماني معرفة معاشة مفصلة خبرها الكاتب عن اللاجئين السوريين، معززة بالصور الفوطوغرافية التي تخللت الكتاب، في كثير من المناطق التي حلوا بها وكذا عن وضعياتهم. كما عمل في أكثر من مناسبة أن يقدم تقريرا عن كيفية تهريب اللاجئين إلى أوروبا وكذلك تقديم تقارير عن الظواهر التي لها علاقة بعملية تهريب البشر، وسلط الضوء على أعمال المهربين وعن أماكن حجز اللاجئين في مصر وفضح الممارسات التي كيلت لهم في أي مكان حلوا به. كما يقدم تقريرا عن أصناف اللاجئين الحقيقيين والمزيفين، ويبين كيف تم استغلال الوضعية السورية من قبل بعض المهاجرين السريين الذين ادعوا أنهم سوريون. وبما أنه تم القبض على اللاجئين في مصر، فكان ذلك فرصة للحديث عن وضع السجون في مصر.

وقد قاد باور حسه الصحفي إلى الكشف في أسباب اللجوء، التي لخصها في الحروب والديكتاتورية والأزمة الاقتصادية، بشكل عام، أما لدى السوريين، بشكل خاص، فتتمثل في الحروب المندلعة (حرب الأسد، حرب العصابات، حرب أهلية بين الراديكاليين، الحرب الكردية، حرب العراق الجديدة) وعواقبها، ويبقى أخطرها التطرف الذي فاقم محنة اللجوء: «لقد استطاع هؤلاء المقاتلون المتطرفون أن يخلقوا موجة جديدة وكبيرة من اللاجئين الذين يريدون أن يتوجهوا صوب أوروبا...» (ص.٢٠٥.). وباختصار يعتبر أن السبب الأساسي للجوء هو الحرب. يقول: «بعد كل هجوم جديد يقرر عدد جديد من العائلات الهروب إلى القرى التالية، عبر الحدود المجاورة، إلى السواحل التالية، عبر البحار... وهكذا دواليك». (ص.١٠٠.)

وامتد التقرير ليشمل منافذ العبور والتسلل إلى أوربا وكذا التحولات التي طرأت عليها، في ظل تفاقم الوضعية السورية، وبالموازاة مع ذلك يسلط الكاتب الضوء على أصناف تهريب البشر ومنافذه في تركيا ومصر وظروفه وأشكاله؛ وقد فصل في الحديث عن شكلين؛





لم يُفوت الكاتب الفرصة للكشف عن أصناف العنف التي يتعرض لها اللاجئون جنوب المتوسط، وكيف يخضعون للمهربين الذين يعرضونهم للنهب والابتزاز كما كانوا يتواطؤون مع الشرطة

- الأول؛ هو الهجرة السرية من جنوب المتوسط عبر قوارب الموت، ويضع اليد على شبكات التهريب الدولية للبشر، وقدم أرقاما صادمة عن من يموتون غرقا في المتوسط. يقول: «في كل سنة هناك ما يقارب الـ ١٥٠٠ شخص ممن يلاقون مصرعهم على طريق اللجوء إلى إيطاليا واليونان». (ص.١٧.)

- الثاني؛ هو تزوير الجوازات والهويات وشبكاتها في تركيا وإفريقيا.

كما لم يُفوت الفرصة للكشف عن أصناف العنف التي يتعرض لها اللاجئون جنوب المتوسط وكيف يخضعون للمهربين الذين يعرضونهم للنهب والابتزاز كما كانوا يتواطؤون مع الشرطة، وأثر ذلك على اللاجئين وأشكال تفاعلهم مع العنف المسلط عليهم، وكيف يحاول المهربون التخلص منهم حينما يشتد الخطر: «قام المهربون بالتخلص من اللاجئين عبر رميهم من على المركب إلى المياه مباشرة، استخدموا الركل والضرب ورموا حتى الحقائب». (ص.٨١.)

وقد حاول الكاتب التقاط كل أشكال العنف الذي يتعرض له اللاجئون النفسي والجسدي. يقول باور: «وكانوا يضربوننا مثل رعاة الغنم. كان الفتى يضربنا بعصا كانت معه على الظهر أو على اليدين، لا فرق». (ص.١٣.)

٣. ٢. السردي

كُتبت الرحلة في الجزء الثاني منها بقالب روائي؛ عبر التناوب بين برنامجين سرديين فرضهما مسار الرحلة ومستجداتها ومصائر اللاجئين وأوضاعهم، بعد أن تم كشف هوية السارد، وذلك حسب مسار ثلاثة لاجئين؛ وهم الأخوان علاء وحسان اللذان قررا الاستمرار في مشروع هربهما من مصر إلى إيطاليا ومنها إلى السويد، وعمار الذي تم ترحيله إلى تركيا والذي باع كل ما يملك من أجل تحقيق مشروعه في اللجوء بألمانيا، وذلك من خلال ما رووه للكاتب، إما بشكل مباشر عند الوصول إلى أوروبا أو عبر الهاتف قبل العبور وأثناءه وبعده.

استنفر الكاتب كل حواسه لنقْل أوضاع اللاجئين، بالتركيز على حالاتهم النفسية، وهم يواجهون مصائرهم بأخطارها وتبعاتها وما فرضه تسلسل الأحداث المتوقعة واللامتوقعة، إذ ينزع إلى اقتناص مشاعر الشخصيات والنفاذ إليها، وهي تتفاعل مع مستجدات الرحلة ومفاجآتها، وهو ما طبع نص الرحلة بحس تشويقي يفرض على القارئ التهام صفحاتها.

كما سمح الحس الصحفي للكاتب بأن يخلل سرده ببورتريهات عن كل اللاجئين الذين حاولوا مرافقته في رحلة الهروب إلى أوروبا، بتقديم نبذة مختصرة عن كل لاجئ وكيف كان وضعه في سوريا، وفي مصر وعن طموحاته وكذلك قصة هروبه من سوريا كقصة حسان وقصة جهاد وقصة ربيع وعزوز، وقصة عمار، ومحاولات هربهم الفاشلة مثل عزوز الذي فشل خمس مرات في الوصول إلى أوروبا.

وقد ركز الكاتب، بحكم ما فرضته تطورات الرحلة، وأيضا بحكم استمرار علاقته ببعض اللاجئين، على الأخوين علاء وحسان من جهة وعلى عمار من جهة أخرى الذين ظلوا على اتصال بالكاتب، وإصرارهم على مشروع هربهم، والذي تحقق لهم بعد مسارات حافلة بالمغامرات المثيرة خصوصا بالنسبة إلى عمار.

على الرغم مما سمعوه من مخاطر مأساوية للاجئين سابقين، تمسكوا بخيط أمل للوصول إلى البر الأوروبي، حيث لا خوف ولا جزع؛ فكانوا ينوون العبور إلى إيطاليا ومنها ينتقلون إلى دولة أخرى ليطلبوا اللجوء فيها. بعد فشل محاولة هربهم الأولى ألقي القبض عليهم، وتم ترحيل عمار إلى إسطنبول، وقرر الآخرون القيام بمحاولة أخرى لاجتياز المتوسط،





وهو الأمر الذي فتح للسارد مسارين سرديين مكناه، بالتناوب، من تتبع محاولات كل من عمار وباقي اللاجئين في الوصول إلى أوروبا. إذ أصروا على مواصلة الرحلة، رغم ما تعرضوا إليه من تنكيل في السجن واستغلال المهربين. أقدم من بقوا في مصر بمحاولة أخرى بعد شهر، بعد أن جددوا التفاوض من أجل العبور.

سعى عمار إلى الهجرة بشتى الطرق لكن كل محاولاته باءت بالفشل. وباع أعز ما يملك من أجل بلوغ مسعاه السرابي من أجل الحصول على جواز سفر مزور. إذ أوصله مشروعه إلى حافة الإفلاس هو وأسرته بعد أن باعوا كل ما يملكون وصرفوا كل مدخراتهم.» (ص.١٨٥.) ورغم ما اعترضه من فشل أصرّ حتى بلغ حلمه، أي العبور إلى أوروبا.

أما بالنسبة إلى الأخوين علاء وحسان، فقد تحدث عن وضعهما، واختلاف مزاجهما، وكذلك هدفهما المحدد من اللجوء، وهو اللحاق بأخيهما محمد بالسويد. استغرقت رحلتهما شهرين تعرضا فيها لأنواع شتى من المضايقات، الاعتقال والخطف والسجن، وشاهدا خلالها الموت بأم أعينهما. وصلا إلى إيطاليا رُفقة مجموعة من اللاجئين، فتم إنقاذهما وترحيلهما، بالسماح لهما بالتوجه إلى شمال أوروبا بمساعدة من الكاتب وأخيهما محمد، اللذين حاولا تهريبها عبر السيارة، لكن المحاولة فشلت حين تم الكشف عنهم بالنمسا، وتم إلقاء القبض على الكاتب مرة أخرى. فعادا إلى إيطاليا وعبرا منها إلى ألمانيا عبر القطار، ومن هناك استقلا طاكسي إلى الدنمارك ووصلا إلى السويد يوم ٢٩ مايو/ أيار ٢٠١٤. وكان ذلك فرصة للسارد ليكشف عن تفاعلهما مع المكان الجديد وسحره والإحساس بروعته. وكيف حصلا على اللجوء. كما لم يفوت الكاتب الفرصة، انطلاقا مما شاهداه من الإشارة إلى أشكال رفض السويديين للاجئين وعدم الترحيب بهم عبر منشورات عدائية تحض على كراهية اللاجئين. كما أبرز تأثير اللاجئين على المشهد السياسي في السويد بتنامي حضور اليمين المتطرف.

هكذا يتابع الكاتب في هذا السرد التناوبي مصائر مجموعة من السوريين، لتصير حكاياتهم على تباينها تنويعا على حكاية واحدة، وهي حكاية الخيبة والانكسار.

> ناشد الكاتب الضمير الأوروبي إلى نهج سياسات أكثر إنسانية في حق اللاجئين السوريين

تركيب

كشف لنا الصحفي الألماني في هذه المغامرة الاستطلاعية عن قرب الظروف المحيطة بالعبور المأساوي للاجئين السوريين، وناشد فيها باستنكار الضمير الأوروبي إلى نهج سياسات أكثر إنسانية في حق اللاجئين السوريين. وزاوج على مستوى كتابتها، انسجاما مع روح النص الرحلي، بين التقرير والسرد، الأول فرضه الحس التقرير ي التوثيقي، وقد تعزز بالخلفية المهنية للكاتب، باعتباره صحفيا خبيرا بموضوع اللاجئين عبر كل محطات العبور وما يتعرضون إليه. أما الثاني، فقد فرضته الرحلة وأحداثها المثيرة، فلم يكتف بعمله الصحفي، وإنما طعّمه بنقل تجارب شخصية حية.





بقلم: د. هويدا صالح
كاتبة وأكاديمية مصرية



سرديات اللجوء الفلسطيني

قراءة في كتاب «اللاجئون الفلسطينيون في المشرق العربي»



كُنتُ لا أزال في بداية مشواري مع الكتابة، لا أزال أخطو خطواتي الأولى، حينما استضافت جامعة المنيا المصرية، وكنت طالبة في قسم اللغة العربية بكلية التربية بها، كاتبة فلسطينية غاب اسمها عن ذاكرتي، جلسنا حولها، نحن الكاتبات الصغيرات، وهي تحدثنا عن مشاعرها في المخيم الفلسطيني، نسيت تفاصيل الحديث الذي مر عليه أكثر من خمسة وعشرين عاما، لكنني لم أنس حديثها عن المخيم، وعلاقتها بالصغار وبالمنظمة الحقوقية، ورؤيتها، وهي الصغيرة لتفاصيل الحياة في المخيم، وطعم الحليب الرديء الذي كانت المنظمة الدولية الأونروا تمنحه للصغار، وظلت صورة الأطفال الذين يتجمعون حول سيارة المنظمة التي توزع عليهم الأطعمة عالقا في ذهني، وظل شعور الشفقة على اللاجئين مصاحبا لي، وحينما كنت أقرأ رواية تتناول حياة الفلسطينيين في الشتات، كنت أستدعي صورتها، وأبحث في الذاكرة عن اسمها، بل كثيرا ما كنت أبحث عن كاتبات تناولن حياة المخيمات الفلسطينية في كتاباتهن، علني أتعرف على صورة طفلة صغيرة تتقزز، وهي تشرب حليبا لا يعجبها طعمه، لكنها مجبرة عليه هي التي فقدت بيتها وعائلتها واضطرتها ظروف اللجوء إلى العيش في مخيمات اللاجئين. وحين وقع في يدي كتاب «اللاجئون الفلسطينيون في المشرق العربي: الهوية والفضاء والمكان» الذي حرره آري كنودسن وساري حنفي أستاذ علم الاجتماع والأنثربولوجيا في جامعة بيروت، وترجمته دينا الشريف، وقام بمراجعته جابر سليمان، وصدر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، عام ٢٠١٥، كنت أبحث عن السرديات الإنسانية التي تصور حياة المخيمات أكثر من بحثي عن التفاصيل البحثية والإحصائية التي تنظر للتجربة مدنيا وحقوقيا وسياسيا.

* جلبرت هايت، جبروت العقل، ترجمة فؤاد صروف، القاهرة، المركز القومي للترجمة، سلسلة ميراث الترجمة، العدد ٢٥٤٣، ٢٠١٥

وضعية اللاجئين الفلسطينيين

يضم الكتاب مجموعة من المقالات والدراسات التي تصور حياة اللاجئين في منطقة الأونروا الخمسة: سورية ولبنان والأردن والضفة والقطاع، وقد حرر الباحثان الكتاب، وشاركا بمقالات فيه. وقد قام جابر سليمان بكتابة مقدمة له يقارن فيها حال اللاجئين منذ الخروج الأول لهم بعد النكبة، وحالهم بعد ما يُسمّى بثورات الربيع العربي، وظروف الصراع الدائر في منطقة الشرق الأوسط، وخاصة سورية التي كانت تضم عددا كبيرا من اللاجئين وصل إلى ٢٥٠ ألف لاجئ، وخروجهم الخروج الثاني بعد أن اشتعل الصراع على أرض سورية بين النظام والأطراف الأخرى المتصارعة. يكشف جابر سليمان في مقدمته ما حدث من تغيرات سياسية أثرت على وضعية اللاجئين الفلسطينين، وخاصة في سورية وما حدث لهم من تهجير ثان فيما سماه بالخروج الثاني، في إشارة إلى الخروج الأول بعد النكبة: «تعرض



يضم الكتاب مجموعة من المقالات والدراسات التي تصور حياة اللاجئين في منطقة الأونروا الخمسة: سورية ولبنان والأردن والضفة والقطاع

الجيلين الثاني والثالث، للنكبة، للتهجير الداخلي (داخل سورية) أو إلى خارج البلد الذي ولدوا وترعرعوا فيه، ولم يعرفوا وطنا آخر غيره». لا شك أن هذا التغيير الكبير في الخريطة الجيوسياسية العربية سوف يضيف أسئلة جديدة إلى الأسئلة التي طرحها الكتاب، حول ما يعنيه التهجير بالنسبة إلى أجيال ظنت أنها اندمجت في مجتمعاتها الجديدة، بعد أن تم تهجير ذويها.

ينقسم الكتاب إلى أربعة أقسام، وكل قسم يضم عددا من المقالات، في القسم الأول «المكان والإدارة والمحلة»، يطرح يحاول أن يقدم ضبطا مفاهيميا لعدد من المصطلحات الجديدة الخاصة باللاجئين والهجرة ودراسات الشتات. وتشرح مساهمة جولي بيتيت «رسم خرائط العنف والتهجير ومخيّمات اللاجئين (فلسطين والعراق)» ذهنية الربط بين مفاهيم الصراعات الإثنية والعرقية والصراعات الطائفية وعملية التهجير المعاصر في فلسطين والعراق. وتقوم بيتيت بتحليل إعادة تشكيل الحيّز البشري والأشكال المكانية الجديدة للاحتواء التي تفارق الأشكال القديمة المرتبطة بمفهوم التخييم المؤقت، والتي تقدمها الصورة الذهنية للمخيم، وأثر ذلك في إنتاج هويات نفسية واجتماعية جديدة، كما تكشف حاجة المنطقة بعد ازدياد عدد اللاجئين إلى إيجاد نقاط تجميع للاجئين، ووسائل لاستيعابهم، بدلًا من المخيمات، بل يجب اختراع طرائق جديدة لاحتواء المهجرين من أجل القضاء على أزمة اللجوء في المنطقة من محتواها.

اللاجئون والمخيمات

ثم يقدم ساري حنفي أحد محرري الكتاب فصلا بعنوان: «إدارة مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان وسورية»، ويحاول أن يكشف عن فهم جديد للأبعاد المكانية والسياسية التي تحكم مخيمات اللجوء، مؤكدا أنه يجدر بنا إعادة فحص البِنَى المتعلقة بإدارة المخيم، إدارة مدينية محلية، وليس من منظور أمني. وحاول حنفي أن ينبه إلى الخطر الاجتماعي لفصل أهل المخيمات إداريا عن الدولة المستضيفة، ففي الوقت الذي كانت تتعامل فيه سورية مع المخيمات، مثل أيّة بقعة سكنية أخرى، فسكان المخيمات في سورية كان يتم التعامل معهم باعتبارهم أحد مكونات النسيج السوري، وكانوا يلقون قبولا مجتمعيا ورسميا، كان يُنظر في لبنان إلى مخيمات اللاجئين على أنها «جُزر أمنية»، وتُعامَل بوصفها «فضاءات استثناء» تجعلها أشبه بمختبرات للسيطرة والمراقبة. وهذا ما يحول دون إرساء الفلسطينيين المقيمين في مخيمات لبنانية بُنَى إدارة فاعلة للمخيمات. وفي ظل هذا الغياب شبه التام للإدارة التقليدية، برزت بين سكان المخيمات «حوكمة» بديلة، نجحت إلى حدٍّ بعيد في تنظيم سلوك سكان المخيم.

نتيجة لهذا الفصل المجتمعي بين سكان المخيمات وأهل لبنان، اضطر اللاجئون إلى استحداث نظام بديل ارتضوه، يحكمهم ويحل مشكلاتهم، وينظم تفاصيل الحياة الاجتماعية لهم، وقد اختير القائمون على الإدارة ربما من الأقوى اجتماعيا على أساس المال أو القوة والشجاعة أو القدرة على حل المشكلات اليومية بين اللاجئين. إذن يناقش حنفي مفهومي العزل والفصل من أجل مناقشة التركيز المكاني للخطر الاجتماعي لاقتراح مقاربة مختلفة للإدارة المدينية المحلية.

أثر اللجوء على الهوية والثقافة

تقدم الباحثة روزماري صايغ دراسة عن أثر اللجوء وسُكْنَى المخيم على الهوية الثقافية للاجئين، من خلال فصل بعنوان: «تجسيد الهُويّة في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين نظرة جديدة إلى المحلّي والوطني». حاولت الباحثة أن تُحلل هوية مخيم اللجوء، مستخدمةً روايات وحكايات لاجئين محاصَرين من مخيمي «جنين» و«شاتيلا» وتُظهر كيفية تَشكُّل الهوية الثقافية، وتعددها بتعدُّد المناخات السياسية التي يعيش فيها أبناء الشتات، وتشير إلى أنّ المقيمين في المخيمات يمتلكون حسًّا متميزًا بأنهم





«جماعة» تتشارك أوضاع القمع والتهميش والفقر نفسها. وتدعو روزماري صايغ إلى تمثيل أكثر واقعيةً للجمهور الفلسطيني؛ من أجل دراسة الدور السياسي لـ «المحلي» في زمن الأزمة الوطنية، وتكشف عن أنّ مساهمة الشكل المكاني يؤثّر في الهوية، ما يؤدي إلى تغير سريع.

يبحث القسم الثاني من الكتاب «التحضر المديني والمكان والسياسات» في علاقة المخيمات الدينامية بمحيطها المديني؛ إذ تغيّر عملية التمدن أو التحضر وإيجاد مخيمات مدن، أو مدن مخيمات، البيئةَ المجاورة لمخيمات اللاجئين، فضلًا عن البيئة المبنية داخل المخيمات. يقدم الباحث محمد كامل درعي فصلا بعنوان: «مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان: هجرة وحراك وتحضّر»، ويكشف فيه عن مسار تمدن مخيمات اللاجئين في بيروت وتحضرها، ويؤكد على أنّ هذه المخيمات على الرغم من أنّها مهمّشة ومعزولة، فهي لا تزال مرتبطة بمحيطها المديني من خلال الأشكال المختلفة للحركية المكانية والاقتصادية، مما يؤدي إلى ارتباط هذه المخيمات المدينة، مما يحوّلها إلى «مخيمات مدينية».

اللجوء ومفاهيم التمدن والتحضر

كذلك يقدم الباحث فيليب ميسلفيتز فصلا بعنوان: «لاجئون يخططون مستقبل مخيم الفوار: تجريب استراتيجية تحسين مخيمات اللاجئين الفلسطينيين»، يناقش مفاهيم التمدن والتحضر من «الخارج» إلى «الداخل»، ويكشف عن تجربة اجتماعية تشاركية قام بها سكان المخيم، تهدف إلى إعادة تعريف البيئة المبنية في مخيم الفوّار للاجئين في الضفة الغربية. ويبيّن الباحث أنّ التحوُّل غير المدروس للبيئة العمرانية قد أنتج على امتداد عدة عقود مخيّمات حضريةً معقدةً غامضةً مكتظةً مشابهة لمدن الصفيح، على الرغم من اشتمالها على مراكز تجارية وأسواق عديدة. كذلك بيّن أنّ عملية التطوير التشارُكي للمخيم كانت صعبةً وصراعيةً، لكنها ساعدت على إعادة تعريف علاقة السكان بـ «الأونروا»، وببرامج المساعدات المفروضة من الخارج لمصلحة عملية صناعة قرار أكثر تشاركيةً. ثم يأتي فصل «نهر البارد: النتائج السياسية لكارثة اللجوء» الذي قدمه آري كنودسن، ليكشف عن الدمار المادي لمخيم اللاجئين وتداعياته السياسية السلبية.

> كان يتم التعامل مع سكان المخيمات في سورية، باعتبارهم أحد مكونات النسيج السوري، وكانوا يلقون قبولا مجتمعيا ورسميا

وقد قام كنودسن بتحليل التداعيات السياسية لتدمير مخيم «نهر البارد» بلبنان عام ٢٠٠٧؛ بهدف إعادة تعريف العلاقات السياسية بين اللاجئين وممثليهم السياسيين والدولة. ويُظهر الباحث التداعيات السياسية للأزمة التي رسّخت الانقسام السياسي الثنائي للمشهد اللبناني، ويؤكّد الباحث أنّ كارثة نهر البارد استُغلت من أجل مكاسب سياسية؛ لأن المشكلة الفلسطينية مسألةٌ سياسيةٌ حساسةٌ، وأصبحت القدرة على السيطرة على الحوار الوطني بشأن ملف اللاجئين رصيدًا سياسيًّا يستغله القادة السياسيون. إذن يناقش آري كنودسن الحالة الطارئة لمخيم نهر البارد ليس فقط من خلال التركيز على التدمير والتهجير، بل من خلال إلقاء الضوء على تداعيات هذه الأزمة على العلاقات السياسية بين الفلسطينيين واللبنانيين، وكيف ألقت هذه الأزمة الضوء على إهمال الحكومات المتعاقبة محنة اللاجئين.

اللجوء والوضع القانوني

في القسم الثالث من الكتاب «الحقوق المدنية والوضع القانوني وجبر الضرر»، يقدم عباس شبلاق فصلا بعنوان: «جواز سفر بأيّ ثمن؟ الحرمان من الجنسية بين اللاجئين الفلسطينيين»، ويدرس فيه أثر حرمان الجنسية في اللاجئين الفلسطينيين، وفي تجاربهم وسُبُل عيشهم وحركيتهم داخل المنطقة وخارجها. وتفحص هذه المساهمة المفاهيم المتغيرة للمواطنة في الخطاب السياسي الفلسطيني، وبين اللاجئين أنفسهم. ويقدّم شبلاق تحليلًا نقديًّا لأشكال متعددة استخدمت فيها بعض الأطراف المواطنةَ لتحديد مصير فلسطينيين عاديين، من أجل التأثير في حلّ مشكلة اللاجئين. ويستنتج أنّ حرمان الجنسية كان له





إن حرمان الجنسية كان له أثرٌ عميقٌ في حركة اللاجئين الفلسطينيين ورفاهيتهم وسُبُل عيشهم، وفي منعهم من دعم أنفسهم

أثرٌ عميقٌ في حركة اللاجئين الفلسطينيين ورفاهيتهم وسُبُل عيشهم، وفي منعهم من دعم أنفسهم.

إذن حالة الحرمان من الجنسية، التجربة التي عاناها الفلسطينيون في المنفى أكثر من أي أمر آخر، وتعرضهم لكل الممارسات التمييزية في الدول العربية المضيفة للاجئين كانت محور اهتمام الباحث في هذا الفصل.

يُفضي نقاش الحقوق المدنية، في مستوى المقارنة الإقليمية، إلى رؤًى جديدة بخصوص أوضاع اللجوء في ما يتعلّق بمشكلة حرمان الجنسية، والنقص في حماية اللاجئين من الناحية القانونية.

وفي نفس القسم، يقدم جلال الحسيني وريكاردو بوكو، دراسة بعنوان: «ديناميّات المساعدة الإنسانية والسياسة المحلّية والإقليمية: لاجئو فلسطين حالة دراسية» ويكشف الباحثان عن تأثير الوضع القانوني الذي تمنحه الدول المضيفة في اللاجئين الفلسطينيين، بل يقومان بتحليل قاعدة بيانات مستمدة من مسْح أُجريَ في خمس مناطق من عمليات الأونروا (الأردن، ولبنان، وسورية، وقطاع غزة، والضفة الغربية) ويكشفان عن كيفيةَ تشكيل الوضع القانوني للاجئين و»تنظيمهم» بوصفهم مجموعةً من جهة، ونظرةَ اللاجئين إلى أنفسهم على أنّهم منفيُّون في تلك الدول من جهة أخرى.

اللاجئون الفلسطينيون وجبر الضرر

في الفصل الأخير من هذا القسم «اللاجئون الفلسطينيون وجبر الضرر: سياسة التأسف»، تناقش الباحثة شهيرة سامي فكرة «جبر الضرر»، حيث أطلقت هذا المصطلح؛ لتعبر عن فكرة إحقاق العدالة والإنصاف، وتقارن حالة «جبر الضرر» التي يجب أن ينالها الفلسطينيون بحالات إنسانية في كوريا واليابان حين احتلتهما الولايات المتحدة الأمريكية في منتصف القرن الماضي بعد الحرب العالمية الثانية. وتدرس الباحثة المقاربات الجديدة للتعويض وجبر الضرر والاعتذارات الرسمية المستخدمة في حقل العدالة الانتقالية، وتقدّم نظرةً عامةً إزاء الممارسة الدولية في ما يتعلق باستخدام التعويض والاعتذار. ثمّ تتفحّص مسألة جبر الضرر للاجئين المهجرين، وتحديدًا عدَّةَ حلول لتطبيق حقّ العودة والتوطين واستعادة الممتلكات والتعويض. ومن دون إطلاق أحكام مسبقة عن أيّ حقّ من هذه الحقوق الأساسية، تدعو الباحثة إلى اعتماد مقاربة أوسع لجبر الضرر، بل إنها تدعو تحديدًا إلى أهمية تقديم «اعتذار» رسمي يعترف بالمسؤولية عن آثام الماضي كجزء أساسي من تصويب الظلم التاريخي في حقّ اللاجئين الفلسطينيين.

اللاجئون والاندماج

يأتي القسم الرابع تحت عنوان «الذاكرة والقدرة والتدامج»، ويناقش الوسائل التي اعتمدها اللاجئون في المنفى الممتدّ والاحتجاز، من خلال إعادة تعريف علاقات القربى وبنية العائلة والسرد الذي يقوم على أساس القربى، والأصول الواحدة. ويقدم سيلفان بيرديغون فصلا بعنوان: «المؤسسة الوحيدة الباقية والقابلة للحياة (الأسرة)». وفيه يدرس الترابط بين وضع اللجوء، وعلاقة القربى واستراتيجيات الزواج بين أبناء مخيم للاجئين في منطقة «صور». ويركز هذا الفصل على سرديات اللاجئين، وتاريخ حياتهم، في نظرة إثنوغرافية، في محاولة للكشف عن الإستراتيجيات الفردية والعائلية المعتمدة في الزواج التي يعتمدها أهل المخيم، سعيا إلى مواجهة العقبات الاجتماعية والسياسية الكثيرة التي تعترض اللاجئين المقيمين في المخيم، من أجل التغلّب عليها في نهاية المطاف. ومثلما يوضح بيرديغون، يُعيد اللاجئون على نحو خلّاق تعريف علاقات القربى والواجبات المترتبة عليها من أجل إيجاد مركَّب من تلك العلاقات شبيه بـ «شجرة العائلة» التي تحمل في ديناميتها شواهد على قوة اللاجئين وإرادتهم.

ثم تقدم الباحثة ماريا هولت في دراستها «عالم متحرِّك: ذاكرة الفلسطينيات وواقعهن في مخيمات





لبنـان» بموضـوع إرادة اللاجئـات وقوتهـن، في محاولـة مـن الباحثـة تحليـل سرديـات نسـاء يسـتخدمن الذاكـرة في تكويـن المكان والسـعي للهرب مـن يـأس الحاضر، وهـذه نظـرة نسـوية، حيـث تطـرح النسـويات في مشروعهـن الفكـري أهميـة أن تعيـد النسـاء كتابـة تاريخهـن عـبر الذاكـرة الاسـترجاعية التخييليـة الـتي تكتـب تاريخ النسـاء، وتربـط ماريـا هولـت بـين هـذه الفكـرة النسـوية وفكـرة كتابـة تاريـخ اللاجئـين عـبر ذاكـرة النسـاء وسردياتهـن، وحجتهـا في ذلـك أنّ «الشـتات الفلسـطيني»، وهـو مـن نـوع «الشـتات الضحيـة»، طـوّر نوعًـا محددًا مـن الهويـة الـتي تعتمـد عـلى فكـرة «الجنـدر» الـتي هـي بالأسـاس فكـرة نسـوية، والـتي هـي ـ بحسـب تعبـير الباحثـة ـ عابـرة للأجيـال في آنٍ واحـد. فالـسرد النسـائي للقصـص مفتـاحٌ لتشـكيل هويـة النسـاء، ومـن خـلال جنـدرة المـاضي، يحتضـن ذاكـرة الأزمنـة والأمكنـة الأخـرى بوصفهـا مصـادر للراحـة والحمايـة للمحرومـات منهـن، خصوصًـا في سـياق انعـدام مزمـن للأمـن والاسـتقرار، ومـن ثمـة يمكـن أن يُعدّ ذلـك النـوع مـن الـسرد سردًا جماعيًّـا مـن أجـل البقـاء.

ثـم يـأتي تقـدم الباحثـة منـال قرطـام فصـلا بعنـوان: «السياسـة والمحسـوبية واللجـان الشـعبية في مخيـم شـاتيلا»، وتقـوم بتحليـل دور الفاعلـين المحليـين في المسـار التعـاوني بمخيـم «شـاتيلا» وتعـرض حالـةً دراسـيةً للتنظيـم الـذاتي والإدارة الذاتيـة مثيرةً للاهتمـام؛ ذلـك أنّ سـكان المخيـم ينشـئون لجنـةً لتحسـين أوضـاع الحيـاة الصعبـة، وينصّبـون قيـادةً ديمقراطيـةً منتخبـةً بالاقـتراع الشـعبي، غـير أنّ هـذه المبـادرة الإصلاحيـة الشـعبية تنهـار في مواجهـة تهديـدات القـوى التقليديـة الممسـكة بزمـام السـلطة في المخيـم. وبوجـهٍ أعـمّ، تُظهـر الدراسـة مشـكلة مواجهـة الأنمـاط التقليديـة لإدارة مخيمـات اللاجئـين في لبنـان الـتي لا تمثـل الصـوت الشـعبي ولا المشـاعر الشـعبية، رغـم أن اسـمها «اللجـان الشـعبية»؛ لأنّ قواعـد السـلطة خاصـة بزعمـاء سياسـيين غـير محليـين تعيـق هـذه التجربـة، وتقـف في سـبيل تحقيـق الفكـرة.

الشعب الفلسطيني ومعاناة اللجوء

لقـد عـانى الشـعب الفلسـطيني مـن القمـع والقتـل والتدمـير، وتعـد تجربتـه في اللجـوء أطـول تجربـة في تاريخ اللجـوء السـياسي العالمـي، فـلا يوجـد شـعب عـانى اللجـوء طـوال هـذه الفـترة، مثـل الشـعب الفلسـطيني الـذي مـا يـزال يعـاني مـن أجـل تحقيـق «حـق العـودة» الـذي

> يُعيد اللاجئون على نحو خلّاق تعريف علاقات القُربى والواجبات المترتبة عليها من أجل إيجاد مركَّب من تلك العلاقات شبيه بـ «شجرة العائلة»

هـو مفهـوم مركـزي لا يمكـن أن يتنـازل عنـه المفـاوض الفلسـطيني، فإسرائيـل الـتي تعـوق كل مباحثـات السـلام تشـترط عـلى المفـاوض الفلسـطيني أن يتنـازل عـن حـق عـودة اللاجئـين، ممـا يفشـل كل مباحثـات السـلام، ويدمـر كل فـرص الوسـطاء، سـواء كانـوا وسـطاء عـرب أو دول الثمانيـة الكـبرى الـتي ترعـى مفاوضـات السـلام.

ركـز الباحثـون في دراسـاتهم عـلى دراسـة حالـة اللجـوء إلى دول منطقـة الأونـروا الخمسـة (سـورية ولبنـان والأردن والضفـة والقطـاع) ونالـت مخيمـات اللاجئـين في لبنـان اهتمـام الباحثـين في معظـم فصـول الكتـاب، فسـتة فصـول مـن أصـل اثـني عـشر فصـلا، هـي: الثـاني والرابـع والسـادس والعـاشر والحـادي عـشر والثـاني عـشر تركـز عـلى مشـكلة اللجـوء لـدى فلسـطيني لبنـان ومخيماتهـم. ومـع ذلـك لا يمكـن أن نتجاهـل وضـع اللاجئـين السـوريين الذيـن تميـزت مخيماتهـم ووجودهـم عـن كل مخيمـات اللاجئـين في بقيـة مناطـق الأونـروا، وذلـك أن السـلطات في سـورية وفـرت لهـم مسـاحة كبـيرة مـن التسـامح الاقتصـادي والاجتماعـي، وقـد قـام سـاري حنفـي بدراسـة حـول مخيمـات «اليرمـوك»، وكيفيـة إدارتهـا، وقـد طـرح حنفـي عـدة تسـاؤلات عـن الحقـوق السياسـية والمدنيـة الـتي كان مـن المفـترض أن يحصـل عليهـا الفلسـطينيون؟ ولمـاذا تعـرض مخيـم اليرمـوك لأكـبر مسـاحة تدمـير في خـلال الحـرب السـورية الحاليـة؟ لـذا مثـل الخـروج الثـاني للاجئـين مـن سـورية معانـاة وألمـا كبيريـن، فبعـد انـدلاع الحـرب في سـورية اضطـر الفلسـطينيون إلى الخـروج إلى دول الجـوار السـوري (لبنـان والأردن والعـراق) الـتي كانـت تغلـق حدودهـا في وجوههـم، ولا تسـمح بعبورهـم إليهـا إلا بـشروط قاسـية ومشـددة كمـا أسـلفنا.إن مصـير فلسـطيني سـورية، بعـد التغـيرات الديموغرافيـة





> مثّل الوضع الإنساني لمن بقي من اللاجئين الفلسطينيين في سورية، وضعا حرجا، حيث يعيشون في معسكر اليرموك بين سندان النظام السوري ومطرقة المعارضة المسلحة وتنظيم داعش

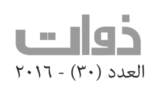
التي حدثت في المنطقة العربية، يشكل فصلا تراجيديا شديد القسوة لهذا الشعب المنكوب، مما دفع رئيس الوزراء الفلسطيني محمود عباس يتقدم بطلب للأمم المتحدة أن تضغط على إسرائيل بالعودة إلى الضفة والقطاع، لكن إسرائيل رفضت بشدة، بل علق رئيس وزرائها نتنياهو الذي قال، إن «إسرائيل لا ترغب أن يتم إغراقها باللاجئين».

ومثّل الوضع الإنساني لمن بقي من اللاجئين الفلسطينيين في سورية، حيث بقي فيها ١٥ ألف لاجئ من أصل ٢٥٠ ألف غادروها، مثل وجودهم وضعا حرجا، حيث يعيشون في معسكر اليرموك بين سندان النظام السوري ومطرقة المعارضة المسلحة وتنظيم داعش، حيث يعيشون في ظروف غير إنسانية، بل أدنى من مستوى البشر، بل يتعرضون للقصف والضرب بشتى أنواع الأسلحة من الطرفين.

اللاجئون الفلسطينيون في مصر والخليج

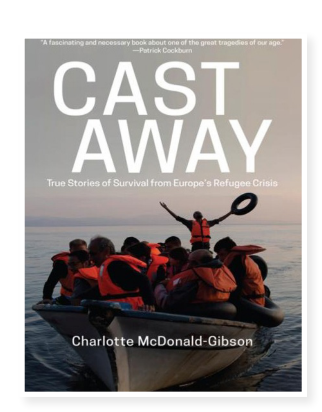
ويبقى أن الكتاب أهمل وضعيات اللاجئين الفلسطينيين في دول، مثل: مصر والخليج العربي، وتونس بشكل معمق، فتونس مثلا استضافت منظمة التحرير الفلسطينية بعد اجتياح بيروت عام ١٩٨٢، حيث انتقلت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية إلى تونس. وقد تدخلت عدة أطراف دولية لإقناع الرئيس الحبيب بورقيبة لاستقبال الفلسطينيين، ويظهر أن الولايات المتحدة الأمريكية قد قدمت بدورها عدة ضمانات للدولة التونسية، من ناحيتها قدمت الحكومة التونسية «شروطا» معينة، كما طلبت التزامات محددة من الفلسطينيين؛ فقد كانت الحكومة التونسية حساسة جدا من وجود الفلسطينيين على أراضيها وتخشى من مظاهر ذلك الوجود خاصة إذا كان مسلحا، ويظهر أن سوابق هذا الوجود في بعض الأقطار العربية كانت حاضرة في ذهن القيادة السياسية التونسية شديدة الحساسية من التدخل الخارجي في شؤونها الداخلية، لذلك أكدت على ضرورة أن تستقر القوات الفلسطينية المسلحة (تسليحا شخصيا وخفيفا) في منطقة بعيدة نسبيا عن العاصمة وعن العمران بشكل عام (منطقة وادي الليل، شمال غرب العاصمة) في حين تستقر القيادات السياسية في منطقة «حمام الشط»، وهي تبعد عن العاصمة بنحو ٢٢ كلم، على أن تتولى الدولة التونسية حماية الفلسطينيين الذين التزموا بدورهم بأن لا يكون لهم أي نشاط عدا النشاطات الاجتماعية والإنسانية مثل: إعالة أسر الشهداء، مركز التخطيط، ومركز التراث الفلسطيني، ولم تخرج المنظمة من تونس إلا بعد إعلان الدولة الفلسطينية.

كذلك كان للاجئين الفلسطينيين وجود قوي في مصر، حيث نالوا فيها حقوقا سياسية واجتماعية واقتصادية كبيرة، حتى عام ١٩٧٨، حيث قام لاجئ فلسطيني بمحاولة اغتيال الكاتب المصري الراحل يوسف السباعي، عندئذ قام الرئيس السادات بإيقاف الكثير من الحقوق التي كانوا قد حصلوا عليها عبر سنوات وجودهم في مصر حتى ذلك التاريخ. وازداد الأمر الآن سوءا بعد موقف حماس من ثورة ٢٥ يناير (كانون الثاني) ٢٠١١، حيث فر بعض المساجين من حماس في سجون مصرية عقب فتح السجون، ووصولهم إلى بيروت وغزة عبر الأنفاق، مما أشار بإصبع الاتهام إلى دور حماس في فتح السجون المصرية، كذلك موقف حماس السلبي من ثورة ٣٠ يونيو (حزيران) ٢٠١٣، ودعمها للإخوان المسلمين مثل حلقة جديدة في التمييز ضد اللاجئين الفلسطينيين، حيث ترفض مصر إقامة مخيمات للاجئين على أراضيها. كذلك لم يتعرض الكتاب بشيء من التفصيل عن وضع اللاجئين الفلسطينيين في دول الخليج، رغم الوجود الكبير لهم في هذه الدول، بل وتجنسهم بالجنسية في بعض الدول التي تواجدوا فيها.





منبوذون..
قصص حقيقية للنجاة من أزمة اللاجئين إلى أوروبا



في كتابها «منبوذون.. قصص حقيقية للنجاة من أزمة اللاجئين إلى أوروبا»، تُشرّح الصحفية المخضرمة «شارلوت مكدونالد»، أزمة ومعاناة اللاجئين السوريين الذين فروا من الحرب الدائرة في بلدهم منذ ما يزيد عن خمس سنوات، نحو أوروبا، لتروي الكاتبة بوجع وحس إنساني، قصصا مؤلمة لسوريين لم تكن خياراتهم في اللجوء سهلة أبداً، بدءاً من قرارهم اللجوء مروراً برحلة لا تخلو من مخاطر، وليس انتهاء بصعوبة انخراطهم في المجتمع الجديد.

توثق شارلوت في كتابها، الصادر في أيلول (سبتمبر) ٢٠١٦ عن «نيو برس، وول ستريت، نيويورك»، للأزمة السورية من خلال خمسة من اللاجئين الذين واصلوا القدوم إلى سواحل أوروبا منذ عام ٢٠١١ وحتى نهاية ٢٠١٥.

تستهل المؤلفة كتابها، الواقع في ٢٥٦ صفحة، بمقطعين متناقضين؛ الأول يتمثل في الواقع «الافتراضي» الذي تمثله الفقرة الثانية من اتفاقية الاتحاد الأوروبي، التي يقرر ويؤكد فيها على أن الاتحاد تأسس على قيم احترام الكرامة الإنسانية، والحرية، والديمقراطية، والمساواة، وحكم القانون، واحترام حقوق الإنسان، بما فيها حقوق المنتمين إلى الأقليات. وهذه القيم الشائعة في الدول الأعضاء في مجتمع تسود فيه التعددية، وعدم التمييز والتسامح والعدالة والتضامن والمساواة بين الرجل والمرأة.

أما الثاني، فيتجلى في الواقع «الحقيقي» على الأرض، والذي تفضحه كلمات لاجئة سورية تفيض

ألمـاً، وهـي تقـول في ثنايـا الكتـاب: «كل هـذا القتـل وكل هـذه الدمـاء؟! لا أصـدق أن هنـاك حربا كالحـرب في سـوريا؟ النـاس لا يمكنهـم البقـاء هنـاك في هـذه الحـرب، يحاولـون القـدوم إلى أوروبـا، ولكـن انظـر إلى مـا تفعلـه أوروبـا. تتركهـم للمهربـين يتقاضـون منهـم مـا بـين خمسـة أو سـتة أو عـشرة آلاف يـورو، فقـط ليخوضـوا البحـر وتذهـب أرواحهـم، ثـم إذا وصلـوا لغايتهـم يرحبـون بهـم، لماذا؟ لـم لا تحاولـون جلـب أولئـك النـاس إلى هنـا بأمـان؟ إذا وصلـت عندهـم يقولـون «مرحبـا»، وإذا مـت في البحـر يقولـون «حسـنا لا يهـم».. لمـاذا؟!

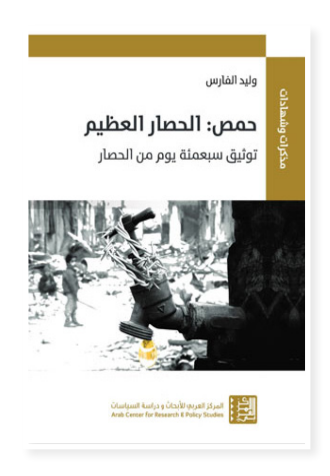
وتبـين الصحفيـة، الـتي أمضـت سـنوات عديـدة مراسـلة لوكالـة «فرانـس بريـس» في أفغانسـتان وباكسـتان وجنـوب شرق آسـيا، أن كتابهـا سرد لمأسـاة اللاجئـين الفاريـن إلى القـارة العجـوز، مـن خـلال سـوريين مـروا بالتجربـة وعاشـوا ليرووا تلـك الملحمـة، وبهـذا الصـدد تقـول المؤلفـة: «هـذا الكتـاب هـو قصـة ماجـد ونـارت ومحمـد وسـينا وحنـان وعائلتهـا، هـم المصـدر الرئيـسي للمقابـلات المكثفـة والصـور ولقطـات الفيديـو للرحـلات، إلى جانـب مـا قدمتـه منظمـات حقـوق الإنسـان ووسـائل الإعـلام».

وعـبر مقدمـة واثنـين وعشريـن فصـلا وخاتمـة، تـروي الكاتبـة قصصـا كثـيرة منها قصـة «سـينا» و»داني»، اللـذان يحـاولان يائسـين إنقـاذ طفلهمـا الـذي لـم يولـد بعـد مـن حيـاة الخدمـة العسـكرية في إريتريـا. و»ماجـد حسـين» الشـاب النيجـيري المتميـز الـذي فـر مـن العنـف الطائفـي. «نـارت باجـوي» المحامـي السـوري المثـالي الـذي خاطـر بحياتـه محـاولا الإطاحـة بنظـام الأسـد. «محمـد كازكجـي» المراهـق السـوري الـذي يطمـح فقـط في الدراسـة بجـد ليسـعد والديـه. «حنـان الحسـن» الـتي شـاهدت مرعوبـة الحيـاة المسـتقرة الـتي شـيدتها لأطفالهـا في دمشـق وهـي تنهـار!

وتتحـدث شـارلوت عـن منعطفـات وأحـداث إرهابيـة تعرضـت لهـا فرنسـا، مـن قبـل متطرفـين مـن تنظيـم «داعـش»، ومـا شـهدته ألمانيـا، مـن تعـرض مطـار بروكسـل لتفجـير راح ضحيتـه العـشرات، الأمـر الـذي انعكـس عـلى شـعور اللاجئـين والمهاجريـن بالخـوف، حيـث تقـول المؤلفـة: «مـرة أخـرى يصبـح اللاجئـون السـوريون الذيـن فـروا مـن العنـف في بلادهـم ضحيـة لنفـس النـوع مـن العنـف، ولكـن عـلى أيـدي المتعصبـين في باريـس، حـين أصبحـوا هدفـا للغضـب والشـك».

وتنـوه الكاتبـة إلى أنـه كان «مـن المفـترض أن تكـون أوروبـا مكانا آمنـا بعيـدا عـن الحـرب ولكـن فجأة بـدا كل شيء مختلفـا ومخيفـا، وكمـا يحـدث دائمـا عندمـا يُسـاء التعامـل مـع الخـوف ويتـم اسـتغلاله، تحـول الخـوف إلى كراهيـة وعـدم ثقـة»، ومـا صـورة جثـة الطفـل الكـردي «إيـلان» البالـغ مـن العمـر ثـلاث سـنوات عـلى الشـاطئ الـتركي، الـتي أصبحـت نسـيا منسـيا، إلا دليـل عـلى تجاهـل وتغييـب البعـد الإنسـاني المتـواري خلـف الأزمـة السـورية.

حمص الحصار العظيم، توثيق سبعمئة يوم من الحصار



لم يكـن أحـد يتوقـع أن يفـرز العصـر الحديث أزمـة إنسـانية وأخلاقيـة كالـتي أفرزتهـا الأزمـة السـورية والحـرب الدائـرة فيهـا منذ أكـثر مـن خمسـة أعـوام؛ لينـبري الكتّـاب للتصـدي لهـذه المأسـاة عـبر توثيـق صورهـا وأحداثهـا عـلى اختلافهـا.

ومـن بـين الكتـب الـتي تتحـدث عـن معانـاة السـوريين في الداخـل كتـاب «حمـص الحصـار العظيـم، توثيـق سـبعمئة يـوم مـن الحصـار» لمؤلفـه وليـد الفـارس، الـذي عايـش الحصـار يومـا بيـوم، حيـث يوثـق الكاتـب الحـوادث الـتي جـرت في مدينـة حمـص السـورية منـذ انـدلاع الثـورة عـام ٢٠١١، ومـا تعرضـت لـه عـلى مـدار عامـين كاملـين، حيـث «القصـف اليومي بشـتى أنـواع الأسـلحة»، وتجويـع أهـل المدينـة العريقة إذ «أكل فيـه المحـاصرون أوراق الشـجر حـتى مـا عـادوا يجدونـه، وذبحـوا القطـط والسـلاحف والضفـادع»!

الكتـاب الـذي يقـع في ٢١٦ صفحـة مـن الحجـم الكبـير، والصـادر عـن المركـز العـربي للأبحـاث ودراسـة

السياسات (٢٠١٥)، يشتمل على ثمانية فصول؛ الفصل الأول يعرف بالتركيبة السكانية والدينية والعرقية لمدينة حمص، وتوزّعها بين المدينة والريف، وكيفية بدء الثورة فيها وكيف جرت عسكرتها، ثم يسلط الضوء على المجازر التي أشعلت حمص خصوصًا وسورية عمومًا، كمجزرة الحولة وكرم الزيتون والعدوية، وحوادث ساحة الحرية التي كانت حادثًا مفصليًا.

في الفصل الثاني، ينتقل المؤلف إلى الحديث عن الحصار، قصّته «كيف بدأ واستمر»، والعيش فيه في ظل أوضاع قلّما مرّ بها إنسان على وجه الأرض. كما تناول عمليات الإمداد في ظل الحصار، وكيف جرت؛ حيث يعتمد الكتاب على حصيلة مئات الصفحات التي كان المؤلف قد دوّنها بصفته شاهدًا عاش الحصار بكل تفاصيله، وسجل فيها وقائع الاجتماعات والرسائل والمذكرات والمقابلات والشهادات..

ويتطرّق الكاتب في الفصل الثالث إلى مؤسسات الحصار، والكتائب العسكرية البارزة وتكوينها واختلاف مناهجها ومرجعياتها، والمحاولات التي بُذلت لتوحيد الجهد في الحصار، ومآلاتها.

ويعرج المؤلف في الفصل الرابع على أبرز معارك حمص، وأهم المحاولات العسكرية لفك الحصار، وفي الفصل الخامس يعرف القارئ بالحرب التي دارت من دون قتال بين الثوار والنظام، وهي حرب الاستخبارات والمعلومات التي حاول النظام من خلالها زرع مخبرين وتشتيت الشمل وتفريق الصف.

في حين يطالعنا الكاتب في الفصل السادس بتفاصيل وافية عن العنصر البشري الذي عاش في المنطقة المحاصرة، والكفاءات التي كانت تحتاج إليها المنطقة المحاصرة للعمل والاستمرار والإدارة، وعن الفجوة الكبيرة التي كانت قائمة بين الحاجات والمتوافر. أما الفصل السابع، فيعالج علاقة المنطقة المحاصرة بالخارج من داعمين ومؤسسات سياسية وعسكرية وإعلامية وبعثات ولجان دولية، وكيفية تعامل المنطقة المحاصرة معها.

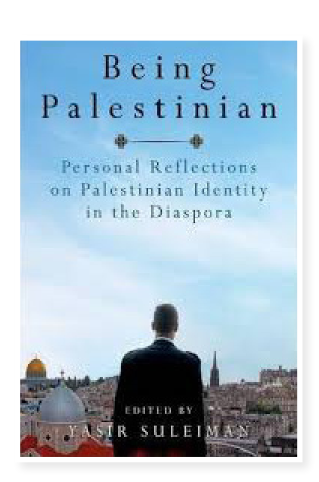
ويختتم الكتاب بالفصل الثامن وفيه يتحدث عن المفاوضات التي تمخّض عنها خروج الثوار من المنطقة المحاصرة، معلنين نهاية الحصار بعد نحو سبعمئة يوم.

المؤلف يرصد في كتابه بدأ الحصار في حزيران (يونيو) ٢٠١٢، مع حصار أحياء حمص القديمة وأحياء (الخالدية والبياضة وجب الجندلي والقصور والقرابيص) بالحواجز العسكرية والجدر العازلة ومنع الطعام، مشيراً أن الحصار شمل أيضا قطع خدمات الكهرباء ومياه الشرب وخدمات الهاتف الأرضي وأعمال التنظيف والصيانة، الأمر الذي دفع الناشطين والسكان إلى البدء في حملات تنظيف وتشغيل مولدات كهربائية ضخمة، وتركيب أجهزة اتصالات فضائية واستخدام مياه الآبار للشرب.

ويظهر الكاتب جانبا آخر، حيث يوثق في الكتاب تعايش أهالي حمص المحاصرين مع الأزمة، حيث «نشأت عدة مؤسسات محلية لإدارة الحياة وتقديم الخدمات للأهالي، مثل إنشاء ديوان للقضاء والمحاكم والأحوال المدنية، وتم تسجيل ١٥٠ حالة زواج و٢٥٠ حالة ولادة. وحاول الأهالي إقامة حلقات تعليمية للأطفال بعد تدمير المدارس، إلا أن المشروع فشل بعد موت عدد من الأطفال في أثناء ذهابهم إلى تلك الحلقات نتيجة القصف أو القنص».

ويخلص الكاتب إلى أن الدفعة الأخيرة من المقاتلين غادرت منطقة حمص المحاصرة بأسلحتهم الفردية وذخائرهم، تنفيذا لاتفاق جنيف ٢، ضمن مبادرة لتأهيل المدينة وإعادة الحياة الطبيعية وعودة المدنيين إليها، لينتهي الحصار بعد أكثر من ٧٠٠ يوم من بدايته، ومعه ينتهي فصل من فصول معاناة السوريين التي ما تزال حاضرة حتى اليوم، وهي على مشارف دخول عامها السادس وسط ملايين النازحين واللاجئين والضحايا.

أن تكون فلسطينيا: تأملات شخصية حول الهوية الفلسطينية



احتل موضوع المنفى والشتات حيزا كبيرا في الأعمال الأدبية والتاريخية المختلفة التي تناولت القضية الفلسطينية، ركز جلها على توثيق احتلال الصهاينة لفلسطين، إلى جانب سرد المآسي والويلات التي تعرض لها الفلسطينيون وما يزالون، لتعكس الكتابة عمق الوجع والكارثة الإنسانية وتشويه التاريخ.

وما تزال القضية الفلسطينية التي تشكل قضية وجود للشعب الفلسطيني، ملهمة للكتابة بأبعادها وصورها المختلفة، ومن بين المؤلفات الحديثة التي تتناول قضية الشتات الفلسطيني كتاب الدكتور ياسر سليمان، مدير معهد الدوحة للدراسات العليا بالوكالة، وأستاذ الدراسات العربية المعاصرة في جامعة كامبردج، «أن تكون فلسطينيا: تأملات شخصية حول الهوية الفلسطينية في الشتات أو المنفى».

الكتاب الصادر باللغة الإنجليزية بعنوان «Being Palestinian»، تعود فكرته، إلى عام ٢٠٠٦، عندما قبل الكاتب بوظيفة في جامعة كامبردج البريطانية، وعمل ستة أعوام في جامعة أدنبرة الأسكتلندية، حيث أحس في الجامعة الجديدة بحالة من الغربة.

ويصحب د. سليمان القارئ في مؤلفه إلى عوالم المنفى والشتات الفلسطيني بأسلوب شيق بعيد عن الملل والتكرار، من خلال تأملات من جانب فلسطينيي الشتات ومن تجاربهم الشخصية وقصصهم وأحاسيسهم.

ويستعرض الكتاب، بحسب المؤلف، تأملات أكثر من مئة فلسطيني يعيشون منفى متعددا جغرافياً، ويتحدثون عن انطباعاتهم عن أنفسهم وهويتهم، في طرح غير عادي بعيداً عن التحليل والسياسة، وبعيداً عن البطولة والبكائية.

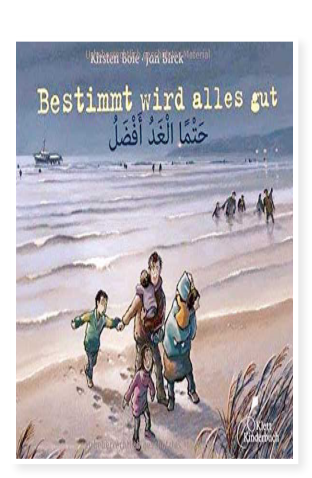
ويوضح المؤلف أن العمل يربط الجيل الثاني والثالث بأرض وقضية فلسطين لا يقل عن ارتباط الجيل الأول بها، منوهاً إلى أن هؤلاء يطرحون قضيتهم العادلة بصورة جديدة ترتبط بالماضي، ولا تنفصل عن المسؤولية الملقاة على عاتق كل فلسطيني يعيش في الشتات، والذي يصبح إنساناً بامتياز يدافع عن قضايا التحرر والاستبداد في كل مكان، انطلاقاً من كونها قضايا فلسطينية.

الكتاب الذي نشر في بريطانيا واحتلت مبيعاته المرتبة السادسة عالمياً على موقع «أمازون» الأشهر في بيع وتوزيع الكتب في العالم، ينطلق الدكتور سليمان فيه من تجربته الشخصية في البحث على مدى أكثر من ربع قرن في فضاءات المنفى عن معنى فلسطينيته وهويته، منذ أن غادر مدينته القدس، وحديثه عن الشعور بعدم الاستقرار الذي يغمره، ويعرض تجارب شخصية لعشرات الفلسطينيين المغتربين، في طرح يعكس تنوّعاً في الأصوات من حيث تأملها للتجربة الفلسطينية.

ويطرح الكاتب في مؤلفه تساؤلات عديدة يعاين فيها الإجابات بطرق مختلفة، وتبرز في الكتاب مفردات تبحث في سيكولوجيا الشتات منها، «مقيم في المكانين، وليس مواطناً في أيهما»، «خسارة أمام الجغرافيا»، «انتماء»، «إلى أين الآن».

ويشدد الكاتب أن التنقل المكاني المؤقت الذي عاشه ويعيشه الفلسطينيون حتى اللحظة، جعلتهم أناسا متأقلمين ينقلون فكرة وطنهم أينما حلوا ما يخفف من الإحساس بالغربة.

حتما الغد أفضل



في الوقت الذي يعاني فيه اللاجئون من الكبار تبعات مغادرة الوطن واللجوء لبقعة بعيدة فروا لها هربا من الموت، تتضاعف معاناة الأطفال الصغار في المجتمعات الجديدة وسط مستقبل يلفه الغموض، وتعترضه أزمات نفسية وهوياتية وتحديات لغوية وثقافية، كثيرة يتعرضون لها.

ورغبة منها تعريف المجتمع الألماني، الذي استقبل أكثر من مليون لاجئ معظمهم من السوريين والعراقيين، ألفت الكاتبة الشهيرة كريستين بوي، كتابها «حتما الغد أفضل»، بهدف تعريف الأطفال الألمانيين والنشء وبصورة واقعية ومحايدة، بمعاناة الأسر اللاجئة، وضرورة تقبل المحيط الاجتماعي لهم، وذلك عبر سرد حكاية أسرة سورية مكونة من خمسة أفراد ومعاناتها هروباً من ويلات الحرب في مدينة حمص، مروراً بالرحلة الشاقة والخطرة عبر البحر الأبيض المتوسط، وصولاً لتعقيدات استقرارها في مدينة هامبورغ الألمانية.

الكتاب الذي صدر هذا العام (٢٠١٦) باللغتين الألمانية والعربية، عن دار نشر «Oetinger» المعنية بإصدار الكتب المصورة للأطفال والمراهقين، ووضع رسومه جان بيرك، وترجمه إلى اللغة العربية محمود حسنين، تم وضعه ضمن قوائم القراءة في المدارس الألمانية.

وقضت المؤلفة عاماً كاملاً، أثناء تأليفها الكتاب، في التواصل مع عدد من الأسر السورية اللاجئة في ألمانيا، إلى أن استقرت على النموذج المنشود، لأسرة رهف (١٠ أعوام) وحسن (٩أعوام) فعرضت قصتهما بعد تبديل أسمائهما لحماية هوية العائلة.

حاولت كاتبة الأطفال والمراهقين الألمان، أن تخفف في الكتاب من جرعة القسوة والعنف، لتجنب تعريض الأطفال لصور مؤلمة، وحتى لا تنفر القارئ، ومع ذلك حافظت على الواقعية في سردها للأحداث والقصص لتسلط الضوء على معاناة الأسرة اللاجئة، بين تعرض منزلها في حمص للقصف، والاضطرار للهروب بواسطة مركب متهالك الأمر الذي جعل الخوف يسيطر على الصغار، رغم وجود الأبوين اللذين يشكلان مصدر أمان لهم إلا أن الاضطراب لم يفارقهم، خصوصا بعد استيلاء المهربين على متعلقات الأسرة الهاربة ومن بينها عروسة رهف، وما واجه الأسرة من صعوبة التأقلم على الحواجز بسبب حاجز اللغة والثقافة.

الكتاب الذي نشر بالألمانية والعربية، ليقرأه الأطفال المزدادون بألمانيا مع زملائهم في المدرسة من المهجرين، يستعرض ما واجهته الطفلة الصغيرة السورية من صعاب في مدرستها الجديدة، وتعثر الأب في العمل بشهادته العلمية، كل هذه التحديات بتفاصيلها المختلفة شكلت رابطا سلسا بين القارئ الألماني، ورهف وأسرتها، وحقق ذلك التعلق والمتابعة من قبل الجمهور الصغير الذي بات يسأل مؤلفته في كل مناسبة، كما أذاعت في تصريحات صحافية لها، عن عروسة رهف وكيف انتهت أحوال الأسرة السورية؟!

رؤية مشوشة - السوريون عندنا



كيف يعي السوريون والألمان بعضهم البعض؟ وكيف يمكن تحقيق عيش مشترك بسلام بين الطرفين، رغم الفوارق اللغوية والثقافية؟

عن هذه الأسئلة، تحاول الصحفية الألمانية والخبيرة بالشأن السوري، كريستين هيلبيرغ، في كتابها الجديد، «رؤية مشوشة - السوريون عندنا»، الواقع في ٣٠٠ صفحة، الإجابة عنها، داعية إلى مزيد من الشجاعة والموضوعية في تناول قضية اللاجئين.

قبل نحو عام من الآن، استقبل الألمان اللاجئين من سوريا بالترحاب وأظهروا التعاطف معهم؛ فقد كان بانتظار اللاجئين في محطات القطارات الكثير من الطعام والشراب وألعاب الأطفال، غير أنه ومن خلال التغطية الإعلامية لأحداث رأس السنة ٢٠١٦ في مدينة كولونيا، تغير المزاج العام خلال فترة زمنية قصيرة، وبالرغم من أن اللاجئين السوريين لم يكونوا من المشتبه بعلاقتهم بالاعتداءات، إلا أن بعض وسائل الإعلام وبعض المجموعات السياسية استغلت الأحداث، لخلق مزاج عام ضد جميع اللاجئين.

منذ ذلك الوقت بدأ الشك يتزايد لدى الطرفين، وأخذ اليمينيون المتطرفون بمطاردة اللاجئين بشكل منظم، ما حذا ببعض السوريين إلى التفكير في العودة إلى سوريا، بسبب الخوف أو الإحباط، على الرغم من الحرب الدائرة رحاها هناك وما تشكله من خطر على حياتهم.

مما لا شك فيه وبالنظر إلى الوضع الميؤوس من إيجاد حل له في سوريا، فإن القسم الأكبر من النصف مليون سوري، الذين لجؤوا إلى ألمانيا منذ عام ٢٠١١، سيمكثون هنا لعدة سنوات وربما سيستقرون، في ألمانيا، بشكل نهائي، والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: كيف يمكن تنظيم العيش المشترك، حيث يتمكن السوريون قريباً من الوقوف على أقدامهم ويتدبرون أمر معيشتهم بأنفسهم؟

في الوقت الحالي ليست الظروف مواتية لتحقيق هذا الهدف، هذا ما خرجت به الصحفية الألمانية كريستين هيلبيرغ، فمئات الآلاف من اللاجئين السوريين في ألمانيا هم الآن بلا وضع قانوني واضح، وبلا دورات لتعلم اللغة الألمانية، وبلا عمل، وبلا مساعدة للتغلب على الرضوض والصدمات النفسية من آثار معايشاتهم للحرب في بلدهم.

تكمن قوة الكتاب في الاعتبارات الدقيقة للحياة اليومية والنقد المحفِّز الصادِر عن كريستين، وفي الوقت نفسه النظرة البنَّاءة، التي تلقيها كريستين على المجتمع الألماني، حيث تطالب بإصلاح الشروط القانونية لاستقبال اللاجئين وبشكل عاجل، وإحاطة المواطنين الألمان بالمزيد من المعلومات عن تاريخ وسياسة الدولة السورية الحديثة، وكذلك ما يميز تفكير ومشاعر السوريين: بدءاً من الانتماءات اللغوية والثقافية، مروراً بالقيم والأعراف، ووصولاً إلى انتماءاتهم السياسية.

وتخلص كريستين في نهاية هذا الكتاب إلى سبع نقاط واقعية للعيش المشترك بين الجميع، حيث تطالب بالتوقف عن حشر اللاجئين في خرم إبرة قانون اللجوء، والسماح لهم بالقدوم إلى ألمانيا بشكل شرعي وغير بيروقراطي ومنظم من قبل الحكومة الألمانية.

سوكو اللجوء.. يفند الأحكام المسبقة



أصدر رئيس قسم التحقيقات الجنائية في ولاية «سكسونيا» السفلى، أولف كوش، كتاباً حول الجريمة واللاجئين والأحكام المسبقة، وهو ما أثار جدلاً واسعاً في الإعلام الألماني.

وبحسب المؤلف، فإن هذا الكتاب الذي حمل عنوان «سوكو اللجوء»، يعتمد على الإحصاءات الأخيرة للشرطة في مدينة «براونشفايغ» بولاية «سكسونيا» السفلى، وعلى دراسة توصلت فيها إلى عدم صحة الأحكام المسبقة ضد اللاجئين.

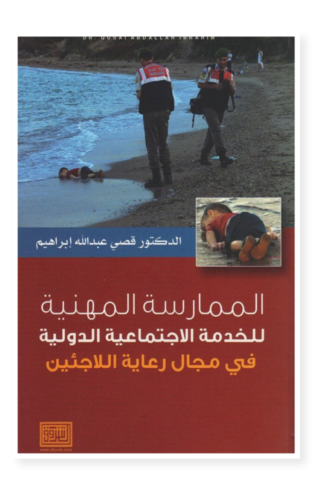
ويبين المؤلف أن «أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة تتلخص في أن اللاجئين الذين قدموا إلى ألمانيا في السنوات الأخيرة، وبالأخص الذين يتواجدون في مراكز إيواء اللاجئين بمدينة براونشانغ ليسوا بمجرمين، يوجد بينهم بعض المجرمين، ونحن قمنا بالتصدي لهذا الأمر، لكنني أستطيع بشكل واضح نفي الروايات التي تربط بين اللاجئين وارتفاع معدلات الجريمة في ألمانيا».

ويضيف أنه «إن كانت هناك أنواع معينة من الجرائم نستطيع أن ننسبها إلى مجموعات إثنية معينة، فهنا يجب الحذر، لأنه لا توجد شعوب مجرمة، وإنما يوجد مجرمون بين كل شعب، وبالتالي فمن يقترفون جرائم معينة لا يجب تعميم أفعالهم على شعب بأكمله. هناك جرائم تقليدية أدخلت إلى ألمانيا وتظهر في مناطق معينة، على سبيل المثال السرقة بأساليب خداع جديدة ومبتكرة».

ويوضح «كوش» أن «نسبة ارتكاب الجرائم بين اللاجئين ليست أعلى من نسبتها بين المواطنين الألمان، لكن تم تسليط الضوء على اللاجئين نظراً لتواجدهم ضمن مجموعات».، ويشير إلى أن «أحداث كولونيا لم يكن في استطاعة الشرطة منعها أو تجنب حدوثها لأنها لم تكن متوقعة، فما حدث في تلك الليلة كان ظاهرة جديدة على ألمانيا. يمكن بطبيعة الحال أخذ المزيد من الحيطة والحذر في المستقبل».

يعتمد أولف كوش (٥٨ عاماً) في كتابه «سوكو اللجوء»، على دراسة نشرت في ٢٨ يناير/كانون الثاني ٢٠١٦ بمدينة «براونشفايغ»، التي يبلغ عدد سكانها حوالي ٢٦٠ ألف نسمة، جاء فيها أن مما مجموعه ٤٠ ألف لاجئ وصلوا إلى المدينة خلال سنة، بلغ عدد الذين خلقوا مشاكل ١٥٠ إلى ٢٠٠ لاجئ. ويؤكد رئيس التحقيقات الجنائية أن عائدات الكتاب ستسخر لدعم أطفال الأسر المحرومة وأطفال اللاجئين.

الممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية الدولية في مجال رعاية اللاجئين



يرى الكاتب د. قصي عبدالله إبراهيم في كتابه «الممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية الدولية في مجال رعاية اللاجئين»، الصادر عن «دار الشروق للنشر والتوزيع» بالأردن- رام الله (٢٠١٦)، أن قضية اللاجئين الفلسطينيين تعد من أفجع المآسي في تاريخ البشرية وأوضحها انتهاكا لحقوق الإنسان وأعمقها جرحا في الضمير الإنساني؛ إذ لم يشهد التاريخ الحديث عملية استبدال كاملة للسكان الأصليين وأصحاب الأرض الشرعيين بأجناس دخلاء من مختلف أقطار العالم، كما جرى في فلسطين منذ بداية القرن العشرين، بفعل الاستعمار البريطاني الصهيوني.

ويوضح المؤلف، في كتابه، أن المعادلة الديمغرافية انقلبت رأسا على عقب بشكل أحال «الأقلية اليهودية إلى أكثرية ساحقة»، فضلاً عن إفراز ظاهرة فريدة من نوعها من حيث التصنيفات السكانية، ألا وهي ظاهرة اللاجئين الفلسطينيين.

وينوه المؤلف إلى أنه من أهم القضايا والمشكلات التي شغلت الرأي العام العالمي والعربي منذ بدء الصراع العربي - الإسرائيلي حتى الآن ما عرف بـ «قضية اللاجئين الفلسطينيين»، حيث تعد هذه القضية النتيجة الرئيسة للوجود الإسرائيلي الصهيوني في فلسطين، لا شك أن قضية اللاجئين الفلسطينيين كانت وما تزال ذات صلة مباشرة بجوهر الصراع العربي- الإسرائيلي، لارتباطها بموضوع الأرض والسيادة والحقوق والتوازن والتوزيع السكاني، وما يتصل بالقضية الفلسطينية ذاتها من تضارب في المعتقدات والدعاوى.

ويؤكد الكاتب أن الهجرة واللجوء قضية عالمية تؤثر على الجميع، والتي ستستمر في المستقبل؛ فالخدمة الاجتماعية والهجرة تثير العديد من القضايا حول كيفية العمل مع الأفراد والأسر والجماعات والثقافات المختلفة، ويتميز اللاجئون وطالبو اللجوء عن غيرهم من المهاجرين في أنهم يغادرون وطنهم خوفا من الاضطهاد في بلادهم، وبالتالي هم مؤهلون للحصول على مجموعة واسعة من فوائد الخدمة الاجتماعية، بما في ذلك إعادة التوطين.

ويتطرق الكتاب لمفهوم العولمة والخدمة الاجتماعية الدولية، وتعليم وممارسة الخدمة الاجتماعية الدولية، ومتطلبات نجاح تعليم وممارسة الخدمة الاجتماعية الدولية، والمناهج الدراسية في تعليم وممارسة الخدمة الاجتماعية الدولية، ويعرض لواقع مهنة الخدمة الاجتماعية في فلسطين، والمنظمات الدولية العاملة في مجال الخدمة الاجتماعية الدولية والتحديات التي تواجه تعليم وممارسة الخدمة الاجتماعية الدولية.

كما يتناول الممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية الدولية (رعاية اللاجئين نموذجاً)، ومفهوم الممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية الدولية في مجال رعاية اللاجئين، وأهداف الممارسة ومبرراتها، وأنساق الممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية الدولية في مجال رعاية اللاجئين.

ويناقش الكتاب أهم المفاهيم الخاصة في تعليم وممارسة الخدمة الاجتماعية الدولية، والموجهات النظرية، وتحديد أبرز الدراسات العلمية الحديثة في تعليم وممارسة الخدمة الاجتماعية الدولية.

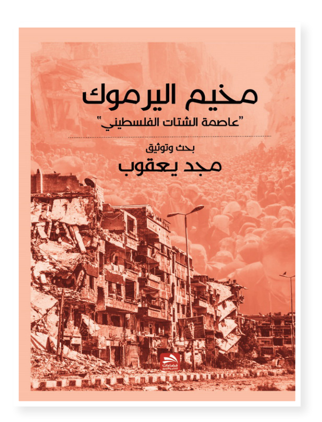
ويبين المؤلف أن قضية الهجرة والاغتراب من أهم القضايا على الأجندة الدولية الحالية، المعنية بالتحركات البشرية الدولية عبر الحدود السياسية لتصاعد حدتها وتزودها وتزايد آثارها على المهاجرين ومواطنهم والبلدان التي يأوون إليها، وذلك لما يكتنف تحديدها وتحليل تياراتها واتجاهاتها من صعوبات تنجم عن تعقد تعدد

أنماطها وخصائصها، مع نقص البيانات وعدم دقتها في حالات عديد، بالرغم من عملية نزوح السكان وهجرهم موائلهم ظاهرة مستمرة عبر فترات التاريخ.

ويستعرض الكتاب أهمية دور الخدمة الاجتماعية التي تعمل على بيئة عالمية متزايدة، ويتجلى هذا أكثر وضوحا في العمل مع المهاجرين واللاجئين وطالبي اللجوء، حيث يقول المؤلف: «يرتبط الأدب المزدهر حول العولمة والخدمة الاجتماعية الدولية بشكل صريح بممارسة الخدمة الاجتماعية مع التوطين، وقضايا الاندماج والمواطنة والمشاركة في المجتمع المدني».

ويحتوي الكتاب على ثلاثة فصول، حيث يتناول الفصل الأول الدراسات الأدبية- الموجهات النظرية- المفاهيم العلمية، بينما يتحدث الفصل الثاني عن: وكالة الأونروا كإحدى منظمات الأمم المتحدة لرعاية اللاجئين، في حين يستعرض الفصل الثالث الممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية الدولية في مجال رعاية اللاجئين.

مخيم اليرموك - عاصمة الشتات الفلسطيني



منذ نشوئه، على أطراف العاصمة السوريّة دمشق، منتصف خمسينيات القرن العشرين، شكّل مخيّم اليرموك، بهويّته الفلسطينيّة، مَعلَما بارزًا من معالم هذه الهوية، وواحدا من ملامحها الأساسية في الشتات، حتّى استحقّ، بجدارة، اسم المخيّم الملقّب بـ«عاصمة الشتات الفلسطينيّ».

في كتابها «مخيم اليرموك - عاصمة الشتات الفلسطيني»، تذهب الكاتبة الفلسطينية مجد يعقوب، بنت المخيّم ولادة ونشأة، إلى جذور النكبة الفلسطينية التي قادت «اللاجئين» إلى هذا المخيّم، إذ تبدأ من عنوان «شعب متجذر في أرضه»، لتروي تفاصيل من تاريخ الفلسطينيين وتاريخ اليهود، ومصير فلسطين وتهجير شعبها. وفي عنوان «إخراج الشعب الفلسطيني من أرضه وتهجيره»، تتناول الكاتبة حكايات الصهيونية وأساطيرها، وتمنح مساحة لقصة «الخروج الآخر»، كما يسميها الصحافي الأيرلندي «إرسكين شلدرز»، يعني قصة تهجير الفلسطينيين من وطنهم، والأساليب الإرهابية المستخدمة لإحداث هذا التهجير، من براميل عصابة أرغون وغيرها، إلى الحديث عن مخيمات الداخل، وقرارات حق العودة، وصولا إلى «مراحل إقامة المخيّم.

تعرض الباحثة مجد يعقوب في كتابها تسلسلياً مرحلة مهمة من حياة الشعب الفلسطيني، مرحلة اللجوء، والتي كان لمخيم اليرموك الجزء الأوفر من الأعداد المتوافدة من فلسطين له، بنسبة فاقت المخيمات الأخرى مما جعله عاصمة للشتات. كما

تقدم الكاتبة أهم الأحداث التاريخية التي أدت للجوء، وأهمها هجمات عصابات الاحتلال وحرقها لقرى كاملة بالمتفجرات وإبادة أهلها، ثم تتحدث عن التهجير الذي جاء على مرحلتين في عاميّ النكبة والنكسة وأوضاع مخيم اليرموك تحديداً وعن القرارات المدنية المسموح بها للفلسطيني في سوريا.

ما يميز الكتاب، هو استعراض بعض حكايات شهود المجازر واللجوء من أجل التوثيق والتأريخ والتحقيق المبني على وقائع، والتي تؤكد أن التاريخ لا يُبنى على نظريات المحللين السياسيين وأساتذة التاريخ، وإنما على ذاكرة من لامس هذا الوجع ويحمل بداخله إيماناً بحق العودة لكامل التراب الفلسطيني، فطالما هناك مخيم هناك جزء من الأحجية يجب وضعه في مكانه الصحيح بعودة من هُجروا لاكتمال الهوية الوجودية على الواقع، كذلك وثقت الكاتبة شهادات ورسائل الكتاب والنشطاء في العمل الإغاثي والفنانين والشعراء.

يشتمل الكتاب على شهادات عدد ممّن عاشوا في المخيم، أو تعرّفوا عليه عن كثب، فضلا عمّن ولدوا فيه. ولعلّ الشهادة الأعمق، على المستويين النظريّ والعمليّ، هي شهادة أحمد برقاوي، هذا إضافة إلى شهادات من سعيد البرغوثي، والأختين نادية وماري عيلبوني، وغيرهم.

وتختم المؤلفة فصل الشهادات بشهادة عن «حضورها» هي في المخيّم، منذ ولادتها فيه، ونشاطها في فرق الغناء، وفي فريق كرة اليد في نادي غسان كنفاني، حتّى انتقالها للعمل والعيش في دولة الإمارات بسبب سوء الظروف الماديّة/ المعيشيّة لها ولأبنائها في المخيّم. وصولا إلى زيارتها الأخيرة للمخيّم (٢٠٠٨) التي اعتبرتها «وداعية»، وقد شاهدت فيها التحولات الصادمة، حيث «صديقات التمرد في جلابيب وانكسار، القرآن والأناشيد الدينية حضور مبالغ فيه، اللحى والسبحات والدشاديش، حماس والجهاد الإسلامي مع الشباب والدولارات والبطالة ومساعدة العائلات المحتاجة..»، والعودة إلى الشارقة «وأنا أقرأ السلام على مخيم اليرموك».

وإلى جانب شهادات أبناء المخيّم، يتضمن الكتاب شهادات أصدقاء المخيّم، كشهادة الشاعرة الإماراتية ظبية خميس، وشهادة الكاتب البحريني حسن مدن، والجزائري محمد حسين طلبي.



ترقبوا

في العدد القادم

«المنظمات العربية الإسلامية وسؤال التضامن الإنساني»

